مفاتيح الثيوصوفيا

هيلينا بتروفنا بلافاتسكي

1831 1891



H. P. BLAVATSKY

مفتاح الثيوصوفيا

هيلينا بتروفنا بلافاتسكي (1831-1891) سليلة أسرة روسية شريفة. تمتعت منذ الصغر بقدرات استثنائية باهرة، من سرعة تعلُّم للغات وموهبة موسيقية لا يستهان بها إلى حساسية نفسانية فائقة. اتصلت بالأخوية البيضاء الكبرى المشرفة، على حد ما قالت، على التطور الروحي للجنس البشري، وقامت برحلات بعيدة في العالم مفتشة عن المعرفة، حتى بلغت معتزَل معلِّمها وأفراد آخرين من الأخوية الكبرى في الهملايا حيث سوُرِّرَت بمعرفة غزيرة وصارت مقدَّمة الأخوية المتفانية في نقل جانب من تلك المعرفة حتى وافاها الأجل، سواء عبر مؤلفاتها المكتوبة، مثل *إيزيس سافر* و*العقيدة السرية* و*مفتاح الثيوصوفيا* و*صوت الصمت* ومئات المقالات، أو عبر التعليم الشفهي للمريدين الذين تحلقوا من حولها.

*** *** ***

الإهداء

من

"هـ. ب. ب."

إلى

جميع تلامذتها

كي

يتعلموا ويعلموا بدورهم

تصدير

إن القصد من هذا الكتاب بيِّن تمام البيان في عنـوانه – "مفتـاح الثيوصـوفيا" –، ولا يحتاج إلا إلى بضع كلمات توضيحية. فهو ليـس مرجعـاً وافيـاً مسـتوفياً فـي الثيوصوفيا، إنما مجرد مفتاح لفتح الباب المؤدي إلى دراسة أعمق. إنـه يرسـم الخطوط العريضة لدين الحكمة، ويشرح مبادئه الأساسـية، ويـردُّ فـي آن واحـد على شتى الاعتراضات التي يثيرها الباحث الغربي العـادي، سـاعياً إلـى عـرض مفاهيم غير مأنوسة في أبسط شـكل وأوضـح لغـة ممكنيـن. أمـا أن يفلـح فـي جعل الثيوصوفيا في متناول فهم القارئ بدون أن يبذل هذا مـن جـانبه مجهـوداً عقلياً، فهذا أبعد من أن نتطلَّـع إليـه؛ غيـر أننـا نرجـو أن يكـون مـردَّ الاسـتغلاق الماثل إلى الفكر لا إلى اللغة، وإلى العمق لا إلى البلبلـة. أمـا خامـل الـذهن أو بليده، فلسوف تظل الثيوصوفيا بالنسبة إليه أحجية؛ ذلـك أن علـى كـل امـرئ، في عالم العقل كما فـي عـالم الـروح، أن يتقـدم بجهـوده الخاصـة. فلا الكاتبـة تستطيع أن تفكر عن القارئ، ولا القارئ يستطيع أن يصبح أصـلح حـالاً إن كـان مثل هـذا التفكيـر بالنيابـة ممكنـاً. لقـد شـعر المهتمـون بالجمعيـة الثيوصـوفية وبعملها طويلاً بالحاجة إلى مثل هذا الكتاب، لذا نرجو أن يجد فيه العديـد ممَّـن استيقظ انتباههم، لكنهم لبثوا إلى الآن حيارى وحسب، لا مقتنعين، رصـيداً مـن المعلومات مجرداً من النقاط الفنية قدر المسـتطاع. لقـد أولينـا بعـض العنايـة فرزَ ما هو حق مما هو باطل فيما يتعلـق مـن التعـاليم الأرواحيـة بحيـاة مـا بعـد الموت، وبيانَ حقيقة الظاهرات الأرواحية. ولقد كانت تعليلات مـن النـوع عينـه مجلبة للكثير من السخط على شخص الكاتبـة المتفـاني. فـالأرواحيون، مثلهـم كمثل الكثيرين سواهم، يفضِّلون تصديق ما هو ظريف على تصديق ما هو حــق، ويصبون جام غضبهم على كل مَن يقوِّض أضلولة سائغة. لقد ظلت الثيوصــوفيا طوال العام المنصرم مرمى لكل سهم من سهام الأرواحيـة المسـمومة، وكـأن أصحاب أنصاف الحقائق يناصبون أصحاب الحقيقة كلها عداء أشد من عداء من لا قسط لهم من الحقيقة يباهون به.

تتوجَّه الكاتبة بالشكر من القلب إلى الثيوصوفيين الكثر الذين بعثوا إليها باقتراحات وأسئلة، أو، على غير ذلك، أسهموا بمساعدتهم في أثناء وضع هذا الكتاب. فالمؤلِّف سوف يكون أعمَّ فائدة بفضل عونهم، ولسوف يكون لهم ذلك خير ثواب.

هـ. ب. ب.

تصدير الطبعة الثانية

ابتغاء مزيد من تيسير دراسة الثيوصوفيا – الأمر الذي سبق لـ"المفتاح" أن حقَّقه – قمت بإضافة "معجم" غزير بكل المصطلحات الفنية الواردة فيه. هذا وإن معظم التعريفات والشروح إنما هي منقولات أو مختصرات مستقاة من "معجم ثيوصوفي"[1] أوسع سوف يُنشر قريباً مع المقالة في "الرموزية القديمة"[2] . نرجو أن يلبي هذان "المعجمان" حاجة طال الشعور بها وأن يغطي أوسعهما جملة الاصطلاحات الغيبية كأتم ما تتيسر التغطية.

هـ. ب. ب.

المقر الثيوصوفي العام

19، جادة آفنيو

لندن، 1890

***

1 - نُشر "المعجم الثيوصوفي" بعد وفاة المؤلفة (م):

H. P. Blavatsky, *The Theosophical Glossary*, London: The Theosophical Publishing Society, 1892.

2 - على حد علمنا لم تُنشر هذه المقالة قط. (م)

الباب الأول

الثيوصوفيا

والجمعية الثيوصوفية

معنى الاسم

السائل: كثيراً ما يشار إلى الثيوصوفيا وإلى عقائدها باعتبارها ديانة مبتدعة حديثاً. فهل هي ديانة؟

الثيوصوفي: إنها ليست كـذلك. فالثيوصـوفيا هـي المعرفـة الإلهيـة أو العلـم الإلهي.

السائل: فما المعنى الحقيقي للمصطلح؟

الثيوصـوفي: إنـه يعنـي "الحكمـة الإلهيـة"، φοσοεΘία (ثيوسـوفيا) أو حكمـة الآلهة، مثلما تعني νογοεΘία (ثيوغونيـا) علـم أنسـاب الآلهـة. فكلمـة εθος تعنـي باليونانية إله، أي أحد الكائنات الإلهية، وليس بالتأكيد "الله" بالمعنى الذي يُربط بالمصطلح في يومنا هذا. لذا فإنه ليس "حكمة الله"، كما يترجمه بعضهم، إنمـا **الحكمة الإلهية**، كالحكمـة الـتي تملكهـا الآلهـة. ويعـود المصـطلح إلـى آلاف عديدة من السنين. [3]

3 - للاطلاع على الجانب التاريخي لظهور مصطلح "ثيوصوفيا"، وعلى كل المعاني التي ارتبطت به في المؤلفات الأفلاطونية الجديدة والمسيحية، في الفترة الواقعة بين القرنين الميلاديين الثاني

السائل: وما أصل الاسم؟

الثيوصوفي: لقد جاءنا من الفلاسفة الاسكندرانيين الذين سُموا عشاق الحقيقة، أو الفيلاليثيين، من λιφ (فيل) "مُحِبّ"، و αιεθηλα (أليثيا) "الحقيقة". أما اسم ثيوصوفيا فيعود إلى القرن الثالث الميلادي. وقد ظهر مع أمُّونيوس ساكَّاس وتلاميذه[4] اللذين أنشأوا المنهج الثيوصوفي الاصطفائي.

السائل: وماذا كان الغرض من هذا المنهج؟

الثيوصوفي: كان الغرض منه قبل كل شيء تلقين تلامذته وجميع اللذين كانوا "عشاقاً للحقيقة" بعض الحقائق الخُلقية الكبرى. ومن هنا الشعار الذي تبنَّته الجمعية الثيوصوفية: "لا دين أعلى من الحق"[5] . لقد كان الهدف الرئيسي

والسادس، نوجِّه القارئ إلى الكتيِّب الممتاز:

Jean-Louis Siémons, *Theosophia, aux sources néoplatoniciennes et chrétiennes (2è - 6è siècles)*. Cariscript, 1988. (م)

4 - كانوا يُدعون أيضاً بالقياسيين. وكما يشرح عضو الجمعية الثيوصوفية البروفسور ألكزاندر وايلدر في كتابه *الفلسفة الاصطفائية*،

[Alexander Wilder, 'Eclectic Philosophy', in *New Platonism and Alchemy*, Albany, N. Y.: Weed, Parsons and Company, 1869.(م)]

فقد أُطلق عليهم هذا اللقب بسبب عادتهم في تأويل كافة الحكايات والروايات المقدسة والأساطير والأسرار وفقاً لقاعدة أو مبدأ في القياس والتآزي، بحيث تُعتبر الأحداث التي يروى أنها جرت في العالم الخارجي إفصاحاً عن عمليات النفس البشرية واختباراتها. وقد أُطلق عليهم أيضاً اسم الأفلاطونيين الجدد. وعلى الرغم أن الثيوصوفيا، أو المنهج الثيوصوفي الاصطفائي، يُنسب عادة إلى القرن الثالث فإن أصله أسبق بكثير، إذا أخذنا بما يقول به ذيوجينس اللايرسي؛ ذلك أنه نسب المنهج إلى كاهن مصري هو بُتْ–أمون الذي عاصر بدايات الأسرة البطلمية. ويخبرنا المؤلف نفسه أن الاسم اسم قبطي يعني من نذر نفسه لأمون، إله الحكمة. وكلمة ثيوصوفيا مرادفة لـ*برهما فِديا*، أو المعرفة الإلهية.

5 - كانت الثيوصوفيا الاصطفائية تنقسم إلى ثلاثة جوانب رئيسية: 1- الاعتقاد بلاهوت، أو بجوهر لامتناهٍ، واحد مطلق، أجلَّ، لا يُدرَك كنهه، هو أصل الطبيعة قاطبة، وأصل كل ما هو موجود، ما يرى منه وما لا يرى. 2- الاعتقاد بطبيعة الإنسان الأزلية الخالدة، لأنها، بما هي إشعاع من النفس الكلِّية، من جوهر واحد وإيَّاها. 3- *الثيورجيا*، أو "الصنعة الإلهية"، أو القيام بصنعة الآلهة، من كلمتي ςοεθ (ثيوس)، "الإله"، و νογρε (إرغون)، "عمل" أو "صنعة". والمصطلح قديم جداً، لكنه، لما كان ينتمي إلى مفردات الأسرار، فإنه لم يكن شائع الاستعمال. فبحسب اعتقاد سرَّاني – برهن عليه عملياً النطساء والكهنة المسارَرون – يستطيع الإنسان، فيما إذا جعل نقاءه كنقاء الكائنات الأثيرية – أي فيما إذا عاد إلى نقاء طبيعته الأصلية – أن يحض الآلهة على تلقينه الأسرار الإلهية، بل وحتى على إظهار ذاتهم له، ذاتياً أو موضوعياً. ذلكم كان المظهر المتعالي لما يُعرف اليوم بالأرواحية. لكن **الثيورجيا** أمست فيما بعد محل تسفيه الدهماء، وبات يُنظَر إليها باعتبارها ضرباً من استحضار الأرواح، ولذلك حُرِّمت في كل مكان تقريباً. أما السحر الشعائري الذي يمارسه بعض القباليين المعاصرين فما هو إلا صدى ممسوخ لثيورجيا يمبليخوس. والثيوصوفيا المعاصرة من جانبها تتجنب وترفض كلا هذين الضربين من السحر و"استحضار الأرواح" باعتبارهما خطرين جداً. أما *الثيورجيا*

لمؤسِّسي المدرسة الثيوصوفية، خليفتها الحديثة، ألا وهو التوفيق بين كافة الأديان والملل والأمم تحت لواء منهج مشترك للأخلاق، يرتكز على حقائق أبدية.

السائل: فما برهانك على أن هذا ليس بحلم مستحيل، وعلى أن أديان العالم كلِّها ترتكز **فعلاً** على الحقيقة الواحدة عينها؟

الثيوصوفي: هو دراستها المقارنة وتحليلها. فلقد كان "دين الحكمة" واحداً في قديم الزمان؛ وإن لفي العقائد المتماثلة التي تُعلَّم للمسارَرين إبان *المسارَرة* – وهي سُنَّة كانت فيما مضى عالمية الانتشار – برهاناً على وحدة الفلسفة الدينية البدائية. "إن العبادات القديمة كلها تشير إلى وجود ثيوصوفيا وحيدة سابقة عليها جميعاً. ولابد للمفتاح الذي يفتح إحدى هذه العبادات أن يفتحها جميعاً؛ وإلا فإنه ليس بالمفتاح الصحيح." (أ. وايلدر، *المصدر المذكور*)

غايات الجمعية الثيوصوفية

السائل: كانت ثمة في أيام أمُّونيوس عدة أديان كبرى، وفي مصر وفلسطين وحدهما كانت الملل عديدة جداً. فكيف استطاع التوفيق فيما بينها؟

الثيوصوفي: بالقيام بما نحاول أن نقوم به نحن من جديد. لقد كان الأفلاطونيون الجدد يشكلون جماعة كبيرة، وكانوا ينتمون إلى فلسفات دينية متنوعة[6]؛ وكذا هي حال ثيوصوفيينا. ففي تلك الأيام، كان اليهودي أرسطوبُلس

الإلهية الحقيقية، فهي تتطلب نقاء وقداسة في الحياة يكادان يفوقان قدرة الإنسان، وإلا فإنه ينحط إلى الوساطة أو إلى السحر الأسود. وأما أوائل حواريي أمُّونيوس ساكَّاس – الذي كان يدعى *ثيوذِدَكتوس*، أي "من علَّمه الإله" – أمثال أفلوطين وتلميذه فرفيريوس، فقد رفضوا الثيورجيا في بادئ الأمر، ثم وطَّنوا أنفسهم عليها بفضل يمبليخوس الذي وضع مؤلفاً في الموضوع بعنوان *مقالة في الأسرار* باسم معلِّمه، وهو كاهن مصري ذائع الصيت يدعى أبمُّون. وقد كان أمُّونيوس ساكَّاس ابناً لوالدين مسيحيين، لكنه، وقد شعر منذ طفولته بالنفور إزاء المسيحية العقائدية الأرواحية، أصبح أفلاطونياً جديداً؛ ويقال عنه، مثله كمثل يعقوب بوهمِه وغيره من الرائين والسرانيين العظام، إن الحكمة الإلهية انكشفت له في الأحلام والرؤى. ومن هنا اسم *ثيوذِدَكتوس*. وقد عزم أمُّونيوس على التوفيق بين كافة المناهج الدينية، وعلى بيان أصلها الواحد من أجل ترسيخ أسس مذهب شامل يقوم على الأخلاق. كانت حياته لا غبار عليها ومن النقاء بمكان، وكان علمه من العمق والسعة بما حدا بعدد من آباء الكنيسة إلى أن يصبحوا تلامذته سراً. ويشيد كليمنضُس الاسكندراني بذكره كل الإشادة. أما أفلوطين، وهو "يوحنا" أمُّونيوس، فكان هو الآخر رجلاً يحترمه ويجلُّه الجميع، وذا علم واستقامة عميقين جداً. وفي التاسعة والثلاثين من عمره، رافق الامبراطور الروماني غورديان وجيشه إلى الشرق ليتتلمذ على حكماء بَكْتريا والهند، وأسس أخيراً مدرسة للفلسفة في روما. وقد جمع تلميذه فرفيريوس، وهو يهودي متهلِّن كان اسمه الحقيقي مَلْخُس (مالك) ، جميع مؤلفات معلِّمه. لقد كان فرفيريوس نفسه مؤلفاً عظيماً وضع تأويلاً مجازياً لبعض أجزاء كتابات هوميروس. أما المنهج التأمُّلي الذي اعتمده الفيلاليثيون فكان *الوجد* – وهو منهج شبيه بممارسة اليوغا الهندية. ويعود الفضل في كل ما وصلنا عن المدرسة الاصطفائية إلى أوريجينس ولونجينوس وأفلوطين، حواريي أمُّونيوس ساكَّاس. (انظر أ. وايلدر، *المصدر المذكور*)

6 - تم انتشار اليهودية في الاسكندرية في عهد فلاذِلفوس، وعلى التوِّ أصبح المعلِّمون الهيلينيون منافسين مرهوبي الجانب لندوة ربانيي بابل. ويعلِّق مؤلِّف *الفلسفة الاصطفائية* تعليقاً في محلِّه: "في تلك الفترة كانت المناهج البوذية والفيدنتية والمجوسية مطروحة جنباً إلى جنب مع فلسفات اليونان. فلا غرو أن يرى عدد من المتفكِّرين ضرورة وضع حد للمماحكات الكلامية، وأن يقبلوا

يؤكـد أن أخلاق أرسـطو تمثـل التعـاليم *الباطنيـة* لشـريعة موسـى؛ أمـا فيلـون اليهـودي فقـد سـعى إلـى التوفيـق بيـن *أسـفار الشـريعة الخمسـة* والفلسـفة الفيثاغورية والأفلاطونية؛ وبرهن يوسيفوس أن أسينيي الكرمل كـانوا ببسـاطة نسَّاخاً عن الثيرابيين (الأساة) المصريين وأتباعاً لهم. كذا الأمر في يومنـا هـذا. وإن لفي وسعنا أن نقتفي الأصل الذي تحدَّرت عنه كـل نحلـة مسـيحية، وحـتى أصغر ملَّـة. فهـذه الملـل إنْ هـي إلا العسـاليج[7] أو الغصـينات الـتي نمـت علـى الأغصان الكبيرة؛ غير أنها جميعاً – غصينات وأغصاناً – تنبت مـن الجـذع نفسـه: *دين الحكمة*. لقد كان إثبات هذا هو هدف أمُّونيوس الذي لم يألُ جهداً في إقناع الأمم[8] والمسيحيين، اليهود والوثنيين، بنبذ خلافاتهم ونزاعاتهم، بمجرد تـذكرتهم أنهم كانوا جميعاً يمتلكون الحقيقـة نفسـها تحـت أكسـية متنوعـة، وأنهـم كـانوا جميعاً أبناء أمٍّ واحدة.[9] وكذلك هو هدف الثيوصوفيا.

السائل: فما أسانيدكم لما تقولون عن ثيوصوفيي الاسكندرية القدماء؟

الثيوصوفي: هي عدد يكاد لا يحصـى مـن المـؤلفين الـذائعي الصيت. يقـول أحدهم، هو موشييم، أن:

> **علَّم أمُّونيوس أن ديانة الدهماء كانت تسري يداً بيـد مـع الفلسـفة، وأنهـا شاركتها مصـير الفسـاد والانطمـاس التـدريجي والخـزعبلات والأباطيـل البشرية الصرفة، وأنها، من أجل ذلك، يجب أن يستعاد لها نقاؤها الأصلي بتطهيرها من هذا الغثاء وبشرحها على أساس مبـادئ فلسـفية؛ وكـل مـا كان يرمي المسيح إليـه هـو أن يعيـد حكمـة الأقـدمين إلـى سـابق عزَّتهـا ومنزلتها، وأن يحدَّ من الانتشار الشامل لهيمنة الخرافة، وبحسب الحـال، أن يصحح أو يجتـث شـتى الأضـاليل الـتي تسـربت إلـى مختلـف الـديانات الشعبية.**

وهذا ما يقول به الثيوصـوفيون المعاصـرون بالضـبط. غيـر أنـه فـي حيـن كـان الفيلاليثي العظيم يتلقى الدعم والمساعدة في المنهـاج الـذي اتَّبعـه مـن اثنيـن

بإمكان استنباط منهج متناغم واحد من هذه التعاليم المتنوعة [...] لقد تتلمذ بنتيانوس وأثيناغوراس وكليمنضُس تمام التتلمذ على الفلسفة الأفلاطونية، وتفهَّموا وحدتها في الجوهر مع المناهج المشرقية."

7 - جمع عسلوج، وهو ما لان من قضبان الشجر. (م)

8 - باللاتينية *gentiles*؛ والكلمة تشير في العبرية: 1- عند اليهود، إلى "الأغيار" الغرباء قديماً، وإلى غير اليهود من مسيحيين وسواهم اليوم. 2- عند المسيحيين الأوائل، إلى الوثنيين. (م)

9 - هاكم ما يقوله المؤرخ موشييم عن أمُّونيوس: "حين أدرك الائتلاف التام، لا بين فلاسفة الإغريق وحسب، بل وبين فلاسفة مختلف الأمم الهمجية [ليس في كلمة "همجي" أي تحقير في مدلول الإغريق القدماء؛ إذ كانوا يطلقونها على كل من هو غير يوناني. (م)] أيضاً، فيما يتعلق بكل النقاط الجوهرية، جعل يعرض للعقائد الألف لكافة الملل المختلفة بحيث يبيِّن أنها تفرعت جميعاً عن أصل واحد، وأنها تسعى جميعاً إلى الغاية الوحيدة عينها." وإذا كان كاتب باب أمُّونيوس في *موسوعة إدنبره* يقول ما يقوله عن علم فهو إذن يصف الثيوصوفيين المعاصرين ومعتقداتهم وعملهم؛ ذلك أنه يقول متحدثاً عن *الثيوذِذكتوس*: "لقد تبنى العقائد التي كانت معتمدة في مصر (كانت العقائد الباطنية عقائد الهند) فيما يخص الكون واللاهوت، باعتبارهما يكوِّنان كلاً عظيماً واحداً، وفيما يخص أبدية العالم [...] ووضع أسس منهج نظام خلقي يسمح للناس بعامة أن يحيوا وفق قوانين بلدانهم وما تمليه الطبيعة، لكنها تفرض على الحكماء الترقِّي بعقولهم بالاستغراق التأملي."

من آباء الكنيسة، ألاوهما كليمنضُس وأثيناغوراس، ومن جميع الفقهاء من ربانيي الكنيس، ومن فلاسفة الأكاديمية والغيضة، وفي حين علَّم عقيدة واحدة للجميع، فإننا، نحن أتباعه على الصراط عينه، لا نقابَل بعدم الاعتراف بنا وحسب، بل، على العكس، نُسفَّه ونُضطهَد؛ الأمر الذي يُظهِر أن الناس قبل 1500 عام كانوا أكثر تسامحاً مما هم عليه في هذا القرن *المتنوِّر*.

السائل: أولم يكن أمُّونيوس يلقى التشجيع والمساندة من الكنيسة لأنه، على الرغم من زندقته، كان يعلِّم المسيحية، وكان هو نفسه مسيحياً؟

الثيوصوفي: لا، أبداً. فلقد ولد مسيحياً، لكنه لم يقبل قط مسيحية الكنيسة. فكما يقول عنه المؤلف نفسه:[10]

> **لم يكن عليه إلا أن يطرح تعليماته بحسب أركان هرمس القديمة التي سبقه أفلاطون وفيثاغوراس إلى معرفتها، ومنها كوَّنا فلسفتهما. ولما وجد العقائد نفسها في فاتحة الإنجيل بحسب القديس يوحنا، قدَّر حق التقدير أن غاية يسوع كانت إعادة العقيدة العظيمة للحكمة إلى مقامها البدائي. أما روايات الكتاب المقدس وقصص الآلهة فقد اعتبرها إما حكايات مجازية تمثل للحقيقة، وإما خرافات يجب نبذها.**

ناهيك عما تقوله *موسوعة اِدنبره*:

> **لقد اعترف بأن يسوع المسيح كان إنساناً ممتازاً و"صدِّيقاً لله"، لكنه زعم أن قصده لم يكن إبطال عبادة الجان[11] (الآلهة)، وأنه لم يكن ينتوي غير تطهير الديانة القديمة.**

باطنية دين الحكمة في كل العصور

السائل: بما أن أمُّونيوس لم يدوِّن شيئاً على الإطلاق، كيف للمرء أن يتأكد أن هذه كانت تعاليمه؟

الثيوصوفي: ولا بوذا، أو فيثاغوراس، أو كونفوشيوس، أو أورفيوس، أو سقراط، أو حتى يسوع، خلَّفوا وراءهم أية كتابات. ومع ذلك فإن معظمهم شخصيات تاريخية، وقد وصلتنا تعاليمهم. لقد كتب تلاميذ أمُّونيوس ومن بينهم أوريجينس وهرينِّيوس) مقالات مطوَّلة وشرحوا أخلاق معلِّمهم. ومما لاريب فيه أن المصداقية التاريخية لهذه المقالات تعادل مصداقية كتابات الرسل، إن لم تفقها. ثم إن حوارييه – أوريجينس وأفلوطين ولونجينوس (مستشار الملكة الشهيرة زنوبيا) – خلَّفوا جميعاً سجلات غزيرة للمنهج الفيلاليثي – بمقدار ما كانت شهادتهم الإيمانية معروفة علناً، على كل حال، ذلك أن المدرسة كانت تنقسم إلى تعاليم ظاهرية وتعاليم *باطنية*.

---

10 - أ. وايلدر. (م)

11 - "الجان" تسمية عامة تشمل كل رتب الكائنات الأثيرية. (م)

السائل : فكيف وصلتنا هذه التعاليم، مادمتم تـرون أن مـا يـدعى بحـق *ديـن الحكمـة* كـان باطنياً؟

الثيوصوفي: لقد كان *دين الحكمة* واحداً أبداً؛ وبما أنـه الكلمـة الفصـل الـتي نطقت بها المعرفة المتاحة للبشر، فإنه كـان مصـوناً بعنايـة. ولقـد تقـدَّم علـى الثيوصوفيين الاسكندرانيين بعصور طويلة، حتى بلغ الثيوصـوفيين المعاصـرين، ولسوف يستمر بعد زوال كل دين وكل فلسفة أخرى.[12]

السائل: وأين تم صونه وعلى يد مَن؟

الثيوصوفي: بين مسارَري كل البلدان؛ وبين الباحثين العميقين عن الحقيقـة، تلامذتهم؛ وفي أصقاع العالم التي ما انفكت فيها مثل هذه المباحث مقدَّرة حق قدرها ومطلوبة: في الهند، في آسيا الوسطى، وفي فارس.

السائل: هل في مقدورك أن تقدم لي بعض البراهين على باطنيَّته؟

الثيوصوفي: إن لك في أن كل فرقة دينية، أو بالحري فلسفية قديمة، كـانت تتألف من تعليم باطني أو سري، ومـن عبـادة ظاهريـة (خارجيـة وعلنيـة)، خيـر برهان. وعدا ذلك، فمن المعروف أن أسرار الأقدمين كـانت تشـتمل لـدى كـل أمَّة على *الأسرار* "الكبرى" (السرية) و"الصغرى" (الجهرية)، كما في الشـعائر المقدسة المشهورة المسماة *بـالإلفسينيات* في اليونـان، علـى سـبيل المثـال. فمنذ هِيروفنطيي ساموثراكي ومصر، والبراهمة المسارَرين في الهند القديمة، نزولاً حتى ربَّانيي العبرانيين المتأخرين، كان الجميع يصونون سـرية معتقـداتهم الحقيقية الأصلية مخافة تدنيسها.[13] وكان الربانيون اليهود يطلقون على الـوجه الدنيوي من نسقهم الديني اسـم *مِرْكَفَـه* (البـدن الخـارجي)، أي "المركبـة"، أو *القشر الذي يحوي اللب المستور* – ألا وهو معرفتهم السرية الأسمى. ومـا مـن أمَّة من الأمم القديمة أفضى كهنتها بأسرارها الفلسفية الحقيقية إلى الجماهير،

---

12 - يقول الحسين بن منصور الحلاج في هذا المعنى:

تفكَّرتُ في الأديان جِدَّ تحقُّقٍ فألفيـتـها أصلاً لـه شُـعَبٌ جمَّـا

فلا تَطْلـبَنْ للـمرءِ ديـناً فإنَّه يُصَدُّ عن الأصـل الوثيقِ وإنَّـمـا

يطالبُهُ أصـلٌ يُعـــبَّر عــنده جميعُ المعـالي والمعاني فيَفْهما (م)

13 - يقول أحدهم في هذا المعنى:

لِيَكُنْ صدرُكَ للأسرارِ حِصْـنـاً لايُـــرامُ

إنَّـما يَنْطِقُ بالسـرِّ ويُـفْشـيه اللِّـــئامُ (م)

إنما خصُّوها بالقشور وحسب. وللبوذية الشمالية أيضاً مركبتاها "الكبرى" و"الصغرى"، المعروفتان بمدرستي *مهايانا*، أو المدرسة الباطنية، و *هينيانا*، أو المدرسة الظاهرية. وليس لأحد أن يلومهم على مثل هذه السرية؛ فإنك بالتأكيد لن يخطر لك في بال أن تطعم قطيع خرافك أبحاثاً لجهابذة علم النبات بدلاً من العشب. لقد دعا فيثاغوراس *غنوصه*[14] "معرفة الموجودات"، أو η ςισωνγ νωτ νωτνο، وخصَّ بهذه المعرفة تلامذته المحلَّفين وحدهم، مِمَّن كانوا يطيقون استيعاب هذا الغذاء العقلي والرضى به؛ وكان يُلزمهم باليمين على الصمت والسرية. ولقد اشتُقت الأبجديات الباطنية والجفر السري من الكتابات المصرية *الهيراطيقية* القديمة التي كان سرُّ فكِّها قديماً بحوزة الكتبة المقدسين، أو الكهنة المصريين المسارَرين. أما أمُّونيوس ساكَّاس، كما يروي لنا تراجمة سيرته، فكان يُلزم حوارييه بيمين عدم إفشاء *عقائده العليا* إلا للذين سبق لهم أن تتلمذوا في المعرفة التمهيدية والتزموا أيضاً بالميثاق. وأخيراً، أفلا نجد الأمر عينه حتى في المسيحية الأولى، وبين الغنوصيين، وحتى في تعاليم المسيح؟ أولم يكن المسيح يخاطب سائر الناس بالأمثال ذات المعنى المزدوج، ويشرح مقاصده لتلاميذه وحدهم؟ ألم يقل لهم: "أنتم أُعطيتم سرَّ ملكوت الله. وأما سائر الناس فكل شيء يلقى إليهم بالأمثال." (*مرقس* 4: 11) "لقد كان أسِّينيوا اليهودية والكرمل يقيمون مثل هذه التمييزات، فيقسمون الملتحقين بهم إلى مبتدئين، وإخوان، *وكُمَّل*[15] أو مسارَرين." (أ. وايلدر، *المصدر المذكور*) وبالوسع الإتيان بأمثلة مشابهة من كل البلدان.

السائل: هل بالوسع بلوغ "الحكمة السرية" بالدراسة وحدها؟ إن الموسوعات تعرِّف *بالثيوصوفيا* بما يعرِّف بها قاموس وِبْستِر على وجه التقريب، أي بوصفها "*وصالاً مفترَضاً مع الله ومع أرواح عليا، ينجم عنه بلوغ معرفة تفوق معرفة البشر بوسائل فيزيائية وعمليات كيميائية*". فهل الأمر كذلك حقاً؟

الثيوصوفي: لا أعتقد ذلك. فما من معجِميٍّ بقادر أن يشرح، سواء لنفسه أو للآخرين، كيفية بلوغ معرفة *تفوق معرفة البشر* بعمليات *فيزيائية* أو كيميائية. أما لو كان وِبْستِر قال "بعمليات *ميتافيزيائية* وخيميائية"، لبات تعريفه صحيحاً على وجه التقريب؛ أما وهو على حاله هذه، فإنه لا يُعقَل. لقد كان الثيوصوفيون القدماء يدَّعون، مثلهم كمثل المعاصرين، أن اللامتناهي لا يمكن أن يُعرف بالمتناهي – أي أن يُستشعَر بالذات المحدودة – إنما أن بوسع الذات الروحانية العليا أن تتصل بالجوهر الإلهي في حالة وَجْد. وهذه الحال غير ممكن بلوغها، مثل *التنويم المغناطيسي*، "بوسائل فيزيائية وكيميائية".

السائل: فما تعليلك للوجد إذن؟

---

14 - من الكلمة اليونانية ςισωνγ (غنوسِس) التي تعني "المعرفة" أو "العرفان". (م)

15 - من الجدير بالذكر أن هذه المصطلحات التي تشير في الأخوية الأسِّينية إلى درجات المسارَرة انتقلت فيما بعد إلى الأخويات المسيحية الأولى (راجع مثلاً *رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل قورنتس* 2: 6 حيث الكلام على "حكمة نتكلم عليها بين *الكاملين*" أو "الكُمَّل")، الأمر الذي يؤكد وثوق الصلة بين المدرستين السرَّانيتين الكبريين، الأسِّينية والمسيحية. (م)

الثيوصوفي: الوجد الحق، بحسب تعريف أفلوطين به، هو "تحرر العقل من وعيه المحدود، ليصبح واحداً مع اللامتناهي ومتواحداً معه".[16] إنه، كما يقول البروفسور وايلدر، أسمى الأحوال، لكنه ليس ذا أجل يدوم، وليس إلا *للصفوة* أن تبلغه. وهو، بالفعل، يتماثل مع تلك الحالة التي تُعرف في الهند باسم *سمادهي*. ويدأب اليوغانيون على ممارسته، وييسِّرونه بدنياً بتعفُّف شديد في الطعام وفي الشراب، وعقلياً بسعي متواصل لتنقية العقل والتسامي به. التأمل هو الصلاة الصامتة *غير المنطوق بها*،[17] أو هي، كما عبَّر عنها أفلاطون، "توق النفس المتَّقد إلى الإلهي، لا لكي تسأله خيراً معيناً (كما في المعنى المتعارف عليه للصلاة) ، إنما لوجه الخير نفسه - لوجه الخير الأسمى الشامل" الذي ما نحن على الأرض إلا جزء منه، والذي من جوهره انبثقنا. لذا، يضيف أفلاطون: "إلزم الصمت في حضرة الإلهيين، إلى أن يبدِّدوا الغشاوة عن عينيك، ويمكِّنوك بالنور المنبعث منهم من رؤية ما هو خير بحكم طبيعته، وليس ما يبدو خيراً في نظرك أنت".[18]

السائل: الثيوصوفيا، إذن، ليست بدعة مبتكرة حديثاً، كما يزعم بعضهم؟

الثيوصوفي: وحدهم الجهَّال من الناس يشيرون إليها باعتبارها كذلك. إن الثيوصوفيا، إن لم تكن في اسمها ففي تعاليمها وأخلاقها، قديمة قِدَم العالم، كما أنها أيضاً أوسع المناهج وأكثرها شمولية.

---

16 - من هنا قول الحلاج:

أنا مَن أهوى ومَن أهوى أنا نحنُ روحانِ حَلَلْنا بَدَنا

فإذا أبْصَرتَني أبْصَرتَهُ وإذا أبصرتَهُ أبصرتَنا (م)

17 - "[...] كثيراً ما أحاول، بعد انقضاء فترة التأمل، أن أسقط على ركبتيَّ أناجي الحقيقة السامية لكمالها وعظمتها، فأشعر عندئذٍ أنني أفنى فيها وأكاد أضمحلُّ وأتلاشى. وشعرت مراراً، وقد بلغت درجة من التأمل كهذه، أنني أصبحت وإياها واحداً [...] عندما يشرق التأمل في نفسي يشرق معه النور الإلهي الذي لا ينتهي، فيغيب الإنسان في عالم غير محدود، لا يقاس ولا يخضع للزوال، ويغوص في أعماق وجوده." (ندره اليازجي، *بحوث فلسفية*، طب 2، دار الغربال، دمشق، 1994، ص ص 21-22) (م)

18 - هذا ما يطلق عليه العلامة مؤلف *الفلسفة الاصطفائية*، البروفسور أ. وايلدر، عضو الجمعية الثيوصوفية، اسم "*التصوير الروحي*": "النفس هي الغرفة المظلمة التي تتثبَّت فيها وقائع وأحداث المستقبل والماضي والحاضر على حد سواء؛ ودور العقل أن يعيها. وإلى ماوراء عالمنا المحدود يختزل كل شيء إلى يوم واحد أو حالة واحدة – ماضي والمستقبل متضمَّنان في الحاضر [...] الموت هو *الوجد* الأخير على الأرض. ومن بعد فإن النفس تتحرر من قبضة الجسد، ويتحد أنبل أجزائها بالطبيعة العليا، ويصبح مساهماً في حكمة الكائنات العليا ومعرفتها القَبْلية." والثيوصوفيا الحقة، عند السرانيين، هي تلك الحالة التي قُيِّض لأبولونيوس التياني أن يصفها كما يلي: "في وسعي أن أبصر الحاضر والمستقبل كما في مرآة مجلوَّة. وليس على الحكيم أن ينتظر أبخرة الأرض وفساد الهواء لكي يتنبَّأ بالأحداث [...] الـ θεοι، أو الآلهة، يبصرون المستقبل؛ وسائر البشر يبصرون الحاضر؛ والحكماء يبصرون ما هو على وشك الحدوث." وإن لفي تصريح "ملكوت الله في داخلنا" [*الإنجيل بحسب القديس لوقا* 17: 21] أحسن تعبير عن "ثيوصوفيا الحكماء" التي يتحدث عنها.

السائل: فكيف قُيِّض لها، إذن، أن تبقى مجهولة عند أمم نصف الكرة الغربي؟ ولم كان عليها أن تظل كتاباً مختوماً عند الأجناس الأكثر ثقافة وتقدماً بإقرار الجميع؟

الثيوصوفي: نحن نعتقد أن أمماً وُجِدت في الماضي كانت تجاربنا ثقافةً وتفُوقنا بالتأكيد "تقدماً" روحياً. غير أن لهذا التجاهل عدة أسباب؛ وقد أعلن القديس بولس أحدها للأثينيين المثقفين،[19] ألا وهو ضياع البصيرة الروحية الحقيقية، بل حتى فقدان الاهتمام بها قروناً طوالاً، نظراً لانشغالهم المفرط بأشياء الحسِّ وعبوديتهم المديدة للحرف الميت في العقائد المتحجِّرة والطقسية. غير أن أقوى هذه الأسباب يكمن في أن الثيوصوفيا الحقيقية حُفِظت سرية دائماً.

السائل: لقد جئت ببراهين عديدة على وجود مثل هذه السرية؛ فما السبب الحقيقي لها؟

الثيوصوفي: كان السببان من ورائها هما التاليان: *أولاً*، غيُّ الطبيعة البشرية عموماً وأَثَرَتها، ونزوعها إلى إشباع الرغبات *الشخصية* على حساب الجيران وأمسَّ الناس رحماً. فمن المستحيل ائتمان أناس كهؤلاء على أسرار *إلهية*. **ثانياً**، عدم الركون إليهم في صون حرمة المعرفة الإلهية من الانتهاك. وهذا السبب هو الذي أدَّى إلى إفساد أسمى الحقائق والرموز، والتحول التدريجي للأمور الروحية إلى أصنام تشبيهية[20]، ملموسة وفظّة - وبكلمات أخرى إلى مسخ فكرة الله إلى الوثنية.[21]

---

19 - راجع *أعمال الرسل* 17: 22-32. (م)

20 - anthropomorphic، خاص بنسبة الصفات البشرية إلى الألوهة؛ و"التشبيه" يقابله "التنزيه"، أي تجريد الألوهة من الصفات البشرية. (م)

21 - ثمة في الواقع ثلاثة أسباب رئيسية تستوجب ستر الوجه الباطن من الدين: الأول هو أن للكون وجهين، وجهاً ظاهراً ووجهاً باطناً؛ فإذا كان الإنسان صورة كونية مصغَّرة، اقتضى ذلك أن تنقسم دراسة بنيانه إلى مبحثين، أحدهما ظاهر مكشوف والآخر باطن مستور. الثاني هو وجوب التدرُّج في تلقين التعاليم، من الظاهر إلى الباطن، بما يتوافق والتفاوت في النضج النفسي والروحي للمريدين؛ ذلك أن اقتبال المرء حقائق هو غير مستعد لها يعرِّضه لما لا تحمد عقباه، أقل ما فيه فقدانه رشده. والثالث هو وجود تعاليم تتناول بالدراسة البنيان الباطن للطبيعة، وتفسِّر نواميسها الغامضة وترفع طرف الحجاب عن سيروراتها الخفية التي تزوِّد عارفها بالقدرة على السيطرة على طاقات طبيعية شتى، وتمكِّنه من توجيه هذه الطاقات لمقاصد محدَّدة. لذا يتم التشديد دوماً، في المدارس الباطنية قاطبة، على حرمة أسرار الروح وضرورة كتمها عمَّن لم يبلغ بعد حداً معيَّناً من التفتُّح الداخلي والنضج الأخلاقي يؤهلانه لاقتبالها وصونها. وهؤلاء هم الكثرة الساحقة من بني البشر الذين لا تجوز مخاطبتهم إلا بالأمثال والرموز، كما فعل النبي الجليلي. فما أكثر ما تناول أشخاص ذوو إمكانات فكرية متفوِّقة، لكنهم غير مؤهلين خُلُقياً، أسراراً روحية واستخدموها لخدمة مآرب أنانية، منقلبين على مرشديهم، فكانت هذه الأسرار وبالاً عليهم. لذا يشدد الحكماء ومرشدو المدارس الباطنية على حتمية اختيار المريد بين ذوي القلوب النقية، الذين يضعون نصب أعينهم خير البشرية بأسرها وتطوُّرها، لا منفعتهم الخاصة الضيِّقة. على ضوء ما تقدم يتَّضح معنى قول يسوع الغريب في قسوته في *الإنجيل بحسب القديس متى* 7: 6: "لا تعطوا الكلاب ما هو مقدس، ولا تلقوا لؤلؤكم إلى الخنازير، لئلا تدوسه بأرجلها، ثم ترتد إليكم فتمزقكم"، وكذلك معنى قول الحكيم الطاوي الصيني لاوتسُه في *كتاب الطريق والفضيلة* المنسوب إليه (مقطع 36):

على السمكة ألا تخرج من المياه العميقة،

وعلى أشد أسلحة الدولة فتكاً ألا يطَّلع عليها البشر. (م)

الثيوصوفيا ليست البوذية

السائل: كثيراً ما يجري الحديث عنكم باعتباركم "بوذيين باطنيين". فهل أنتم جميعاً من أتباع غوتاما بوذا[22] ؟

الثيوصوفي: كلنا بوذيون بمقدار ما يكون كل الموسيقيين من أتباع فاغنر! بعضنا يدينون بالبوذية؛ غير أن بيننا من الهندوس والبراهمة أكثر بكثير من البوذيين، ومن المولودين مسيحيين من الأوروبيين والأمريكيين أكثر من *معتنقي* البوذية. لقد برز اللبس من سوء فهم للمعنى الحقيقي لعنوان مؤلَّف السيد سينِتّ الممتاز *البوذية الباطنية*[23] الذي يجب أن تُكتب الكلمة الثانية منه *بدال بدلاً من ذال*، لأن *البودْهِية* كانت ستعني عندئذٍ ما كان مقصوداً منها، أي ببساطة "الحكمة" (*بودهى، بودِّهي*، "الفطنة"، "الحكمة") بدلاً من *البوذية*، فلسفة غوتاما الدينية. فالثيوصوفيا، كما أسلفت، هي *دين الحكمة*.

السائل: وما الفرق بين البوذية، وهي الديانة التي أسَّسها أمير كابيلاڤَسْتو، *والبودْهِية*، أو "الحكمة"، المرادفة للثيوصوفيا على حد قولك؟

الثيوصوفي: هو عين الفرق بين تعاليم المسيح السرية التي تدعى "أسرار ملكوت السموات" وبين الطقوسية والثيولوجيا العَقَدية اللاحقتين للكنائس والملل. *بوذا* تعني "المستنير" بـ **بودهى**، أو الفهم، أو الحكمة. ولقد شكلت الحكمة نسغ التعاليم *الباطنية* التي أسرَّ بها غوتاما إلى *أرهواته* المختارين وحدهم.

السائل: لكن عدداً من المستشرقين ينفون أن بوذا علَّم يوماً أية عقيدة باطنية أصلاً.

الثيوصوفي: ولم لا ينفون أيضاً أن للطبيعة أسراراً عصية على رجال العلم؟ سأبرهن على ذلك فيما بعد من خلال المحادثة بين بوذا وتلميذه آنندا. لقد كانت تعاليمه الباطنية ببساطة هي *غُبْتا فِدْيا* (المعرفة السرية) للبراهمة الأقدمين التي أضاع خلفاؤهم الحديثون، باستثناء قلة منهم، مفتاحها تماماً. أما عن هذه *الفِدْيا* نفسها، فقد صارت إلى ما يُعرف اليوم بالتعاليم *الباطنة* لمدرسة مهايانا التابعة لبوذية الشمال. أما الذين ينفون ذلك فهُم ببساطة جهَّال يتنطَّسون للاستشراق. أنصح لك بقراءة كتاب فضيلة السيد إدكنز *البوذية الصينية*[24] – وخصوصاً الفصلين عن المدرستين الظاهرية *والباطنية* وتعاليمهما – ومن بعد مقارنة شهادة العالم بأسره حول هذا الأمر.

السائل: ولكن، أليست أخلاق الثيوصوفيا متماثلة مع الأخلاق التي علَّمها بوذا؟

---

22 - الأصح أن نقول **البوذا**، لأن الكلمة لقب يشير إلى كل من حقق الإشراق الروحي، مثلما يشير لقب **المسيح** إلى كل من "مسحه" الله. (م)

23 - A. P. Sinnett, *Esoteric Buddhism.* London: Trübner and Co., 1881.(م)

24 - J. Edkins, *Chinese Buddhism*, London, 1880; 2nd revised edition, London: K. Paul, Trench, Trübner & Co., 1893.(م)

الثيوصوفي: بالتأكيد، لأن هذه الأخلاق هي روح دين الحكمة، وكانت ذات يوم مشاعاً بين مُسارَري جميع الأمم. لكن بوذا كان أول مَن أدرج هذه الأخلاق الرفيعة في تعاليمه العلنية، وجعلها أساس منهجه العلني وجوهره. فههنا يكمن الفرق الهائل بين البوذية وكل دين آخر. ففي حين أن الطقوسية والعَقَدية تحتلان في الأديان الأخرى المقام الأول والأهم، فإن الأخلاق في البوذية هي التي كانت موضع الإصرار دوماً. إن في هذا تعليلاً للشبه، الذي يقارب حد التماثل، بين أخلاق الثيوصوفيا وأخلاق ديانة بوذا.

السائل: فهل ثمة نقاط اختلاف كبيرة بينهما؟

الثيوصوفي: إن واحداً من أكبر الاختلافات بين الثيوصوفيا والبوذية *الظاهرية* هو أن البوذية الظاهرية، تمثِّلها كنيسة الجنوب، تنفي تماماً (أ) وجود أي لاهوت، و(ب) أية حياة واعية بعد الموت [25]، أو حتى أية فردية واعية لذاتها قادرة على البقاء في الإنسان. ذلكم على الأقل هو ما تُعلِّمه الطائفة السيامية التي تُعَدُّ الآن *أنقى* أشكال البوذية الظاهرية. كذلك الأمر إذا لم نشر إلا إلى تعاليم بوذا العلنية؛ أما سبب هذا التكتم من جانبه فسأعرض له فيما بعد. غير أن مدارس كنيسة بوذية الشمال التي استقرت في البلدان التي تنحَّى إليها *الأرهوات* المسارَرون بعد موت معلِّمهم تُعلِّم كل ما يُعرف اليوم بالعقائد الثيوصوفية لأنها تشكل جزءًا من معرفة المُسارَرين –

الأمر الذي يبيِّن كيفية التضحية بالحقيقة في سبيل الحرف الميت من قبل سُنِّية بوذية الجنوب الشديدة الغيرة. ولكن، كم هي أعظم وأنبل، وأكثر فلسفية وعلمية هذه التعاليم، حتى في حرفها الميت، من تعاليم أية كنيسة أو ديانة أخرى. ومع ذلك فإن الثيوصوفيا ليست البوذية.

الباب الثاني

الثيوصوفيا الظاهرية والثيوصوفيا الباطنية

ما ليست الجمعية الثيوصوفية الحديثة عليه

السائل: عقائدكم، إذن، ليست إحياءً للبوذية، كما أنها ليست تماماً نسخة عن الثيوصوفيا الأفلاطونية الجديدة ؟

الثيوصوفي: لا. لكنني لا أستطيع أن أقدم لك جواباً على هذين السؤالين خيراً من اقتباس فقرة من بحث في "الثيوصوفيا" قرأه الدكتور ج. د. بَك، ع.

---

25 - ورد التعبير باللاتينية في النص: *post-mortem*. (م)

ج. ث.[26] ، على المؤتمر الثيوصوفي الأخير الذي انعقد في شيكاغو، أمريكا (نيسان، 1889). فما من ثيوصوفي حيّ عبَّر عن جوهر الثيوصوفيا الحق وفهمه فهماً أفضل من صديقنا الموقر الدكتور بَكْ:

"تأسّست الجمعية الثيوصوفية في سبيل نشر العقائد الثيوصوفية، ومن أجل الدعوة إلى الحياة الثيوصوفية. إن الجمعية الثيوصوفية الحالية ليست الأولى من نوعها؛ فلدي مجلد بعنوان: *المحاضر الثيوصوفية لجلسات الجمعية الفيلادلفية*، منشور في لندن عام 1697؛[27] ومجلد آخر يحمل العنوان التالي: *مدخل إلى الثيوصوفيا، أو علم سر المسيح، أي سر الألوهة والطبيعة والخلق، المشتمل على فلسفة قدرات الحياة الفاعلة جميعاً، السحرية منها والروحية، والمشكِّل دليلاً عملياً إلى الطهارة والقداسة والكمال الإنجيلي الأسمى؛ وكذلك إلى بلوغ الرؤيا الإلهية، والفنون والمقدرات الملائكية القدسية، وغيرها من صلاحيّات التجدّد*، منشور في لندن عام 1855.[28] وفيما يلي إهداء هذا المجلد:

"إلى طلاب جامعات وكلِّيات ومدارس العالم المسيحي؛ إلى أساتذة العلوم الميتافيزيائية والميكانيكية والطبيعية بكل أشكالها؛ إلى عموم المثقفين رجالاً ونساءً من أهل الدين القويم الأصلي: إلى المؤمنين بالله، والآريين، والمسيحيين الموحِّدين،[29] والسويدنبرغيين، وإلى أتباع مذاهب أخرى معيوبة ولاسند لها من الصحة، عقلانيين ومشكّكين من كل ضرب؛ إلى أصحاب العقول النيِّرة والمنصفة من المحمَّديين واليهود وأتباع النحل البطريركية المشرقية؛ ولكن خصوصاً إلى الراعي والمبشِّر بالإنجيل، سواء لدى الشعوب الهمجية أو لدى الشعوب المفكِّرة، أهدي هذا المدخل إلى الثيوصوفيا، أو علم أساس وسرّ كل شيء، بكل تواضع ومودة."

"وفي العام التالي (1856) ، صدر مجلد آخر، بالقطع الملكي، يقع في 600 صفحة، وبالحرف الفاخر، بعنوان "متفرقات ثيوصوفية"[30]. ولم تُطبع من المؤلَّف المذكور إلا 500 نسخة، وُزِّعت مجاناً على المكتبات والجامعات. لقد نشأت هذه الحركات السابقة العديدة في حضن الكنيسة، بفضل أشخاص ذوي تقوى وعزيمة عظيمتين، وخُلق لا غبار عليه؛ وكانت كل هذه الكتابات ذات شكل قويم، وتستخدم تعابير مسيحية، ومثلها كمثل كتابات رجل الكنيسة الرفيع المقام وليم لو، ما كان للقارئ العادي أن يميِّزها إلا بفضل إخلاصها وتقواها العظيمين. ولم تكن هذه الحركات قاطبة إلا محاولات لاستخلاص المعاني العميقة والمرامي الأصلية للكتاب المقدس وشرحها، ولإجلاء الحياة

---

26 - اختصار "عضو الجمعية الثيوصوفية"، وأصله بالإنكليزية (م):

F. T. S. = Fellow of the Theosophical Society

27 - 'Theosophical Transactions of the Philadelphian Society,' published in London in 1697.

28 - 'Introduction to Theosophy, or the Science of the Mystery of Christ; that is, of Deity, Nature, and Creature, embracing the philosophy of all the working powers of life, magical and spiritual, and forming a practical guide to the subli-mest purity, sanctity, and evangelical perfection; also to the attainment of divine vision, and the holy angelic arts, potencies, and other prerogatives of the rege-neration,' published in London in 1855.

29 - Unitarians.

30 - 'Theosophical Miscellanies.'

الثيوصوفية والكشف عما استتر منها. بيد أنه سرعان ما طوى النسيان هذه المؤلفات، حتى آلت إلى الجهل بها عموماً. لقد سعت إلى إصلاح الكهنوت وإلى إحياء الورع الأصيل، فلم تُحسَن وِفادتها قط. كانت كلمة "زندقة" وحدها كافية لدفنها في زاوية الإهمال المُعَدَّة لكل المشاريع الطوباوية من هذا النوع. وفي عهد الإصلاح الديني قام جون رويخلِن بمحاولة مماثلة باءت بالنتيجة عينها، رغم أنه كان صديقاً مقرَّباً إلى لوثر وأميناً على سرِّه. فالتقليدية ما كانت لترغب يوماً بالتعلُّم والتنوُّر من أحد. ولقد قيل لهؤلاء ما قال فِسْطُس لبولس من أن تبحُّرهم في العلم قد أفقدهم رشدهم،[31] **وبأن المزيد من التبحُّر سيشكل خطراً عليهم. فإذا جزنا على طاقم المصطلحات الذي كان، عند هؤلاء الكتاب، نتاجاً للعادة وللثقافة من جهة، وللحَجْر الديني عبر السلطان الزمني من جهة ثانية، وشارفنا لب المسألة، وجدنا هذه الكتابات ثيوصوفية بالمعنى الأدق للكلمة، ولا تعالج غير معرفة الإنسان لطبيعته وللحياة العليانية للنفس. لقد أشيع عن الحركة الثيوصوفية أنها ليست إلا محاولة لـ"هداية" العالم المسيحي إلى البوذية، الأمر الذي يعني أن كلمة "زندقة" فقدت كل قدرة لها على الترويع واستعفت من سلطانها. لقد ظهر في كل عصر أفراد تفهَّموا بكثير أو بقليل من الوضوح العقائد الثيوصوفية وخاطوها في نسيج حياتهم. إن هذه العقائد ليست وقفاً على دين بعينه، ولا تنحصر في أي مجتمع أو زمان. فهي الحق الطبيعي لكل نفس بشرية. لذا، فإن على كل فرد أن يستنبط أورثوذكسيَّته بنفسه، بحسب طبيعته وحاجاته، ووفقاً لاختباراته المتنوِّعة. إن هذا ليفسر عجز الذين ظنوا أن الثيوصوفيا إنما هي دين جديد عن اصطياد مذهبها وشعائرها. فمذهبها الأوحد هو الإخلاص للحقيقة، وشعائرها "إكرام كل حقيقة بوضعها موضع التطبيق".**

"وإننا لنفهم إساءة جموع البشر فهم مبدأ الأخوَّة الشاملة، وندرة الإقرار بأهميتها السامية، إذ نعاين تنوع الآراء والتآويل المختلفة فيما يتعلق بالجمعية الثيوصوفية. لقد قامت هذه الجمعية على مبدأ واحد، ألاوهو الأخوة الجوهرية لجميع البشر، كما عرضنا له أعلاه باختصار وبيَّناه بياناً قاصراً. لقد هوجم بوصفه مبدأً بوذياً مناوئاً للمسيحية، كما لو أنه يمكن أن يكون الأمرين معاً، في حين أن كلتا البوذية والمسيحية، كما أعلنهما مؤسِّساهما الملهَمان، تضع الأخوَّة موضع الجوهر، إنْ في العقيدة أو في الحياة. ولقد اعتُبرت الثيوصوفيا أيضاً شيئاً جديداً تحت الشمس، أو في أحسن الأحوال، سرَّانيةً عتيقة انتحلت اسماً جديداً. ولئن صحّ أن جمعيات عديدة، تأسست على مبدأ الإيثار، أو الأخوَّة الجوهرية، واتَّحدت في سبيل نُصرته، حملت أسماء عديدة، يصح أيضاً أن جمعيات عديدة دُعيت كذلك ثيوصوفيةً، واعتنقت مبادئ وأهداف مشابهة لمبادئ الجمعية الحالية الحاملة لهذا الاسم ولأهدافها. ففي تلك الجمعيات طراً، ظلت العقيدة الأساسية واحدة لم تتبدل، وظل كل ماعداها طارئاً؛ على أن هذا لا ينفي أن أشخاصاً ينجذبون إلى العَرَض ويغفلون الجوهر أو يتغاضون عنه."

ليس بوسع أحد أن يقدِّم جواباً على أسئلتك أفضل أو أكثر صراحة من جواب واحد من ثيوصوفيينا الأرفع منزلة والأشد إخلاصاً هذا.

السائل: فأي المناهج، والحال هذه، تفضلون أو تتبعون، ماخلا الأخلاق البوذية؟

---

31 - *أعمال الرسل* 24 :26. (م)

الثيوصوفي: ولا واحد منها، وكلَّها! فنحن لا نتمسك بأي دين بعينه أو فلسفة بعينها، بل نصطفي من كل منها خير ما فيه. ولكن يجدر بنا ههنا أن نصرِّح مجدداً أن الثيوصوفيا، مثلها في ذلك كمثل كل المناهج القديمة، تنقسم إلى شعبة ظاهرية وأخرى **باطنية**.

السائل: وما الفرق بينهما؟

الثيوصوفي: أعضاء الجمعية الثيوصوفية بعامة أحرار في اعتناق أي دين أو فلسفة تروق لهم – أو في عدم اعتناق أي دين أو فلسفة إذا آثروا ذلك – على أن يشايعوا واحداً أو أكثر من الأهداف الثلاثة للجمعية ويكونوا على أهبة الاستعداد لوضعه موضع التطبيق. الجمعية تنظيم مِبَرِّي وعلمي لنشر فكرة الأخوَّة على أسس **عملية** بدلاً من الأسس **النظرية**. ولا يهم بعدئذٍ إن كان أعضاؤها مسيحيين أو محمَّديين، يهوداً أو زردشتيين، بوذيين أو براهمة، روحيين أو ماديين. إلا أن على كل عضو فيها أن يكون إما مبراراً، أو علاَّمة، أي بحَّاثة في الآداب الآرية [32] أو غيرها من الآداب القديمة، أو حتى طالباً نفسانياً. [33] عليه، باختصار، أن يساعد، إن استطاع، في تنفيذ واحد على الأقل من أهداف البرنامج. وإلا فما من سبب وجيه يدعوه لأن يصبح "عضواً". هؤلاء هم الذين يشكلون الأكثرية في الجمعية الظاهرية المؤلفة من أعضاء "ملتحقين" أو "غير ملتحقين". [34] وهؤلاء قد يصبحون ثيوصوفيين بالفعل [35] أو لا. إنهم أعضاء بفضل انضمامهم إلى الجمعية؛ لكن الجمعية لا طاقة لها على جعل مَن يعوزه حسُّ التناسب **الإلهي** بين الأشياء ثيوصوفياً، أو مَن لا يفهم الثيوصوفيا إلا بطريقته **الطائفية** – إذا جاز لنا استخدام التعبير – أو الأنانية. بوسعنا في هذا المقام أن نعدِّل مَثَل "الجميل مَن يصنع الجميل" ليجري على هذا النحو : "الثيوصوفي مَن يصنع الثيوصوفيا". [36]

الثيوصوفيون وأعضاء "ج. ث."

السائل: هذا ينطبق على عموم الأعضاء، كما فهمت. فماذا عن الأعضاء الذين ينكبّون على الدراسة الباطنية للثيوصوفيا؟ هل هم الثيوصوفيون الحقيقيون؟

الثيوصوفي: ليسوا بالضرورة، إلى أن يبرهنوا على ذلك. لقد انضموا إلى المجموعة الباطنة وتعهَّدوا بتطبيق قواعد الجماعة الغيبية بقدر ما يطيقون من

---

32 - المقصود بـ"الآداب الآرية" حصراً نصوص التراث الروحي لكل من الهند وفارس الذي كان الغرب بصدد "اكتشافه" في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وقد لعبت الجمعية الثيوصوفية دوراً حاسماً في هذا الأمر. (م)

33 - "الطالب النفساني" باصطلاح تلك الفترة هو العالم الباحث المهتم بدراسة الظواهر النفسية الخارقة للعادة التي تقع اليوم في مجال تقصِّي علم البارابسيكولوجيا parapsychology. (م)

34 - "العضو الملتحق" هو الذي انضم إلى شعبة معينة من ج. ث. بينما العضو "غير الملتحق" هو الذي ينتمي إلى الجمعية بعامة ويحصل على شهادته من المقر العام (أدِيار، مَدراس) دون أن يكون مرتبطاً بأي شعبة أو محفل.

35 - ورد باللاتينية في النص : *de facto*. (م)

36 - “Handsome is, as handsome does”, “Theosophist is, who Theosophy does”.
وقد جاء في الحديث الشريف في هذا المعنى: "الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل." (م)

التزام. بيد أنه التزام عسير، لأن القاعدة التي تأتي في المقام الأول بين جميع هذه القواعد هي النزول التام للمرء عن شخصيَّته - أي أن على كل عضو **عاهد** أن يصير غيرياً مكمَّلاً، لا يفكر في نفسه البتة، وينسى عجبه وكبرياءه في غمرة افتكاره في خير إخوته البشر، عدا خير رفاقه في الحلقة الباطنية. فإذا شاء أن يفيد من الإرشادات الباطنية، عليه أن يحيا حياة تعفُّف في كل شيء، حياة إنكار للذات وخُلق قويم، مؤدِّياً واجبه حيال جميع البشر. [37] إن حفنة الثيوصوفيين الحقيقيين في ج. ث. تنتمي إلى هؤلاء. لكن هذا لا يعني ضمناً عدم وجود ثيوصوفيين خارج ج. ث. والحلقة الباطنة؛ فهناك ثيوصوفيون خارجهما، وأكثر مما يُظن؛ لا بل بالتأكيد أكثر بكثير ممَّن نجد منهم بين **عموم** أعضاء الـ ج. ث.

السائل: فما الخير، إذن، والحالة هذه، في الانضمام إلى الجمعية الثيوصوفية المزعومة ؟ وأين الحافز إلى ذلك؟

الثيوصوفي: ما من حافز إلا طائلة الحصول على إرشادات باطنية، هي العقائد الصحيحة لـ"دين الحكمة"، وفي حال تنفيذ البرنامج الحقيقي، استمداد الكثير من العون من التعاون والمودة المتبادلين. الاتحاد قوة وتناغم، والجهود الحسنة التنسيق والمتواقتة تجترح المعجزات. ذلكم سر كل الجمعيات والجماعات منذ فجر الإنسانية.

السائل: ولكن لم لا يستطيع امرؤ راجح العقل ومفرد القصد، ولنقل صاحب طاقة وعزم لا يلينان، أن يصبح عالماً بالغيب أو حتى ناطساً إذا عمل بمفرده؟

الثيوصوفي: إنه قد يستطيع ذلك، لكن احتمال فشله يساوي ألفاً مقابل واحد. ومن جملة الأسباب عدم توفُّر كتب في الغيبيَّات والثيورجيا في يومنا هذا تشي بأسرار الخيمياء وثيوصوفيا العصر الوسيط بصريح العبارة. فكلُّها مكتوب

---

37 - في عام 1890 نشرت السيدة بلافاتسكي، في وقت كانت تتعرض فيه لأشرس الهجمات وأبشع الاتهامات، نص "الدرجات الذهبية" الذي كان لابد لمريد الشعبة الباطنية من التحقق بفضائله لكي يكون حقيقاً بالترقِّي في معارج المعرفة. بعد ذلك بعام أعيدت صياغة هذه "الدرجات" بعد تعديلها تعديلاً طفيفاً برزت ضرورته نتيجة سوء تفسير بعضهم بعضَ ما جاء فيها. بيد أننا نعتمد هنا النص الأصلي لاعتقادنا أنه أكثر أمانة للروح التي أرادت هـ. ب. ب. بثَّها فيه (م):

"هي ذي الحقيقة أمامك: حياة طاهرة، فكر منفتح، قلب نقي، عقل متشوِّق، بصيرة روحية غير محجوبة، سلوك أخوي نحو الرفيق التلميذ، استعداد لإسداء النصح والإرشاد وتلقِّيهما، شعور مخلص بالواجب نحو المعلِّم، طاعة راغبة لفروض الحقيقة متى وضعنا ثقتنا في ذلك المعلِّم وآمنَّا أن الحقيقة في حوزته؛ احتمال شجاع للجور الذي ينزل بنا، جهر جسور بالمبادئ، استبسال في الدفاع عمّن يعتدى عليهم بغير حق، ووضع نصب العين دوماً مثال التقدم والكمال الإنسانيين الذي يصفه العلم السري (**دُيْتى-فِدْيا**) - تلكم هي الدرجات الذهبية التي يجب على المتعلِّم أن يرقاها حتى هيكل الحكمة الإلهية."

[H.P.B., *Collected Writings*, Vol. XII, Theosophical Publishing House, 1980, p. 503.]

بلغة رمزية أو بالأمثال. ولما كان تأويلها قد فُقِد في الغرب منذ دهور، كيف يكون للمرء أن يتعلَّم المغزى الصحيح مما يقرأ ويدرس؟ ههنا مكمن الخطر الأعظم، الخطر الذي يقود إلى السحر **الأسود** اللاواعي أو إلى أشد ضروب الوساطة عجزاً. فالأحرى بمن لا يأخذ العلم عن مسارَر أن يكف يداً عن الدرس الخطِر بمفرده. انظر حولك ولاحظ ما يجري. فبينما يهزأ ثلثا المجتمع **المتمدِّن** بمجرد وجود شيء ما في الثيوصوفيا وعلم الغيب والأرواحية أو في القبَّاله، يتألف الثلث الثالث من عناصر أشد ما تكون تبايناً وتعارضاً. فبعضهم يأخذ بالوجه السرَّاني، وحتى بالوجه **الفائق للطبيعة** (!)، إنما كل على طريقته. ويندفع بعضهم الآخر بمفرده في درس القبَّاله، أو النفسانية، أو المِسْمِرية، أو الأرواحية، أو شكل ما من أشكال السرَّانية. فماذا تكون عليه النتيجة؟ لا يتشابه إثنان في التفكير، أو يتَّفقان حول أية مبادئ غيبية أساسية، رغم وجود العديد ممَّن يدَّعون لأنفسهم حيازة الكلمة الفصل في المعرفة، ويوهِمون البرانيين أنهم نُطساء كُمَّل. الغرب ليس تعوزه المعرفة العلمية الدقيقة لعلم الغيب وحسب – بما فيها معرفة علم النجوم الحق، وهو الفرع الوحيد بين فروع علم الغيب الذي يتصف، في تعاليمه **الظاهرية**، بقوانين محددة ونظام -، بل ما من أحد تخطر في باله فكرة عما يعني علم الغيب الحق. بعضهم يحدُّ الحكمة القديمة بـ **القبّالة** و **سِفْر الزاهر** اليهودي الذي يؤوِّله كلٌّ بحسب طريقته طبقاً للحرف الميت للمناهج الربَّانية. ويعتبر سواهم سويدنبرگ أو بوهْمِه أقصى تعبير عن أسمى درجات الحكمة، بينما يرى آخرون أيضاً في المسمِرية أعظم أسرار السحر القديم. بيد أن جميع مَن يضعون نظريتهم موضع التطبيق، بغير استثناء، سرعان ما ينجرفون، من جرَّاء جهلهم، إلى السحر الأسود. وطوبى للناجين منه، لأنهم لا يقفون على أي اختبار أو دستور يميِّزون به الحق من الباطل.

السائل: هل لنا أن نفهم أن الزمرة الباطنة لـ ج. ث. تزعم أنها تأخذ من العلم ما تأخذ عن مُسارَرين أو سادة حقيقيين للحكمة الباطنية؟

الثيوصوفي: ليس مباشرة. إذ ليس الحضور الشخصي لمثل هؤلاء السادة ضرورياً. حسبهم أن يعطوا إرشادات إلى بعضهم ممَّن درس عليهم سنوات، ونذر حياته كلها لخدمتهم. عندئذٍ يستطيع هؤلاء بدورهم أن ينقلوا المعرفة التي أُفضِي بها إليهم على هذا النحو إلى غيرهم ممَّن لم تتح لهم فرصة كهذه. إن حصة صغيرة من العلوم الحقيقية لهي خير من كتلة من العلم غير مهضومة أسيء فهمها، وإن أوقية من الذهب لتَعدِل طناً من التراب.

السائل: ولكن كيف للمرء أن يدري فيما إذا كانت الأوقية ذهباً حقاً أم مزيفة؟

الثيوصوفي: الشجرة تُعرَف من ثمارها، والنهج من نتائجه. ويوم يتمكَّن خصومنا أن يبرهنوا لنا أن دارساً منفرداً واحداً لعلم الغيب أضحى ناطساً قدُّوساً من عيار أمُّونيوس ساكَّاس، أو حتى أفلوطيناً، أو ثيورجياً مثل يمبليخوس، أو قام بأعمال باهرة كالتي نُسِبت إلى سان جِرمان، بدون أي معلِّم

يرشده، وكل هذا بدون أن يكون وسيطاً، أو نفسانياً ضلّل نفسه، أو دجالاً – إذ ذاك سوف نعترف أننا على باطل. فإلى أن يتم ذلك، يفضِّل الثيوصوفيون أن يتبعوا القانون الطبيعي الثابت لمنقول العلم القدسي. هنالك سرَّانيون قاموا باكتشافات عظيمة في الكيمياء والعلوم الفيزيائية، تكاد تحاذي الخيمياء وعلم الغيب؛ وهنالك غيرهم عاودوا، بمعونة عبقريتهم وحدها، اكتشاف أجزاء من الأبجديات المفقودة لـ"لغة الأسرار"، إنْ لم يكن كلها، واستطاعوا بذلك أن يقرأوا اللفائف العبرية على الوجه الصحيح؛ وهنالك غيرهم من الرَّائين أبصروا **لمحات** مذهلة من الأسرار الخفية للطبيعة. بيد أن هؤلاء جميعاً **اختصاصيون**. أحدهم مبتكر نظري، وثانيهم قبَّالي عبراني، أي طائفي، وثالثهم سويدنبرگ من الأزمنة الحديثة، يتنكَّر لكل مَن وكل ما يقع خارج علمه أو دينه. فليس لأحدهم أن يباهي بتقديم نفع عميم أو حتى وطني بهذا الخصوص، ولا حتى لنفسه. وباستثناء بضعة شُفاة – من تلك الفئة التي ترميها الكلِّية الملكية للأطباء أوالجراحين بالدجل – لم يساعد واحد منهم البشرية بعلمه، ولا حتى عدداً من الناس من قومه. أين هم من الكلدانيين الأقدمين – أولئك الذين أجروا أشفية رائعة، "ليس بالتعاويذ إنما بالنباتات الطبية"؟ أين هم من أبولونيوس التياني الذي أبرأ المرضى وأقام الموتى في كل مناخ وتحت أي ظروف؟ نحن نعرف بعض **الاختصاصيين** من الفئة الأولى في أوروبا، لكننا لا نعرف أحداً من الثانية – اللهم إلا في آسيا حيث لايزال سر اليوگانيين، "الحياة في الموت"، مصوناً.

السائل: فهل تهدف الثيوصوفيا إلى تنشئة نطساء كهؤلاء لديهم القدرة على الشفاء؟

الثيوصوفي: إنها متعددة الأهداف، لكن أهمها جميعاً تلك الأهداف التي تصلح لتفريج الشقاء البشري بكل صوره، المعنوية منها والمادية. وباعتقادنا أن الأولى أهم من الثانية بكثير. فعلى الثيوصوفيا أن تنهض بتلقين الأخلاق؛ عليها أن تنقِّي النفس، إن هي شاءت أن تفرِّج عن الجسم الجُرْماني الذي تعود جميع علله، ماخلا حالات الحوادث، إلى منشأ وراثي. إن بلوغ المرء الغاية الحقة المتمثِّلة في مدِّ يد العون إلى البشرية الشقية، ليس يتم بدرس علم الغيب لمآرب أنانية، أو من أجل إرضاء المطامح الشخصية والكبرياء أو الغرور. كما أن المريد لايصبح عالماً بالغيب بدرس فرع واحد من فروع الفلسفة الباطنية، بل بدرسها، إن لم يكن بإتقانها جميعاً.

السائل: أتكون المساعدة على بلوغ هذه الغاية العظيمة الأهمية، إذن، حكراً على دارسي العلوم الباطنية وحدهم؟

الثيوصوفي: لا، على الإطلاق. فكل واحد من **عموم** الأعضاء مخوَّل بالحصول على إرشادات عامة إنْ هو شاء ذلك؛ بيد أن الراغبين أن يصبحوا ما يُدعى "أعضاء عاملين" قلَّة، وتَقنَع الغالبية بدور **يعاسيب** الثيوصوفيا. ألا فليُعلَم أن البحوث الفردية تلقى كل التشجيع في ج. ث.، على ألا تتخطى الحدَّ الذي يفصل الظاهر عن الباطن، السحر **الأعمى** عن السحر **الواعي**.

الفرق بين الثيوصوفيا وعلم الغيب

السائل: إنك تتحدث عن الثيوصوفيا وعن علم الغيب؛ فهل هما متطابقان؟

الثيوصوفي: ولا بوجه من الوجوه. فقد يكون أحدهم ثيوصوفياً ممتازاً بحق، سواء **داخل** الجمعية أو **خارجها**، بدون أن يكون بحال من الأحوال عالماً غيبياً. بيد أنه ليس بوسع أحد أن يكون عالماً غيبياً حقاً بدون أن يكون ثيوصوفياً حقاً؛ وإلا فإنه ببساطة ساحر أسود، واعٍ أو غير واعٍ.

السائل: ماذا تعني؟

الثيوصوفي: سبق لي أن قلت إن على الثيوصوفي الحق أن يضع أسمى المثل الخلقية موضع التطبيق وأن يجاهد لتحقيق وحدته مع البشرية بأسرها، ويعمل بلا هوادة من أجل الآخرين. على هذا الأساس، إذا لم يقم عالم الغيب بكل هذا، فلابد أنه يعمل بدافع أناني من أجل منفعته الشخصية. وإذا كان قد حصَّل قدرة عملية أكبر مما لدى غيره من العاديين من البشر، فسرعان ما يصير عدواً للعالم ولمن حوله أخطر بما لا يقاس من العادي من الناس. وهذا واضح.

السائل: أيكون عالم الغيب إذن مجرد امرئ يملك قدرة أكبر من غيره من الناس؟

الثيوصوفي: أكبر بكثير – على أن يكون عالماً بالغيب **عملياً** ومتضلِّعاً بحق، وليس عالماً بالغيب بالاسم وحسب. فالعلوم الغيبية **ليست**، كما تصفها الموسوعات، "تلك العلوم **الخيالية** في العصور الوسطى التي تتناول الفعل أو التأثير **المزعوم** للمزايا الغيبية أو القوى الخارقة، كالخيمياء، والسحر، واستحضار الأرواح، والتنجيم"، إذ إنها علوم حقيقية، فعلية وخطرة جداً. فهي تعلِّم السطوة السرية للأشياء في الطبيعة، وتنمية القدرات الخفية "الكامنة في الإنسان" وتفتيحها، وبذلك تمنحه مزايا هائلة على البشر الأجهل منه. والتنويم [المغناطيسي] الذي بات شديد الشيوع وموضعاً للتقصِّي الجاد مثال جيد بهذا الصدد. لقد تم اكتشاف القدرة **التنويمية** بما يشبه المصادفة، بعد أن مهَّدت المسمرية الطريق إليها. واليوم صار في مستطاع منوِّم قدير أن يفعل بها كل شيء تقريباً ابتداءً بإكراه رجل، على نحو غير واعٍ لذاته، على التهريج، وانتهاءً بجعله يرتكب جريمة – بالنيابة عن المنوِّم، و**لمصلحته**، في أغلب الأحيان. أوليست هذه القدرة قدرة رهيبة إذا تُركت بين أيدي أناس لا يتورعون عن شيء؟ والرجاء أن تتذكر أن التنويم ليس إلا واحداً من الفروع الثانوية لعلم الغيب.

السائل: أفلا يعتبر أكثر الناس ثقافة وعلماً كل هذه العلوم الغيبية، كالسحر والشعوذة، بوصفها رفات الجهل والتطيُّر الباليين؟

الثيوصوفي: دعني أذكِّرك أن ملاحظتك هذه ذات حـدَّين. فـ"أكـثركم ثقافـة وعلماً" يعتبرون المسـيحية وكـل ديـن آخـر أيضـاً مـن رفـات الجهـل والتطيُّـر. وكيفما كان الأمر، فقد بدأ الناس اليوم يعتقدون بـ**التنويم**، وبعضهم – حتى من بين **الأكثر ثقافة** – بالثيوصـوفيا وبـالظواهر الخارقـة. ولكـن مَـن مِـن بينهـم، اللهـم إلا الوُعَّـاظ والمتعصِّـبين العميـان، يقـر بإيمـانه بـ**ـمعجزات الكتـاب المقدس**؟ هنا تكمن نقطة الخلاف. هنالـك ثيوصـوفيون ممتـازون وأنقيـاء قـد يؤمنون بالخوارق، بما فيها **المعجزات** الإلهية، إنما ما مِن عـالِم بـالغيب يـؤمن بها قط. فعالِم الغيب يزاول الثيوصوفيا **العلمية** التي تقوم على معرفة دقيقـة بالعمليات السرِّية للطبيعة. أما الثيوصـوفي الـذي يتعامـل والقـدرات المـدعوة بالشاذة، فلسوف ينزع ببساطة إلى شكل خطـر مـن أشـكال الوسـاطة، لأنـه، رغم ثباته على الثيوصوفيا وعلى قواعدها الأخلاقية – أسمى القواعـد الأخلاقيـة القابلة للتصوُّر، فإنه يعمل في الظلمة، امتثالاً لإيمان مخلص لكنه **أعمى**. فكل من يهتم، ثيوصوفياً كان أم أرواحياً، بتنمية فـرع مـن فـروع العلـم الغيـبي – أي التنويم، أو المسمرية، أو حتى أسرار إجراء الظواهر الجسمانية الخارقة، إلخ. – بدون الوقوف على **التعليل** الفلسفي لتلك القدرات، لقمين أن يصـبح كقـارب بلا دفة، مبحر في محيط مائج.

الفرق بين الثيوصوفيا والأرواحية

السائل: أفلا تؤمنون بالأرواحية؟

الثيوصوفي: إذا كنت تعني "الأرواحية" التعليل الذي يقدِّمه الأرواحيون لعـدد من الظواهر الشاذة، فإننا قطعاً **لا نؤمن** بها. إنهم يجزمون أن هـذه الظـواهر قاطبة من صنع "أرواح" بشر راحلين، مـن أقـاربهم عمومـاً، تعـود إلـى الأرض، على حد زعمهم، للاتصال بمن أحبوا وبمن هم متعلِّقون. أما نحـن فنتنكَّـر لهـذه الفكرة بشدة، ونجزم أن أرواح الموتى يتعذر عليها أن تعود إلى الأرض – اللهـم إلا في حالات نادرة واستثنائية قد أتكلم عليها فيما بعد، كما أنها لا تتصل بالبشـر إلا **بوسـائل محـض ذاتيـة**. فمـا يظهـر موضـوعياً مـاهو إلا شـبح الإنسـان الجسماني السابق. أما الأرواحية **النفسانية** أو "الروحانيـة"، إذا جـاز التعـبير، فنؤمن بها جزماً.

السائل: وهل تنبذون الظواهر أيضاً؟

الثيوصوفي: بالتأكيد لا ننبذها – اللهم إلا حالات الاحتيال العمد.

السائل: فكيف تعلِّلونها إذن؟

الثيوصوفي: بطـرق عديـدة. فأسـباب تجلِّيـات كهـذه ليسـت بـأي حـال مـن الأحوال بالبساطة التي يحلو للأرواحيين أن يحسبوها. والإله [المُنزَل] بواسـطة

آلة [38] لـ"التجسُّمات" المزعومة بادئ ذي بدء هو عادة الجسم النجمي للوسيط أو لأحد الحضور أو "صنوه". إن هذا الجسم **النجمي** هو المولِّد أو القوة الفاعلة في تجلِّيات الكتابة على الصفَّاح والتجلِّيات من نمط "دافنبورت"، [39] إلخ.

السائل: تقول "عادة"؛ **ما** الذي يتسبب في حدوث الظواهر الباقية؟

الثيوصوفي: ذلك يتوقف على طبيعة التجلِّيات. فقد يكون أحياناً الرميم النجمي، أي "الأصداف" **الكامَلوكية** لـ**لشخصيات** التي سبق ارتحالها؛ وهو في مرات أُخَر عنصرانيات. إن لكلمة "روح" معاني متعددة ومدلولاً واسعاً. ولست أدري حقاً ماذا يقصد الأرواحيون بالمصطلح، لكن ما نفهمه مما يزعمون هو أن الظواهر الجسمانية من صنع **الأنية** المعاودة للتجسُّد، "الفردية" **الروحية** الخالدة. نحن نرفض هذه الفرضية جملةً لأن **الفردية** الواعية غير المتجسِّدة **لا تستطيع أن تتجسَّم**، وبالمثل، لا تستطيع أن تعود من فلكها الديفاخاني إلى مرتبة الموضوعية الأرضية.

السائل: لكن العديد من المخابرات المتبلَّغة من "الأرواح" لا تشهد على ذكاء وحسب، بل وعلى معرفة حقائق لا يعرفها الوسيط، وأحياناً غير حاضرة حضوراً واعياً في ذهن المحقِّق، أو ذهن أيٍّ من الذين يكوِّنون الحضور.

الثيوصوفي: هذا لا يثبت بالضرورة أن الذكاء والمعرفة اللذين تتحدث عنهما يخصان **أرواحاً**، أو تصدر عن نفوس غير متجسِّمة. لقد عُرِف السائرون في نومهم بتأليف الموسيقى وقرض الشعر وبحل مسائل رياضية في أثناء وجودهم في حالة غشية، بدون أن يكونوا تعلَّموا الموسيقى والرياضيات يوماً. كما أجاب غيرهم بذكاء على أسئلة طُرِحت عليهم، وحتى، في حالات متعددة، تكلموا بلغات، كالعبرية واللاتينية، كانوا على جهل تام بها في صحوهم – وكل هذا في حالة من النوم العميق. أفهل تصرُّ، عندئذٍ، أن "الأرواح" من وراء هذا أيضاً؟

السائل: فكيف تفسِّرها إذن؟

---

38 - باللاتينية: *deus ex machina*. يعيد هذا التعبير إلى الأذهان المسرح القديم حيث كانت تُستخدم تركيبة آلية لإظهار أحد الآلهة إظهاراً استعراضياً في عيون النظارة من أجل حل عقدة صعبة؛ ويشير التعبير في كلام بلافاتسكي إلى تأثير مجهول الطبيعة يتدخل في الوقت المناسب لصنع مفعول "عجائبي" ظاهرياً. (م)

39 - كان الشقيقان دافنبورت وسيطان أرواحيان؛ وقد جاء في كتاب السيدة بلافاتسكي *إيزيس سافر* إنهما خرجا من السجن بدون ذكر تفاصيل إضافية. إنما في المجلد الثالث من *الأعمال الكاملة*، ص 15، في مقال بعنوان "الفيزياء التجاوزية" (ظهر في المجلد الثاني من مجلة *الثيوصوفي*، شباط 1881) نقرأ، بعد تعداد للظواهر التي يُحدثها الوسطاء الأرواحيون، ما يلي : "[...] كان الشقيقان دافنبورت يبديان أيادي منفصلة عن نافذة حجرتهما، وآلات موسيقية تطير عبر الجو [...]". (م)

[H. P. B., “Transcendental Physics”, *C. W.*, Vol. III, p. 15.]

الثيوصوفي: نحن نزعم أن الشرارة الإلهية في الإنسان، إذ هي واحدة ومتماثلة في جوهرها مع الروح الشاملة، فإن "ذاتنا الروحية" عليمة عملياً بكل شيء، بيد أنها لا تستطيع أن تبيِّن معرفتها نظراً لعراقيل المادة. لذا فإننا كلما أزلنا هذه العراقيل، وبعبارة أخرى، كلَّما شُلَّ الجسم الجُرُماني فيما يختص بنشاطه ووعيه المستقلين، كما في النوم أو السبخة العميقين، أو كما في المرض أيضاً، تجلَّت الذات **الباطنة** تجلِّياً أكمل على هذه المرتبة. ذلكم هو تفسيرنا لتلك الظواهر المذهلة حقاً التي تنتمي إلى رتبة أعلى، تتجلى فيها فطنة ومعرفة لا لبس فيهما. أما فيما يتعلق بالرتبة الدنيا للظاهرات، كالظواهر الجسمانية والتُرَّهات والكلام المبتذل الذي تنطق به "الروح" بعامة، فإن تفسير أبرز التعاليم التي في عهدتنا حول الموضوع وحده سيشغل حيِّزاً ووقتاً أكثر مما هو مخصَّص له في الوقت الحاضر. ليس في نيتنا التدخل في معتقد الأرواحيين أو في أي معتقد آخر. على المؤمنين بـ"الأرواح" أن يأخذوا عبء البرهان [40] على عاتقهم. وفي الوقت الحالي، بينما لايزال الأرواحيون مستيقنين أن النوع الرفيع من الظاهرات يحدث من خلال الأرواح غير المتجسِّمة، فإن قادتَهم وأوفرهم ثقافة وفطنة هم أول من يعترف أن الظواهر ليست كلُّها من صنع الأرواح. ولسوف يتوصَّلون تدريجياً إلى الإقرار بالحقيقة كلها؛ لكننا في هذه الأثناء لا نملك الحق ولا الرغبة في جرِّهم إلى اعتناق وجهات نظرنا. وهو عين موقفنا في يخص الظاهرات النفسانية والروحانية الصرفة حيث نؤمن بتخابر روح الإنسان الحي مع روح الشخصيات غير المتجسِّمة. [41]

السائل: هذا يعني أنكم ترفضون فلسفة الأرواحية برمتها؟

الثيوصوفي: قطعاً، إذا كنت تعني بكلمة "فلسفة" نظرياتهم الغشيمة. لكنهم في الحقيقة لا يملكون فلسفة. إن خيرتهم، أشد المدافعين عنهم فكراً وجدِّية يقولون ذلك. أما حقيقتهم الأساسية التي وحدها لا يشوبها عيب، ألا وهي أن الظواهر تجري من خلال الوسطاء الواقعين تحت سلطان قوى وفطنات خفية، فمامن أحد، اللهم إلا واحد من الماديين العميان من مدرسة هكسلي لقمين أن ينكرها أو يستطيع ذلك. أما فيما يخص فلسفتهم فدعني أقرأ لك ما يقول عنهم وعن فلسفتهم محِّرر [جريدة] النور [42] القدير الذي لن يجد الأرواحيون نصيراً أحكم أو أوفى منه. إليك ما كتب م. أ. أوكسُن، أحد

---

40 - باللاتينية في النص: *onus probandi*. (م)

41 - نقول في مثل هذه الحالات أنْ ليست **أرواح** الموتى هي التي **تنزل** على الأرض، بل أرواح الأحياء هي التي **تعرج** إلى النفوس الروحانية الطاهرة. والحق إنه ليس ثمة لا **عروج** ولا **نزول**، إنما تبدُّل في **حالة** الوسيط أو **حاله**. فإن جسمه إذ ينشلّ أو "يغشى"، تنفلت الأنية الروحانية من عقالها وتجد نفسها على مرتبة وعي الأرواح غير المتجسِّمة نفسه. كذا فإنه إذا وُجِد جذبٌ روحي بين الاثنتين **يمكنهما التواصل**، كما يحدث مراراً في الأحلام. أما الفارق بين طبيعة وساطية وأخرى غير حساسة فهو التالي: إن روح الوسيط المتحررة تتيسر لها فرصة التأثير على الأعضاء المنفعلة لجسمه المغشي عليه وجعلها تفعل وتنطق وتكتب على المراد. إن بوسع الأنية أن تجعله يردد كالصدى، باللغة البشرية، خواطر الكيان غير المتجسِّم وأفكاره، بالإضافة إلى أفكارها وخواطرها هي. لكن البنية **غير المستقبلة** وغير الحساسة لشخص وضعي جداً لا يمكن التأثير فيها على هذا النحو. من هنا فإنه، على تعذر وجود إنسان لا تتواصل أنيَّته تواصلاً حراً إبان نوم جسمه مع الذين أحبتهم وفقدتهم، لا تستبقي ذاكرة الشخص عندما يصحو من هذا التواصل أي استذكار، اللهم إلا تذكرة أحلامية مبهمة، بسبب من وضعيَّة غلافه الجسماني ودماغه وعدم قابليتهما للتلقي.

42 - مجلة *Light* من أهم المجلات المتخصصة في نشر أفكار الحركة الأرواحية في تلك الفترة. (م)

الأرواحيين **الفلسفيين** القلائل، بصدد نقص التنظيم لديهم وتعصُّبهم الأعمى: -

"إن إمعان النظر في هذه النقطة لمن الضرورة بمكان نظراً لأهميتها الحيوية. لدينا تجربة ومعرفة تصبح كل معرفة بالمقارنة معها طفيفة. الأرواحي العادي يغتاظ إذا تجرأ أحدهم وفنَّد معرفته الواثقة بالمستقبل ويقينه المطلق في الحياة الآتية. فحيث يمدُّ غيره من البشر أيادي واهنة تتلمس طريقها في المستقبل المظلم يسير هو بجسارة كمن يمتلك خريطة ويعرف طريقه, حيث توقف غيره من البشر عند مطمح ورِع أو ارتضوا إيماناً وراثياً، فمن دواعي فخره أنه يعرف ما يكتفون بالإيمان به، وأنه يستطيع بفضل مخازنه الغنية أن يتدارك المعتقدات المتداعية المشيدة على الأمل وحده. إنه رائع في معالجته أقرب آمال الإنسان إلى قلبه. إنه كمن يقول: "إنكم تتطلَّعون إلى ما أستطيع أن أبرهن عليه. لقد قبلتم معتقداً تقليدياً فيما أستطيع أن أثبته تجريبياً بحسب أشد مناهج العلم صرامة. المعتقدات القديمة تتداعى؛ اخرجوا منها وكونوا مستقلين. إنها تحوي من البهتان بقدر ما تحوي من الحقيقة. لن يكون شموخ بنائكم ثابتاً مالم تبنوا على أساس متين من الوقائع التي لا يتطرق إليها الشك. كل المعتقدات تنهار من حولكم. تجنبوا الكارثة واخرجوا منها."

"ولكن حينما يصل الأمر إلى التعامل عملياً مع هذا الشخص الرائع، ماذا تكون النتيجة؟ غريبة جداً ومخيِّبة للآمال جداً. إنه شديد الثقة في حجَّته إلى حدٍّ أنه لايكلِّف نفسه عناء التحقُّق من التأويلات التي يقدِّمها الآخرون لوقائعه. لقد عَنِيَت حكمة العصور بإيجاد تفسير لما يعتبره صواباً مبرهناً عليه. لكنه لا يلقي نظرة عابرة على أبحاثها. إنه حتى لا يتفق مع أخيه الأرواحي كل الاتفاق. إن هذا ليعيد إلى أذهاننا قصة الاسكتلندية العجوز التي شكَّلت مع زوجها "كنيسة" [43] . وحدهما كانا يملكان مفاتيح السموات، أو بالحري وحدها، لأنها "لم تكن واثقة تماماً من جيمي". [44] على النحو نفسه تهز مذاهب الأرواحيين المنقسمة والمعاودة للانقسام والمعاودة لمعاودة الانقسام إلى مالانهاية رؤوسها، و"واحدها غير واثق تماماً من الآخر". وهنا أيضاً، تبقى التجربة الجماعية للبشرية حول هذه النقطة صامدة لا تتبدل، ألا وهي أن الاتحاد قوة، والتفرقة مصدر للضعف والفشل. والرعاع، إذ يُدرَّبون وينظَّمون، يصبحون، كتفاً إلى كتف، جيشاً كل جندي فيه ند لمئة من الرجال غير المنظَّمين ممَّن قد يحملون عليه. التنظيم في كل قطاع من النشاط البشري يعني النجاح وتوفير الوقت والمجهود والفائدة والتنمية. أما غياب المنهج ونقص التخطيط والعمل العشوائي والنشاط المتقطِّع والجهد غير المنظَّم – كلها يعني الفشل الذريع. إن صوت البشرية ليصادق على هذه الحقيقة. هل يقبل الأرواحي بهذا الحكم ويتصرف وفقاً للنتيجة؟ حقاً لا يفعل. إنه يرفض التنظيم. إنه قانون لنفسه، وشوكة في جنب جيرانه." [45]

السائل: قيل لي إن الجمعية الثيوصوفية تأسست في الأصل بغرض سحق الأرواحية والاعتقاد ببقاء الفردية في الإنسان؟

الثيوصوفي: لقد نُقِل إليك خبر غير صحيح. فمعتقداتنا كلها قائمة على تلك الفردية الخالدة. لكنك، مثلك كمثل الكثيرين غيرك، تخلط بين **الشخصية**

43 - باللهجة الاسكوتية في النص: kirk . (م)

44 - باللهجة الاسكوتية في النص:"na certain aboot Jamie". (م)

45 - *Light*, June 22, 1889.

والفردية. يبدو أن علماءكم النفسيين الغربيين لم يقيموا أي تمييز بين الاثنـتين، مع أن الفرق هو الذي يزودنا بالمفتاح لفهـم الفلسـفة المشـرقية، والـذي يعـود إليه أصل الانشعاب بين التعاليم الثيوصوفية والتعـاليم الأرواحيـة. ومـع أنـه قـد يثير ضدنا حفيظة عدد من الأرواحيين، أجد من واجبي أن أصرح بأن الثيوصـوفيا هي الأرواحية **الحقة** التي لا تشـوبها شـائبة، [46] فـي حيـن أن النمـوذج الحـديث الحامل هذا الاسم، كما يمارسه الجمهور اليوم، هو ببساطة مادية مترفِّعة.

السائل: اشرح أرجوك فكرتك بوضوح أكثر.

الثيوصوفي: ما أعنيه هو أن تعاليمنا تشدد على تماثـل الـروح والمـادة، ومـع أننا نقول بأن الروح مادة **بالقوّة**، وبأن المادة إنمـا هـي ببسـاطة روح متكثِّفـة (كما أن الجليد هو بخار متجمِّـد)، فإننـا، مـن حيـث إن الحالـة الأصـلية والأزليـة للـ**كل** ليست الروح بل **مابعد**-الروح، إذا جاز التعبير (والمـادة المرئيـة الصـلبة إنْ هي ببساطة إلا تجلِّيها الـدوري) ، فإننـا نقـول بـأن مصـطلح روح لا يصـح أن يطبَّق إلا على الفردية **الحقة**.

السائل: ولكن ما الفرق بين هذه "الفردية الحقة"' و"الأنا" أو "الأنيَّة" التي نعيها جميعاً؟

الثيوصوفي: قبل أن أستطيع الإجابة عليك علينا أن نناقش ما تعنيه بــ"الأنـا" أو "الأنيَّة". فنحن نميز بين وعي الذات البسيط، الشعور البسيط بــ"أنَّنـي أنـا"، والفكرة المعقَّدة بـ"أنني السيد فلان" أو "السيدة فلانة". ولما كنا نعتقد بوجـود سلسلة من الولادات للأنية نفسها، أو بالعَوْد إلى التجسُّد، فـإن هـذا التمييـز هـو المحور الأساسي للفكرة برمَّتها. أنت ترى بأن "السيد فلان" يعني في الحقيقة سلسلة طويلة مـن التجـارب اليوميـة المشـدودة واحـدتها إلـى الأخـرى بخيـط الذاكرة، تشكِّل ما يدعوه السـيد فلان "ذاتــه". لكـن مـا مـن واحـدة مـن هـذه "التجارب" هي الـ"أنا" أو الأنية، ولا ه ي تمنـح "السـيد فلان" الشعور بـأنه هـو ذاته، لأنه ينسى الجانب الأعظم من تجاربه اليوميـة الـتي لا تولِّـد لـديه الشـعور بـ**أنيَّته** إلا حين تدوم. لذا فإننـا نحـن الثيوصـوفيين نميـز بيـن هـذه الصـرَّة مـن "التجارب" التي ندعوها الشخصـية الزائفـة (لأنهـا محـدودة وسـريعة الـزوال)، وذلك العنصر في الإنسان الذي يعود إليه الشعور بـ"أنني أنا". إن هذه الــ"إننـي أنا" هي التي ندعوها الفردية **الحقة**، ونقول بأن هذه "الأنية" أو الفردية تلعب، كالممثل، أدواراً عديدة على خشبة مسـرح الحيـاة. [47] فلنـدْعُ كـل حيـاة جديـدة للأنيـة نفسـها علـى الأرض **سـهرة** علـى خشـبة أحـد المسـارح. فـي إحـدى السهرات يظهر الممثل، أو "الأنية"، في دور "مكبث"، وفي السهرة الـتي تليهـا في دور "شايلوك"، وفي السهرة الثالثة في دور "روميو"، وفي الرابعة في دور

---

46 - استُخدمت كلمة Spiritualism الانكليزية التي تعني مبدئياً "روحانية" في الحلقات الأنكلوسكسونية لتحضير الأرواح بمعنى "أرواحية" اعتباراً من النصف الثاني للقرن التاسع عشر (تقابلها بالفرنسية كلمة spiritisme) ، الأمر الذي نجم عنه شيء من اللبس استفادت منه السيدة بلافاتسكي هنا للمفاضلة بين الثيوصوفيا والأرواحية، على اعتبار أن "الثيوصوفيا هي الأرواحية ("النفسانية" أو "الروحانية") **الحقة** التي لا تشوبها شائبة". (م)

47 - انظر أدناه "في الفردية والشخصية". [الفصل الثامن – (م)]

"هملت" أو "الملك لير"، وهلمَّ جرًّا، حتى يكون قطـع دورة التجسُّـدات كاملـة. وتبدأ الأنية رحلة حجٍّ حياتها "جنيّاً" أو "عفريتـاً"؛ ثـم تـؤدي دوراً صـامتاً، فتكـون جندياً، ثم خادماً، فواحداً من الجوقة؛ ومن بعد تتوقل إلى "الأدوار المحكية"، ثم تؤدي أدواراً قيادية تتخلَّلها أدوار تافهة، حتى تنسحب أخيـراً مـن علـى الخشـبة بعد أن تكون لعبت "بروسبيرو" **الساحر**.

السائل: فهمت. أنتم تقولون، إذن، بأن **الأنية** الحقـة لا تسـتطيع أن تعـود إلـى الأرض بعـد الموت. لكن أليس للممثـل الحريـة بالتأكيـد، إذا احتفـظ بالإحسـاس بفرديَّتـه، أن يعـود إلـى مشهد أفعاله الماضية؟

الثيوصوفي: نحن نجيب بـلا لأن عودة كهذه إلى الأرض ببساطة لا تتوافق مع أية حالة من الغبطة **الصرفة** بعد الموت، كما سوف أبرهن لك. نحن نقـول إن الإنسان يعاني الكثير من الشقاء الذي لم يستحقّه إبان حياته، عبر خطأ الآخرين ممَّن يعاشِر، أو بسبب بيئتـه، وأن مـن حقـه بالتأكيـد أن ينعـم بالراحـة والهـدوء التامَّيْن، إن لم نقل بالغبطة، قبل أن ينوء بوزر الحياة مـن جديـد. بوسـعنا علـى كل حال أن نناقش هذه المسألة بالتفصيل فيما بعد.

لماذا تُقبَل الثيوصوفيا؟

السائل: فهمت، ولكن إلى حد؛ لكني أرى أن تعاليمكم أعقـد وأشـد ماورائيـة بمـا لا يقـاس من الأرواحية أو الفكر الديني الدارج. هل لك أن تخبرني، إذن، ما الذي جعل نهج الثيوصـوفيا هذا الذي تنتصرون له يثير كل هذا الاهتمام وكل هذه البغضاء في آن معاً؟

الثيوصوفي: هنالك، فيما أظن، أسباب عديـدة لـذلك؛ ففـي جملـة الأسـباب التي قد تُـذكَر هنـاك، **أولاً**، ردة الفعـل العنيفـة مـن النظريـات الفظـة الماديـة السائدة الآن بين معلِّمي العلم. **ثانياً**، التـأفف العـام مـن الثيولوجيـا المفتعلـة للكنائس المسيحية المتعددة، وعدد النحل المتزايدة والمتشاحنة يوميـاً. **ثالثـاً**، إدراك متنـامٍ بـاطِّراد لحقيقـة أن المعتقـدات الواضـحةَ التنـاقض مـع ذاتهـا والمناقِضة بعضَها بعضـاً **لا يمكن أن تكـون صـحيحة**، وأن المزاعـم الـتي لا يُتحقَّق منها **لا يمكن أن تكون حقيقية**. إن هذا الارتياب الطبيعي في الأديان التقليدية يتعزز بفشلها التـام فـي صـون الأخلاق وتطهيـر المجتمـع والجمـاهير. **رابعاً**، اقتناعٌ عند الكثيرين، و**معرفة** عند القلَّـة أنـه يجـب أن يكـون ثمـة نهـج فلسفي وديني يكون علمياً وليس نظرياً وحسب. **أخيـراً**، اعتقـاد سـائد، فيمـا أظن، أن نهجاً كهذا يجب التنقيب عنـه فـي تعـاليم أقـدم بكـثير مـن أي معتقـد حديث.

السائل: ولكن كيف كان لهذا النهج أن يُطرَح الآن تحديداً؟

الثيوصوفي: ذلك لأن أوانه قد حـان، كمـا تـبيِّن الجهـود العازمـة لهـذا العـدد الكبير من الباحثين المخلصين لبلوغ **الحقيقة**، مهما كان الثمـن وحيثمـا تقيـم. أمام هذا المشهد، ارتأى المؤتمَنون عليها السماح بـالجَهْر ببعـض الأجـزاء علـى

الأقل من تلك الحقيقة. فلو تأخر تأسيس الجمعية الثيوصوفية بضع سنوات، لكان نصف الأمم المتمدِّنة قد تحوَّل إلى المادية الفظة، ونصفها الآخر إلى التشبيهية والظواهرية.

السائل: هل لنا أن نعتبر الثيوصوفيا وحياً بوجه من الوجوه؟

الثيوصوفي: ولا بأية حال من الأحوال – ولاحتى بمعنى إفشاء جديد ومباشر من كائنات علوية، خارقة، أو **فوق بشرية** على الأقل، إنما فقط بمعنى "كشف للنقاب" عن حقائق قديمة، بل قديمة جداً، لعقول كانت جاهلة بها حتى الساعة، جاهلة حتى بوجود معرفة عتيقة كهذه وبصونها. [48]

السائل: تحدثت عن "الاضطهاد". إذا كانت الحقيقة كما مثَّلتْها الثيوصوفيا، لم قوبلت بكل هذه المعارضة، ولم تلق قبولاً عاماً؟

الثيوصوفي: لأسباب عديدة ومتنوعة، أحدها، مرة أخرى، الكراهية التي يحس بها البشر بإزاء "البدع"، كما يدعونها. الأنانية في صلبها محافِظة وتكره الإزعاج. إنها تؤْثِر كذبة رخيَّة البال مريحة على أعظم الحقائق إذا تطلَّبت الثانية التضحية بأصغر مدعاة للرخاء. إن سلطان العطالة العقلية عظيم في كل ما لايعِد بفائدة وثواب آنيين. وإن عصرنا عصر غير روحي وواقعي قبل كل شيء. وعلاوة على ذلك، هناك الطابع غير المألوف للتعاليم الثيوصوفية؛ فالطبيعة الشديدة الاستغلاق لعقائدها التي يناقض بعضُها مناقضة صريحة العديدَ من شطحات البشرية الغالية إلى قلوب المذهبيين التي التهمت المعتقدات الشعبية حتى اللبَّ منها. فإذا أضفنا إلى هذا الجهود الشخصية وطهارة الحياة العظيمة المطلوبة من الذين يريدون أن يصبحوا تلامذة الحلقة **الباطنة**، والفئة المحدودة جداً التي تتوجَّه إليها قواعد أخلاق غير أنانية على الاطلاق، يسهل إدراك سبب الحكم على الثيوصوفيا بمثل هذا النشاط البطيء الوئيد. إنها بالدرجة الأولى فلسفة المتألِّمين، والذين فقدوا كل أمل في انتزاعهم من مستنقع الحياة بأية وسيلة أخرى. وبالإضافة إلى ذلك ترينا قصة أي نهج عقائدي أو خلقي، أُدخِل لتوِّه أرضاً غريبة، أن بداياته كانت دوماً تُعرقَل بكل حاجز من ابتداع التعتيم والأنانية. حقاً إن "تاج **المبتدع** إكليل شوك"! إن هدم أبنية عتيقة أكلها الدود لا يمكن أن يتم بدون حصة من المخاطر.

---

48 - بات من "الدارج"، ولاسيما مؤخراً، تسفيه الفكرة القائلة بأنه كان ثمة يوماً، في **أسرار** الأمم العظيمة المتحضرة، كالمصريين والإغريق أو الرومان، شيء غير دجل الكهنة. حتى جماعة وردة الصليب لم يكونوا بخير من أنصاف مخبولين، أنصاف دجالين. ولقد وُضِعت كتب عديدة فيهم؛ وظهر مبتدئون، ما كانوا بسامعين باسمهم قبل بضعة سنوات، يتنطسون لمبحث الخيمياء وفلاسفة النار والسرَّانية عموماً بوصفهم النقاد اللوذعيين والعارفين المحققين. ومع ذلك تُعرَف سلسلة طويلة من هِيروفنطيي مصر والهند وبلاد الكلدان والعربية، إلى جانب أعظم فلاسفة اليونان والغرب وحكمائهما، بشَمْلِها تحت تسمية الحكمة والعلم الإلهي كل معرفة، من حيث إن هؤلاء اعتبروا أساس وأصل كل فن وعلم إلهياً **في الجوهر**. ولقد اعتبر أفلاطون **الأسرار** فائقة القدسية، كما صرح كليمنضُس الإسكندراني الذي كان سورِر بالأسرار الإلفسينية بأن "العقائد المدرَّسة فيها تشتمل على نهاية العلم البشري كلّه."[*Stromata*, V, 11.] هل لنا أن نفهم من ذلك أن أفلاطون وكليمنضُس كانا دجالين أو مخبولين، أو كلا الأمرين معاً ؟

السائل: يشير كل هذا بالحري إلى أخلاق ج. ث. وفلسفتها. فهل لك أن تعطيني فكرة عامة عن الجمعية نفسها، عن أهدافها وتشريعاتها؟

الثيوصوفي: لم يكن هذا بالسرّ في يوم من الأيام. اسأل تحصل على أجوبة دقيقة.

السائل: لكني سمعت أنكم مرتبطون بمواثيق.

الثيوصوفي: في الشعبة السرَّانية أو "الباطنية" وحدها.

السائل: سمعت كذلك أن عدداً من الأعضاء بعد تركهم لم يعتبروا نفسهم ملتزمين بالمواثيق التي أدُّوها. فهل هم على حق؟

الثيوصوفي: إن هذا ليرينا أن فكرتهم عن الشرف فكرة ناقصة. أنَّى لهم أن يكونوا على حق؟ لقد أحسنت *الصراط*[49]، الناطقة بلسان الثيوصوفيا في نيويورك، القول وهي تتناول حالة كهذه: "هب أن جندياً حوكم بتهمة الحنث باليمين وبالنظام، وسُرِّح من الخدمة. في غيظه من العدالة التي أُنزِلت به والتي كان يعرف عواقبها مسبقاً بوضوح، يتحول هذا الجندي إلى العدو بمعلومات خاطئة – وبذلك يصبح جاسوساً وخائناً – لينتقم من قائده السابق، ويزعم أن عقابه أطلقه من قَسَمه ومن ولائه للقضية التي كان يخدمها." فهل نبرر فعلته فيما تظن؟ ألا تعتقد أنه يستحق أن يدعى رجلاً عديم الشرف، رعديداً؟

السائل: أعتقد ذلك؛ لكن هناك مَن يعتقد بخلاف ذلك.

الثيوصوفي: ذنبهم في رقابهم! لكننا سوف نتحدث عن ذلك الموضوع فيما بعد، إن شئت.

---

49 - *The Path*, Vol. IV, July 1889, p. 98. (م)

الباب الثالث

منهاج عمل الجمعية الثيوصوفية[50]

أهداف الجمعية

السائل: ما هي أهداف "الجمعية الثيوصوفية"؟

الثيوصوفي: إنها ثلاثة، ولقد كانت كذلك منذ البداية: (1) تشكيل نواة للأخوة العالمية للإنسانية بدون تمييز بين عـرق أو لـون أو معتقَـد؛ (2) تشـجيع دراسـة الكتب المقدسة الآرية وغيرهـا، وديانـات العـالم وعلـومه، وإبـراز أهميـة الأدب الآسيوي القديم، ولاسيما أدب الفلسفات البرهمانية والبوذية والزردشـتية؛ (3) استقصـاء أسـرار الطبيعـة الخفيـة مـن كافـة الجـوانب الممكنـة، والقـدرات النفسانية والروحية الكامنة في الإنسان بخاصة. تلكـم هـي الأهـداف الرئيسـية الثلاثة للجمعية الثيوصوفية في خطوطها العريضة.

السائل: هل بوسعك أن تعطيني معلومات أكثر تفصيلاً عنها؟

الثيوصوفي: يمكننا تقسيم كل من هذه الأهـداف الثلاثـة إلـى بنـود تفسـيرية كثيرة بمقدار ما نجد ذلك ضرورياً.

---

50 - أُنظر (في نهاية الكتاب) القواعد الرسمية لـ ج. ث.، الملحق الأول. ملحوظة: "ج. ث." اختصار لـ"الجمعية الثيوصوفية".

السائل: لنبدأ إذن بالهدف الأول. فما الوسيلة التي سوف تلجأون إليها لإيقاظ شعور كهذا بالأخوة بين أجناس معروفة بالاختلاف فيما بينها من حيث الأديان والعادات والمعتقدات وأنماط التفكير اختلافاً عظيماً؟

الثيوصوفي: اسمح لي بإضافة ما يبدو لي أنك غير راغب في الإعراب عنه. نحن نعلم بالطبع أنه باستثناء بقيَّتين من جنسين – ألا وهما الفرس واليهود – فكل أمة منقسمة، ليس ضد الأمم الأخرى جميعاً وحسب، بل وحتى ضد نفسها. وهذا نجده بوضوح كبير بين الأمم المتمدِّنة المسيحية المزعومة. من هنا دهشتك، والسبب الذي يجعل هدفنا الأول يبدو لك يوطوبيا. أليس كذلك؟

السائل: بلى؛ ولكن ما هو قولكم في ذلك؟

الثيوصوفي: لاشيء ضد الواقعة؛ إنما الكثير حول ضرورة إزالة الأسباب التي تجعل الأخوة العالمية يوطوبيا في الوقت الحاضر.

السائل: وما هي هذه الأسباب بنظركم؟

الثيوصوفي: أولاً، وبالأخص، الأثرة الطبيعية للطبيعة البشرية. فهذه الأثرة، بدلاً من أن تُستأصَل، تتقوَّى وتتحرض يومياً حتى تصبح إحساساً شرساً لايقاوَم بالتربية الدينية الحالية التي لا تنزع إلى تشجيعها وحسب، بل وإلى تسويغها صراحة. فأفكار الناس عن الحق والباطل حُرِّفت بالكلِّية بالقبول الحرفي للكتاب اليهودي. بذا أصبح كل إيثار تعاليم يسوع الغيرية مجرد موضوع نظري للخطب المنبرية، فيما أصبحت وصايا الأثرة العملية التي يعلِّمها الكتاب الموسوي والتي وعظ المسيح ضدها بلا جدوى مبذورة في دخيلة حياة الأمم الغربية. وأصبح "العين بالعين والسن بالسن" السنة الأولى في قانونكم. ألا فإني أصرِّح علناً وبدون وجل أن الثيوصوفيا وحدها تستطيع اجتثاث انحراف هذه العقيدة وعقائد أخرى كثيرة.

الأصل المشترك للإنسان

السائل: وكيف ذلك؟

الثيوصوفي: ببساطة شديدة، بالبرهان على أسس منطقية وفلسفية وميتافيزيائية وحتى علمية أن: (أ) للبشر جميعاً الأصل الروحي والجسماني نفسه، وهو التعليم الجوهري للثيوصوفيا؛ (ب) وبما أن البشر من الجوهر الواحد نفسه من حيث الأساس، وذلك الجوهر واحد – لانهائي وغير مخلوق وأزلي – أأسميناه الله أو الطبيعة –، لاشيء بالتالي يصيب أمة أو إنساناً دون أن يؤثر في الوقت نفسه على الأمم الأخرى كافة وعلى البشر الآخرين أجمعين. ومثل هذا في تأكيده ووضوحه كمثل الحجر المرمي في بركة يحرك، عاجلاً أم آجلاً، كل نقاط الماء فيها.

السائل: لكن هذا ليس تعليم المسيح، بل هو بالحري مفهوم حلولي.

الثيوصوفي: ههنا مكمن خطئكم. فهو مفهوم مسيحي صرف، وإن لم يكن يهودياً؛ ولهذا، ربما، تفضِّل أممكم الكتابية تجاهله.

السائل: هذا الاتهام اعتباطي وغير صحيح. فهات براهينك على مثل هذا التصريح.

الثيوصوفي: إن براهيني جاهزة في متناول يدي. يُنسَب إلى المسيح قوله: "أحبوا بعضكم بعضاً"، و"أحبوا أعداءكم [...] فإنكم إن أحببتم من يحبكم فأي أجر لكم؟ أوليس **العشارون** [51] أنفسهم يفعلون ذلك؟ وإن لم تسلِّموا إلا على إخوانكم، أوليس الأمم يفعلون ذلك؟" [52] هذه كلمات المسيح. ولكن جاء في سفر التكوين: "ملعون كنعان عبداً يكون لعبيد إخوته" (*تكوين* 25: 9) لذا فإن الشعب المسيحي، بل التوراتي، يفضل شريعة موسى على شريعة محبة المسيح. وهم يؤسسون على العهد القديم الذي يلبِّي كل أهوائهم وشرائعهم في الغزو وضم الأراضي والاستبداد على الأجناس التي يدعونها أجناساً **دنيا**. والجرائم التي اقتُرِفت استناداً إلى هذا النص الجهنمي من *سفر التكوين* (إذا أُخذ على محمل الحرف الميت) وحده التاريخ يعطينا فكرة عنها، وإنْ ناقصة. [53]

السائل: سمعتك تقول إن وحدة أصلنا الجسماني قد برهن عليها العلم وأن وحدة أصلنا الروحي قد برهن عليها دين الحكمة. ومع ذلك فإننا لا نجد الداروينيين يبدون مودة أخوية عظيمة.

---

51 - كان العشارون يُعتبرون آنذاك لصوصاً ونشالين. وكان اسم العشار ومهنته يمثلان في نظر اليهود أبشع ما في الدنيا إطلاقاً. فكان يحرَّم عليهم دخول الهيكل؛ ويتكلم متى (18: 17) على "الوثني" و"العشار" بوصفهما شيئاً واحداً. بيد أن هؤلاء ما كانوا غير جباة الضرائب الرومان الذين يشغلون عين المنصب الذي يشغله الموظفون الإنكليز في الهند وغيرها من البلدان المستعمرة.

52 - *إنجيل متى* 3: 44-47. (م)

53 - "مع حلول نهاية العصر الوسيط كان الرق، راضخاً لسلطان القوى الأخلاقية، قد اختفى عملياً من أوروبا؛ لكن حدثين بالغي الشأن وقعا تغلُّباً على سلطان هذه القوى الفاعلة في المجتمع الأوروبي وأطلقا من عقالها جمهرة من المصائب على الأرض قلما عرفت البشرية مثلها. أحد هذين الحدثين كان أول رحلة إلى ساحل مأهول بالهمج كان الاتجار بالبشر فيه رائجاً؛ وكان الحدث الآخر اكتشاف عالم جديد انفتحت فيه مناجم ثروة طائلة، على أن تُستورَد اليد العاملة لاستثمارها. أربعمئة سنة والرجال والنساء والأطفال يُنتزعون من كل مَن يعرفون ويحبون ليباعوا على ساحل أفريقيا لتجار أجانب؛ فكانوا يُسلسَلون في أجواف السفن – الموتى مع الأحياء في أحيان كثيرة – في أثناء "العبور الأوسط" المروِّع، حيث ألقي بمئتين وخمسين ألفاً من أصل ثلاثة ملايين وربع المليون منهم في البحر إبان هذا العبور المميت، فيما كُتب على مَن تبقى منهم بؤس لا يوصف في المناجم أو تحت السياط في حقول القصب والرز. إن المسؤولية عن هذه الجريمة النكراء تقع على عاتق الكنيسة المسيحية. 'باسم الثالوث الأقدس' عقدت الحكومة الإسبانية (الكاثوليكية الرومانية) أكثر من عشر معاهدات تجيز بيع خمسمئة ألف إنسان؛ وفي عام 1562 أبحر السِر جون هوكنز في جولته الشيطانية لشراء أرقاء في أفريقيا وبيعهم في جزر الهند الغربية على متن سفينة حملت اسم يسوع المقدس؛ بينما كافأته أليصابات، الملكة البروتستنتية، على النجاح الذي أصابه في مغامرته، وهي الأولى من نوعها يقوم بها إنكليز في هذا الاتجار غير الإنساني بأن أجازت له أن يلبس شعاراً لنبالته 'نصف مغربي بلونه الأصلي، مشدود الوثاق، أو، بعبارة أخرى، عبداً زنجياً مسلسلاً'." *فتوحات الصليب* (مقبوس من *الصحيفة اللاأدرية*).

الثيوصوفي: بالصواب نطقت. وهذا ما يُظهِر قصور المناهج المادية ويـبرهن على أننا نحن الثيوصوفيين على حـق. إن وحـدة أصـلنا الجسـماني لا تسـتنهض مشاعرنا الأسمى والأعمق. فالمادة، محرومةً من نفسـها وروحهـا، أو جوهرهـا الإلهي، ليس في مكنتها مخاطبة القلب الإنسـاني. إنمـا وحـدة النفـس والـروح للإنسان الحقيقي الخالد، كمـا تعلِّمنـا الثيوصـوفيا، مـتى بُرهِـن عليهـا وتأصَّـلت جذورها في قلوبنا، تقودنا قدماً علـى طريـق المحبـة الحقيقيـة والنيَّـة الأخويـة الطيبة.

السائل: ولكن كيف تفسر الثيوصوفيا الأصل المشترك للإنسان؟

الثيوصوفي: بتعليمها أن **جذر** الطبيعة كلها، موضـوعية وذاتيـة، وكـل شـيء آخر في الكون، مرئياً كان أو غير مرئي، **كائن** و **كان** و **سيكون أبـداً** جـوهراً أوحد مطلقاً، يفيض منه كل شيء ويعود إليه. وتلكم هـي الفلسـفة الآريـة الـتي لم تنبسط كاملة إلا في المنهج الفيدنتي وفـي البوذيـة. فـإذا وضـعنا هـذا الأمـر نصـب أعيننـا فمـن واجـب الثيوصـوفيين جميعـاً أن يشـجعوا، بكافـة الوسـائل العملية، وفي جميع البلدان، نشر تربية **لامذهبية**.

السائل: ولكن، بم تنصح أنظمة جمعيتكم المكتوبة لأعضـائها أن يفعلـوا غيـر هـذه؟ وأعنـي على الصعيد المادي؟

الثيوصوفي: من أجل إيقاظ الشعور الأخوي بين الأمم، علينـا أن نسـهم فـي التبادل الدولي للفنون والنتاجات المفيدة، وفي تقديم النصح والمعلومات، وفي التعاون مع الأفراد والمؤسسات الحَرية بالتقدير (إنما "بدون أن يتم اقتطـاع أي مكسب أو نسبة مئويـة للجمعيـة أو "الأعضـاء" لقـاء خـدماتها أو خـدماتهم فـي إطارها"، كما تضيف الأنظمة) . دونـك علـى سـبيل المثـال توضـيح عملـي: إن تنظيم المجتمع كما يصفه اِدوِرد بِلَّمـي فـي مـؤلفه البـديع *النظـر إلـى الـوراء* [54] ليمثِّل تمثيلاً رائعاً للفكرة الثيوصوفية حول ما يجب أن تكونه الخطـوة الكـبيرة الأولى نحو كمال تحقيق الأخوة العالمية. إن حالـة الأشـياء الـتي يصـفها تقصِّـر دون الكمال لأن الأثرة ماتزال موجودة وفاعلة في قلـوب البشـر. ولكـن علـى وجه العموم تم التغلب على الأثرة والفردية بشعور التضامن والأخوَّة المتبادلـة؛ ونجد أن نمط الحياة الموصوف فيه يقلِّص إلى أدنى حد العلل التي تنـزع لخلـق الأثرة ولتغذيتها.

السائل: إذن فأنت كثيوصوفي لابد مشارك في الجهد المبذول لتحقيق مثال كهذا؟

الثيوصوفي: بالتأكيد؛ وقد أثبتنا ذلك بالعمـل. أولـم تسـمع بالأنديـة والحـزب "الأممية" [55] التي ظهرت في أمريكا منذ نشر كتاب بِلَّمي؟ إنها في طريقها إلـى

---

54 - Edward Bellamy, *Looking Backward, 2000-1887*, U. S. 1887. New Edition, New York, Inc., 1951. (م)

55 - نسبة إلى "الأممية" Nationalism، وهي حركة نشأت في الولايات المتحدة بعد ظهور كتاب بلمي *النظر إلى الوراء: 2000-1887*. غني عن القول إن هذه الحركة لا تمت بصلة إلى "الأممية" الشيوعية لأنها كناية عن حركة تناصر الإخاء بين البشر والمساواة الاقتصادية والاجتماعية وتأميم

الصدارة، وهي فاعلة ذلك أكثر فأكثر بمـرور الزمـن. والحـق فـإن هـذه الأنديـة وذانك الحزب قد أسَّسها أول ما أسسها ثيوصوفيون. ورئيـس أحـد أوائـل هـذه الأندية، نـادي بوسـطن ماساتشوسـتس الأممـي، وأمينـه ثيوصـوفيان، وغالبيـة أعضاء مكتبه التنفيذي أعضاء فـي ج. ث. وفـي منتـدياتهم كافـة، وفـي الحـزب الذي يشكلونه يظهر تأثير الثيوصوفيا جلياً، ذلك أنها اتخـذت أساسـاً لهـا، ومبـدأ أولياً أساسياً، الأخـوة الإنسـانية كمـا تعلِّمهـا الثيوصـوفيا. ولقـد جـاء فـي إعلان مبادئهم: "إن مبدأ أخوة الإنسانية هو إحدى الحقـائق الأزليـة الـتي تحكـم تقـدُّم العالم على أسس تميِّز الطبيعة الإنسانية من الطبيعة البهيمية". فهل من شيء أكثر ثيوصوفية من هذا؟ لكن هذا غير كافٍ. فالحاجة أيضاً ماسـة إلـى بـث فـي الناس فكرة أنه إذا كان أصل الإنسانية واحداً يجب أن توجد أيضاً حقيقة واحدة تجد تعبيرها في الأديـان المتنوعـة كافـة، باسـتثناء الـدين اليهـودي؛ إذ إنهـا غيـر **معبَّر** عنها حتى في القباله. [56]

السائل: هذا يشير إلى الأصل المشترك للأديان، ولعلك محق في ذلك. ولكن كيف لهـذا أن ينطبق على الأخوّة العملية على الصعيد الجسماني؟

الثيوصوفي: أولاً لأن ما هو حقيقي على الصعيد الميتافيزيائي يجب أن يكون حقيقياً على الصعيد الفيزيائي. وثانياً لأنه ليس ثمة أخصب من الخلافات الدينية مصدراً للكره والنزاع. فعندما يعتقد هذا الفريق أو ذاك أنه وحده مالك الحقيقة المطلقة فمن الطـبيعي تمامـاً أن يعتقـد أن جـاره واقـع فـي براثـن الضـلال أو إبليس. ولكن حسبك أن يجعل إنساناً يرى أن ما من واحد منهم يملـك الحقيقـة **كلها**، بل إنها تتكامل، وأن الحقيقة الكاملة لا توجد إلا فـي الجمـع بيـن وجهـات نظر الجميع بعد أن يكون أزيل ما كان زائفاً من كل منهـا – إذ ذاك فـإن الأخـوَّة الحقيقية في الدين سوف تتوطد. والأمر نفسه ينطبق على العالم الجسماني.

السائل: امضِ في الشرح أرجوك.

الثيوصوفي: دونك النبتة على سبيل المثال: تتألف هذه من جذر ومـن سـاق ومن عدد كبير من البراعم والأوراق. وكما أن الإنسانية ككل هـي السـاق الـتي تنمو من الجذر الروحي كذلك السـاق هـي وحـدة النبتـة. صِـبْ السـاق فتتـأذى البراعم والأوراق كافة من جراء ذلك لامحالة. كذلك الأمر مع الإنسانية.

بعض المؤسسات؛ ومن هنا اسمها. ولقد أغرت أهدافها عدداً من الثيوصوفيين الأمريكيين بالانتساب إلى أندية أممية ففعلوا، حتى اتخذت هذه مساراً سياسياً عام 1890 فاستقالوا منها. (م)

56 - يصعب فهم عبارة بلافاتسكي هذه بدون الخلفية التي تقدّمها في *إيزيس و العقيدة السرية* حول **القباله** ونشأة المسيحية. فلقد أصبح **يهوه** – وهو 'إله قبلي' – الإله الشخصي للمسيحية (والإسلام من بعدُ)؛ إن فروع "الشجرة الإبراهيمية" ثلاثتها – إلا الوجه الباطن منها – تنكر الأخوة الإنسانية سراً وعلانية، إلا إذا قُبِل هذا التصور للإله وفقاً لتفاسير مفسريها من أهل الظاهر؛ الأمر الذي يجعل الإخاء محصوراً في أبناء الدين الواحد فيما يُعرَف بـ"التآخي في الدين". وبعبارة أخرى، فإن الأخوَّة، بما هي وحدة الكل في الواحد، غير معبَّر عنها في القباله **اليهودية** التي "إنْ هي إلا اختزال للقباله الشرقية" (*إيزيس* 2، ص 402). وتشير بلافاتسكي إلى وجود اختلافات بين القباله الشرقية والقباله اليهودية لا يفقهها إلا قلة من الربانيين الأوروبيين، على حد قولها (*إيزيس* 1، ص 580، هامش). (م)

السائل: نعم، ولكن إذا أصبت ورقة أو برعماً فإنك لا تنزل أذى بالنبتة كلها.

الثيوصوفي: لذا تعتقد أنت أنك بإيذاء إنسان **واحد** لا تؤذي الإنسانية جمعاء. أنَّى **لك** أن تعرف أو تعي أن العلم المادي نفسه يعلِّم أن أية إصابة، مهما كانت طفيفة، لابد أن تؤثر في مسار نموها وتفتُّحها المستقبلي كله؟ أنت مخطئ إذن والمقايسة تامة. [57] على أنك إذا تغاضيت عن جرح في الإصبع كثيراً ما يجعل الجسم برمته يتوجع ويؤثر في الجهاز العصبي كله، يجدر بي من باب أولى تذكيرك أنه من الممكن جداً وجود قوانين روحية أخرى تفعل في النبات وفي الحيوان كما تفعل في البشرية، وإنْ كنتم ربما تنفون وجودها، بما أنكم لا تقرُّون بفعلها في النبات وفي الحيوان.

السائل: أية قوانين تقصد؟

الثيوصوفي: نحن ندعوها القوانين الكَرْمية، لكنكم لن تفهموا المعنى الكامل للمصطلح إلا بدراسة علم الغيب. بيد أن حجتي لم تقم على فرضية هذه القوانين، بل على مقايسة النبتة حقاً. توسَّعْ في هذه الفكرة وطبِّقْها عالمياً، وسرعان ما ستجد أن لكل فعل مادي بحسب الفلسفة الحقيقية نتيجته الأخلاقية الدائمة. لعلك إذا أسأت إلى إنسان بإلحاق أذى جسماني به معتقدٌ أن وجعه ومعاناته لا يمكن أن يمتدا بأية وسيلة إلى جيرانه، فكيف بالحري إلى البشر في الأمم الأخرى؟ أما نحن فنؤكد أنهم **سيفعلان**، إنما **في الوقت المناسب**. لذا نقول إن المشاعر الأخوية كالتي بشَّر بها جميع المصلحين الكبار، ولاسيما بوذا والمسيح، لن تكون ممكنة على الأرض إلا عندما يبلغ كل إنسان إلى فهم أننا بظلمنا إنساناً لا نظلم أنفسنا وحسب بل البشرية جمعاء على المدى البعيد وإلى قبول ذلك كحقيقة مسلَّم بها.

هدفانا الآخران

السائل: هل لك أن تشرح لي الآن ما هي الطرق التي تقترحونها لتحقيق هدفكم الثاني؟

الثيوصوفي: أن نجمع لإغناء مكتبة مقرِّنا العام في أديار، مَدْراس (والأعضاء في فروعه لإغناء مكتباتهم المحلية) كل ما نستطيع العثور عليه من المؤلفات الجيدة في ديانات العالم. تدوين معلومات حول مختلف فلسفات الماضي ومنقولاته وأساطيره، ونشرها نشراً واسعاً بوسائل ممكنة الاستعمال، كترجمة ونشر مؤلفات أصلية قيِّمة، أو مقبوسات منها وشروح عليها، أو التعليمات الشفهية لأشخاص متمكِّنين في مجالاتهم الخاصة.

السائل: وماذا عن الهدف الثالث: تنمية القدرات الروحية أو النفسانية الكامنة في الإنسان؟

---

57 - هذا مؤدى الآية الكريمة: "كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً." (*المائدة*، 32) (م)

الثيوصوفي: وهذا أيضاً ينبغي إنجازه بواسطة المنشورات في الأماكن الـتي يتعذَّر فيها إعطاء محاضرات أو تعاليم شخصـية. واجبنـا هـو أن نبقـي الحـدوس الروحية حيَّة في الإنسان وأن نقاوم التعصُّب ونردَّ عليـه بعـد تقصِّـيه الضـروري وتقديم البراهين علـى طـبيعته اللاعقلانيـة، أيـاً كـان شـكله، دينيـاً أم علميـاً أم اجتماعياً، وأن نجابه خاصة كل طائفية دينية أو اعتقـاد بـالمعجزات أو أي شـيء خارق للطبيعة. إن مـا يجـب علينـا هـو السـعي للحصـول علـى **معرفة** جميـع قوانين الطبيعة وعلى نشرها، وتشجيع دراسة هذه القوانين الـتي قلمـا يفهمهـا الإنسان الحديث، تحت ما نـدعوه اليـوم بعلـوم الغيـب، القائمـة علـى المعرفـة الحقيقية بالطبيعة، بدلاً من المعتقدات الخرافيـة القائمـة علـى الإيمـان وعلـى السلطة الأعميين في الوقت الحاضر. فالأعراف والتقاليد الشعبية، مهما بلغـت من السطحية، تقود في بعض الحالات، إذا تم التدقيق فيها، إلى اكتشاف أسرار بائدة من أسرار الطبيعة لكنها هامة. كذا فإن الجمعيـة ترمـي إلـى متابعـة هـذا الخط من التقصِّي على أمل توسيع حقل الرصد العلمي والفلسفي.

حول قدسية الميثاق

السائل: هل لديكم نظام مناقبي خاص تطبقونه في الجمعية؟

الثيوصوفي: المناقب جاهزة وواضـحة لكـل مـن أراد اتباعهـا. وهـي تشـكل جـوهر وصـفوة الأخلاق العالميـة الـتي جُمِعـت مـن تعـاليم جميـع المصـلحين العـالميين الكبـار. سـتجدون ممثَّليـن فيهـا كونفوشـيوس وزردشـت، لاوتسـه و*البهغفدغيتا*، وصايا غوتاما البوذا ويسوع الناصري، أخلاق هِلِّـل ومدرسـته، كمـا وتعاليم فيثاغوراس وسقراط وأفلاطون ومدارسهم.

السائل: ولكن هل يتبع أعضاء جمعيتكم هذه الأخلاق؟ لقـد سـمعت أنـه نشـبت بينهـم فتـن ونزاعات خطيرة.

الثيوصوفي: هذا طبيعي جداً بما أنه على الرغم من أن الإصلاح (فـي وضـعه الحالي) قد يدعى جديداً فللرجال والنساء المزمع إصـلاحهم الطبيعـة البشـرية الخطّاءة ذاتها التي كانت لهم في الماضي. وكما سبق لنا القـول فـإن الأعضـاء العاملين قلة. لكن عدد الأشخاص المخلصين الحسني الأهلية ممن يعملـون مـا بوسعهم للارتقاء بحياتهم إلى مثالهم ومثال الجمعية لهو عدد كبير. ومن واجبنـا أن نشجع ونساعد كل عضو فرد على تحسين نفسه فكرياً وأخلاقيـاً وروحيـاً، لا أن نلوم أو ندين الذين يخفقون في ذلك. إذ ليس من حقنا، إذا توخينا الدقة فـي الكلام، أن نرفض الانتساب لأي كان، ولاسيما في الفرع الباطني للجمعية الـذي "داخِلُه كمن يولد من جديد". ولكـن إذا اختـار أحـد الأعضـاء، علـى الرغـم **من مواثيقه المقدسة** على كلمة شرفه، وعلى **ذاتـ**ـه الخالـدة، الاسـتمرار بعـد هـذه "الـولادة الجديـدة"، ومـع الإنسـان الجديـد، فـي مثـالب أو معـايب حيـاته القديمة والإغراق فيها وهو مايزال في الجمعية، عندئذٍ يُطلَب منه علـى الأرجـح

أن يستقيل وأن ينسحب؛ أو، في حال رفضه، لابد من طرده. ولدينا لمثـل هـذه الحالات الطارئة قواعد في منتهى الصرامة.

السائل: هل بالوسع ذكر بعضها؟

الثيوصوفي: نعم. بداية، ليس لأي عضو في الجمعية، الظاهريـة أو الباطنيـة، الحق بفرض آرائه الشخصية على أي عضو آخر. "ولا يجوز لأي **ممثل رسمي للجمعية الأم** أن يعبر علانية، بالكلام أو بالفعل، عن عـداء أو عـن تفضـيل لأي قِسم،[58] ديني أو فلسفي، على آخر. إن للجميع حقاً متساوياً من جهة المميزات الجوهرية لمعتقدهم الـديني المطروحـة علـى منـبر عـالم منصِـف، وليـس لأي ممثل رسمي للجمعية، خلال ممارسـته لوظـائفه، الحـق فـي التبشـير بنظراتـه ومعتقداته المذهبية الخاصة أمام أعضاء مجتمعين، إلا عندما يتألف الحضور من أناس مشتركين في الدين. وبعد التنبيه المناسـب، يعـاقَب خـرق هـذه القاعـدة بتعليق العضوية أو الطرد." وهذه إحدى الإساءات في الجمعية جملة. أمـا فيمـا يتعلق بالفرع الداخلي الذي ندعوه اليوم بالباطني، فهاكم القواعد التي وُضِـعت واعتُمِدت منذ عام 1880: " ليس لأي عضـو أن يسـتخدم اسـتخداماً أنانيـاً أيـة معرفـة أطلعـه عليهـا أي عضـو مـن الفـرع الأول (الـذي يسـمى الآن "درجـة" أعلى)؛ وأي خرق لهذه القاعدة يعاقَب بالطرد." على أنه قبل نقـل أيـة معرفـة كهذه، على الطالب أن يلتزم رسمياً بالقَسَم بعـدم اسـتخدامها لأغـراض أنانيـة وبعدم إفشاء شيء قيل له من غير إذن.

السائل: ولكن هل للمطرود أو المستقيل من الفرع حرية إفشاء ما قد تعلمه؟ أو خـرق أي من بنود الميثاق الذي التزم به؟

الثيوصوفي: طبعاً لا. فلئـن أحلَّـه فصـله أو اسـتقالته مـن الالـتزام بالطاعـة للمعلِّم والمشاركة بدور فعال في الجمعية، لا يُحِلانه قطعاً من ميثاقه المقدس بصون السر.

السائل: ولكن هل هذا منطقي وعادل؟

الثيوصوفي: بكل تأكيد. فميثاق بصون السر يتعهد به بـ**كلمة شرفـ**ـه، ومن باب أولى بذاته العليا – الإلـه فـي الـداخل –، أي رجـل أو امـرأة يتحلَّيـان بالحـد الأدنى من الإحساس بالشرف – ميثاق كهذا ملـزِم حـتى المـوت. ومـع أنـه قـد يترك الفرع والجمعية، لن يجرؤ أي رجل أو امرأة شريفان على مهاجمة أو إيذاء تنظيم كانا التزما نحوه بميثاق.

السائل: ولكن أليس في هذا بعض الشطط؟

---

58 - "فرع" أو محفل مؤلف من أصحاب دين واحد، أو فرع بلا وظيفة [*in pratibus*] كما تسمى الآن بشيء من الأبهة.

الثيوصـوفي: ربمـا كـان كـذلك بحسـب المعيـار المتـدني للـوقت الحاضـر وأخلاقياته. ولكن ما نفع قَسَم لا يُلزِم إلى هذا الحد؟ وكيـف لأيٍّ كـان أن يتوقـع تعلُّم معرفة سرية إذا كان يحل له، كلما حلا له ذلك، التحرر من كـل الالتزامـات التي تعهَّد بها؟ أي أمان وأية ثقة وأي ضمان له أن يوجد بين البشر يومـاً إذا لـم تكن لمواثيق كهذه في الحقيقـة أيـة قـوة مُلزِمـة؟ صـدِّقني، إن قـانون الجـزاء (*كرما*) سرعان ما سينال ممَّن ينكث بميثاقه، وربما بالسرعة التي ينال منه بهـا احتقار كل امرئ شريف، حتى على الصعيد الجسماني. فكما تحسن التعبير عن ذلك مجلة *الصراط*0[1] الصادرة فـي نيويـورك الـتي ذكرناهـا لتوِّنـا بهـذا الصـدد: "**كل ميثاق يُعقد فهو ملزِم المرء أبداً، في عـالمي الغيـب والأخلاق كليهما.** فإذا نكثنا به وعوقبنا على ذلك لا يبرر لنا هذا النكث به ثانيـة، ومادمنـا نفعل ذلك فإن ميزان قانون كرما القدير لابد مرتد علينا."

*** *** ***

1

الباب الرابع

الصلات بين الجمعية الثيوصوفية والثيوصوفيا

أهداف الجمعية

السائل: فهل السموُّ الخلقي، إذن، هو موضع الإصرار في جمعيتكم؟

الثيوصوفي: بلا ريب! فعلى من يريد أن يكون ثيوصوفياً حقيقياً أن يجاهد ليحيا كثيوصوفي.

السائل: إذا كان الأمر كذلك، فسلوك عدد من الأعضاء، كما سبق وألمعت، يتنافى وهذه القاعدة الأساسية.

الثيوصوفي: إنه يتنافى وإياها حقاً. لكن هذا أمر لا حيلة لنا فيه فيما بيننا إلا بقدر ما للذين يدعون أنفسهم مسيحيين ويتصرفون كالأبالسة حيلة فيه فيما بينهم. العيب ليس في تشريعاتنا ونظمنا، إنما في الطبيعة البشرية نفسها. فحتى في بعض الشُعَب الظاهرية العلنية يؤدي الأعضاء القَسَم بـ"ذاتهم العليا" أن يحيوا **الحياة** التي تَسُنُّها الثيوصوفيا. وعليهم أن يجعلوا **ذاتهم الإلهية** تهدي كل خاطرة من خواطرهم وكل فعل من أفعالهم، كل يوم وكل لحظة من حياتهم. على الثيوصوفي الحقيقي أن "يصنع البر ويمشي باتِّضاع".

السائل: ماذا تعني بذلك؟

الثيوصوفي: أعني ببساطة ما يلي: على الذات المفردة أن تنسى نفسها في سبيل الذوات الكثيرة. دعني أجيبك بكلمات فيلاليثي حقيقي، ع. ج. ث.، عبَّر عن ذلك تعبيراً جميلاً في *الثيوصوفيّ*: "إن أمسَّ حاجات الإنسان هي أن يجد نفسه، ثم أن يُعِدَّ ثَبْتاً صادقاً بممتلكاته الذاتية، ومهما كانت حصيلته سيئة أو معدمة، لن يعدم التكفير عنها إذا توفَّر على العمل بنيَّة صادقة." ولكنْ كم عدد الذين يُقدِمون على ذلك؟ الكل متأهب للعمل من أجل تفتُّحه وتقدُّمه؛ أما المتأهبون للعمل من أجل تفتح الآخرين وتقدمهم فقليلون جداً. فلنقتبس الكاتب نفسه من جديد: "لقد انساق البشر طويلاً للضلال والوهم، وعليهم أن يحطموا أوثانهم، وينفضوا عنهم مظاهرهم الكذّابة ليشرعوا في العمل من أجل أنفسهم – لا بل هناك كلمة صغيرة زائدة، لأنه يحسن بالذي يعمل من أجل

نفسه فقط ألا يعمل على الإطلاق؛ أحْرِ به أن يجتهد في العمل من أجل الآخرين، بل من أجل الكل. ففي مقابل كلِّ زهرة محبة وبِرٍّ يغرسها في حديقة جاره تختفي عشبة ضارة من حديقته، وبذلك تتفتح البشرية – روضة الآلهة هذه – كالوردة. إن هذا منصوص عليه في كل الكتب المقدسة وكل الأديان، لكن أناساً دسَّاسين طفقوا بادئ ذي بدء يسيئون تأويلها لينتهوا إلى تشويهها والحطِّ منها وهَتْكها. لا حاجة إلى وحي جديد، وليكن كل إنسان وحياً لذاته، ولتستولِ روح الإنسان الخالدة على هيكل جسده وتطرد الصيارفة وكل نجاسة فيه، ولسوف تفتديه إنسانيته الإلهية؛ فإنه حين يكون على هذا النحو واحداً في ذاته فسوف يكون له أن يعرف "باني الهيكل"." [59]

السائل: أعترف أن هذه غيرية صرف.

الثيوصوفي: إنها لكذلك. ولو أن واحداً من كل عشرة أعضاء في ج. ث. وضعها موضع التطبيق لكانت جماعتنا جماعة من المصطفين حقاً. غير أن ثمة بين الجُنُب أناس سوف يرفضون دوماً رؤية الفرق الأساسي بين الثيوصوفيا والجمعية الثيوصوفية، بين الفكرة ووعائها الناقص. إن أمثالهم يلقون بتبعة كل خطيئة وكل نقيصة للوعاء – الجسد الإنساني – على الروح النقية التي تلقي عليه بنورها الإلهي. فهل في هذا ما ينصفهما؟ إنهم يرجمون جمعية تجاهد ضد أعظم الأهوال لترقى إلى مستوى مثالها ولتذيعه. كما أن بعضهم يطعن في الجمعية الثيوصوفية، لا لشيء إلا لأنها تتجاسر على النهوض بما فشلت نُهُج أخرى – الكنيسة ومسيحية الدولة بالأخص – في النهوض به فشلاً ذريعاً. وغيرهم يفعل ذلك لأنهم يريدون عن طيب خاطر الحفاظ على الأوضاع الراهنة التي يتبوَّأ فيها الفريسيون والصدُّوقيون مقعد موسى، ويلهو العشارون [60] والخطاة في **أماكن القصف**، كما في الإمبراطورية الرومانية إبان انحطاطها. بيد أن على المنصفين من الناس، على الأقل، أن يتذكروا أن الإنسان الذي يفعل كل ما بوسعه في عالم الإمكانات النسبية هذا ينجز بقدر ما ينجز الذي

---

59 - "الهيكل" رمز إلى الجسد الإنساني وطرد الباعة والصيارفة منه (راجع *إنجيل مرقس* 11: 15-17 و *إنجيل يوحنا* 2: 13-22) إشارة إلى تطهير الجسد من الأدران العالقة به والنفس من الشهوات الجامحة بها استعداداً لاقتبال المُسارِرة والولادة "من عَلُ" (*إنجيل يوحنا* 3: 3)، "من الماء والروح" (*إنجيل يوحنا* 3: 5) . هذا التطهُّر، مع إخلاص النية، هو الشرط اللازم والكافي لـ"بناء الهيكل" الداخلي وإقامته في الأيام الثلاثة التي تستغرقها المسارِرة التي هي، رمزياً، "موت وقيامة". يومئ الفيلسوف الثيوصوفي ندره اليازجي في كتابه *رد على اليهودية واليهودية المسيحية* (طب 2، دمشق 1984، ص 292) ، اعتماداً على الفيلسوف الإسكندري اليهودي فيلون، إلى الرمزية الباطنية للهيكل التي لا يدركها أهل الظاهر والحرف من المتدينين. (م)

60 - يدل أصل كلمة "فريسي" بالآرامية على اعتزال الخطاة وعدم مخالطتهم. كان الفِرِّيسيون يتبعون مذهباً يدعو إلى التشدد والتصلب في الحفاظ على شريعة موسى وسُنَّة الأقدمين في أمور الطهارة ومراقبة يوم السبت والزكاة... إلخ، وكانوا يؤمنون بالملائكة والأرواح والقيامة فيخالفون بذلك الصدوقيين الذين كانوا ينكرون ذلك كله. وكان كثير من الكتبة، أي علماء الكتاب، منهم. أخذ عليهم المسيح رياءهم وغرورهم وتعلُّقهم بالحرف الميت دون الروح وقساوة قلوبهم. أما الصدُّوقيون فأغلب الظن أنهم ينتسبون إلى "صادق"، عظيم الكهنة في عهد سليمان. كانوا حزباً دينياً سياسياً أكثر أعضائه من الكهنة. وأما العشارون فقد ورد ذكرهم في الباب السابق، الهامش 2. (م)

يحقق الأكثر. تلكم حقيقة بسيطة، بديهية، يؤيدها مثل الوزنات [61] التي وزَّعها السيِّد على عبيده: لقد جوزي العبد الذي ضاعف وزنتيه بمثل ما جوزي به زميله العبد الذي تسلَّم **خمس** وزنات. فكلٌّ يعطى "بحسب مواهبه".

السائل: ومع ذلك يصعب تعيين حد بين المجرَّد والعينيِّ في هذه الحالة لأننا لا نملك إلا هذا الأخير لتكوين حكمنا.

الثيوصوفي: فلم إذن تستثنون ج. ث. من ذلك؟ إن العدل، كالبرِّ، يجب أن يبدأ بالنفس. فهل تزدرون "العظة على الجبل [62] وتهزؤون بها لأن قوانينكم الاجتماعية والسياسية وحتى الدينية فشلت حتى الآن في وضع وصاياها موضع التطبيق، لا في روحها وحسب، بل حتى في حرفها الميت؟ أبْطِلوا القَسَم في المحاكم والبرلمان والجيش وفي كل مكان وقوموا بما يقوم به أعضاء فرقة الكويكرز [63] إذا **شئتم** أن تدعوا أنفسكم مسيحيين. بل أبْطِلوا المحاكم نفسها لأنكم إذا شئتم العمل بوصايا المسيح عليكم أن تنزلوا عن جلبابكم لمن ينتزع منكم عباءتكم، وتعرضوا خدَّكم الأيسر للمتعرِّم الذي يلطمكم على الأيمن. [64] "لا تقاوموا الشرير، أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى مبغضيكم" [65]، "لأن كل من خالف وصية من أصغر تلك الوصايا وعلَّم الناس أن يفعلوا مثله، عُدَّ الأصغر في ملكوت السموات" [66]، و"كل من قال "يا أحمق" استوجب نار جهنم". [67] فلم تدينون إذا أردتم ألا تُدانوا بدوركم؟ ثابروا على إصراركم أنه ليس ثمة من فرق بين الثيوصوفيا والجمعية الثيوصوفية فتعرِّضون على الفور نهج المسيحية وجوهرها نفسه للتُّهَم عينها، إنما على نحو أشد خطورة.

السائل: ولم على نحو **أشد** خطورة؟

الثيوصوفي: لأنه في حين يحاول قادة الحركة الثيوصوفية، إذ يقرُّون بهفواتهم، كل ما بوسعهم لإصلاح خصالهم واجتثاث الشر من الجمعية، وفي حين أن قواعدهم وقوانينهم الفرعية مستوحاة من روح الثيوصوفيا، يقوم مشرِّعو الأمم التي تدعو نفسها مسيحية وكنائسها بالنقيض. أعضاؤنا، حتى الأسوأ فيهم، ليسوا بأسوأ من المسيحي العادي. ناهيك أن الثيوصوفيين، إن كانوا يعانون كل هذه الصعوبة في سلوك الحياة الثيوصوفية الحقة، فهذا يعود إلى أنهم جميعاً أبناء جيلهم. لقد كان كل منهم مسيحياً، نشأ وترعرع وسط

---

61 - راجع هذا المثل في *إنجيل متى* 25: 14-30. (م)

62 - راجعها في *إنجيل متى* 5 و 6 و 7. (م)

63 - هي "جمعية الأصدقاء" *Friends*؛ أسسها المتصوف الإنكليزي جورج فوكس (1624-1691) بهدف العودة بالمسيحية إلى بساطتها الأولى والاستغناء عن الكهنوت والطقوسية الدنيويين. لُقِّبوا بـ"الهزّازين" *Quakers* لأنهم كانوا في اجتماعاتهم يأخذون بالاهتزاز حين يستغرقون في الصلاة ويغلبهم الوجد. من مبادئهم التي لا يحيدون عنها المسالمة التي يترجمونها عملياً إلى رفض الخدمة العسكرية وإدانة الحرب. (م)

64 - راجع *إنجيل متى* 5: 38-41. (م)

65 - *إنجيل متى* 5: 44. (م)

66 - *إنجيل متى* 5: 19. (م)

67 - *إنجيل متى* 5: 22. (م)

سفسطة كنيسته وتقاليده الاجتماعية وحتى قوانينه المتناقضة. هذا ما كان عليه قبل أن يصبح ثيوصوفياً، أو بالأصح عضواً في الجمعية التي تحمل هذا الاسم. ذلك أننا مهما كررنا أن هناك فرقاً هاماً جداً بين المثال المجرَّد ووعائه سنبقى مقصِّرين.

المجرَّد والعينيُّ

السائل: وضِّح، أرجوك، هذا الفرق توضيحاً أكبر قليلاً.

الثيوصوفي: الجمعية جماعة عظيمة من الرجال والنساء مكوَّنة من أشد العناصر تبايناً. والثيوصوفيا بمعناها المجرد هي الحكمة الإلهية أو حصيلة المعرفة والحكمة التي يقوم عليها الكون – تجانس الخير الأزلي. وهي بمعناها العينيِّ جملة ما خصَّت به الطبيعة الإنسان على هذه الأرض من هذه الحكمة، **ليس إلا**. إن بعض الأعضاء يسعون بنيَّة صادقة إلى تحقيق الثيوصوفيا وإلى جعلها موضوعية، إذا جاز التعبير، في حياتهم، بينما يرغب غيرهم في الدراية بها فقط، لا في وضعها موضع التطبيق؛ وهناك سواهم ممَّن قد انضمُّوا إلى الجمعية بدافع الفضول وحسب، أو اهتمام عَرَضي، أو لأن بعض أصدقائهم ينتمون إليها. فكيف للنهج أن يقوَّم، إذن، بحسب مستوى أولئك الذين ينتحلون الاسم بدون أي حقٍّ فيه؟ وهل للشعر، أو مصدر إلهامه، أن يقاس فقط بالشُوَيْعِرين هؤلاء الذين يبرِّحون بآذاننا؟ بالمثل، ليس للجمعية أن تُعتبَر تجسيداً للثيوصوفيا إلا في دوافعها المجردة، وليس لها أن تدَّعي أنها وعاؤها العينيُّ مادامت عيوبها ونقائصها البشرية ممثَّلة كلها في صُلبها؛ وإلا فإن الجمعية لن تفعل غير تكرار الخطأ الكبير الذي وقعت فيه كنائس المسيح المزعومة وسيل انتهاكاتها. وإذا كانت التشبيهات الشرقية مباحة فإن الثيوصوفيا هي بحر الحقيقة والمحبة والحكمة الشاملة الذي لا ساحل له، العاكس إشراقه على الأرض، في حين أن الجمعية الثيوصوفية مجرد فقاعة مرئية على وجه ذلك الإشراق. الثيوصوفيا هي الطبيعة الإلهية، ما يُرى منها وما لا يُرى، وجمعيَّتها هي الطبيعة البشرية التي تجاهد للعروج إلى أصلها الإلهي. الثيوصوفيا، أخيراً، هي الشمس الأزلية السرمدية، وجمعيَّتها هي الشهاب الخاطف الذي يحاول أن يستقر في مدار ليصبح كوكباً، يدور أبداً ضمن جاذبية شمس الحقيقة. لقد تأسست الجمعية لتسهم في إرشاد البشر إلى وجود شيء ما كالثيوصوفيا ولمساعدتهم على العروج إليها بدراسة واستيعاب حقائقها الأزلية.

السائل: ظننتك قلت إنه ليس لديكم دساتير أو عقائد خاصة بكم؟

الثيوصوفي: ليست لدينا في الواقع. فالجمعية ليست في حوزتها حكمة تخصها لتؤيِّدها أو لتعلِّمها. إن هي إلا مستودع لكل الحقائق التي نطق بها كبار رائيي ومسارَري وأنبياء العصور التاريخية وحتى ما قبل التاريخية – كل ما

يمكنها أن تحصِّل منها في الأقل. لذا فإنها ليست إلا القناة التي يُمرَّر من خلالها كثير أو قليل من الحقيقة التي نجدها في تعاليم كبار معلِّمي البشرية مجتمعة.

السائل: أوتكون حقيقة كهذه متعذرة المنال خارج الجمعية؟ ألا تـدَّعي كـل الكنـائس الأمـر عينه؟

الثيوصوفي: لا، على الإطلاق. إن الوجود الذي لا ريب فيه لمسارَرين كبـار – "أبناء لله" حقيقيين – يدل على أن حكمة كهذه كثيراً ما كان يتم بلوغها على يـد أفراد معزولين، وإن لم يستغنوا في البداية عـن إرشـاد معلِّـم. غيـر أن معظـم أتباع أمثال هؤلاء المعلِّمين، عندما أصبحوا معلميـن بـدورهم، اخـتزلوا شـمولية هذه التعاليم إلى الأخـدود الضـيق لدسـاتيرهم المذهبيـة. فكـانت وصـايا معلِّـم مختار **واحد** هي التي يؤخذ بها وتُتَّبَع باستبعاد سواها – هذا إذا اتُّبِعت أصـلاً، كمـا في حالة العظة على الجبل. وهكـذا فـإن كـل ديـن نُتْفَـة مـن الحقيقـة الإلهيـة، استُخدِمت لإسقاط مشهد واسع حاكته المخيِّلة البشرية، ادَّعى تمثيـل الحقيقـة والحلول محلها.

السائل: لكن الثيوصوفيا، على حد قولكم، ليست ديناً.

الثيوصوفي: إنها بالتأكيد ليست ديناً، بما أنها جوهر كل دين وجـوهر الحقيقـة المطلقة التي يقوم كل معتقد على قطرة منها. فإذا لجأنـا إلـى الاسـتعارة قلنـا إن مثل الثيوصوفيا على الأرض كمثل الشعاع الأبيض للطيف الشمسـي، ومثـل كل دين كمثل لون واحد من ألـوان الموشـور السـبعة. إن كل شـعاع لـوني، إذ يتنكَّر لكل الأشعة الأخرى ويكفِّرها بوصفها باطلة، لا يـدَّعي الأفضـلية وحسـب، بل يدعي أنه ذلك **الشعاع الأبيض نفسه**، ويحرِّم حـتى تـدرُّجاته اللونيـة مـن الفاتح إلى القاتم بوصفها زندقات. غير أنه مثلما أن شمس الحقيقة ترتفـع فـي إشراقها على أفق إدراك البشر ويتلاشى كـل شـعاع لـوني بالتدريـج حـتى يعـاد امتصاصـه أخيـراً بـدوره، كـذلك لـن تُبتَلـى البشـرية فـي خاتمـة المطـاف بالاستقطابات الصنعية، بل تستحم فـي نـور شـمس الحقيقـة الأزليـة الصـافي الذي لا لون له. وذلكم سيكون **الثيوصوفيا**.

السائل: أنتم تـدَّعون، إذن، أن جميـع الأديـان الكـبرى مشـتقة مـن الثيوصـوفيا وأن العالم سيتحرر باستيعابها من لعنة أوهامه وضلالاته العظيمة!

الثيوصـوفي: بالضـبط. ونحـن نضـيف أن جمعيتنـا الثيوصـوفية هـي البـذرة المتواضعة التي ستُنتِج أخيراً، إذا رُوِّيت وتُركَـت لتعيـش، شـجرة معرفـة الخيـر والشـر المغروسـة علـى شـجرة الحيـاة السـرمدية. وحـدها دراسـة الأديـان والفلسفات الكبرى المتنوعة للبشـرية ومقارنتهـا بنزاهـة وبعقـل غيـر متحامـل يمكن أن تؤمِّل البشر بالوصول إلى الحقيقة. وإن بلوغ هذه النتيجة لـن يتحقـق ما لم يتم العثور بالأخص على مختلف نقاط الاتفاق فيمـا بينهـا والتفطُّـن إليهـا. فإننا حالما نصل – إما عن طريق الدراسة وإما بالأخذ عن شخص عـارف – إلـى

معناها الباطن نجد أنه يعبِّر في جميع الحالات تقريباً عن حقيقة كبرى في الطبيعة.

السائل: لقد سمعنا عن عصر ذهبي كان فيما مضى، وما تصفه قد يكون عصراً ذهبياً ينبغي أن يتحقق في يوم آتٍ. فمتى يكون ذلك؟

الثيوصوفي: ليس قبل أن تشعر البشرية ككل بالحاجة إليه. هنالك حكمة في كتاب *جاويدان خرد* الفارسي تقول: "الحق يُعرف من وجهين: ظاهر يُعرَف بنفسه، وباطن يُعرَف بالاستنباط من الدليل."[68] فليس قبل أن يصبح هذا النوع الثاني من الحقيقة في ظهوره للجميع في مثل بطونه اليوم، وبالتالي تعرُّضه للتشويه بالسفسطة وبالمماحكة، وليس قبل أن يعود وجها الحق وجهاً واحداً، سيكون للناس أن يروا رؤية متماثلة.

السائل: لكن لابد أن تلك القلة التي شعرت بالحاجة إلى مثل هذه الحقائق قد عقدت العزم بالتأكيد على الإيمان بشيء محدد؟ إنك تخبرني بأن لكل عضو، مادام ليس للجمعية عقائدها الخاصة، أن يعتقد بما ويختار ما يحلو له. إن هذا يبدو وكأن الجمعية ترمي إلى إحياء بلبلة ألسن ومعتقدات برج بابل القديم.[69] أما لديكم من معتقدات مشتركة؟

الثيوصوفي: ما نعنيه حين نؤكد أن الجمعية ليست لها عقائد أو معتقدات خاصة بها هو أنه لا توجد عقائد أو معتقدات خاصة **مفروضة** على أعضائها. لكن هذا بالطبع لا ينطبق إلا على الجمعية في مجملها. فهي، كما قيل لك، تنقسم إلى شعبتين، واحدة ظاهرة وأخرى باطنة. للذين ينتمون إلى الشعبة الثانية، بالطبع، فلسفة، أو – إذا فضَّلت – منهج ديني خاص بهم.

السائل: هل لك أن تخبرنا ما هو؟

الثيوصوفي: نحن لا نجعل منه سراً. فلقد أوجِز قبل بضع سنوات في *الثيوصوفي* وفي *البوذية الباطنية*، ويمكن الوقوع عليه مفصَّلاً أكثر في *العقيدة السرية*.[70] إنه مؤسَّس على أقدم فلسفة عرفها العالم التي تدعى **دين الحكمة** أو العقيدة الحقة. وبوسعك إن شئت أن تطرح أسئلة لتحصل على إيضاحات.

---

68 - مِسكويه، *الحكمة الخالدة*، بتحقيق وتقديم د. عبد الرحمن بدوي، بيروت 1983، ص 7؛ والقول للحكيم أوشهنج. (م)

69 - راجع *سفر التكوين* 11: 1-9. (م)

70 - H. P. Blavatsky, *The Secret Doctrine*, 2 Vols., London: The Theosophical Publishing Company, 1888.

نشير ههنا إلى وجود طبعة محققة من *العقيدة السرية* عُنِي بتحقيقها وقدَّم لها بوريس دو زيركوف:

H.P.Blavatsky, *Collected Writings 1888,* “The Secret Doctrine”, 3 Vols., The Theosophical Publishing House, Adyar, 1979.(م)

*** *** ***

الباب الخامس

التعاليم الأساسية للثيوصوفيا

الله والصلاة

السائل: هل تؤمنون بالله؟

الثيوصوفي: هذا يتوقف على ما تعنيه بهذه الكلمة.

السائل: أعني بها إله المسيحيين، أبا المسيح، والخالق: باختصار إله موسى الكتابي.

الثيوصوفي: نحن لا نؤمن بمثل هذا الإله. نحن نرفض فكرة إلـه شخصـي أو مفارق للكون وعلى صورة البشر، ليس إلا ظلاً هائلاً للـ*إنسان* – وليته كان ظلاً له في أحسن أحواله. إننا نقول – ونبرهن على ما نقول – إن إله اللاهوت جملـة من التناقضات، وهو تعذُّر منطقي. لذا فنحن لا نمت إليه بصلة.

السائل: فهات أسبابكم من فضلك.

الثيوصوفي: هي كثيرة، ونحـن لا نسـتطيع بسـطها كلهـا. ولكـن هـاك بضـعة منها. إن عباد هذا الإله يدعونه لانهائياً ومطلقاً، أليس كذلك؟

السائل: أظنُّه كذلك.

الثيوصوفي: إذن إذا كان لانهائياً – أي لا حدود له –، وبخاصة إذا كان مطلقــاً، كيـف يمكـن أن يكـون ذا شـكل وخالقـاً لأي شـيء؟ إن الشـكل ينطـوي علـى التحديد وعلى بداية ونهاية. على الكائن حتى يخلق أن يفكر ويخطِّط. فكيف لنـا أن نحسب المطلق يفكر – أي أن تكون له علاقة مـا مـع مـا هـو محـدود ومنتـهٍ

ومشروط؟ ذلك ضرب من العبث الفلسفي والمنطقي. وحـتى القبـاله العبريـة ترفض مثل هذه الفكرة، ولذا تجعل من المبدأ الواحد، الألوهي المطلق، وحــدة لانهائية تدعى أين صوف.[71] على الخالق لكي يخلق أن يصبح فعَّـالاً؛ ولمـا كـان هذا مستحيلاً على **المطلقية** كان لابدَّ من تمثيل المبدأ اللانهائي بوصفه يصـير علَّة التطور (وليس علَّة الخلق) تمثيلاً غير مباشر، أي عـبر فيـض السـفروت[72] من نفسه (وهو عبث آخر يُعزى هذه المرة إلى مترجمي القباله).

السائل: فماذا عن أولئك القباليين الذين، على كونهم كذلك، ما يزالون يعتقدون بــ*يهوه*، أو بـ*الرابوع*؟

الثيوصوفي: لهم أن يعتقدوا بما يحلو لهم، من حيـث إن اعتقـادهم أو عـدمه لن يغير أمراً واقعاً واضحاً بـذاته. اليسـوعيون يقولـون لنـا إن اثنيـن واثنيـن لا يساويان دوماً أربعة يقيناً، بما أن الله يقدر إذا شاء أن يجعل 2 ×2 = 5. فهل هذا يسوِّغ قبولنا لسفسطتهم؟

السائل: فأنتم ملحدون إذن؟

الثيوصوفي: ليس على حد علمنـا! اللهـم إلا أن يكـون نعـت "ملحـد" يُطلَـق على جميع الذين يكذِّبون بإله بشري الصورة. إننا نؤمن بمبدأ كلِّي إلهـي، أصـل **الكل**، يصدر منه كل شيء وإليه يُرجَع كل شيء عند نهاية دور الوجود الكبير.

السائل: لكن هذا هـو الادعـاء القـديم للحلوليـة. فـإذا كنتـم حلـوليين لا يمكنكـم أن تكونـوا ألوهيين؛ وإذا لم تكونوا ألوهيين ينبغي أن تُدعَوا ملحدين.

الثيوصـوفي: ليــس بالضــرورة. فمصــطلح "حلوليــة" كــذلك واحــد مــن مصطلحات كثيرة يساء استعمالها، شوَّه معناها الحقيقي الأصلي تعصب أعمـى ورؤية أحادية الجانب. فإذا قبلتـم بالاشـتقاق المسـيحي لهـذه الكلمـة المركَّبـة وشكَّلتموها من παν، "كل"، و θεος، "إله"، ثم تصورتم وعلَّمتم أن هذا يعنـي أن كل حجر وكل شجرة في الطبيعة إله، الإله **الواحد**، فـأنتم عندئـذٍ بـالطبع علـى حق، وبذلك تجعلون من الحلوليين عبدة أصنام، بالإضافة إلى مـا يعنيـه اسـمهم الشرعي. لكن سيصعب عليكم أن تُفلِحـوا مثـل هـذا الفَلاح إذا اشـتققتم كلمـة حلولية اشتقاقاً باطنياً كما نفعل نحن.

السائل: فما هو، إذن، تعريفكم بها؟

---

71 - أين صوف، אין סוף = έπειρος = τό πάν، الذي لا نهاية له، أو غير المحدود، في الطبيعة ومعها، المعدوم الذي هو **الكائن**، لكنه ليس من الكائنات.

72 - كيف يمكن للمبدأ الأزلي عديم الفعل أن يفيض أو يبثَّ؟ إن بَـرَبـرَهْـم الفيدنتيين لا يفعل شيئاً من هذا القبيل؛ ولا أين صوف القباله الكلدانية. إن قانوناً أزلياً دورياً هو الذي يجعل قوة فاعلة وخالقة (اللوغوس) تفيض من المبدأ المستتر أبداً وغير القابل للفهم عند بداية كل مَهامَـنْـفَـنْـتَـرا، أو دور جديد من أدوار الحياة.

الثيوصوفي: دعني أطرح عليك بدوري سؤالاً. مـاذا تفهـم مـن كلمـة بـان، أو الطبيعة؟

السائل: الطبيعة، على ما أظن، هي حاصل مجموع الأشياء الموجودة من حولنـا؛ ومحصِّـلة العلل والمعلولات في عالم المادة، الخلق أو الكون.

الثيوصوفي: ومـن هنـا المجمـوع أو النظـام المشـخَّص للعلـل والمعلـولات المعروفة؛ حاصل كافة العوامل والقوى بوصفها غيـر متَّصـلة بالكلِّيـة بخـالق أو خالقين عاقلين، وربما "متصوَّرة كقوة واحدة ومنفصلة" – كمـا جـاء فـي بعـض موسوعاتكم؟

السائل: نعم، أظن ذلك.

الثيوصوفي: طيب، فنحن لا نأخذ بالاعتبار هذه الطبيعـة الموضـوعية الماديـة التي ندعوها وهماً زائلاً، ولا نحن نعني بـ πάν الطبيعة، بمعنى اشتقاقها المقبـول من اللاتينية *natura* (الصيرورة، من *nasci*، الـولادة). عنـدما نتكلـم علـى الألوهـة ونجعلها مماثلة، وبالتالي مزامِنة للطبيعة، فإن المقصود مـن ذلـك هـو الطبيعـة الأبدية غير المخلوقة، وليس جملة ظلالكم الهاربة وأوهامكم المنتهية. إننا نترك لمؤلفي الأناشيد أن يسمُّوا السماء أو الفـردوس المرئـي عـرش اللـه، وأرضـنا الترابية موطئ قدميه.[73] إلهنا ليس في فردوس، ولا هو في شجرة، أو بنـاء، أو جبل معيَّن: إنه في كل مكان، في كل ذرة من ذرات الكوسموس، المرئي وغير المرئي على حدٍّ سواء، في، فوق، وحول كل ذرة غير مرئية وكـل جزيـء قابـل للانقسام؛ ذلك أن **ذاك** هو قـدرة الانفتـاح والانغلاق السـرِّية، والكمـون المبـدع المالئ الكل، القادر على كل شيء، وحتى العليم بكل شيء.

السائل: قف! إن العلم بكـل شـيء هـو مـن اختصـاص شـيء يفكـر، وأنتـم تنكـرون علـى مطلقيَّتكم القدرة على التفكير.

الثيوصوفي: إننـا ننكـر ذلـك علـى **المطلـق**، بمـا أن الفكـر شـيء محـدود ومشروط. لكنك على ما يبدو نسيت أن اللاوعي المطلق في الفلسفة هو عينه الوعي المطلق، لأنه بغير ذلك لن يكون *مطلقاً*.

السائل: فمطلقكم يفكر إذن؟

الثيوصوفي: لا، **ذاك** لا يفكر، لسبب بسيط هو أنه *الفكـر المطلـق* عينـه. ولا هو بموجود، للسبب نفسه، حيث إنه الوجود المطلـق، *والكينونـة*، وليـس كائنـاً. اقرأ قصـيدة سـليمان بـن يهـوذا جبريـل القباليـة البديعـة فـي *قطـر الملكـوت*، ولسوف تفهـم: "أحـدٌ أنـت، أصـل الأعـداد طـرًّا، لكـن ليـس كعنصـر تعـداد؛ إذ الوحدة لا تقبل التكثُّر أو التغيُّر أو الشكل. أحـدٌ أنـت، وفـي سـرِّ أحـديَّتك يضـيع أحكم الحكماء، لأنهم لا يعرفونه. أحـدٌ أنـت، وأحـديَّتك لا نقصـان فيهـا أبـداً، ولا

73 - إشعيا 66: 1-2. (م)

زيادة، ولا تغيُّر. أحدٌ أنـت، ومـا مـن خـاطر مـن خـواطري يمكنـه أن يحـدَّك، أو يعيِّنك. أنت **هو الكائن**، ولكن ليس ككائن موجود، لأن أفهام البشر ونظرهم لا قدرة لها على الإحاطة بوجودك، ولا على تعيين أينك أو كيفـك أو لمـاذك،" إلـخ، إلخ. باختصار فإن إلهنا هو باني الكون الأزلي، الذي لا يني *يتطوَّر*، وليس *خالقه*؛ ذلك *الكون عينه المتفتِّح* عن ماهيَّته، وليس *المصنوع*. إنه، في رمزيَّته، دائـرة لا محيط لها، ليس لها إلا صفة واحدة فاعلة أبداً تحيط بكل الصفات الموجـودة أو المعقولة الأخرى – **هو**. إنه القانون الأوحد، الذي تنبثق عنه القـوانين المتجلِّيـة، الأبدية، والثابتة، ضمن ذلك **القانون** غير المتجلِّي أبـداً، *لأنـه* القـانون المطلـق الذي يكون في فترات تجلِّيه *الصيرورة الأبدية*.

السائل: سمعت ذات مرة واحداً من أعضـائكم يلحـظ أن الإلـه الكـوني، بمـا هـو فـي كـل مكان، يوجد في الأوعية الخسيسة مثلما يوجد في الأوعية الشريفة، وبالتالي يوجـد فـي كـل ذرة من ذرات رماد سيجاري! أليس هذا من قبيل التجديف الفاحش؟

الثيوصوفي: لا أحسبه كذلك، بمـا أن المنطـق البسـيط يصـعب أن يُعَـدَّ مـن قبيل التجديف. لو اتفق لنا أن نستبعد المبدأ المـالئ الكـل مـن نقطـة هندسـية واحدة من نقاط الكون، أو من قُسَيْم مادي يشغل أي فضاء قابل للتصـور، هـل يظل بوسعنا أن نعتبره لانهائياً؟

هل الصلاة ضرورية؟

السائل: هل تؤمنون بالصلاة، وهل تصلُّون أصلاً؟

الثيوصوفي: لا نصلِّي، بل *نفعل* بدلاً من أن *نتكلم*.

السائل: أفلا ترفعون صلوات حتى إلى المبدأ المطلق؟

الثيوصوفي: ولماذا نفعل؟ بما أننا قوم مشغولون جـداً فنحـن تصـعب علينـا إضاعة الوقت في رفع صلوات لفظية إلى تجريد محض. فالذي لا يُعـرَف ليـس قادراً على إقامة علاقات غير علاقات أجزائه فيما بينها، لكنه معدوم فيما يتعلق بأية علاقات منتهية. فالكون المرئي يعتمد في وجـوده وظـواهره علـى أشـكاله المتبادِلة الفعل وعلى قوانينها، وليس على الصلاة أو الصلوات.

السائل: ألا تؤمنون مطلقاً بفاعلية الصلاة؟

الثيوصوفي: ليس بالصلاة كما تُعلَّم في هذا الكمِّ الكـبير مـن الكلمـات وكمـا تكرَّر تكراراً شفهياً – إذا ما كنت تعني بالصلاة الاسـترحام الخـارجي، المرفـوع إلى إله مجهول بوصفه المخاطَب، الذي افتتحه اليهود وروَّج له الفريسيون.

السائل: فهل ثمة نوع آخر من الصلاة؟

الثيوصوفي: جزماً؛ ونحن ندعوه **صلاة الإرادة**، وهو أقرب إلى الأمر الداخلي منه إلى الاسترحام.

السائل: لمن، إذن، *تصلُّون* عندما تفعلون؟

الثيوصوفي: لـ"أبينا الذي في السماوات" – بمعناه الباطني.

السائل: وهل ذاك المعنى مختلف عن الذي يضفيه عليه اللاهوت؟

الثيوصوفي: مختلف بالكلِّية. فالعالم الغيبي أو الثيوصوفي يرفع صلاته إلى *أبيه الذي في السرِّ* (أقرأ وحاول أن تفهم نص متى 6: 6)، وليس إلى إله خارج الكون وبالتالي منتهٍ؛ وذلك "الآب" هو في الإنسان نفسه.

السائل: فأنتم، إذن، تجعلون الإنسان إلهاً؟

الثيوصوفي: بل قُلْ، أرجوك، "الله" ولا تقل *إله*. فالإنسان الباطن، بالمعنى الذي نقصد، هو الإله الأوحد الذي بوسعنا أن نتعرَّف إليه. وكيف للأمر أن يكون على غير ذلك؟ إذا سلَّمنا بأن الله مبدأ كلِّي الانبثاث، لانهائي، كيف يمكن للإنسان وحده عندئذٍ أن يُستثنى من التشرُّب بالإله و*فيه*؟ إننا ندعو "أبانا الذي في السماوات" تلك الماهية الألوهية التي نتعرَّف إليها في أنفسنا، في قلبنا وفي وعينا الروحي، والتي لا تمتُّ بصلة إلى التصور البشري الهيئة الذي قد نشكِّله عنها في دماغنا الجسماني أو في شطحات مخيِّلتنا: "أما تعلمون أنكم هيكل الله، وأن روح الله (المطلق) حالٌّ فيكم؟"[74] فلا يسوِّلنَّ لامرئ أن يؤنِّس تلك الماهية فينا. ولا يقولنَّ ثيوصوفي، إذا كان يستمسك بالحقيقة الإلهية، وليس البشرية، إن هذا "الإله في السرِّ" يصغي إلى أيٍّ من الإنسان المنتهي أو الماهية اللانهائية، أو يتميَّز عنهما – إذ إن كلَّهم واحد. ولا يقولنَّ، كما ألمعنا لتوِّنا، إن الصلاة استرحام. إنها بالحري سرٌّ؛ سيرورة غيبية تُترجَم بها الخواطر والرغبات المنتهية والمشروطة التي يتعذَّر على الروح المطلق غير المشروط أن يستوعبها إلى إرادات روحية وإلى المشيئة؛ ومثل هذه السيرورة يدعى "التجوهُر الروحي". إن شدة أشواقنا المضطرمة تحوِّل الصلاة إلى "حجر الفلاسفة"، ذاك الذي يجوهِر الرصاص إلى ذهب خالص. وتصير "صلاة إرادتنا"، بما هي الماهيَّة المتجانسة الواحدة، القوة الفاعلة أو الخلاقة التي تصنع النتائج بحسب مشيئتنا.

---

74 - كورنثوس 3: 16. (م) كثيراً ما يقع المرء في الكتابات الثيوصوفية على تصريحات متناقضة عن مبدأ الخريستوس في الإنسان. بعضهم يدعوه المبدأ السادس (*بودِّهي*)، وبعضهم الآخر السابع (*أتمن*). فإذا شاء الثيوصوفيون المسيحيون أن يستعملوا مثل هذه التعبيرات، فليصحِّحوها فلسفياً باتباع مقايسة رموز دين الحكمة القديم. نحن نقول إن خريستوس ليس واحداً من المبادئ الثلاثة العليا وحسب، بل الثلاثة جميعاً معتبَرة كثالوث. وهذا الثالوث يمثل للروح القدس، للآب، وللابن، كما يشير إلى الروح المجرَّد، والروح المتمايز، والروح المتجسِّم. كرشنا والمسيح هما فلسفياً المبدأ نفسه تحت مظهره المتجلِّي المثلَّث. ففي *البهَغَفَدغيتا* نجد كرشنا يدعو نفسه، على حدٍّ سواء، أتمن، الروح المجرَّد، كشترجنا، الأنيَّة العليا أو المتقمِّصة، و**الذات** الكلِّية، كل الأسماء التي، إذ تنتقل من الكون إلى الإنسان، تشير إلى *أتما* و*بودِّهي* و*مَنَس*. و*الأنوغيتا* مشبعة بالعقيدة نفسها.

السائل: هل تعني بقولك أن الصلاة سيرورة غيبية تفتعل نتائج مادية؟

الثيوصوفي: أجل. إن *قوة الإرادة* تصبح قدرة حيَّة. ولكن ويل لأولئك الثيوصوفيين والغيبيين الذين، بدلاً من أن يسحقوا رغبات *الأنِّيَّة* الشخصية الدنيا أو الإنسان الجسماني، ويقولون، مخاطبين **أنيَّتهم** *العليا* الروحية المغمورة بنور *أتما–بودهي*، "لتكن مشيئتك، لا مشيئتي"، إلخ، باثِّين موجات من قوة الإرادة لأغراض أنانية أو منكَرة! إذ إن هذا من قبيل السحر الأسود والرجس والشعبذة الروحية. وبكل أسف، فإن هذه هي الشغل الشاغل المفضَّل لرجال دولتنا وقادتنا العسكريين المسيحيين، ولاسيما عندما يرسل هؤلاء جيشين ليقتتلا. كلاهما ينخرط قبل الفعل في شيء من هذه الشعبذة برفع صلوات، كلٌّ منهما إلى إله الجنود نفسه، يتوسل كل منهما عونه على ذبح أعدائه.

السائل: داود صلَّى لربِّ الجنود ليعينه على قهر الفلستيين وعلى ذبح السوريين والمؤآبيين، وقد "صان الرب داود أنَّى توجَّه". في ذلك لا نتبع إلا ما نجد في الكتاب.

الثيوصوفي: بالطبع تفعلون. ولكن بما أنكم تبتهجون بتسمية أنفسكم مسيحيين، وليس إسرائيليين أو يهوداً، على حدِّ ما نعلم، لماذا لا تتبعون بالحري ما يقوله المسيح؟ وهو يأمركم بما لا لبس فيه بعدم اتباع ما قال "الأوَّلون" أو الشريعة الموسوية، بل يحثُّكم على أن تفعلوا ما يقول هو لكم، ويحذِّر أولئك الآخذين بالسيف، أنهم، هم أيضاً، سوف يهلكون بالسيف.[75] لقد أعطاكم المسيح صلاة واحدة جعلتموها صلاة شفاه ومحلَّ تباهي، لا يفهمها إلا الغيبي *الحق* وحده. فيها تقولون، بمعناكم الحرفي الميت: "أعفنا مما علينا، فقد أعفينا نحن أيضاً من لنا عليه"،[76] الأمر الذي لا تفعلونه أبداً. كذلك أمركم بأن *تحبوا أعداءكم* وتصنعوا *الخير لمضطهديكم*.[77] وحتماً ليس "نبي الناصرة الوديع" هو الذي علَّمكم أن تصلوا لـ"أبيكم" لكي يذبح أعداءكم وينصركم عليهم! لهذا نرفض ما تسمُّونه "صلوات".

السائل: فكيف تفسرون الواقع العالمي أن كل الأمم والشعوب صلَّت وتعبَّدت لإله أو لآلهة؟ بعضها عبد *شياطين* وأرواح مؤذية واتَّقاها، لكن هذا لا يثبت إلا عالمية الاعتقاد بفعالية الصلاة.

الثيوصوفي: يمكن تعليل ذلك بذلك الواقع الآخر أن للصلاة معاني أخرى عدَّة غير التي يضفيها عليها المسيحيون. إنها لا تعني فقط توسلاً أو *استرحاماً*، بل لقد عَنَتْ في قديم الزمان، أكثر ما عَنَتْ، الابتهال والتعزيم. إن لل*منترا*، أو صلاة الهندوس المنشَدة الموقَّعة، مثل هذا المعنى بالدقة، إذ إن البراهمة ينزِلون أنفسهم منزلة أعلى من منزلة سواد ال*ديفا* أو "الآلهة". فالصلاة قد تكون توسلاً أو تعزيمة لاستنزال اللعنة، ونقمة (كما في حالة جيشين يصليان في وقت واحد من أجل تدمير واحدهما الآخر) بقدر ما هي نعمة. فلما كانت

---

75 - متى 26: 53. (م)

76 - متى 6: 12. (م)

77 - متى 5: 44. (م)

غالبية الناس شديدة الأنانية، لا يصلُّون إلا من أجل أنفسهم، سائلين أن *يُعطَوا* "خبزهم كفاف يومهم" بدلاً من أن يكسبوه بعملهم، ويتوسلون إلى الله ألا يدخِلهم "في التجربة" بل أن ينجِّيهم (الذاكرين وحدهم) من الشرير،[78] فإن النتيجة هي أن الصلاة، كما تُفهَم الآن، ضارة من وجهين: (أ) إنها تقتل في المرء الاتكال على النفس؛ (ب) إنها تنمِّي فيه أثرة وأنانية أشرس أيضاً مما سبق للطبيعة أن حَبَتْه. أكرر أننا نعتقد بـ"الوصال" مع "أبينا الذي في السرِّ"[79] وبالفعل الآني المتساوق معه؛ وفي لحظات نادرة من الغبطة الوجدية، بامتزاج نفسنا العليا – المجذوبة بما هي كذلك نحو أصلها ومركزها – مع الماهية الكلِّية في حالة تدعى إبان الحياة *بسمادهي*، وبعد الموت *بنيرفانا*. إننا نرفض الصلاة لكائنات *مخلوقة* – من نحو الآلهة والقديسين والملائكة إلخ – لأننا نعدُّ هذا من قبيل الوثنية. كذلك لا يمكننا الصلاة للـ**مطلق** لأسباب شرحناها آنفاً؛ لذا نحاول أن نستبدل بالصلاة العقيمة والعديمة النفع أفعالاً فاضلة وصانعة للخير.

السائل: المسيحيون يدعون ذلك غروراً وتجديفاً. هل هم على باطل؟

الثيوصوفي: تماماً. بل إنهم، على العكس، هم الذين يبدون غروراً شيطانياً باعتقادهم أن المطلق أو اللانهائي – حتى إذا وُجِد شيء مثل إمكانية وجود علاقة ما بين غير المشروط والمشروط – سوف يطأطئ للاستماع إلى كل صلاة حمقاء أو أنانية. وإنهم هم أيضاً الذين يجدفون في الواقع بتعليمهم أن الإله العليم القدير يحتاج إلى صلوات منطوقة ليعرف ما ينبغي عليه فعله! هذا – مفهوماً فهماً باطنياً – ما يصدِّقه كلٌّ من بوذا ويسوع. فقد قال الأول: "لا تلتمسوا الآلهة العاجزة – لا تصلّوا! *بل بالحري اعملوا*؛ إذ إن الظلمة لن تشرق أبداً. لا تطلبوا شيئاً من الصمت، لأنه لا يتكلم ولا يسمع." والآخر – يسوع – يوصي: "فكل شيء سألتم باسمي (اسم خريستوس) أعمله."[80] وبالطبع فإن هذا المقبوس، إذا أُخِذَ بمعناه *الحرفي*، يتعارض مع حجَّتنا. أما إذا قبلناه باطنياً، عالمين علماً تاماً معنى مصطلح "خريستوس"، الذي يمثل بنظرنا *آتما*–*بودهي*–*مَنَس*، **"الذات"**، فإنه يُفسَّر كما يلي: الإله الأوحد الذي علينا أن نعترف به ونصلي إليه، أو بالحري نعمل بالتساوق معه، هو روح الله تلك التي جسدنا هو منها الهيكل والتي تقيم فيه.

الصلاة تقتل الاتكال على النفس

السائل: ولكن ألم يصلِّ المسيح نفسه ويوصي بالصلاة؟

الثيوصوفي: هكذا ورد في الكتاب، لكن تلك "الصلوات" هي بالدقة من غرار الوصال ذاك الذي ذكرناه لتوِّنا مع "الآب في السرّ". على غير ذلك، إذا رأينا في يسوع الإله الكلِّي، فإن النتيجة التي سنخلص إليها حتماً ستكون مفرطة

---

78 - متى 6: 11، 13. (م)
79 - متى 6: 6. (م)
80 - يوحنا 14: 13. (م)

اللامنطقية في لامعقوليَّتها، ومفادها أن "الإله بذاته" *صلَّى لنفسه* وفصل إرادة ذلك الإله عن إرادته!

السائل: اسمح لي أن أسوق حجَّة أخرى؛ حجَّة، فوق ذلك، كثيراً ما يسوقها بعض المسيحيين. إنهم يقولون: "أشعر بأني غير قادر على قهر أي من أهوائي والضعف في قوتي. لكني عندما أصلي ليسوع المسيح أشعر بأنه يعطيني القوة وأني بقدرته أقدر أن أقهر."

الثيوصوفي: لا عجب في ذلك. إذا كان "يسوع المسيح" هو الله، وكان إلهاً مستقلاً ومنفصلاً عن المرء المصلِّي، فكل شيء بالطبع ممكن – ويجب أن يكون كذلك – لـ"إله قوي". ولكن، عندئذٍ، أين الفضل، أو حتى العدل، في مثل هذا القهر؟ ولماذا يثاب القاهر الكاذب على شيء مفعول لم يكلِّفه غير الصلوات؟ أتدفع – وأنت الإنسان الفاني البسيط – لعاملك أجرة يوم كامل إذا قمت عنه بمعظم عمله، بينما كان هو يجلس طوال الوقت تحت التفاحة ويسألك أن تفعل ذلك؟ إن فكرة صرف المرء حياته بأسرها في كسل معنوي، جاعلاً غيره – أكان إلهاً أو إنساناً – يقوم عنه بأشقِّ عمله وواجبه، لتبدو شديدة الإغاظة لنا، وشديدة الحطِّ من الكرامة الإنسانية.

السائل: لعل الأمر كذلك. لكن فكرة الوثوق في مخلِّص شخصي لاستمداد العون والقوة في معركة الحياة هي مع ذلك الفكرة الأساسية في المسيحية الحديثة. ولا شك أن مثل هذا الاعتقاد، ذاتياً، ناجع؛ أي أن المؤمنين به *يشعرون* بأنفسهم فعلاً مستمدِّين العون والقوة.

الثيوصوفي: مثلما أنه لا ريب أيضاً أن بعض مرضى "العلماء الذهنيين" و"العلماء المسيحيين" – *"المنكرون الكبار"* [81] – يُشفَون أحياناً أيضاً؛ ومثلما أن التنويم، والإيحاء، وعلم النفس، وحتى الوساطة، من شأنها أن تنتج مثل هذه النتائج مراراً بالمثل، إن لم نقل أكثر. إنك تأخذ لا بالاعتبار إلا النجاح ولا تنسج حجَّتك إلا بخيطه وحده. فماذا عن الإخفاق الذي يفوق بعدد مرَّاته النجاح عشر مرات؟ قطعاً لن تتجاسر على القول، حتى بوجود اكتفاء الإيمان الأعمى، بأن الإخفاق مجهول بين المسيحيين المتزمِّتين؟

السائل: ولكن كيف يمكنك أن تفسر تلك الحالات التي يحالفها النجاح التام؟ أين يلتمس الثيوصوفي القدرة على إخضاع أهوائه وأنانيَّته؟

الثيوصوفي: في ذاته العليا، الروح الإلهية، أو الإله فيه، وفي *كرماه*. حتَّام سنضطر إلى الإعادة، مراراً وتكراراً، بأن الشجرة تُعرَف من ثمارها، وطبيعةَ السبب من نتائجه؟ أنت تتحدث عن إخضاع المرء أهواءه، وصيرورته خيِّراً عبر معونة الله أو المسيح وبها. ونحن نسأل: أين تجدون أناساً أكثر فضيلة وبراءة، يعفُّون عن الخطيئة والإجرام، أفي العالم المسيحي أم في البوذية – في البلدان المسيحية أو في البلاد "الوثنية"؟ والإحصاءات متوفرة لإعطاء الجواب

---

81 - مِلَّة الشافين الجديدة الذين بتنصُّلهم من وجود أي شيء غير الروح – الروح التي لا تعرف الألم ولا المرض – يزعمون أنهم يشفون كل الأمراض، على أن يؤمن المريض بأن ما يُنكِر لا وجود له. نوع جديد من التنويم الذاتي.

وتأييد ما نذهب إليه. فبحسب الإحصاء في سيلان والهند، في الجـدول المقـارن للجرائم التي اقترفها مسيحيون، مسلمون، هندوس، أوراسيون، بوذيـون، إلـخ، إلخ، في عيِّنة من مليونين من السكان المأخوذين عشوائياً من كل مـن الفئـات السابقة، والمغطي لمخالفات عدة سنوات، نجد أن نسبة الجرائم التي اقترفهـا المسـيحيون تسـاوي 15 مقابـل 4 جرائـم ارتكبهـا السـكان البوذيـون. (أنظـر *لوسيفر*، عـدد نيسـان، 1988، ص 147، مقالـة "محاضـرون مسـيحيون فـي البوذية".) ما من مستشرق، ولا من مؤرِّخ مرموق، أو رحَّالة فـي بلاد البـوذيين، من الأسقف بيغانديه والأب هوك، حتى السير وليم هَنْتر وغيـره مـن الرسـميين ذوي الإنصاف، سوف يتردد في منح وسام الفضيلة للبـوذيين قبـل المسـيحيين. ومع ذلك فإن الأوائل (ليس أتباع الملَّة البوذية السيامية الأصيلة على كل حال) لا يؤمنون لا بالله ولا بثواب مقبل خارج هذه الأرض. إنهـم لا يصـلُّون، لا كهنتهـم ولا علمانيوهم. وإنهم ليهتفون مستغربين: "نصلِّي! لمن، وماذا؟"

السائل: إذن فهم ملحدون حقاً.

الثيوصوفي: بما لا ريب فيه. لكنهم أيضاً أكثر الناس حباً للفضيلة وصوناً لهـا في العالم أجمع. تقول البوذية: احترِمْ أديان غيرك من الناس وابقَ وفياً لدينك؛ لكن مسيحية الكنيسة، في دينونتها لكل آلهة الأمـم الأخـرى بوصـفها شـياطين، تقضي على كل غير مسيحي بالهلاك الأبدي.

السائل: ألا يفعل كهنوت البوذية الشيء نفسه؟

الثيوصوفي: أبداً. إنهم من شدة الاستمساك بالوصية الحكيمـة الـواردة فـي الـدهَـمَّـبَـدا بحيث يعفُّون عن ذلـك، إذ إنهـم يعرفـون أنـه "إذا اعتـبر امـرؤ مـا، متعلِّماً كان أم غير متعلِّم، نفسه من الكبر بحيث يحتقر غيـره مـن البشـر، فهـو أشبه بأعمى يحمل شمعة – ينير الآخرين ويبقى أعمى."

أصل النفس الإنسانية

السائل: كيف، إذن، تعلِّلون أن الإنسان موهوب روحاً ونفساً؟ ما مصدرهما؟

الثيوصوفي: من النفس الكلِّية. وهما قطعاً ليسا هبـة مـن إلـه *شخصـي*. مـا مصدر العنصر الرطب في قنديل البحر؟ البحر الذي يحيط به، الذي يعيـش فيـه ويتنفس ويوجد، والذي إليه يُرجَع عندما يتحلل.

السائل: فأنتم ترفضون تعليم أن النفس هبة الله، أو نفخته في الإنسان؟

الثيوصوفي: نحن مضطرون لذلك. فالـ"نفس" الـتي جـاء ذكرهـا فـي سـفر التكوين (الإصحاح 2، الآية 7) هـي، كمـا ورد فـي الكتـاب، "النفـس الحيـة" أو *نفش* (النفس *الحيوية*، الحيوانية) التي يهبها الله (أو لنقل "الطبيعـة" *والقـانون*

السرمدي) للإنسان ككل حيوان. إنها ليست بتاتاً النفس المفكرة أو الذهن؛ وهي قطعاً ليست *الروح الخالدة*.

السائل: طيب، لنُعِدْ طرح السؤال على نحو آخر: هل الله هو الذي يهب الإنسان نفساً بشرية *عاقلة* وروحاً خالدة؟

الثيوصوفي: مرة أخرى تضطرنا طريقة طرحك للسؤال إلى الاعتراض عليه. بما أننا لا نؤمن بأي إله *شخصي*، كيف لنا أن نعتقد بأنه يهب الإنسان أي شيء؟ وحتى إذا سلَّمنا جدلاً بإله يأخذ على عاتقه المجازفة بخلق نفس جديدة لكل مولود جديد، فكل ما يقال في مثل هذا الإله هو أنه يصعب اعتباره هو نفسه متحلِّياً بأية حكمة أو علم سابق. وبعض المصاعب الأخرى وتعذُّر التوفيق بين خلق نفس لكل مولود وبين ادعاءات ذلك الإله الرحمة والعدل والإقساط والعلم الكلِّي إنْ هي إلا جروف قاتلة تتكسر عليها هذه العقيدة اللاهوتية كل يوم وكل ساعة.

السائل: ماذا تعني؟ عن أية مصاعب تتحدث؟

الثيوصوفي: تخطر ببالي حجَّة لا تُردُّ جاء بها بحضوري مرة كاهن سنهالي بوذي، هو إلى ذلك واعظ مشهور، ردَّ بها على مبشِّر مسيحي – مبشِّر ليس جاهلاً قطعاً أو غير مستعد للمناظرة العلنية التي قُدِّمت الحجة في أثنائها. جرت المناظرة قرب كولومبو، وكان المبشِّر قد تحدى الكاهن ميغاتِّفاتي أن يقدم له ما يرى من أسباب لعدم قبول "الوثنيين" للإله المسيحي. طيب، لقد خرج المبشِّر من تلك المناظرة المشهودة إلى الأبد مغلوباً، كالعادة.

السائل: أودُّ جداً أن أعلم كيف؟

الثيوصوفي: ببساطة هكذا: استهل الكاهن البوذي بسؤال الأب إن كان إلهه قد أعطى لموسى وصايا ليعمل بها البشر، بينما يحق لله وحده خرقها. فأنكر المبشِّر هذا الزعم أنِفاً وساخطاً. فقال خصمه: "طيب، أنت تقول لنا بأن الله لا يستثني أحداً من هذه القاعدة، وبأنه لا يمكن لنفس أن تولد بدون مشيئته. بيد أن الله يحرِّم الزنا، في جملة أشياء أخرى، ومع ذلك تقولون في نفس الوقت أنه هو الذي يخلق كل طفل يولد، وأنه هو الذي يهبه نفساً. أنفهم عندئذٍ من هذا أن ملايين الأطفال المولودين بالخطيئة والزنا هم من صنع الله؟ أن يحرِّم إلهكم خرق شرائعه ويعاقب عليه، ومع ذلك، *يخلق كل يوم وكل ساعة نفوساً لمثل هؤلاء الأطفال*؟ إلهكم، بحسب أبسط قواعد المنطق، متواطئ في الجرم، مادام لا يمكن لأبناء الزنا هؤلاء أن يولدوا بدون مساعدة منه وتدخل. أين العدل في الاقتصاص ليس من الآباء المذنبين وحسب، بل ومن الطفل البريء، على ما فعله ذلك الإله عينه، الذي تعفونه هو مع ذلك من أي ذنب؟" نظر المبشِّر عندئذٍ إلى ساعته ووجد فجأة الوقت متأخراً جداً على متابعة في النقاش.

السائل: إنكم تتناسون أن كافة الحالات التي لا تفسَّر على غرار هذه هي أسرار، وأن ديننا يحرِّم علينا الفحص عن أسرار الله. [82]

الثيوصوفي: لا، نحن لا نتناسى، بل نرفض ببساطة تعذُّرات كهذه. ولا نحن كذلك نريدك أن تؤمن بما نؤمن به. نحن فقط نجيب على الأسئلة التي تطرحها. غير أن عندنا اسماً آخر لما تسمونه "أسراراً".

التعاليم البوذية حول ما ورد أعلاه

السائل: فماذا يعلِّم البوذيون بخصوص النفس؟

الثيوصوفي: هذا يتوقف على أي البوذيتين تعني: البوذية الظاهرية، الشعبية، أم تعاليمها الباطنية. فالأولى تفسر نفسها في *التعليم الديني البوذي* على هذا النحو: "النفس تعتبرها كلمة يستعملها الجاهل للتعبير عن فكرة مغلوطة. فإذا كان كل شيء عرضة للتغيُّر فإن الإنسان غير مستثنى وكل جزء مادي منه ينبغي أن يتغير. وما هو عرضة للتغيُّر ليس دائماً، وبالتالي لا يمكن أن يكون ثمة بقاء خالد لشيء متغيِّر." هذا يبدو جلياً ومحدداً. لكننا عندما نصطدم بمسألة أن الشخصية الجديدة في كل ولادة جديدة تالية هي تجمُّع من *"سكندها"*، أو صفات، الشخصية *القديمة*، ونسأل إن كان تجمُّع الـ*سكندها* الجديد هذا هو بالمثل كائن جديد لم يبقَ فيه شيء واحد من الكائن الأخير، نقرأ أنه "بمعنى من المعاني كائن جديد، وبمعنى آخر ليس كذلك. فإبان هذه الحياة تتغير الـ*سكندها* تغيُّراً متواصلاً، بينما الرجل أ. ب. البالغ الأربعين مطابق من حيث الشخصية للشاب أ. ب. في سن الثامنة عشرة، على كونه كائناً مختلفاً من حيث بِلى جسمه وترميمه وتغيُّر ذهنه وطبعه باستمرار. ومع ذلك، فإن الرجل في شيخوخته يحصد عدلاً الثواب أو القصاص الناجم عن خواطره وأفعاله عند كل مرحلة سابقة من مراحل حياته. بذا فإن الكائن الجديد للولادة الجديدة، كونه *الفردية* السابقة *عينها* (وليس الشخصية عينها)، مزوداً فقط بصورة جديدة، أو بتجمُّع جديد من الـ*سكندها*، يحصد عدلاً عواقب أفعاله وخواطره في العمر السابق." هذا من قبيل الميتافيزياء العويصة، لكنه لا يعبِّر بأي حال من الأحوال عن *تشكيك* بوجود النفس كما هو بيِّن.

السائل: ألا يرد شيء كهذا في كتاب *البوذية الباطنية*؟

الثيوصوفي: أجل، إذ إن هذا التعليم ينتمي إلى كلا *البودهية* الباطنية أو الحكمة السرية، وإلى البوذية الظاهرية، أو فلسفة غوتاما بوذا الدينية.

السائل: لكننا يقال لنا صراحة بأن غالبية البوذيين لا يؤمنون بخلود النفس؟

---

82 - هذا غير صحيح البتة لأن بولس الرسول يقول: "الروح يفحص عن كل شيء حتى عن أعماق الله. فمن ذا الذي يعرف أسرار الإنسان غير الروح الذي في الإنسان؟ وكذلك ما من أحد يعرف أسرار الله غير روح الله." (1 كورنثوس 2: 10-11) فإذا كانت الروح في الإنسان من طبيعة إلهية، وكانت الروح الإلهية لا تتجزأ، يلزم عن ذلك أن ينطوي الإنسان على قدرة معرفية لانهائية تتناهى إلى العلم الإلهي الكلِّي. (م)

الثيوصوفي: ولا نحن نؤمن به، إذا كنت تقصد بـالنفس *الأنَّية الشخصية*، أو نفس الحياة – *نفش*. لكن كل بوذي متعلِّم يؤمن بـ*الأنية* الفردية أو *الإلهية*. وأولئك الذين لا يؤمنون بها يضلُّون في حكمهم، وهم لا يقلون خطأً حول هذه النقطة عن أولئك المسيحيين الذين تلتبس عليهم المدسوسات اللاهوتية للمحررين اللاحقين للأناجيل حول الدينونة ونار جهنم بالعبارات التي تفوَّه بها يسوع. فلا بوذا ولا "المسيح" كتبا يوماً أي شيء، بل تكلم كلاهما مجازاً واستعملا "عبارات مبهمة"، كما فعل جميع المسارَرين، وسيفعلون لفترة طويلة مقبلة. إن كلا الكتابات المقدسة البوذية والمسيحية تعالج المسائل الميتافيزيائية من هذا الغرار كافة بحذر شديد، وكلا السيرتين، البوذية والمسيحية، يأثم بذلك الإفراط في الظاهرية، حيث الحرف الميت يغالي في كلا الحالتين.

السائل: هل تقصد التلميح إلى أن تعاليم البوذا والمسيح جميعاً لم تُفهَم حقَّ فهمها إلى الآن؟

الثيوصوفي: ما أقصده هو ما تقول بالضبط. فالبشارتان، البوذية والمسيحية، كلاهما بُشِّر به من أجل الهدف المقصود نفسه. والمصلِحان كلاهما كانا محبَّين للإنسان متَّقدين وغيريين عمليين – *بشَّرا بما لا لبس فيه بـ"اشتراكية"* من النمط الأنبل والأرفع، هي التضحية بالنفس حتى الرمق الأخير. فالبوذا صاح: "لتقع عليَّ خطايا العالم قاطبة حتى أخفف من بؤس الإنسان وشقائه!" ... "ما كنت لأترك صرخة ألم واحدة بوسعي أن أوفِّرها!" هتف أيضاً الأمير المتسول، المسربل بحثالة الأسمال المتروكة على أراضي الدفن. نداء "تعالوا إليَّ جميعاً أيها المرهقون المثقلون، وأنا أريحكم" [83] هو نداء "رجل الآلام"، الذي ليس له موضع يضع عليه رأسه، إلى الفقراء والمستضعفين. قوام تعاليم كليهما محبة لا حدَّ لها للإنسانية، والإحسان، ومغفرة الإساءة، ونكران الذات، والرأفة بالجماهير المضلَّلة؛ كلاهما يبدي الازدراء عينه للثروات، ولا يميز بين ما هو لي وما هو لك. وقد كانت رغبتهما، بدون أن يكشفا أسرار المسارَرة المقدسة *للجميع*، أن يقدموا للجاهلين وللضالين، الذين كان عبؤهم في الحياة أثقل من أن يحتملوه، ما يكفي من الرجاء وتلميحة إلى الحقيقة تكفي لدعمهم في أحلك ساعاتهم. لكن غاية كلا المصلحين أُحبِطَت من جراء فرط حماسة أتباعهم اللاحقين. لقد أسيء فهم كلمات السيدين وتأويلها، ودونك العواقب!

السائل: ولكن لابد أن بوذا أنكر خلود النفس إذا كان جميع المستشرقين وكهنتُه يقولون ذلك!

الثيوصوفي: بدأ الأرهوات باتباع سياسة سيدهم وغالبية الكهنة اللاحقين لم يكونوا مسارَرين، كما حصل في المسيحية؛ وهكذا، شيئاً فشيئاً، كادت الحقائق الباطنية الكبرى أن تضيع. والبرهان بهذا الصدد هو أنه، من أصل المِلَّتين

83 - متى 11: 28. (م)

الموجودتين في سيلان، يعتقد السياميون أن الموت هو الفناء المطلق للفردية والشخصية، بينما تفسِّر المِلَّة الأخرى النيرفانا كما نفعل نحن الثيوصوفيين.

السائل: ولكن لماذا، والحالة هذه، تمثل البوذية والمسيحية القطبين المتعارضين لمثل هذا المعتقد؟

الثيوصوفي: لأن الشروط التي أحاطت بالتبشير بهما لم تكن هي عينها. ففي الهند دفع البراهمة، الغيورون على معرفتهم العليا، والنابذون منها كل طائفة ما عدا طائفتهم، بملايين البشر إلى عبادة الأوثان وإلى ما يكاد يكون فِتِشية. كان على البوذا أن يجهز على شطحات مخيِّلة معتلَّة وعلى الطيرة المتزمتة الناجمة عن جهل نادراً ما عُرِف قبلئذٍ أو بعدئذٍ. فالإلحاد الفلسفي خير من مثل تلك العبادة الجاهلة لأولئك –

الذين يرفعون عقيرتهم نحو آلهتهم ولا يجابون،

أو لا يبالي بهم أحد –

والذين يعيشون ويموتون في يأس ذهني. كان عليه أن يوقف أولاً سيل الطيرة الطيني هذا كلَّه، ويجتث *الأغلاط* قبل أن يفصح بالحقيقة. ولما لم يكن بوسعه أن يصرِّح *بكل شيء* للسبب عينه الذي حدا بيسوع أن يفعل ذلك – يسوع الذي يذكِّر *تلاميذه* أن أسرار ملكوت السماوات ليست للجماهير البطيئة الفهم، بل للمختارين وحدهم، ولهذا "كلَّمهم بالأمثال" (متى 13: 10-13) – فإن حذره قاده إلى *الستر أكثر مما ينبغي*. حتى إنه رفض أن يصارح الراهب فاكشاغوتَّا بوجود أنيَّة في الإنسان أو بعدم وجودها. وعندما أُلِحَّ أن يجيب، "لزم المغبوط الصمت". [84]

السائل: هذا يشير إلى غوتاما، فكيف يمسُّ الأناجيل؟

الثيوصوفي: اقرأ التاريخ وتفكَّر فيه. ففي الزمن الذي يُزعَم أن الأحداث المروية في الأناجيل وقعت فيه كان ثمة اختمار عقلي مشابه يجري في العالم المتمدِّن بأسره، إنما بنتائج متعاكسة في الشرق والغرب. كانت الآلهة القديمة

84 - يقدِّم بوذا لأنندا، التلميذ *المسارَر* الذي يتقصَّى سبب هذا الصمت، جواباً صريحاً لا لبس فيه في الحوار الذي ترجمه أولدنبرغ عن الـ*سميوتَّاكا نيكايا*: "لو أني، أيا أنندا، عندما سألني الراهب الجوَّال فاكشاغوتَّا: "هل الأنيَّة موجودة؟"، أجبت: "الأنيَّة موجودة"، لكان ذاك، أيا أنندا، أكَّد صواب عقيدة السَمَنا والبراهمة الذين يعتقدون بالبقاء. ولو أني، أيا أنندا، عندما سألني الراهب الجوَّال فاكشاغوتَّا: "هل الأنيَّة غير موجودة؟"، أجبت: "الأنيَّة غير موجودة"، لكان ذاك، أيا أنندا، أكَّد صواب عقيدة الذين يعتقدون بالفناء. ولو أني، أيا أنندا، عندما سألني الراهب الجوَّال فاكشاغوتَّا: "هل الأنيَّة موجودة؟"، أجبت: "الأنيَّة موجودة"، هل كان هذا سيخدم غايتي، أنندا، بإيجاد المعرفة فيه: كل الوجودات (*دهامَّا*) هي لاأنيَّة؟ ولكن لو كنت، أيا أنندا، أجبت: "الأنيَّة غير موجودة"، لما كان لهذا أن يسبب، أيا أنندا، غير إغراق الراهب الجوَّال فاكشاغوتَّا من حيرة إلى حيرة أخرى: "أنيَّتي، ألم توجد من قبل؟ لكنها الآن لم تعد موجودة!"" هذا يبيِّن، خيراً من أي شيء، أن غوتاما بوذا ضنَّ على الجماهير بمثل هذه العقائد الميتافيزيائية العويصة من أجل ألا يزيدهم حيرة. ما قصده كان الفرق بين الأنيَّة الشخصية المؤقتة والذات العليا التي تضيء بنورها الأنيَّة التي لا تفنى، "الأنا" الروحية للإنسان.

تحتضر. وبينما كانت الطبقات المتحضِّرة في فلسطين تنقاد في قطار الصادوقيين المنكرين إلى النفي المادي ومجرد الحرف الميت للشريعة الموسوية، وإلى الانحلال الأخلاقي في روما، فإن الطبقات الأدنى والأفقر كانت تنجرف في الشعبذة والآلهة الغريبة، أو تنضم إلى المنافقين والفريسيين. لقد كان الأوان قد آن لإصلاح روحي. فكان على إله اليهود القاسي، البشري الصورة، والغيور، بشريعته الدموية في "العين بالعين والسن بالسن"، وفي إهراق الدم والقربان الحيواني، أن يتنحَّى إلى المرتبة الثانية ويُستبدل به "الآب في السرِّ" الرحمن. وكان على الأخير أن يُظهَر ليس كإله خارج الكون، بل كمخلِّص إلهي لإنسان الجسد، مكنون في قلبه ونفسه عينهما، في الفقراء كما في الأغنياء. وكما في فلسطين كذلك في الهند، لم يكن بالوسع إذاعة أسرار المسارَرة، لئلا يعطى ما هو مقدس للكلاب، وتطرح اللآلئ قدام الخنازير، فيوطأ *الكاشف* والأشياء المكشوفة جميعاً تحت الأقدام.[85] من هنا قاد تكتُّم كلا بوذا والمسيح – سواء عاش الأول في الفترة التاريخية المنسوبة إليه أو لم يعش، وامتنع على حدٍّ سواء عن الكشف التام عن أسرار الحياة والموت – في الحالة الأولى إلى نفي بوذية الجنوب الصريح، وفي الحالة الثانية إلى الأشكال الثلاثة المتناوئة للكنيسة المسيحية وإلى النِحَل الـ 300 في إنكلترا البروتستانتية وحدها.

*** *** ***

---

85 - إشارة إلى ما جاء في متى 6: 6. (م)

الباب السادس

الطبيعة والإنسان بحسب التعاليم الثيوصوفية

وحدة الكل في الكل

السائل: الآن وقد أخبرتني ما *ليس* الله والنفس والإنسان عليه في نظركم، هل لك أن تعْلِمني *ما* هي *عليه* بحسب تعاليمكم؟

الثيوصوفي: إن ثلاثتهم، من حيث الأصل ومن حيث الأبدية، مثلهم كمثل الكون وكل ما فيه، واحد مع الوحدة المطلقة، مع الماهية القدسية التي لا يرقى إليها عِلْم التي تكلَّمت عليها منذ بعض الوقت. نحن لا نؤمن بأي *خَلْق*، بل بالظهورات الدورية والمتوالية للكون، من المرتبة الذاتية للوجود نزولاً حتى المرتبة الموضوعية، عند فواصل زمنية منتظمة، تشغل فترات تدوم مديداً.

السائل: هل لك أن تتبسَّط في الموضوع؟

الثيوصوفي: دونك السنة الشمسية مقارنة أولى وعوناً على تصور أصح، وكمقارنة ثانية نصفي تلك السنة اللذين ينجم عن كلٍّ منهما نهارٌ وليلٌ يدومان ستة أشهر عند القطب الشمالي. تخيَّلْ الآن، إن استطعتَ، بدلاً من سنة شمسية من 365 يوماً، **الأبدية**. هَبْ أن الشمس تمثِّل للكون، وأن النهارات والليالي القطبية المؤلَّف كلٌّ منها من ستة أشهر – *نهارات وليالي يدوم كلٌّ منها ترليوناً* [86] *وكوادرليوناً* [87] *من السنين*، بدلاً من أن يدوم 182 يوماً. فكما تشرق الشمس كل صباح فوق أفقنا *الموضوعي* من فضائها *الذاتي* (بنظرنا) المقابل، كذلك يبزغ الكون بزوغاً دورياً على مرتبة الموضوعية، منبثقاً من مرتبة الذاتية – المرتبة المقابلة للأولى. تلك هي "دورة الحياة". وكما أن الشمس تختفي من أفقنا، كذلك يختفي الكون في فترات منتظمة عندما يَجُنُّ "الليل الكوني". يطلق الهندوس على مثل هذه التناوبات "نهارات وليالي برهما"، أو مدة الـ*مَنْفَنْتارا* ومدة *بْرَلايا* (التحلُّل). أما الغربيون فبوسعهم أن يدعوها النهارات والليالي الكونية إذا فضلوا ذلك. فإبَّان هذه الأخيرة (الليالي) *يكون الكل في الكل*، وتندغم كلُّ ذرة في تجانس واحد.

---

86 - 10^{16} (م)
87 - 10^{24} (م)

التطور والوهم

السائل: ولكن من ذا الذي يخلق الكون إذن كل مرة؟

الثيوصوفي: لا أحد يخلقه. قد يدعو العلم تلك السيرورة بالتطور؛ الفلاسفة القبلمسيحيون والمشرقيون كانوا يدعونه بالفيض؛ أما نحن، غيبيين وثيوصوفيين، فنرى فيه *الحق* الكلِّي والأزلي الأوحد الذي يطرح انعكاساً دورياً لـ*ذاته* على أعماق الفضاء اللانهائية. وهذا الانعكاس، الذي تنظرون إليه باعتباره الكون *المادي* الموضوعي، نعتبره نحن *وهماً* وقتياً، ليس إلا. فوحده حقٌّ ما هو أزلي.

السائل: إذا صحَّ ذلك فأنت وأنا وَهْمان أيضاً.

الثيوصوفي: أجل، باعتبارنا شخصيتين زائلتين، اليوم شخص، وغداً آخر، نحن كذلك. هل كنت لتدعو ومضات الشفق القطبي، أضواء الشمال المفاجئة، "حقاً"، مع أنها من الحقِّية بمكان وأنت تنظر إليها؟ بالطبع لا. إن السبب الذي يولِّدها – على أن يكون دائماً وأبدياً – هو الحقُّ الأوحد، بينما النتيجة ليست إلا وهماً عابراً.

السائل: هذا كلُّه لا يفسِّر كيفية نشوء هذا الوهم الذي يدعى الكون؛ كيفية شروع الواعي *المزمع أن يكون* بالتجلِّي من اللاوعي *الكائن*؟

الثيوصوفي: إنه *لاوعي* بنظر وعينا المنتهي وحسب. حقاً إن بوسعنا فك معنى الآية 5 من الإصحاح الأول من إنجيل القديس يوحنا والقول: "والنور [المطلق – الذي هو ظلمة] يشرق في الظلمات [التي هي الضوء المادي الوهمي]، ولم تدركه الظلمات." هذا النور المطلق هو أيضاً القانون المطلق والسرمدي. سواء بالإشعاع أو بالفيض – لن نختلف على المصطلحات – يخرج الكون من ذاتيَّته المتجانسة ليبلغ المرتبة الأولى للتجلِّي الذي يشتمل، على حدِّ ما تعلَّمنا، على سبع مرتبات. ومع كلِّ مرتبة يصير أكثف وأكثر ماديَّة حتى يبلغ مرتبتنا هذه، حيث العالَمُ الوحيد الذي يعرفه العلم على وجه التقريب في تكوينه الفيزيائي ويفهمه هو المنظومة الكوكبية أو الشمسية – وهو *نسيج وحده*، على حدِّ ما يقال لنا.

السائل: وماذا تعني بـ*نسيج وحده*؟

الثيوصوفي: أعني أنه، على الرغم من أن القانون الأساسي والنفاذ الكلِّي لقوانين الطبيعة ساريان على كلِّ شيء، يبقى أن منظومتنا الشمسية (مثلها كمثل كلِّ منظومة أخرى مماثلة من بين ملايين المنظومات الأخرى في الكوسموس)، وحتى أرضنا، لديها برنامج التجلِّيات الخاص بها المختلف عن البرامج الخاصة بكل المنظومات الأخرى. نحن نتكلم على سكان الكواكب الأخرى، ونتخيل أنهم إذا كانوا *بشراً*، أي كائنات مفكِّرة، يجب أن يكونوا كما

نحـن. إن مخيِّلـة الشـعراء والرسـامين والنحـاتين لا تقصِّـر أبـداً فـي التمثيـل للملائكة حتى وكأنهم نسخة مُجمَّلة عن الإنسان – *زائد* أجنحة! أما نحـن فنقـول بأن هذا كلَّه غلط وضلال؛ ذلك أنه إذا كان المرء يجـد علـى هـذه الأرض وحـدها تنوعاً كهذا في النبات والحيـوان والنـوع البشـري – مـن أشـنة البحـر إلـى أرزة لبنان، ومن قنديل البحر إلى الفيل، ومن البوشمن والزنجي إلى أبولو بلفيديري – حسبه أن يبدِّل الشروط، كوسْمية وكوكبية، لكي ينجم عن ذلك نبات وحيـوان وبشرية مختلفة. والقوانين عينها سوف تسوِّي جملة مختلفة تماماً من الأشـياء والكائنات حتى على مرتبتنا نحن هذه، بما فيها كواكبنا جميعاً. فكم بالحري، والحال هذه، يجب أن يكون اختلاف الطبيعة *الخارجية* فـي منظومـات شمسـية أخـرى، وأيُّ غباءٍ هـو غباءُ الحكـم على *النجـوم* وعلى العـوالم وعلى البشـر الآخرين من خلال نجمنا وعالمنا وبشريَّتنا، على حدِّ ما يفعل العلم الفيزيائي!

السائل: ولكن ما هي معطياتكم التي يقوم عليها هذا الادعاء الجازم؟

الثيوصوفي: إنها ما لن يقبله العلم عموماً بوصفه برهاناً – وأعني الشـهادات المتراكمة لسلسلة من الرائين الذين شهدوا على صحَّتها. لقد تـمَّ التحقـق أولاً بـأول مـن صـحة رؤاهـم الروحيـة – وهـي كشـوف حقيقيـة، تمَّـت بـالحواس الجسـمانية والروحانيـة الطليقـة مـن شـهوات الجسـد العميـاء، ومـن خلالهـا – وقورنت كذلك الواحدة منها بالأخرى، ومُحِّصَتْ طبيعتُها. وكل ما لـم يلـقَ تأييـد الخبرة المشتركة بالإجماع استُبعِد، في حين لم يسجَّل بوصـفه حقيقـة راسـخة إلا ما وُجِدَ، في عصور مختلفة، وفي أصقاع شتى، وعبر سلسلة لا حصر لها مـن الأرصاد لم تنقطع، متوافقاً وحائزاً دوماً علـى المزيـد مـن التأييـد. إن المناهـج التي يعتمدها علماؤنا وطلابنا فـي العلـوم النفسـانية–الروحانيـة لا تختلـف عـن مناهج طلاب العلوم الطبيعية والفيزيائية، كما بوسعك أن تـرى. غيـر أن حقـول بحثنا تشمل مرتبتين اثنتين مختلفتين، وأدواتنـا ليسـت مـن صـنع أيـدٍ بشـرية – ولعلَّها لهذا السبب فقط أكثر مصداقية. فمعوجَّات الكيميائي وعالم الطبيعيـات وجمَّاماتهما ومجاهرهما قد تتعطل؛ وتلسكوب عالم الفلـك ومقياسـاته الزمنيـة قد تفسد؛ أما أدواتنا القياسية فلا يطالها تأثير الطقس أو العناصر.

السائل: ألهذا تستودعونها إيمانكم المطلق؟

الثيوصوفي: الإيمان كلمة لا تقـع عليهـا فـي القـواميس الثيوصـوفية. فنحـن نقول *بـالمعرفة المؤسَّسة على الرصد والخبرة*. بيد أن ثمة اختلاف: ففي حيـن يقود الرصـد والخـبرة العلمـاءَ فـي العلـم الفيزيـائي إلـى عـدد من الفرضـيات "الأساسية" بعدد الأذهان المستعدة لتطويرها، لا تقبل *معرفتنا* أن تضـيف إلـى مخزونها غير تلك الحقائق التي باتت لا يداخِلُها ريب والتي أقيـم البرهـان عليهـا برهاناً تاماً ومطلقاً. ليس لدينا معتقدان أو فرضيتان بخصوص الموضوع نفسه.

السائل: أعلى أساس معطيات كهذه آليتم على أنفسكم القبـول بالنظريـات الغريبـة الـتي نجدها في *البوذية الباطنية*؟

الثيوصوفي: بالضبط. فهذه النظريات قد تكون غير سديدة بعض الشيء من حيث تفاصيلها الصغرى، بل وحتى ناقصة من حيث عرض الطلاب غير المسارَرين لها؛ لكنها، مع ذلك، *حقائق* في الطبيعة، وهي أدنى إلى الحقيقة من أية فرضية علمية.

البنيان السباعي لكوكبنا

السائل: هل لي أن أفهم أنكم تعلِّمون بأن أرضنا تشكل جزءاً من سلسلة من الأرضين؟

الثيوصوفي: أجل. لكن "الأرضين" أو الأجرام الستة الأخرى لا تقع على مرتبة الموضوعية نفسها التي تقع عليها أرضنا؛ ولهذا لا نستطيع أن نراها. [88]

السائل: أوهذا من جراء بعدها العظيم عنَّا؟

الثيوصوفي: لا، مطلقاً. كيف ونحن نرى بعيننا المجرَّدة كواكب وحتى نجوماً تقع على مسافات أعظم بما لا يقاس؛ إن ذلك يعود إلى أن تلك الأجرام الستة لا تطالها وسائلنا الإدراكية الفيزيائية، أو مرتبتنا الوجودية. وهذا ليس لأن كثافتها المادية ووزنها أو قوامها مختلفة كل الاختلاف عن كثافة ووزن وقوام أرضنا والكواكب المعروفة الأخرى وحسب، بل لأنها تقع (بالنسبة إلينا) على *طبقة* فضائية مختلفة تماماً، إنْ جاز التعبير؛ طبقة ليس لحواسنا المادية أن تدركها أو أن تحسَّ بها. وعندما أقول "طبقة" أرجو ألا تسمح لمخيِّلتك أن تصوِّر لك طبقات كالنضائد أو الفرش الممدَّدة الواحدة فوق الأخرى؛ فإن هذا لن يقودك إلا إلى تصور مغلوط آخر منافٍ للمعقول. فما أعنيه بـ"طبقة" هي تلك المرتبة الفضائية اللانهائية التي، بطبيعتها نفسها، لا تقع في متناول إدراكاتنا العادية في حال الصحو، ذهنية كانت أم جسمانية، إنما توجد في الطبيعة خارج نطاق ذهنيَّتنا أو وعينا السويَّين، خارج نطاق فضائنا الثلاثي الأبعاد، وخارج تقسيمنا للزمن. ولكلٍّ واحدة من المراتب أو (الطبقات) الأساسية السبع في الفضاء – بالطبع باعتباره كلاً، شأن الفضاء الصرف في تعريف لوك، وليس باعتباره فضاءنا المنتهي – موضوعيَّتها وذاتيَّتها، مكانها وزمانها الخاصين، وعيَها وجملة الحواس الخاصة بها. بيد أن هذا كلَّه يكاد لا يفهمه امرؤٌ نشأ على طرق التفكير الحديثة.

السائل: ماذا تعني بجملة مختلفة من الحواس؟ هل من شيء على مرتبتنا البشرية يمكنك أن تمثِّل به لما تقول، لا لشيء إلا لكي تعطي فكرة أوضح عمَّا قد تعنيه بهذا التنوع في الحواس والفضاءات والإدراكات الخاصة بكلٍّ منها؟

الثيوصوفي: لا شيء البتَّة، اللهم إلا ما قد يكون للعلم بمثابة مسمار جاهز يعلِّق عليه حجَّة معاكسة. أليست لدينا في حياة الحلم جملة مختلفة من الحواس؟ إننا نحس ونتكلم ونسمع ونبصر ونذوق ونشتغل عموماً على مرتبة

---

88 - جاء في القرآن الكريم: "الله الذي خلق سبع سموات *ومن الأرض مثلهنَّ* يتنزَّل الأمر بينهنَّ لتعلموا أن الله على كلِّ شيء قدير وأن الله قد أحاط بكلِّ شيء علماً" (الطلاق 12). (م)

مختلفة. ولا أدلَّ على تغيُّر حالة وعينا من أن سلسلة أفعال وأحداث تستغرق سنوات، كما نظن، تجتاز ذهننا عقلياً في برهة واحدة. طيب! إن سرعة عملياتنا الذهنية الفائقة تلك في الأحلام، والطبيعية التامة للوظائف الأخرى جميعاً في أثنائها، تبيِّن لنا أننا على مرتبة أخرى تماماً. تعلِّمنا فلسفتنا أنه كما توجد سبع قوى أساسية في الطبيعة، وسبع مراتب وجودية، كذلك توجد سبع حالات للوعي بوسع الإنسان أن يحيا فيها، ويفكر، ويتذكر، ويستمدَّ وجوده. إن تعدادها هنا متعذِّر؛ إذ يتطلب هذا الأمر عكوف المرء على دراسة الميتافيزياء الشرقية. لكن لدى كلِّ امرئ عادي فانٍ في هاتين الحالتين – الصحو والحلم –، من العلامة الفيلسوف نزولاً حتى الهمجي الجاهل المسكين، من الأدلة ما يكفي على اختلاف حالتين كهاتين.

السائل: فأنتم لا تقبلون، إذن، بالتفسيرات المعروفة للبيولوجيا والفسيولوجيا لتعليل حالة الحلم؟

الثيوصوفي: لا نقبل بها. بل إننا نرفض حتى فرضيات علماء نفسكم، مفضِّلين عليها تعاليم الحكمة القديمة. ونحن، إذ نعتقد بوجود سبع مراتب للوجود الكوسمي وسبع حالات للوعي فيما يخص الكون والماكروكوسموس، نتوقف عند المرتبة الرابعة، واجدين أن من المتعذِّر المضيَّ قُدُماً إلى ما يتعداها بأية درجة من اليقين. أما فيما يخص الميكروكوسموس، أو الإنسان، فإننا نُعمِل النظر بحرية في حالاته السبع ومبادئه السبعة.

السائل: وكيف تفسِّرونها؟

الثيوصوفي: نحن نجد، بادئ ذي بدء، كائنين متميِّزين في الإنسان: الروحاني والجسماني، الإنسان المفكِّر والإنسان الذي يسجِّل من هذه الأفكار بمقدار ما يستطيع أن يستوعب. لذا فإننا نقسمه إلى طبيعتين متميِّزتين: الكائن الأعلى أو الروحاني، المكوَّن من *ثلاثة* "مبادئ" أو *مظاهر*، والرباعية الدنيا أو الجسمانية، المكوَّنة من *أربعة* – المجموع *سبعة*.

طبيعة الإنسان السباعية

السائل: أهي ما ندعوه بالروح والنفس من جانب، وبإنسان الجسد من جانب آخر؟

الثيوصوفي: لا. فذلك هو التقسيم الأفلاطوني القديم. [89] لقد كان أفلاطون مسارَراً، وبالتالي لم يكن يحق له أن يدخل في تفاصيل محرَّمة؛ بيد أن المطَّلع على العقيدة العتيقة يجد المبادئ السبعة في تراكيب أفلاطون المتنوعة للنفس والروح. لقد كان يعتبر الإنسان مكوَّناً من قسمين: قسم أزلي، مشكَّل من ماهية المطلقيَّة عينه، والآخر فانٍ وقابل للفساد، يستمدُّ أقسامه المكوِّنة من

89 - راجع أفلاطون، *الجمهورية*، الكتاب الرابع، حيث يقسم سقراط النفس إلى نفس "عاقلة" ونفس "غضبية" ونفس "شهوية". وهذا التقسيم الثلاثي "المبسَّط" هو عينه الذي اعتمده بولس الرسول (راجع رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي 5: 23). (م)

الآلهة *الصغرى* "المخلوقة". فالإنسان مكوَّن، كما يبيِّن، مـن (1) جسـم فـانٍ، (2) مبدأ خالـد، و (3) "نـوع فـانٍ منفصـل مـن النفـس". إنهـا مـا نـدعوه، علـى الترتيب، بالإنسان الجسماني، النفـس الروحانيـة أو الـروح، والنفـس الحيوانيـة (الـ *noûs* والـ *psuchè*). ذلك هو التقسيم الذي اعتمده بولس – المسارَر هو الآخـر – الذي يأخذ بوجـود جسـم نفسـاني يُـزرَع بفسـاد (النفـس النجميـة أو الجسـم النجمي)، وجسم *روحاني* يقوم في جوهر بغير فساد. [90] وحتى يعقوب (3: 15) يؤيِّد الأمر عينه بقوله إن "حكمة" (نفسـنا الـدنيا) لا تنـزل مـن عَـلُ، وإنمـا هـي حكمـة دنيويـة ("بشـرية"، "شـيطانية"، انظـر النـص اليونـاني)؛ بينمـا الحكمـة الأخـرى [الـتي تنـزل مـن عَـلُ] حكمـة سـماوية. ومع أن أفلاطـون، وحـتى فيثاغوراس، لا يتكلمان إلا على ثلاثة "مبادئ"، فمن الجلِّـي أنهمـا ينسـبان إليهـا سبع وظائف منفصلة، في تراكيبها المتنوعة، بحيث يكفينا أن نقابل بين تعاليمنـا وتعاليمهما حتى ينجلي الأمـر تمامـاً. دعنـا الآن نلقـي نظـرة عاجلـة علـى هـذه المظاهر الستة بواسطة جدول.

	المصطلحات السنسكريتية	المعنى الظاهري	الشرح
التقسيم الثيوصوفي			

90 - راجع رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس 15: 35-53. (م)

الرباعية الدنيا [الفانية]	أ. *روبا*، أو *ستهولا-شريرا*. ب. *برانا*. ج. *لنغا-شريرا*. د. *كاما-روبا*.	أ. الجسم المادي. ب. الحياة، أو المبدأ الحيوي. ج. الجسم النجمي. د. مقعد الرغبات والأهواء الحيوانية.	أ. هو مركبة "المبادئ" الأخرى جميعاً إبان الحياة. ب. ضروري فقط لـ أ، ج، د، ووظائف الـ*مَنَس* الأدنى التي تشتمل على جميع الوظائف المحصورة بالمخ (الجسماني). ج. *القرين*، الجسم الشبحي. د. ذلك مركز الإنسان الحيواني، حيث يوجد الخط الفاصل بين الإنسان الفاني والكيان الخالد.

<table>
<tr>
<td>الثلاثية العليا الباقية</td>
<td>هـ. مَنَس – مبدأ مثنًّى من حيث وظائفه.

و. بودّهي.

ز. أتما.</td>
<td>هـ. الذهن، العاقلة، الذي هو الذهن الإنساني الأعلى الذي يربط نورُه أو إشعاعه في أثناء العمر بين الموناد وبين الإنسان الفاني.

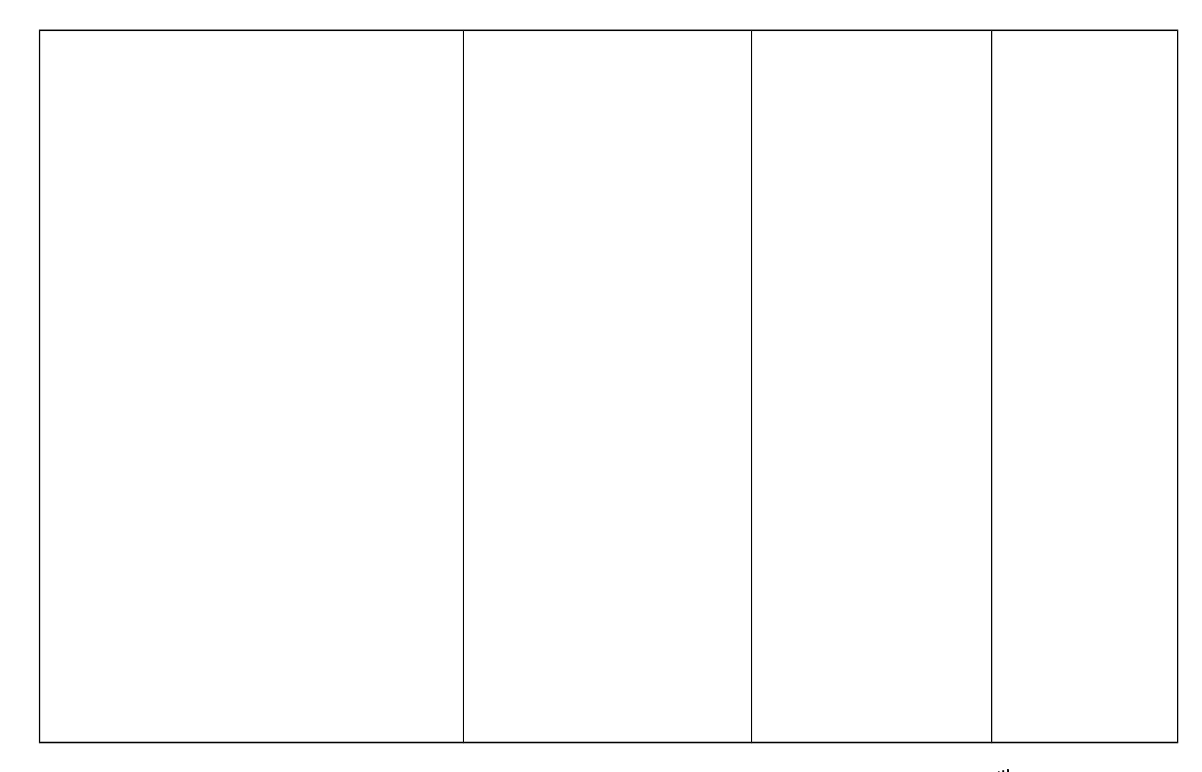
و. النفس الروحانية.

ز. الروح.</td>
<td>هـ. تتوقف حالة الإنسان ومصيره الكَرْميُّ على مَنَس، هل يرسب أكثر نحو الأسفل باتجاه كاما-روبا، مقعد الأهواء، أو نحو الأعلى باتِّجاه بودّهي، الأنية الروحانية. في الحالة الثانية تمتص هذه الوعيَ الأعلى للأشواق الروحية الفردية للـذهن (مَنَس)، وقد استوعب بودّهي، وتشكِّل الأنية التي تمضي إلى الغبطة الديفاخانية. [91]

و. مركبة الروح الكلِّي الخالص.

ز. واحد مع المطلق، بوصفه إشعاعاً منه.</td>
</tr>
</table>

91 - في كتاب السيد سينيت *البوذية الباطنية* تدعى د، هـ، و، على التوالي، النفس الحيوانية والنفس البشرية والنفس الروحانية – الأمر الذي يفي بالمراد. وعلى الرغم من أن المبادئ في *البوذية الباطنية* مرقَّمة، فإن توخي الدقة لا يحيجُنا إلى ذلك؛ إذ وحدها *الموناد* المزدوجة (*أتما-بودّهي*) من شأنها أن يُنظَر إليها باعتبارها الرقمين الأعليين (السادس والسابع). أما بخصوص المبادئ الأخرى جميعاً، بما أن *ذلك* "المبدأ" وحده السائد في الإنسان هو الذي ينبغي اعتباره الأول والأهم، ما من ترقيم ممكن كقاعدة عامة. عند بعض البشر، العاقلة العليا (*مَنَس* أو المبدأ الخامس) هي التي تسيطر على المبادئ الأخرى، وعند بعضهم الآخر، النفس الحيوانية (*كاما-روبا*) هي صاحبة اليد الطولى، إذ تُبرِز أشد الغرائز بهيمية، إلخ.



فما الذي يعلِّمه أفلاطون؟ إنه يتكلم على الإنسان *الباطن* بوصفه مكوَّناً من قسمين: قسم سرمدي يبقى هو هو، مشكَّل من جوهر الإله نفسه، وآخر فانٍ ويقبل الفساد.[92] هذا "القسمان" نجدهما في *ثلاثيَّتنا* العليا و*رباعيَّتنا* الدنيا (راجع الجدول). إنه يشرح أن النفس *psuchè*، حين "تتحالف مع الـ *noûs* (الروح أو الجوهر الإلهي[93])، فإنها تقوم بكل شيء على الوجه الصحيح والموفَّق"؛ لكن الأمر يصير على غير ذلك عندما تشدُّ نفسها إلى *anoia* (الجهالة، أو النفس الحيوانية غير العاقلة).[94] لدينا ههنا، إذن، *مَنَس* (أو النفس بعامة) في مظهريها: حين تشدُّ نفسها إلى *anoia* (*كاما–روبا*، أو "النفس الحيوانية" في *البوذية الباطنية*) فإنها تسارع إلى الاضمحلال التام بمقدار ما يتعلق الأمر بالأنية الشخصية؛ أما إذا تحالفت مع الـ *noûs* (*أتما–بودّهي*) فإنها تندغم في الأنية الخالدة الباقية، وبذلك يصبح وعيُها الروحي للشخصية التي *كانت* وعياً خالداً.

التمييز بين النفس والروح

السائل: هل تعلِّمون حقاً، كما يتَّهمكم بذلك عدد من الأرواحيين، الأنغلوسكسون والفرنسيين، اضمحلال كل شخصية؟

---

92 - راجع: أفلاطون، *طيماوس*، 69. (م)

93 - يدعو بولس *noûs* أفلاطون بـ"الروح"؛ ولكن بما أن هذا الروح "جوهر" فإن *بودّهي*، بالطبع، هي المعنية وليس *أتما*، بما أن هذا الأخير لا يمكن أن يُدعى فلسفياً "جوهراً" ولا بأي حال من الأحوال. لقد ضممنا *أتما* إلى "المبادئ" البشرية لكيلا نتسبب في المزيد من البلبلة. بينما هو في الواقع ليس "بشرياً"، إنما هو المبدأ *الكلِّي* المطلق الذي تُعتبَر *بودّهي*، النفس–الروح، الناقلة له.

94 - راجع: أفلاطون، *النواميس* 879 أ-ب. (م)

الثيوصوفي: لا، لسنا نعلِّمه. ولكن بما أن مسألة الثنائية – *فردية* الأنية الإلهية و*شخصية* الحيوان البشري – تتضمن مسألة إمكان ظهور الأنية الخالدة الحق في حجرات جلسات الوساطة على هيئة "روح متجسِّمة"، الأمر الذي ننفيه كما سبق الشرح، فإن خصومنا وجَّهوا إلينا هذه التهمة السخيفة.

السائل: لقد تكلمت لتوِّك على *psuchè* المسارعة إلى اضمحلالها التام فيما إذا شدَّت نفسها إلى *anoia*. ماذا قصد أفلاطون؟ وماذا تقصدون أنتم بذلك؟

الثيوصوفي: قصد الاضمحلال *التام* للوعي *الشخصي*، كحالة استثنائية نادرة، على ما أظن. إن القاعدة العامة التي تكاد لا تتبدل هي اندغام الوعي الشخصي في الوعي الفردي أو الخالد للأنية، بما هو تحوُّل أو تجلٍّ روحي، والاضمحلال التام للـ*رباعيَّة* الدنيا فقط. فهل تتوقع لإنسان الجسد، أو *الشخصية المؤقتة*، ظلِّه، مركبته "النجمية"، غرائزه الحيوانية وحتى الحياة الجسمانية، أن تتعايش و"الأنية الروحانية" وتصير مؤبَّدة؟ إن كل هذا، بالطبع، يزول، إما عند الموت البدني أو بُعَيْده، ويتحلَّل مع الوقت كل التحلُّل ويختفي عن الأنظار، باضمحلاله ككل.

السائل: إذن فأنتم تنكرون أيضاً *قيامة الجسد*؟

الثيوصوفي: جزماً ننكرهاً! ولِمَ علينا، نحن الذين نأخذ بالفلسفة الباطنية العتيقة للأقدمين، أن نقبل بالتخرُّصات اللافلسفية للاهوت المسيحي اللاحق، المستعار من العقائد المصرية والإغريقية للغنوصيين؟

السائل: لقد كان المصريون يبجِّلون أرواح الطبيعة ويؤلِّهون حتى البصل؛ وهندوسكم *عبدة أصنام* حتى يومنا هذا؛ والزردشتيون كانوا، وما زالوا، يعبدون الشمس؛ أما خيرة الفلاسفة الإغريق فقد كانوا إما حالمين أو ماديين – دونك أفلاطون وديموقريطس على سبيل المثال. فكيف لكم أن تعقدوا المقارنة أصلاً!

الثيوصوفي: قد يكون الأمر كذلك في تعليمكم الديني المسيحي الحديث وحتى العلمي؛ لكنه ليس كذلك بنظر العقول المنصفة. فقد كان المصريون يبجِّلون "الواحد الأحد" بوصفه *نوت*؛ ومن هذه الكلمة بالذات نحت أنكساغوراس تسميته *noûs*، أو كما يدعوه *νους αυτοκρατής*، "العقل القوي بذاته" أو "الروح القوي"، الـ *αρχή τής κινήσεως*، المحرِّك الأول، أو الـ *primum mobile* للكل. لقد كان الـ *noûs* بنظره هو الله، والـ *logos* هو الإنسان، الفائض عنه. الـ *noûs* هو الروح (سواء في الكوسموس أو في الإنسان)، والـ *logos*، أكان كوناً أو جسماً نجمياً، هو فيض عن الأول، باعتبار الجسم المادي مجرَّد المظهر الحيواني. إن قدراتنا الخارجية تدرك *الظاهرات*؛ ووحده الـ *noûs* فينا قادر على التعرُّف إلى *جواهرها*. وحده الـ *logos*، أو الجوهر، باقٍ لأنه خالد من حيث طبيعته وماهيَّته نفسهما، والـ *logos* في الإنسان هو الأنية الأبدية، تلك التي تعود إلى التجسُّد وتدوم إلى الأبد. ولكن أنَّى للظل الزائل والخارجي، للقميص المؤقت لذلك

الفيض الإلهي العائد إلى منبعه الذي منه جـاء، أن يكـون *مـا سـوف يقـوم بغيـر فساد*[95]؟

السائل: ومـع ذلـك لسـتم بمنجـى مـن تهمـة ابتكـار تقسـيم جديـد للمكوِّنـات الروحانيـة والنفسانية للإنسان؛ إذ ما من فيلسوف يتكلم عليها، وإن كنتم تعتقدون أن أفلاطون فعل؟

الثيوصوفي: وإني لمتمسك بوجهة النظر هذه. فـإلى جـانب أفلاطـون هنـاك فيثاغوراس الذي أخذ أيضاً بالفكرة نفسها.[96] فقـد وصـف *النفـس* بأنهـا واحـدة (*مونـاد*) ذاتيـة الحركـة، مكوَّنـة مـن ثلاثـة عناصـر: الــ *noûs* (الـروح)، الـــ *phren* (الذهن)، والـ *thumos* (الحياة، النَّفَس، أو *نِفِـشْ* القبـاليين[97]) الـتي تقابـل ثلاثتهـا *أتما-بودّهي* (النفس-الروح العليا)، و*مَنَس* (الأنية)، و*كامـا-روبـا*، بـالاقتران مـع الانعكاس *الأدنى* لـ*مَنَس*. إن ما كـان الفلاسـفة الإغريـق الأقـدمون يصـطلحون على تسميته بـ*النفس*، عموماً، ندعوه نحن الروح، أو *النفس الروحانية*، *بودّهي*، بوصفها مركبة *أتما* (الــ *agathon*، أو الإلـه الأسـمى عنـد أفلاطـون). والواقـع أن تصريح فيثاغوراس وسواه بأننا نشـترك والبهـائم فـي *phren* و *thumos* يثبـت أن الانعكاس المَنَسي *الأدنى* (الغريزة) و*كاما-روبا* (الأهـواء الحيوانيـة الحيـة) همـا المقصودان في هذه الحالة. وبما أن سـقراط وأفلاطـون قـد قبلا هـذا التفسـير وأخذا به، حسبنا أن نضـيف إلـى هـذه الخمسـة – ألا وهـي علـى وجـه التحديـد: *agathon* (الإله أو *أتما*)، *psuchè* (النفس بمعناها الجمعي)، *noûs* (الروح أو العقـل)، *phren* (الذهن الجسماني)، و *thumos* (*كامـا-روبـا* أو الأهـواء) – *eidolon* الأسـرار، *الصورةَ* الظليلة أو القرين البشري، و*الجسمَ المادي*، حتى يسهل علينا البرهـان على أن أفكـار فيثـاغوراس وأفلاطـون كليهمـا كـانت مطابقـة لأفكارنـا. وحـتى المصـريون تبنَّـوا التقسـيم السـباعي. فقـد علَّمـوا أن النفـس (**الأنية**)، لـدى مغادرتها البدن، يجب أن تجتاز "حجراتهـا" أو مبادئهـا السـبعة، مـا تُخلِّـف منهـا وراءها، وما تصطحب منها معها. والفرق الوحيد هو أنهـم، إذ كـان لا يغيـب لهـم عن بال قصاص الكشف عن عقائد الأسرار، ألا وهـو *المـوت*، لـم يصـرِّحوا مـن التعليم إلا بالخطوط العريضة، في حين نسهب نحن فـي بسـطه وشـرحه علـى التفصيل. ولكن على الرغم من أننا نعلن للملأ بقدر ما هو مباح فإننا في عقيدتنا نمسك عدة تفاصيل هامة، *وحدهم حقيقون بمعرفتها* دارسو الفلسـفة الباطنيـة والملتزمون بالصمت.

---

95 - راجع رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس 15: 42. (م)

96 - "إن أفلاطون وفيثاغوراس،" كما يقول فلوطرخس، "يوزِّعان النفس إلى قسمين: النفس العاقلة (*nöetic*) وغير العاقلة (*agnoia*)؛ وذلك القسم من نفس الإنسان، ألا وهو العاقل، أبدي؛ فمع أنه ليس الله، إلا أنه مولود الإله الأزلي. أما ذلك القسم من النفس المحرومة من العقل (*agnoia*) فإنه يموت." [*De placitis philosophorum*, IV, 4, 7 (م)] إن مصطلح "لاأدري" *agnostic* الحديث أصله *gnosis*، وهي كلمة من المصدر نفسه. وإننا لنتساءل: كيف آلى السيد هكسلي، مبتكر هذه الكلمة، على نفسه ربط عقله العظيم بـ"النفس المحرومة من العقل" التي تموت؟ أهو التواضع المغالى فيه للمادي الحديث؟

97 - Diogenes Laërtes, *Vitæ*, VIII, 1, 30. (م)

التعاليم الإغريقية

السائل: لدينا اختصاصيون أساطين في اليونانية واللاتينية والسنسكريتية والعبرية. فكيف لم نقع في ترجماتهم على شيء فيه إشارة إلى ما تقول؟

الثيوصوفي: ذلك لأن مترجميكم، على الرغم من علمهم الوافر، جعلوا الفلاسفة – الإغريق منهم بالأخص – مؤلفين *مبهمين* بدلاً من سرَّانيين.[98] خذ على سبيل المثال فلوطرخس، واقرأ ما يقول في "مبادئ" الإنسان. فما يتكلم عليه يؤخذ على محمل حرفي ويصنَّف في خانة الخرافة والجهل. دعني أقدم لك مثالاً بهذا الصدد. يقول فلوطرخس: "الإنسان [كائن] مركَّب، *ويخطئ من يظنه مركباً من قسمين وحسب*. فإنهم يتخيلون أن الفهم [الفكر المخي] قسم من النفس [الثلاثية العليا]، لكنهم يضلون ضلالاً لا يقل عن ضلال مَن يجعلون من النفس قسماً من البدن [أي الذين يجعلون من *الثلاثية* قسماً من *الرباعيَّة* الفانية القابلة للفساد]. فإن الفهم (*noûs*) يتخطَّى النفس بقدر ما تتفوق النفس على البدن من حيث خيرها وألوهيَّتها. إن تأليف النفس (*ψυχή*) هذا مع الفهم (*νους*) يصنع العقل؛ وتأليفها مع الجسم (أو *thumos*، النفس الحيوانية) يصنع الهوى. وإن أول هذين التأليفين هو أصل أو مبدأ اللذة والألم، وثانيهما مبدأ الفضيلة والرذيلة. ومن هذه الأقسام الثلاثة، ملتحمة ومنضمة معاً، أعطت الأرضُ البدنَ، والقمرُ النفسَ، والشمسُ الفهمَ لنشأة الإنسان."[99]

هذه العبارة الأخيرة مجازية صرف، ولن يفهمها إلا المتضلِّعون في علم المقايسات الباطني والعالمون *أيَّ الكواكب مرتبط بكلِّ مبدأ*. إن فلوطرخس يقسم المبادئ إلى ثلاث مجموعات، جاعلاً من البدن مؤلَّفاً من الهيكل الجسماني والظل النجمي والنَّفَس، أو القسم الأدنى المثلَّث الذي هو "تراب وإلى التراب يعود"[100]؛ وهو يجعل من المبدأ المتوسط والنفس الغرائزية

98 - تتلاعب السيدة بلافاتسكي هنا بلفظتي النعت *mystic* (سرَّاني) والصفة *misty* (مبهم، ضبابي، غامض). (م)

99 - سبق للسيدة بلافاتسكي أن استشهدت بهذا المقبوس الرائع في كتابها *إيزيس سافر* (H.P.Blavatsky, *Isis Unveiled*, vol. 2, pp. 283-4) الذي يرد في النص الأصلي كما يلي:

"... الإنسان كائن مركَّب، ويخطئ من يظنه مركباً من قسمين وحسب. فإنهم يتخيلون أن الفهم (*noûs*) هو، على نحو ما، قسم من النفس (*psuchè*)، لكنهم، في هذا، يضلون ضلالاً لا أقل من ضلال الذين يجعلون من النفس جزءاً من الجسم (*soma*)؛ فإن النفس تتفوق على البدن بقدر ما يتفوق الفهمُ على النفس في ألوهيَّته. إن مزيج (*mixis*) البدن والنفس ينجم عنه المظهر غير العاقل (*alogon*) والانفعالي (*pathètikon*)، في حين أن لقاء (*sunodos*) الفهم والنفس يولد العقل (*logos*)؛ ومن هذين التشكيلين، الأول هو مصدر، أو مبدأ (*archè*)، اللذة والألم، والثاني مبدأ الفضيلة والرذيلة. وفي تكوين هذه المظاهر الثلاثة تقدِّم الأرضُ البدنَ، والقمرُ النفسَ، والشمسُ الفهمَ (مثلما يقدِّم النور للقمر نفسَه) لدى نشأة الإنسان."

[*De facie quai in orbe lunæ apparet*, 943.] (م)

100 - إشارة إلى ما جاء في سفر التكوين (3: 19) على لسان الربِّ: "بعرق جبينك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض، فمنها أُخِذتَ لأنك تراب وإلى التراب تعود." (م)

القسمَ الثاني، المشتق من القمر وعبره والمتأثر دوماً به [101]؛ ووحده القسم الأعلى أو *النفس الروحانية*، العنصران الأتميِّ والمَنَسيِّ فيها، يجعل منه فيضاً مباشراً من الشمس التي تمثل هنا *agathon*، الإله الأسمى. وهذا مُثبَت بما يستطرد به لاحقاً كما يلي:

أما عن الميتات التي نموتها فتجعل الأولى من الإنسان اثنين من ثلاثة، والأخرى واحداً من اثنين. تتم الميتة الأولى في المنطقة الواقعة تحت منطقة وسلطان ديمترا – ومن هنا كان الاسم الذي كان يُطلَق على الأسرار (*τελειν*) يشبه الاسم الذي كان يُطلَق على الموت (*τελευταν*). وكانوا الأثينيون أيضاً فيما مضى يدعون الموتى بالمقرَّبين إلى ديمترا. أما فيما يخص الميتة الأخرى فإنها تحصل في القمر أو في منطقة برسفوني. [102]

هاكم عقيدتنا التي تظهر الإنسان بوصفه *سباعية* في أثناء الحياة؛ و*خماسية* بُعَيْد الموت، في *كاما-لوكا*؛ و*أنية* مثلَّثة – نفس-روح ووعي – في *ديفاخان*. وهذا الانفصال الذي يتم أولاً في "مروج هاذِس"، كما يدعو فلوطرخس *كاما-لوكا*، ومن بعدُ في *ديفاخان*، كان جزءاً من شعائر الأسرار المقدسة، حين كان المرشَّحون للمسارَرة يؤدون دراما الموت بكاملها، والقيامة كروح ممجَّدة، وهي تسمية نقصد بها *الوعي*. وهذا ما يقصده فلوطرخس حين يقول:

وكما يقيم هرمس في الأولى، الأرضية، كذلك يقيم في الأخرى السماوية. إن هذا ينتزع النفسَ من الجسم فجأة انتزاعاً عنيفاً؛ لكن بروسربينا تفصم الفهمَ عن النفس بلطف مع انصرام مدة طويلة. [103] لهذا السبب فإنها تدعى بـ *monogenes*، *المولود الوحيد*، أو بالحري *ذات المولود الواحد*؛ ذلك أن *خير ما في الإنسان يصير بمفرده حين تفصله*. إن هذين الفصلين كليهما يحدثان على هذا النحو بحسب الطبيعة. فقد قضى القدر (*fatum* أو *كرما*) أن على كلِّ نفس، لدى مغادرتها البدن، أكانت فاهمة أم بغير فهم (عقل)، أن تتجول لفترة ما، ليست واحدة لكل النفوس، في المنطقة الممتدة بين الأرض والقمر (*كاما-لوكا*). [104] والنفوس التي كانت جائرة وفاسقة تلقى القصاص الناجم عن آثامها؛ أما النفوس الخيِّرة، الفاضلة، فتبقى محتجَزة هناك حتى تتطهَّر، وتغتسل، بالتكفير، من كل تلوث قد يكون أصابها من عدوى البدن، كما لو من عافية سقيمة، وتحيا في ألطف نواحي الجو التي تدعى بمروج هاذِس حيث يجب أن تبقى ردحاً من الزمن مسبق التحديد وموقوت. ومن بعدُ تذوق، وكأنها عائدة إلى موطنها من تجوال رحلة حجٍّ أو من غربة مديدة، فرحاً كالذي يذوقه مبدئياً المسارَرون بالأسرار المقدسة، ممتزجاً بالرهبة، بالإعجاب، وبالرجاء الخاص اللائق بكل منها على حدة. [105]

---

101 - القباليون الذين يعرفون العلاقة بين يهوه، واهب الحياة والذرية، وبين القمر ويعرفون تأثير الأخير على النسل سوف يدركون الأمر بمقدار ما سوف يدركه بعض علماء النجوم أيضاً.

102 - *De Facie*, 943 a, b. (م)

103 - بروسربينا، أو برسفوني، تمثل هنا عقب الوفاة دور كرما الذي يقال إنه ينظم انفصال "المبادئ" الدنيا عن العليا: انفصال *النفس*، بوصفها *نِفِشْ*، نَفَس الحياة الحيوانية، الذي يبقى بعض الوقت في *كاما-لوكا*، عن *الأنية* المركَّبة العليا التي تمضي إلى حالة *ديفاخان*، أو الغبطة.

104 - لكي يحدث الانفصال بين "المبدأ" الأعلى، الروحاني، وبين المبادئ الدنيا التي تبقى في *كاما-لوكا* حتى يدركها التحلل.

105 - Plutarch, op. cit. (م)

هذه غبطة نيرفانية، وما من ثيوصوفي يستطيع أن يصف بلغة أبْيَن، إنما باطنية، مسرَّات *ديفاخان* الذهنية، حيث ينعم كل إنسان من حوله بفـردوس مـن تشـييد وعيه. لكن حذارِ من الوقوع في الغلط الشائع الذي يقع فيه الكثيرون، حتى بين ثيوصوفيينا. فلا يُخيَّلَنَّ إليك أن الإنسان، بما أنه يدعى كائناً *سباعياً*، ثم *خماسياً*، وأخيراً *ثلاثية*، فهو بالتالي مركّب من سبعة أو خمسة أو ثلاثـة *كيانـات* مسـتقلة؛ أو، كما أجاد أحد المؤلفين الثيوصوفيين التعـبير، مـن قشـور تُخلَـع مثـل قشـور البصلة. فـ"المبادئ"، كما سبق وقلنا، ما خلا الجسم والحياة والـ *eidolon* النجمي التي تتشتت عند الموت، هـي ببسـاطة *مظـاهر وحـالات وعـي*. ليـس هنـاك إلا إنسان *حقيقي* واحد، يكابد عبر دورة الحياة وخالد من حيث الماهيـة، وإنْ ليـس مـن حيـث الشـكل، ألا وهـو *مَنَـس*، الإنسـان–العقـل أو الـوعي المتجسِّـم. إن اعتراض الماديين الذين ينفون إمكان عمل الذهن والـوعي بمعـزل عـن المـادة مردود في حالتنا. فنحن لا ننكـر عليهـم رجاحـة حجَّتهـم، لكننـا نسـأل خصـومنا ببساطة: "هل تعرَّفتم إلى جميع *حالات المـادة*، يـا مَـن لـم تعرفـوا الآن سـوى ثلاث؟ وأنَّى لكم أن تعرفوا أن ما ندعوه **الوعي المطلق** أو الإله الخفـي غيـر القابل للعلم أبداً، ما هو، رغم تملُّصه إلى الأبد من تصوُّرنا البشري *المنتهـي*، إلا الروح–المادة أو المادة–الـروح *فـي لانهائيَّتهـا المطلقـة*؟" إنـه، إذن، واحـد مـن المظاهر الدنيا لهذه الروح–المادة – بل وحتى من المظاهر الأشـد *كسـريَّة* فـي تجلِّياته المَـنْـفَـنْـتارية – الذي يشكِّل *الأنية* الواعية التي تخلق فردوسها الخاص؛ فردوسَ امرئ سفيه ربما، لكنه يبقى حالة غبطة.

السائل: ولكن ما هو *ديفاخان*؟

الثيوصوفي: هو حرفياً "موطن الآلهة"؛ هو وضع أو حالة من الغبطة الذهنية. وهو فلسفياً وضع ذهني مقايس لأشد الأحلام نضارة، وإن يكن أشد منه نضـارة وحقِّية. إنه الحالة التي تعقب الموت عند غالبية البشر.

*** *** ***

الباب السابع

في مختلف حالات ما بعد الموت

الإنسان الجسماني والإنسان الروحاني

السائل: يسرُّني سماعُك تعتقد بخلود النفس.

الثيوصوفي: ليس بخلود "النفس"، بل بخلود الروح الإلهية؛ أو بالحري بخلود الأنيَّة العائدة للتجسُّد.

السائل: وما الفرق؟

الثيوصوفي: الفرق عظيم جداً في فلسفتنا؛ لكن هذه مسألة أشد استغلاقاً وصعوبة من أن نمرَّ بها مرور الكرام. علينا أن نحلِّل كلاً منهما على حدة، ثم معاً. ولنبدأ بالروح.

نحن نقول بأن الروح ("الآب الذي في السر"، بحسب يسوع)، أو *أتمن*، ليس ملكاً شخصياً لأي إنسان، بل هو الماهية الإلهية التي لا جسم لها، ولا شكل، ولا تُوزَن بميزان، اللامرئية غير المنقسمة، غير *الموجودة* ومع ذلك *الكائنة*، كما يقول البوذيون عن *النيرفانا*. وهي تخيِّم وحسب على الإنسان الفاني ؛ إذ إن ما يدخل فيه ويتخلَّل الجسم ككل هو منها بمثابة الأشعة أو النور الكلِّي الحضور، المشعِّ عبر *بودهي*، مركبتِها وفيضِها المباشر. وهذا هو المعنى السري لآراء كل الفلاسفة القدماء تقريباً عندما قالوا إن "الجزء *العاقل* من نفس الإنسان" [106] لا يدخل الإنسان بكلِّيته، وإنما يخيِّم نوعاً ما عليه وحسب عبر النفس الروحانية *غير العاقلة* أو *بودهي*. [107]

106 - كلمة "عاقل"، بمعناها الإجمالي، تعني شيئاً فائضاً عن الحكمة الخالدة.

107 - *غير عاقلة* بمعنى أنها، بوصفها فيضاً *محضاً* من العقل الكلِّي، لا يمكنها أن تختص بعاقلة فردية على صعيد المادة هذا؛ إنما، على غرار القمر الذي يستعير ضوءه من الشمس وحياتَه من الأرض، تتلقى *بودهي* نور حكمتها من *أتما*، وتحصل على خواصها العاقلة من *مَنَس*. أما هي، بحدِّ ذاتها،

السائل: خُيِّل إلي أن "النفس الحيوانية" وحدها غير عاقلة، وليس النفس الإلهية.

الثيوصوفي: عليك أن تتعلم الفرق بين ما هو "غير عاقل" سلبياً، أو *انفعالياً*، من حيث إنه غير متمايز، وبين ما هو غير عاقل من فرط *نشاطه* وإيجابيَّته. الإنسان هو تلازُم قدرات روحانية، كما وتلازُم قوى كيميائية وفيزيائية، تؤدي وظائفها بفضل ما ندعوه "المبادئ".

السائل: لقد قرأت الكثير عن هذا الموضوع، ويبدو لي أن مفاهيم الفلاسفة الأقدمين كان يختلف اختلافاً كبيراً عن مفاهيم قباليي العصور الوسطى، على اتفاقها معها في بعض التفاصيل.

الثيوصوفي: الفارق الجوهري الأهم بينهم وبيننا هو الآتي: فعلى حين نعتقد نحن، مع الأفلاطونيين الجدد والتعاليم الشرقية، أن الروح (*أتما*) لا تتنزَّل أقنومياً على الإنسان الحيِّ، بل تُغدِق نوعاً ما إشعاعَها على الإنسان *الباطن* (المكوِّن النفساني والروحاني للمبادئ *النجمية*)، يقول القباليون بأن الروح الإنسانية، إذ تنفصل عن بحر النور وعن الروح الكلِّي، تدخل نفسَ الإنسان، حيث تبقى طوال الحياة سجينةَ المحفظة النجمية. وما زال جميع القباليين المسيحيين يرون ذلك بحذافيره، بما أنهم غير قادرين على التحرر من أسْر عقائدهم التأنيسية والكتابية.

السائل: وما رأيكم أنتم في ذلك؟

الثيوصوفي: نرى أن الإنسان لا يطيق إلا حضور إشعاع الروح (أو *أتما*) في المحفظة النجمية، وفقط بمقدار ما يتعلق الأمر بهذا الإشعاع الروحي. ونقول إن على الإنسان والنفس أن يفوزا بخلودهما بالعروج نحو الوحدة التي، في حال التوفيق في ذلك العروج، سيبلغانها أخيراً ويستغرقان فيها، إذا جاز القول. إن تفرُّد الإنسان بعد الموت يتوقف على الروح، وليس على نفسه وجسمه. ومع أن كلمة "شخصية"، بالمعنى المفهوم الدارج، لا تتصف بالمعقولية إذا ما طُبِّقت حرفياً على ماهيَّتنا الخالدة فإن هذه الماهية، شأنها شأن أنيَّتنا الفردية، كيانٌ متفرِّد، خالد وأبدي بحدِّ ذاته. إن الخيط البرَّاق الذي يربط الروح بالنفس *الشخصية* منذ لحظة ولادة الطفل لا يُبتَر بتراً عنيفاً *إلا في حالة المشعوذين السود أو المجرمين الذين تخطوا إمكانية افتدائهم، المجرمين الذين ظلوا على حالهم هذه إبان سلسلة طويلة من الأعمار*، فيُطلِّق الكيان الطليق من النفس الشخصية التي تفنى بدون أن تخلِّف أدنى انطباع منها عليه. فإذا لم تتحقق الوحدة بين *مَنَس* الأدنى، أو الشخصي، وبين الأنيَّة الفردية العائدة للتجسُّد إبان الحياة فإن الأول يُترَك ليشارك الحيوانات الدنيا في مصيرها، بأن ينحلَّ تدريجياً في الأثير، وينعدم كشخصية. ولكن حتى عندئذٍ تبقى الأنيَّة كياناً متميزاً؛ وكل ما يحدث أنها (الأنيَّة الروحية) تفقد حالة ديفاخانية واحدة – بعد تلك الحياة الخاصة، وبالفعل غير ذات الجدوى في تلك الحالة – بوصفها تلك *الشخصية*

كشيء متجانس، فعديمة الصفات.

المُؤَمْثَلة، ثم تعود للتجسد آنياً تقريباً بعد أن تنعم وقتاً قصيراً بحريتها كروح كوكبية.

السائل: جاء في *إيزيس سافر* أن مثل هذه الأرواح الكوكبية أو الملائكة – "آلهة الوثنيين أو رؤساء ملائكة المسيحيين" – لا تصير بشراً على كوكبنا أبداً.

الثيوصوفي: صحيح تماماً. ولكن ليس "مثل"، بل *بعض* رُتَب الأرواح الكوكبية العليا. فهي لن تكون بشراً أبداً على كوكبنا هذا لأنها أرواح متحررة من عالم سابق، أقدم، وهي بهذه المثابة لا يمكنها أن تصير بشراً من جديد في عالمنا هذا. ومع ذلك فإنها جميعاً سوف تحيا من جديد في الـ*مَهامَنْفَنْتَرا*[108] التالي والأرقى بكثير، بعد أن ينقضي هذا "العصر العظيم" والـ"برهما *بْرَلَيا*" (فترة صغيرة يتألف عددها من 16 رقماً أو نحو ذلك). فلا بدَّ أنك سمعتَ، بالطبع، أن الفلسفة الشرقية تعلِّم أن النوع البشري هو عبارة عن مثل هذه "الأرواح" المسجونة في أجسام بشرية، أليس كذلك؟ الفرق بين الحيوانات والبشر هو الآتي: الحيوانات تتخلَّلها "المبادئ" *بالقوة*، بينما تتخلَّل البشرَ *بالفعل*.[109] هل تفهم الفرق الآن؟

السائل: نعم، لكن هذا الاختصاص ظلَّ حجر عثرة الميتافيزيائيين في كل العصور.

الثيوصوفي: لقد كان كذلك فعلاً. إن باطنية الفلسفة البوذية برمَّتها قد تأسَّست على هذا التعليم السِّراني، الذي لا تفقهه إلا الصفوة، ويسيء بالتالي تمثُّلَه تماماً العديدُ من أفْقَه الاختصاصيين الحديثين. وحتى الميتافيزيائيون شديدو الميل إلى الخلط بين النتيجة والسبب. إن أنيَّةً قد فازت بحياتها الخالدة كروح تبقى الذات الباطنة عينَها عبر ولاداتها الجديدة كلِّها على الأرض؛ لكن هذا لا يقتضي بالضرورة أنها إما أن تبقى السيد فلان أو السيد علان الذي كانتْه على الأرض، وإما أن تفقد فرديتها. لذا فإن النفس النجمية والجسم الأرضي للإنسان قد تتلاشى، في الآخرة المظلمة، في المحيط الكوني للعناصر المتسامية، وتتوقف عن الشعور بأنيَّتها *الشخصية* الأخيرة (إذا لم تستحق أن تحلِّق أعلى من ذلك)، بينما الأنيَّة *الإلهية* تبقى مع ذلك الكيانَ غير المتغير عينَه، على الرغم من أن هذه الخبرة الأرضية لذلك الفيض [النفس النجمية] منها [أي من الأنيَّة الإلهية] تزول تماماً لحظة الانفصال عن المركبة غير اللائقة بها.

السائل: إذا كان وجود "الروح"، أو القطعة الإلهية من النفس، سابقاً بوصفه كائناً مميَّزاً منذ الأزل، كما علَّم أوريجينس وسينيسيوس وفلاسفة آخرون نصف مسيحيين نصف أفلاطونيين، وإذا ظلت هي هي، ولا شيء أكثر من النفس الموضوعية ميتافيزيائياً، كيف يمكن أن تكون غير أزلية؟ وماذا يهمُّها في حالة كهذه، سواء كان الإنسان يعيش حياة طاهرة أو حياة حيوانية، إذا لم يكن من الممكن، مهما فعل، أن يفقد فرديَّته؟

---

108 - بالسنسكريتية: *Mahamanvantara*. جاء في *المعجم الثيوصوفي* للسيدة بلافاتسكي في تعريفه: "مدة من التجلِّي، تقابل *بْرَلَيا* (تحلُّل أو راحة)، تنطبق على أدوار متنوعة، ولاسيما على يوم برهما، 4,320,000,000 سنة شمسية – وعلى مُلك مَنو واحد – 308,448,000. (أنظر المجلد الثاني من *العقيدة السرية*، ص 68 وما بعدها) حرفياً، *مَنْفَنْتَرا* – بين مَنو." (ص 206) (م)

109 - راجع *العقيدة السرية*، المجلد 2، السُوَر.

الثيوصوفي: هذه العقيدة، كما أوردتَها، لا تقل ضرراً من حيث عواقبُها عن عقيدة التكفير بالنيابة. فلو أن هذه العقيدة الأخيرة، إلى جانب الفكرة المغلوطة بأننا جميعاً خالدون، قد عُرِضَت للعالم على الوجه الصحيح لكان نشرُها قد حسَّن من وضع البشرية ككل.

دعني أكرِّر لك مجدداً. لقد اشتقَّ فيثاغوراس وأفلاطون وطيماوس اللوكريسي ومدرسة الإسكندرية القديمة *نفس* الإنسان (أو "مبادئه" وصفاته العليا) من النفس العالمية الكلِّية، حيث هذه الأخيرة، بحسب تعاليمهم، هي الأثير (باتِر زِفْس). من هنا، ما من واحد من هذه "المبادئ" يمكن أن يكون الماهية *الخالصة* *للمونا*س الفيثاغورية، أو *أتما*–بودهي بحسب تعاليمنا، لأن *نفس العالم* ليست إلا النتيجة، الفيض أو بالحري الإشعاع الذاتي لهذه الماهية. كلا الروح *الإنسانية* (أو الفردية)، أي الأنيَّة الروحانية العائدة للتجسد، وبودهي، النفس الروحانية، سابقُ الوجود. ولكن بينما توجد الأولى ككيان مفرَد، كتفرُّد، توجد النفس كنَفَسٍ سابق الوجود، كقطعة غير واعية من الكلِّ العاقل. كلاهما تشكَّل أصلاً من بحر النور الأزلي؛ ولكن، كما عبَّر عن ذلك فلاسفة النار – ثيوصوفيو القرون الوسطى، توجد في النار روح منظورة كما توجد روح غير منظورة. وقد فرَّقوا بين *النفس الخام* و*النفس الإلهية*. وكان أنباذوقليس يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن لكل البشر والحيوانات نفسين؛ وبالعودة إلى أرسطو، نجد أنه كان يدعو إحداهما النفس العاقلة νούς، ويدعو الثانية النفس الحيوانية ψυχή. وبحسب هؤلاء الفلاسفة، تصدر النفس العاقلة من *باطن* النفس الكلِّية، بينما تصدر الأخرى من *ظاهرها*.

السائل: هل يجوز إطلاق تسمية مادة على النفس، أي النفس الإنسانية المفكِّرة، أو على ما تدعونه أنتم الأنيَّة؟

الثيوصوفي: لا تجوز تسمية مادة، لكن تسمية جوهر جائزةٌ بكل تأكيد. كما أننا لا نتجنب استعمال كلمة "مادة"، على أن نُتبِعَها بصفة *أزلية*. تلك المادة الأزلية، كما نذهب، خالدة خلود الروح، وهي ليست مادتنا المرئية، الملموسة، والقابلة للانقسام، إنما هي تساميها الأقصى. الروح الخالص أدنى بدرجة واحدة فقط من اللا–روح، أو *الكل* المطلق. فما لم تقبل بأن الإنسان قط تطور عن هذه الروح–المادة الأزلية، ويمثل سُلَّماً منتظماً وتنازلياً من "المبادئ"، من *ما* بعد–الروح نزولاً حتى المادة الأغلظ، كيف نستطيع أن نتوصل أصلاً إلى اعتبار الإنسان *الباطن* خالداً، وكياناً روحياً وبشراً فانياً في الوقت نفسه؟

السائل: لماذا، والحالة هذه، لا تؤمنون بالله بوصفه مثل هذا الكيان؟

الثيوصوفي: ذلك لأن ما هو لانهائي وغير مقيَّد لا يمكن أن يكون ذا شكل، ولا يمكن أن يكون كائناً – هذا غير وارد في أية فلسفة شرقية حَرِيَّة بهذا الاسم على كل حال. "الكيان" خالد، لكنه ليس كذلك إلا من حيث ماهيَّتُه القصوى،

وليس من حيث شكلُه الفردي. وعندما يبلغ آخر نقطة من دورته فإنه يستغرق في الطبيعة الأزلية، ويصير روحاً عندما يفقد اسمه وكيانه.

خلوده بوصفه شكلاً محدودٌ فقط بدورة حياته أو الـ*مَهامَنْفَنْتَرا* الذي يصير بعده واحداً ومتطابقاً مع الروح الكلِّية، ولا يبقى بعدُ كياناً منفصلاً. أما بخصوص النفس *الشخصية* – التي نعني بها شرارة الوعي التي تحمي في الأنيَّة الروحانية فكرةَ "الأنا" الشخصية للتجسد الأخير – فهذه لا تدوم، كذكرى مميزة منفصلة، إلا طوال الفترة الديفاخانية، فتُضاف بعد انقضاء هذه الفترة إلى سلسلة تجسدات أخرى للأنيَّة لا عدَّ لها، كما يحدث عندما نسترجع بذاكرتنا، عند نهاية عام، يوماً واحداً من سلسلة أيام. فهل تقيِّد اللانهائية التي تزعمون أن إلهكم يتصف بها بشروط منتهية؟ وحده خالد ما يلحمه *أتما* بحيث لا تُفصَم عراه (*بودهي–مَنَس*). أما نفس الإنسان (أي الشخصية) بحدِّ ذاتها فليست خالدة، ولا أبدية، ولا إلهية. فكما جاء في *سفر الزاهر*: "النفس، إذ تهبط إلى هذه الأرض، تتقمص ثوباً أرضياً، لتحفظ نفسها هنا؛ لذا تتلقى في العُلى ثوباً منيراً حتى تتمكن من النظر بدون أن يصيبها ضررٌ إلى المرآة التي ينبثق نورها من ربِّ الأنوار."[110] بالإضافة إلى ذلك، يعلِّمنا *الزاهر* أن النفس لا تستطيع إن تبلغ مقام الغبطة قبل أن تتلقى "القبلة المقدسة"، أو اجتماع النفس *مع الجوهر الذي فاضت عنه* – الروح. النفوس جميعاً مزدوجة، وفي حين أن النفس مبدأ مؤنث فإن الروح مبدأ مذكر. الإنسان، مسجوناً في الجسم، ثُلاثٌ، ما لم يتسبب فسادُه في طلاقه من الروح. ولقد جاء في مقطع من *كتاب المفاتيح*، وهو مصنَّف هرمسي: "ويلٌ للنفس التي تفضل على زوجها الإلهي (الروح) القرانَ الترابي مع بدنها الأرضي." الويل فعلاً، لأنه لن يبقى شيء من هاتيك الشخصية يدوَّن على ألواح ذاكرة الأنيَّة التي لا تحول ولا تزول.

السائل: ولكن كيف يمكن لما هو، باعترافك، والإلهيَّ من جوهر واحد – وإن لم ينفخ فيه الله من روحه ليصنع منه بشراً – أن يُحرَم من الخلود؟

الثيوصوفي: كل ذرة وهباءة مادة، وليس فقط جوهر، *غير فانية* من حيث الماهية، ولكن ليس من حيث *وعيُها الفردي*. ليس الخلود إلا الوعي غير المنقطع للمرء؛ بينما يكاد الوعي *الشخصي* لا يدوم أكثر من الشخصية نفسها، أليس كذلك؟ ومثل هذا الوعي، كما سبق أن أخبرتك، لا يبقى إلا طوال *ديفاخان*، فيعاد امتصاصه بعده، أولاً، في الوعي *الفردي*، ومن بعدُ في الوعي *الكلِّي*. لعله يحسن بكم أن تسألوا لاهوتييكم كيف اتفق لهم أن يضغِّثوا كتب اليهود إلى هذا الحد المزري. اقرأوا الكتاب، إذا كنتم تطلبون برهاناً جيداً أن كُتَّاب *الأسفار الخمسة*، وبخاصة *سفر التكوين*، لم يعتبروا قط *نِفِش* [النفس]، ما ينفخه الله في آدم (التكوين، الإصحاح 2)، نفساً خالدة. وهاكم بعض الأمثلة: "فخلق الله... وكل متحرِّك من كل ذي *نفس حية*" (تكو 1: 21)، قاصداً الحيوان؛ وجاء كذلك (تكو 2: 7): "... فصار الإنسان *نفساً* حية"، مما يبيِّن أن كلمة *نِفِش* كانت تصحُّ دونما تمييز على الإنسان *الخالد* وعلى البهيمة *الفانية*.

110 - المجلد 3، ص 616.

"أما دماؤكم، أي *نفوسكم*، فأطلبها، من يد كل وحش أطلبها، ومن يد الإنسـان" (تكو 9: 5)؛ "انجُ بـ*نفسك*" (انجُ بـ*حياتك*، كما تترجَم أحياناً) – (تكو 19: 17)؛ وقد جاء في الترجمة الإنكليزية: "لا نقتله" (تكو 37: 21)، بينما النص العبري هو: "لا نقتل *نفساً* ". "*نفس* بدل *نفس*"، كما جاء في سفر اللاويين: "ومن قتل إنساناً يُقتَل قتلاً"، وحرفياً: "من قتل *نفس* إنسان" (لا 24: 17)؛ ومن الآية 18 وما بعدها نقرأ: "ومن قتل بهيمة (*نفساً*) فليعوِّض عنها، بهيمة بدل بهيمة"، بينما جاء في النص الأصلي: "نفساً بدل نفس". فكيف يمكن للإنسان أن *يقتل* ما هو خالد؟ [111] وهذا يفسِّر أيضاً لماذا أنكر الصدُّوقيون [112] خلود النفس، كما أنه يقدم دليلاً آخر أن اليهود الموسويين – غير المسارَرين منهم على كل حال – لم يؤمنوا، أغلب الظن، ببقاء النفس مطلقاً.

في الثواب والعقاب الأبديين وفي نيرفانا

السائل: يكاد يكون غير ضروري، على ما أظن، سؤالُك عما إذا كنت تؤمن بعقائد المسيحيين في الفردوس والجحيم، أو بالثواب والعقاب الآتي، كما تعلِّمها الكنائس السُنِّية؟

الثيوصوفي: إذا كنا نرفضها جملة كما هي واردة في كتب تعليمكم الديني، كيف نقبل أبديَّتها أصلاً؟ لكننا نعتقد اعتقاداً راسخاً بما ندعوه *قانون الجزاء*، وبالعدل والحكمة المطلقين اللذين يوجِّهان هذا القانون، أو *كرما*. من هنا فإننا نرفض رفضاً جازماً قبول المعتقد القاسي وغير الفلسفي بالثواب الأبدي أو العقاب الأبدي. إننا نقول مع هوراس:

فلتوضَع قواعد لاحتواء غضبنا،

ولعقاب الأغلاط *بوجع مناسب*؛

ولكن لا تجلدوا الذي لا يستحق

إلا ضرباً بالسَّوْط على ما ارتكب من غلط.

هذا قاعدة تسري على البشر قاطبة، وهي قاعدة عادلة. هل نحن مضطرون أن نؤمن بأن الله، الذي تجعلونه تجسيداً للحكمة والمحبة والرحمة، أقل من الإنسان الفاني أحقِّية في هذه الصفات؟

السائل: هل لديكم أسباب أخرى لردِّ هذه العقيدة؟

---

111 - هذه هي عينها عقيدة الإسلام في القرآن الكريم حيث جاء: "ما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرض تموت" (لقمان 34) – أي أن النفس خاضعة للموت؛ كذلك: "كلُّ نفس ذائقة الموت ثم إلينا تُرجَعون" (عنكبوت 57)، حيث نجد تمييزاً واضحاً بين "نفس" الإنسان (شخصيَّته) التي مآلها إلى الموت، و"هو" (فرديَّته) الذي مآله أن يُرجَع إلى مصدره. (م)

112 - أصحاب مذهب يهودي ينتسب إلى مؤسِّسه صدُّوق، منافس لمذهب الفريسيين؛ استأثروا تقريباً بسدانة هيكل أورشليم زمن المسيح، وقالوا بعدم خلود النفس وقيامة الأموات. (م)

الثيوصوفي: سببنا الرائس لردِّه يكمن في واقع العَوْد للتجسد. إننا، كما سبق أن صرَّحت، نرفض فكرة نفس جديدة مخلوقة من أجل كل طفل مولود. إننا نعتقد بأن كل كائن إنساني حاملٌ، أو *مركبة*، لـ*أنيَّة* مجايلة لكل أنيَّة أخرى؛ لأن كل *الأنيَّات من ماهية واحدة* وتنتسب إلى الفيض الأول عن *الأنيَّة* الكلِّية اللانهائية. [113] وأفلاطون يدعو هذه الأنيَّة بـ*الكلمة* (أو الإله المتجلِّي الثاني)؛ ونحن ندعوه المبدأ الإلهي المتجلِّي، الواحد مع العقل الكلِّي أو النفس الكلِّية، وليس الإله التأنيسي، خارج الكوني، *الشخصي* الذي يؤمن به الكثير من القائلين بالألوهية. فالرجاء ألا نخلط بينهما.

السائل: ولكن أين الصعوبة – ما دمتم تقبلون بمبدأ متجلٍّ – في الاعتقاد بأن ذلك المبدأ *يخلق* نفسَ كلِّ بشر فانٍ جديد كما خُلِقَت جميع النفوسُ التي سبقتها؟

الثيوصوفي: يتعذر علينا هذا الاعتقاد لأن ما هو *لاشخصي* يكاد يعدم القدرة على الخلق والتدبير والتفكير على عواهنه. فهذا المبدأ، بما هو *قانون* كوني، سرمدي في تجلِّياته الدورية – تلك التي تشعُّ وتُظهِر ماهيَّته عند بدء كل دورة حياة جديدة – لا يُفترض فيه أن يخلق بشراً، لا لشيء إلا لكي يندم على خلقهم بعد بضع سنوات. إذا كان لا بدَّ لنا أن نؤمن بمبدأ إلهي أصلاً يحسن بنا أن يكون إيماننا بمبدأ هو تناغم، ومنطق، وعدل مطلق، بمقدار ما هو محبة، وحكمة، وعدم تحيُّز مطلق؛ فإن إلهاً *يخلق* كلَّ نفس مدة *عمر أرضي واحد* – بصرف النظر عن كونها ستحيي جسمَ رجل ثري، سعيد، أو جسمَ فقير بائس سقيم، قُدِّر عليه الشقاء من المهد إلى اللحد، مع أنه لم يفعل ما يستحق عليه مصيراً بهذه القسوة – مثل هذا الإله أقرب إلى *شيطان* فاقد الحس منه إلى إله. [114] لهذا لم يأخذ حتى الفلاسفة اليهود، المؤمنون بالكتاب الموسوي (باطنياً طبعاً)، بمثل هذه الفكرة؛ لا بل إنهم، مثلنا، اعتقدوا بالعَوْد للتجسد.

السائل: هل يمكنك أن تعطيني بعض الأمثلة على هذا؟

الثيوصوفي: قطعاً يمكنني. يقول فيلون اليهودي: "الهواء ممتلئ بها [بالنفوس]؛ الأقرب منها إلى الأرض، النازلة لتقترن بأبدان فانية παλινδρομούσι αύθις، *تؤوب إلى أبدانها، راغبة في العيش فيها*." [115] وفي *الزاهر*، نجد النفس تتوسَّل حريتها أمام الله: "يا ربَّ العالمين! أنا مسرورة في هذا العالم، ولا رغبة بي في الذهاب إلى عالم آخر، حيث سأكون جارية معرَّضة لكلِّ ألوان التدنيس." [116] وفي جواب الإله نجد الإصرار على مذهب الضرورة الحتمية، على القانون الأبدي السرمدي: "رغماً عنك تصيرين مضغة، ورغماً عنك تولدين." [117] النور لا يُفهَم بدون الظلمة التي تجعله جلياً بالتبايُن؛ الخير لا يبقى الخير بدون

---

113 - لعل هذا هو المقصود مما جاء في القرآن الكريم: "وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدة فمستقَرٌّ ومستودع" (الأنعام 98). (م)

114 - راجع أدناه، "في عقاب الأنيَّة".

115 - *في المنامات*، ص 455.

116 - *الزاهر*، مجلد 2، ص 96.

117 - *مشناه*، "أبوت"، مجلد 4، ص 29.

الشر الذي يبيِّن الطبيعة التي لا تثمَّن للنعمة؛ وكذلك لا يحق للفضيلة الشخصية أن تنسب لنفسها أي فضل ما لم تكتوِ بنار أتون الغواية. لا شيء أبدياً غير متحوِّل سوى الإله المستتر. لا شيء منتهياً – سواء لأن له بداية أو يجب أن تكون له نهاية – يبقى ثابتاً على حاله؛ فإما أن يتقدم وإما أن يتقهقر. والنفس الظامئة إلى الاجتماع من جديد مع روحها، التي وحدها تهبها الخلود، ينبغي أن تتطهَّر عبر ارتحالات دورية قُدُماً نحو أرض الغبطة والراحة الأبدية الوحيدة، المسماة في *الزاهر* "قصر العشق" היכל אחכת؛ وفي ديانة الهندوس *موكشا*؛ وبين أهل الغنوص "ملأ النور الأبدي"؛ وعند البوذيين *نيرفانا*. وكل هذه الحالات وقتية وليست أبدية.

السائل: لكني لا أجد ذكراً للعَوْد للتجسد في هذا كلِّه.

الثيوصوفي: إن نفساً تتوسل أن يُسمَح لها بالمكوث حيث هي *لا بدَّ أن تكون سابقة الوجود*، ولم تُخلَق للمناسبة فقط. لكن في *الزاهر* برهاناً أفضل أيضاً. ففي معرض الكلام على *الأنيَّات* العائدة للتجسد (النفوس *العاقلة*)، تلك التي يتعيَّن على شخصيتها الأخيرة أن تتلاشى *بالكلِّية*، جاء: "كل النفوس التي انسلخت في السماء عن القدوس – تقدَّس اسمه – ألقت بنفسها في هاوية عند وجودها نفسه، واستبَقتْ الوقت الذي يتحتَّم فيه عليها أن تنزل على الأرض مجدداً." [118] "القدوس" هنا يعني، باطنياً، *الأتمن*، أو *أتما–بودهي*.

السائل: علاوة على ذلك، من المستغرب جداً أن يرد ذكر *نيرفانا* كشيء مرادف لملكوت السماء، أو الفردوس، بما أن *نيرفانا*، بحسب أيِّ مستشرق ذي وزن، مرادف للاضمحلال!

الثيوصوفي: مأخوذاً على محمل الحرف، وبخصوص الشخصية والمادة المتمايزة، ليس إلا – هذا صحيح. فقد اعتنق العديد من آباء الكنيسة الأوائل هذه الأفكار عن العَوْد للتجسد وتثليث الإنسان. غير أن الالتباس الذي تسبب فيه مترجمو العهد الجديد والمقالات الفلسفية القديمة بين النفس والروح هو الذي ولَّد سوء الفهم المتكرر. وهذا واحد من الأسباب العديدة التي يعود إليها اتهام البوذا وأفلوطين ومسارَرين آخرين كثر بالتشوق إلى فناء نفوسهم فناء تاماً – إذ إن "الاستغراق في الإله"، أو "الاجتماع مع النفس الكلِّية"، يعني "الامِّحاق" بحسب الأفكار الحديثة. على النفس الشخصية، بالطبع، أن تتحلل إلى جزيئاتها، قبل أن تتمكن من ربط ماهيَّتها الأنقى إلى الأبد مع الروح الخالدة. لكن مترجمي كلا *أعمال الرسل والرسائل*، الذين أرسوا قواعد ملكوت السماء، كما وشارحي *سوترا تأسيس ملكوت البِر* البوذي، قد شوَّشوا معنى رسول المسيحية ومُصلِح الهند العظيمين. الأولون مسخوا كلمة ψυχικός، بحيث لا يتصور أي قارئ أن لها علاقة مع *النفس*؛ وبهذا الخلط بين *النفس والروح* معاً لا يحصل قراء *الكتاب* إلا على معنى محرَّف لكل ما يخص الموضوع. من ناحية أخرى، فشل شارحو بوذا في فهم معنى وموضوع درجات *دهيانا* الأربع في البوذية. اسأل الفيثاغوريين: "هل يمكن لذلك الروح الذي يهب

118 - مجلد 3، ص 61.

الحياة والحركة ويشترك والنور في طبيعته أن يُختزَل إلى لاكيان؟" ويلحظ الغيبيون: "هل يمكن حتى لهذه الروح الحساسة في البهائم، التي تتصف بالذاكرة – واحدة من الملَكات العاقلة – أن تموت وتضمحل؟" *الفناء*، في الفلسفة البوذية، يعني فقط تبدداً في المادة، في أي شكلٍ أو *مظهرِ* شكلٍ كان؛ إذ إن كلَّ ما يتخذ شكلاً وقتيٌّ، وهو، بالتالي، وهمٌ حقاً. ففي الأبدية تكون أطول الفترات الزمنية أشبه ما تكون بطرفة العين. كذلك الأمر فيما يخص الشكل. فقبل أن يتسنى لنا الوقت لإدراك أننا أبصرناه يكون قد ذهب كومضة برق لحظية ومضى إلى غير رجعة. عندما ينطلق *الكيان* الروحي إلى الأبد من عُقالات كلِّ جزيء مادة، أو جوهر، أو شكل، ويصير من جديد *نَفَساً* روحياً، إذ ذاك فقط يلج *النيرفانا* الأبدي والسرمدي، فيدوم ما دامت دورة الحياة دائمة – أي الأبدية حقاً. وعند ذاك يكون ذاك النَّفَس، الموجود *بالروح*، *لاشيء* لأنه *الكل*؛ فهو كشكل، كمظهر، كهيئة، قد انمحق تماماً؛ أما كروح مطلق فهو ما زال *كائناً*، إذ إنه قد صار *الكينونة* نفسها. وعبارة "مستغرق في الجوهر الكلِّي" المستعمَلة نفسها، لدى الكلام على "النفس" بوصفها "الروح"، تعني *"الاتحاد مع"*. وهي لا يمكن أبداً أن تعني الفناء، من حيث إن هذا يعني الانفصال الأبدي.

السائل: ألا تعرِّضون أنفسكم لتهمة التبشير بالفناء بالعبارات التي تستعملونها؟ لقد تكلمت لتوِّك عن نفس الإنسان الراجعة إلى عناصرها الأزلية.

الثيوصوفي: لكنك نسيتَ أني ميَّزت لك الفرق بين المعاني المختلفة لكلمة "نفس"، وبيَّنت الطريقة الرخوة التي تُرجِمَت بها حتى الساعة كلمةُ "روح". نحن نتكلَّم على نفس *حيوانية*، ونفس *بشرية*، ونفس *روحانية*، ونميز فيما بينها. أفلاطون، على سبيل المثال، يدعو "**نفساً** عاقلة" ما ندعوه نحن *بودهي*، لكنْ مضيفين إليها نعتَ "روحانية"؛ لكن ما ندعوه نحن الأنية العائدة للتجسد، *مَنَس*، يدعوه هو الروح، *نوس*، إلخ، بينما نطبق نحن مصطلح *روح*، عندما يَرِدُ وحده بدون أية صفة، على *أتما* وحده. أما فيثاغوراس فهو على مذهبنا القديم عندما يصرِّح أن *الأنيَّة* (*نوس*) أبديةٌ أبديةَ الإله؛ أن النفس فقط تجتاز مراحل متنوعة لبلوغ الكمال الإلهي؛ بينما *ثيموس* [النفس الغضبية] تعود إلى الأرض، وحتى *فْرِنْ* [الفكر]، *مَنَس* الأدنى، يُزال. كذلك فإن أفلاطون يعرِّف بالنفس (*بودهي*) بكونها "الحركة القادرة على تحريك ذاتها". ويضيف: "النفس هي أقدم الأشياء قاطبة، وبداية الحركة"، [119] مسمياً بذلك *أتما–بودهي* "نفساً" و*مَنَس* "روحاً"، الأمر الذي لا نفعله.

"أنشِئَت النفس قبل البدن، والبدن لاحق وثانوي، إذ تسوسه، بحسب الطبيعة، النفسُ الحاكمة.

"والنفس التي تدبِّر كل ما يتحرك بكل طريقة ممكنة [...] تدبِّر بالمثل السماوات.

---

119 - *القوانين*، 10.

"النفس، إذن، تقود – بحركاتها – كل ما في السماء، وعلى الأرض، وفي البحر – تلك الحركات التي أسماؤها الإرادة، والنظر، والعناية، والمشورة، والرأي – صائباً أو خاطئاً – والفرح، والحزن، والثقة، والخوف، والبغض، والحب، إلى جانب كل مثيلات هذه الحركات الأولية المرتبطة بهذه [...] وبما أنها هي نفسها إلهة فإنها تتخذ أبداً قريناً لها *نوس* [العقل] – الإله – وتفرح بضبطِ كل شيء على الوجه الصحيح؛ لكنها حين تقترن بـ*آنويا* [الغباوة] – وليس بـ*نوس* – فإنها تفعل كل شيء على العكس من ذلك."

في هذه العبارات، كما في النصوص البوذية، فإن السلبي يعامَل بوصفه الوجود الماهوي. و*الفناء* ينضوي تحت تفسير مماثل. فالحالة الإيجابية كيانية ماهوية، ولكن ما مِن تجلٍّ هو كيانية ماهوية بما هو كذلك. عندما تدخل الروح *النيرفانا*، بالاصطلاح البوذي، تفقد وجودها الموضوعي، لكنها تستبقي كيانيَّتها الذاتية. وهذا، بنظر العقول الموضوعية، هو صيرورة إلى "عدم" مطلق؛ أما بنظر العقول الذاتية فهو **لا–شيء**، أي لاشيء قابل للإدراك بالحواس. بذلك فإن *نيرفانا* البوذيين يعني اليقين في الخلود الفردي *في الروح*، وليس في النفس، التي، على كونها "أقدم الأشياء طرا"، ما برحت – إلى جانب *الآلهة* الأخرى – فيضاً منتهياً، من حيث *الأشكال* والفردية، إن لم نقل من حيث الجوهر.

السائل: ما زلتُ غير قادر على الإحاطة بالفكرة، وأكون ممتناً لو تفضلتَ بشرحها لي ببعض الإيضاحات.

الثيوصوفي: لا ريب أنها عصية على الفهم، وبخاصة لمَن نشأ على أفكار الكنيسة النظامية السُّنية. بيد أني يجب أن أضيف شيئاً هاماً: ما لم تدرس وظائف كلٍّ من "المبادئ" الإنسانية على حدة وحال كلٍّ منها *بعد الموت* دراسةً وافية، لن يتسنى لك أن تفقه من فلسفتنا الشرقية إلا النزر اليسير.

في مختلف "مبادئ" الإنسان

السائل: سمعتُ الكثير عن بنيان "الإنسان الباطن" هذا، كما تسمُّونه، لكني لم أستطع قط أن "أفقه منه رأساً أو ذَنَب"، كما يعبِّر عن ذلك غاباليس.

الثيوصوفي: بالطبع، صعبٌ للغاية، وكما تقول، "محيِّرٌ"، أن تفهم *المظاهرَ* المتنوعة التي نطلق عليها تسمية "مبادئ" **الأنيَّة** الحقة وتميِّز فيما بينها على الوجه الصحيح. ومما يزيد الأمر صعوبة وجودُ فارق ملحوظ في تعداد تلك المبادئ في مختلف المدارس الشرقية، مع أنها جميعاً مستمَدَّة من أساس تعليمي واحد مشترك.

السائل: هل تعني الفيدنتيين كمثال؟ ألا يختزلون "مبادئكم" السبعة إلى خمسة فقط؟

الثيوصوفي: بلى، يفعلون. لكني، مع أني لا أزعم مجادلة علامة فيدنتيٍّ في هذه النقطة، فلي قطعاً أن أصرح بأن لديهم، بحسب رأيي الشخصي، سبباً وجيهاً لذلك. فبنظرهم، وحدها تلك الجملة الروحية المركَّبة التي هي عبارة عن

مختلف المظاهر الذهنية يصحُّ أن تدعى *إنساناً* بالأصل، حيث البدن بنظرهم هو شيء الاحتقار كثير عليه، وهو مجرَّد *وَهْم*. كما أن الفيدنتا ليس الفلسفة الوحيدة التي تعتمد هذه الطريقة: لاو تسه في *الطاو تِه كنغ* يذكر خمسة مبادئ وحسب لأنه، مثله كمثل الفيدنتيين، يُغفِل ذكر مبدأين، ألا وهما: الروح (*أتما*) والبدن، ويدعو ثانيهما، فضلاً عن ذلك، "الجثة". ثم هناك مدرسة *التارَكا راجا يوغا* التي لا تقر تعاليمُها بوجود غير ثلاثة "مبادئ" في الواقع؛ ولكن، في الحقيقة، ما يصطلح أهلُها على تسميته *ستهولوبادي*، أو البدن في حالة الصحو الواعية، و*سوكشموبادي* الجسم نفسه في حالة *سفابنا*، أو حالة الحلم، و*كَرَنوبادي*، أو "الجسم العِلِّي"، أو ما يرتحل من تجسُّد لآخر، هي جميعاً ذات مظهرين اثنين، ومجموعها، بالتالي، ستة. أضف إليها *أتما*، المبدأ الإلهي اللاشخصي أو العنصر الخالد في الإنسان، غير المميَّز عن الروح الكلِّي، فتحصل على السبعة نفسها من جديد.[120] إنهم أحرار في التمسك بتقسيمهم؛ ونحن نتمسك بتقسيمنا.

السائل: فهو، إذن، تقسيم يكاد يبدو مطابقاً للتقسيم الذي وضعه المسيحيون الصوفيون: الجسم والنفس والروح؟

الثيوصوفي: هو عينه. بإمكاننا بسهولة أن نجعل من الجسم مركبة "القرين الحيوي"؛ ونجعل من هذا مركبة الحياة أو *برانا*؛ ومن *كاماروبا*، أو النفس (الحيوانية)، مركبة الذهنين *الأعلى والأدنى*؛ ونجمع هذه كلها في ستة مبادئ، ونتوج الكل بالروح الخالدة الواحدة. ففي الغيبيات، كل تغيير كيفي في حالة وعينا يمنح الإنسان مظهراً جديداً؛ فإذا ساد هذا المظهر وصار جزءاً من الأنيَّة الحية الفاعلة وَجَبَ أن يُعطى – وهو يُعطى فعلاً – اسماً خاصاً لتمييز الإنسان في تلك الحالة المعيَّنة من الإنسان الذي يكونه عندما يضع نفسه في حالة أخرى.

السائل: هذا بالضبط هو ما يصعب فهمه إلى هذا الحد.

الثيوصوفي: إنه يبدو لي، على العكس، سهلاً للغاية حالما تفهم الفكرة الرئيسية، أي أن الإنسان يعمل على هذه المرتبة من الوعي، أو على مرتبة أخرى، بتوافق صارم مع شرطه الذهني والروحي. لكن مادية العصر باتت من الفداحة بحيث إننا كلما أمعنَّا شرحاً لاح أن الناس أقل قدرة على فهم ما نقول. قسِّم الكائن الأرضي المسمى بالإنسان إلى ثلاثة مظاهر رئيسة، إن شئت؛ ولا يمكنك أن تقسمه إلى أقل من ذلك – ما لم تكن تنوي أن تجعل منه حيواناً صرفاً. دونك جسمه الموضوعي؛ والمبدأ المفكِّر فيه – الذي يكاد لا يعلو كثيراً على العنصر *الغريزي* في الحيوان – أو النفس الحيوية الواعية؛ وذاك الذي يُنزِله منزلة أبعد وأسمى بما لا يقاس من منزلة الحيوان – ألا وهو النفس *العاقلة* أو "الروح". طيب، إذا أخذنا هذه المجموعات الثلاث أو الكيانات

120 - من أجل شرح أوضح، راجع: *العقيدة السرية*، مجلد 1، ص 157.

التمثيليـة، وأجرينـا عليهـا تقسـيمات تحتيـة، وفقـاً للتعليـم الغيـبي، علـى مـاذا نحصل؟

أولاً، على الروح (بمعنى المطلق، وبالتالي، **الكل** غير المنقسـم)، أو *أتمـا*. لمـا كانت هذه متعذرة التوضيع أو التحديد فلسفياً، كونها ببساطة ما هو **موجود** في الأبدية، وما لا يمكن أن يغيب عن أضأل نقطة هندسية أو رياضية للكون المـادي أو الجوهري، لا يجوز، في الحقيقـة، أن يُـدعى مبـدأ "إنسـانياً" أصلاً. إنها، فـي أحسن الأحـوال، ميتافيزيائيـاً، تلـك النقطـة فـي الفضـاء الـتي تشـغلها الموناد الإنسانية ومركبتُها الإنسان لفترة كلِّ أجَل. بيد أن تلك النقطة لا تقل خيالاً عـن الإنسان نفسه، وهي في الواقـع وهـم، *مايـا*. لكننـا، بنظرنـا كمـا وبنظـر أنيَّـاتٍ شخصياتٍ أخريات، لسنا واقعاً إلا إبان تلـك اللمحـة مـن الـوهم الـتي نـدعوها العمر، وعلينا أن نأخذ أنفسنا بالحسـبان – فـي هُوامنـا علـى أيـة حـال – إذا لـم يفعل ذلك سوانا. وحـتى نقـرِّب الأمـر مـن تصـوُّر العقـل البشـري، عنـدما تتـم محاولة لدراسة الغيبيات، ولحلِّ ألفباء سرِّ الإنسان، تطلـق الغيبيـات علـى هـذا المبدأ *السابع* تأليف المبدأ السادس، وتعطيه النفسَ *الروحانية* (بودهي) مركبةً. غير أن المبدأ الأخير ينطوي على سرٍّ، يُضَنُّ بـه علـى الجميـع، باسـتثناء الــ*شيلا* [المريدين] الموثوقين قطعاً، أو أولئك، على أية حـال، الـذين يمكـن الاطمئنـان إليهم. بالطبع، كان اللبس أقل لو كان بالإمكان البوح بهذا السر؛ ولكن، لما كان هذا يتعلق مباشرة بقدرة المرء على خلع قرينه خلعاً واعيـاً وإراديـاً، ولمـا كـان من شأن هذه الموهبة، مثلها كمثل "خاتم جيجس"، [121] أن تكون شـديدة الخطـر على الإنسان بعامة، وعلى صـاحب هـذه الملَكـة بخاصـة، فهنـاك حـرص شـديد عليه. ولكن لنتابع "المبادئ". هذه النفـس الإلهيـة، أو بـودهي، هـي إذن مركبـة الروح. وهذان، مجتمِعان، كـلٌّ واحـد، لاشخصـي، وعـديم الصـفات (علـى هـذه المرتبة، بالطبع)، ويشكِّلان "مبدأين" روحيين. فإذا جئنا إلـى النفـس *البشـرية*، *مَنَس* أو *مِنْس* [باللاتينية]، يتفق الجميع على القول *بـازدواجية* عاقلـة الإنسـان، في أقل تقدير: صاحب العقل الرفيع يكاد يتعذر أن يصير صاحب عقل دنيء؛ إذ إن هوة سحيقة تفصل الإنسان صاحب الـذهن العقلـي والروحـي عـن الإنسـان صاحب الذهن الغليظ، البليد، المادي، إن لم نقل الحيواني.

السائل: ولكن لماذا لا يُمثَّل الإنسان بـ"مبدأين" أو، بالحري، بمظهرين وحسب؟

الثيوصوفي: كلُّ إنسان فيه هذان المبدآن، أحدهما أنشـط مـن الآخـر، وفـي حالات نادرة، يكون أحدهما، إذا جاز القول، مقموع النموِّ أو مشـلولاً مـن جـراء قوة *المظهر* الآخر وهيمنته، في أية جهة كان ذلك. هـذان، إذن، همـا مـا نـدعوه مبـدأي أو مظهـري *مَنَـس*، الأعلـى والأدنـى: الأول، *مَنَـس* الأعلـى، أو الأنيَّـة المفكِّرة، الواعية، الساعية باتجاه النفس الروحانية (*بودهي*)؛ والثاني، أو المبدأ الغريـزي للأول، المجـذوب إلـى *كامـا*، مقعـد الرغبـات والأهـواء الحيوانيـة فـي الإنسان. بذلك نكون قد برَّرنا وجود *أربعة* "مبادئ". أما الثلاثة الباقية فيه فهـي:

---

121 - راعٍ شاب من ليديا كان يملك، على حدِّ ما يُروى، خاتماً ذهبياً يضعه فيصير غير مرئي. (م)

(1) الـ"قرين" الذي اتفقنا على تسميته النفس البروتيوسية [122] أو الهيولانية؛ مركبة (2) *مبدأ* الحياة، و (3) البدن. بالطبع ما مِن عالم فسيولوجي أو بيولوجي سوف يقبل هذه المبادئ، ولا حتى يفقه منها شيئاً. ولعل هذا، ربما، سبب عدم فهم أيٍّ منهم كلاً من وظائف الطحال، المركبة الجسمانية للقرين البروتيوسي، أو وظائف عضو معيَّن على الجنب الأيمن من الإنسان، بؤرة الرغبات المذكورة أعلاه، ولا هو بعدُ يعلم أيَّ شيء عن الغدة الصنوبرية، التي يصفها بكونها غدة قرنية يرسب فيها القليل من الرمل، والتي هي في الحقيقة مقرُّ أسمى وعي في الإنسان وأكثره ألوهية: عقله الكلِّي العلم، الروحي، المحيط بكل شيء. وهذا يبيِّن لك بنصاعة أكثر أننا لم نخترع هذه المبادئ السبعة، وأنها ليست بجديدة على عالم الفلسفة، كما نستطيع أن نبرهن على ذلك بسهولة.

السائل: ولكن ما الذي يتجسَّد من جديد باعتقادكم؟

الثيوصوفي: إنها الأنيَّة الروحية المفكِّرة، المبدأ الدائم في الإنسان، أو المبدأ الذي هو مقعد *مَنَس*. الإنسان *الفردي*، أو *الإلهي*، ليس *أتما*، أو حتى *أتما-بودهي*، بوصفهما *الموناد* المزدوجة، بل *مَنَس*؛ إذ إن *أتمن* هو **الكل** المحيط، ولا يصير **الذات العليا** للإنسان إلا بالانضمام إلى *بودهي*، مركبته التي تربطه بالفردية (أو الإنسان الإلهي). ذلك أن الـ*بودهي-مَنَس* الذي يُدعى *الجسم العِلِّي* (المبدأين الخامس والسادس مجتمعين) – الذي هو *الوعي* – هو الذي يربطها [الفردية] بكل شخصية تقيم على الأرض. لذا، بما أن النفس مصطلح إجمالي، هناك في البشر ثلاثة *مظاهر* للنفس: الأرضية، أو الحيوانية؛ النفس الإنسانية؛ والنفس الروحانية؛ وهذه، إذا توخينا الدقة، نفس واحدة في ثلاثة مظاهر. [123] بيد أن لا شيء يبقى من المظهر الأول بعد الموت؛ ومن الثاني (*نوس* أو *مَنَس*) وحدها ماهيَّته الإلهية، *إذا ظلت طاهرة*، تنجو؛ بينما الثالث يصير، بالإضافة إلى كونه خالداً، إلهياً *بصورة واعية*، عبر استيعاء الـ*مَنَس* الأعلى. ولكن لتوضيح الأمر، علينا، قبل كل شيء، أن نقول بضع كلمات في العَوْد للتجسد.

السائل: حسناً تفعل، حيث إن أعداءكم يشنون أشد الحروب ضراوة ضد هذا المذهب بالذات.

الثيوصوفي: أتعني الأرواحيين؟ أعلم ذلك. وعديدة هي الاعتراضات غير المعقولة التي يحيكونها بشقِّ النفس على صفحات *النور*. وبعضها من الغلاظة والخبث بحيث يتضح أنهم لا يتورعون عن شيء. لقد وقع أحدهم مؤخراً على تناقض، ناقشه برصانة في رسالة بعث بها إلى تلك الصحيفة، في تصريحين التقطهما من محاضرات السيد سينيت. لقد اكتشف ذلك التناقض الخطير في

122 - نسبة إلى الإله البحري الإغريقي بروتيوس الذي كان يستطيع أن يتخذ أيَّ شكل يريد، في أيِّ وقت يريد. (م)

123 - لعلها تقابل ما يصطلح الإسلام على تسميته بـ"النفس الأمَّارة" و"النفس اللوَّامة" و"النفس المطمئنة". (م)

هاتين العبارتين: "قد تكون العودة السابقة لأوانها إلى حياة الأرض في الحالات التي تحدث فيها راجعةً إلى تعقيدٍ كَرْميٍّ [نسبة إلى *كرما*]..."؛ و"ليس ثمة *حادث* في الفعل الأسمى للعدل الإلهي الذي يقود التطور". إن مفكِّراً بهذا العمق لا بدَّ أن يرى تناقضاً في قانون الجاذبية إذا مدَّ رجلٌ يده لمنع حجر ساقط من تهشيم رأس طفل!

الباب الثامن

في العَوْد للتجسد أو الولادة من جديد

ماهية الذاكرة وفقاً للتعليم الثيوصوفي

السائل: إن أصعب ما ينبغي عليكم فعله هو تفسير هذا الاعتقاد وتقديم أسس معقولة له. فما من ثيوصوفي نجح إلى الآن في الإتيان ببرهان كافٍ واحد يزعزع تشككي. هناك، بدايةً، ما يقوِّض نظرية العَوْد للتجسد هذه في أنه لم يتم حتى الآن العثور على إنسان واحد يتذكر بأنه عاش إبان حياته الماضية – أقله أن يتذكر مَن كان.

الثيوصوفي: حجتك، فيما أرى، تستند إلى الاعتراض القديم ذاته: ضياع ذاكرة تجسُّدنا الماضي في كلٍّ منَّا. أتظنُّها تُبطِل العقيدة؟ جوابي هو أنها لا تُبطِلها، وأن اعتراضاً كهذا، كيفما كان، لا يمكن أن يكون قاطعاً.

السائل: أود أن أسمع حججكم.

الثيوصوفي: إنها وجيزة وقليلة. بيد أنك حين تأخذ بعين الاعتبار (أ) العجز التام لخيرة علماء النفس المحدثين عن تفسير طبيعة *الذهن* للعالم، و(ب) جهلهم الكامل لقدراته الكامنة وحالاته العليا، ليس لك إلا أن تقرَّ بأن هذا الاعتراض مبني على حكم اعتباطي يقوم على بيِّنات سطحية وعرضية أكثر من أي شيء آخر. هل لك، بربِّك، أن تقول لي ما "الذاكرة" في تصوُّركم؟

السائل: إنه التصور المعترَف به بعامة: الملَكة التي يتمتع بها ذهننا لاستحضار معرفة الخواطر والأفعال والأحداث السابقة والاحتفاظ بها.

الثيوصوفي: أضف إليه أرجوك وجود فرق عظيم بين الأشكال الثلاثة للذاكرة المعترَف بها. فإلى جانب الذاكرة بعامة لديك *التذكرة* و*الاستذكار* و*التذكُّر*، أليس كذلك؟ هل سبق لك أن قلَّبت فكرك في الفرق بينها؟ فلا يغيبنَّ عن بالك أن الذاكرة اسم عام.

السائل: ومع ذلك فإن هذه كلها مجرد مترادفات.

الثيوصوفي: إنها ليست مترادفات قطعاً – في الفلسفة على كل حال. الـذاكرة ببساطة قدرة فطرية في الكائنات العاقلة، وحـتى فـي الحيـوان، علـى استحضـار انطباعات ماضية بتداعٍ للأفكار تحرِّضه بالدرجة الأولى أشياءٌ موضوعية أو فعلٌ مـا يقع على أعضاء حواسنا الخارجية. الذاكرة ملَكة تتكـل كليـاً علـى الأداء، المعـافى والسـوي نوعـاً مـا، لـدماغنا *الجسـماني؛ والتـذكرة والاسـتذكار* همـا خاصـيتا تلـك الذاكرة وجاريتاها. أما *التـذكُّر* فشـأنه شـأن آخـر. يعـرِّف عـالِم النفـس المحـدث بـ"التذكُّر" بكـونه ظـاهرة تتوسـط بيـن *التـذكرة والاسـتذكار*، أو "سـيرورة واعيـة لاستدعاء حوادث ماضية، إنما *بدون ذلك الرجوع التـام والمتنـوع* إلـى أمـور معينـة الذي ينفرد به *الاستذكار*." ويقول لوك متحـدثاً عـن الاسـتذكار والتـذكرة: "حينمـا *تعاود فكرةٌ* الرجوعَ بدون تدخل موضوع مماثل لها على الحـواس الخارجيـة، فهـي *التذكرة*؛ أما إذا اتفق للذهن أن يفتش عنها ولا يعثر عليها ويعاود استدعاءها للنظـر إلا بالعناء والجهد، فهو الاسـتذكار." ولكـن حـتى لـوك يـترك *التـذكر* بلا أي تعريـف واضح، لأنه ليس ملكة أو خاصية تتصف بها ذاكرتنا *الجسمانية*، إنمـا إدراك حدسـي مستقل عن دماغنا الجسماني وخارج عنه؛ هو إدراك، إذ يغطي فعلاً (تحرِّضه على العمل معرفةُ أنيَّتنا الروحية الحاضرة أبـداً) جميـعَ تلـك الـرؤى فـي الإنسـان الـتي *تُعتبَر شاذة* – بدءاً من الصور التي توحي بهـا العبقريـة حـتى *هـذيانات* الحمَّـى بـل والجنون – يصـنِّفه العلـم باعتبـاره *غيـر موجـود* خـارج بنـات خيالنـا. أمـا الغيبيـات والثيوصوفيا فتنظران إلى *التذكر* في ضوء مختلف كل الاختلاف. فعنـدنا أنـه بينمـا *الذاكرة* جسمانية ومؤقتة وتتكل على الشـروط الفسـيولوجية للـدماغ – وهـو رأي أساسي يأخذ به كل معلِّمي تقوية الذاكرة، تؤيدهم أبحاث علماء النفـس العلمييـن المحدثين – ندعو نحن *التذكر ذاكرةَ النفس*. إن هذه الـذاكرة هـي الـتي تمنـح كـل إنسان تقريباً اليقينَ، سواء فهمه أم لم يفهمه، بـأنه سـبق أن عـاش وبـأنه سـوف يعيش من جديد. حقاً، كما قال ووردزوورث [124]:

ما ولادتنا إلا هجعة وغفلة،

فالنفس التي تشرق معنا، نجمة حياتنا،

قد غربت في غير مكان،

وهي قادمة من بعيد. [125]

السائل: إذا كنتم تبنون عقيدتكم على هذا النوع من الذاكرة – الشعر وبنات الخيال الشاذة، على حدِّ اعترافكم – أخشى أنكم لن تقنعوا بها إلا القليل من الناس.

الثيوصوفي: أنا لم "أعترف" بأنه من بنات الخيال؛ إنما قلت ببساطة إن علمـاء الفسيولوجيا والعلماء بعامة يعتبرون تَـذْكِرات كهـذه هلوسـات وتهويمـاً – النتيجـة

---

124 - هو وليم ووردزوورث (1770-1850)، الشاعر المتصوف البريطاني الذي كتب مع صديقه كولريدج *القصائد الغنائية* (1798) التي تُعتبَر البيان الذي استُهِلَّت به الحقبة الرومنسية. اتسمت لغته بالنأي عن حذلقات شعراء القرن الثامن عشر وبالاستفادة من جماليات اللغة اليومية. (م)

125 - *Ode: Intimations of Immortality from Recollections of Early Childhood*. (م)

الضليعة التي ننزل لهم عن شـرف الأخـذ بهـا. أمـا نحـن فلا ننكـر أن هـذه الـرؤى للماضي وهذه اللمحات التي تغوص بالفكر في غياهب الزمن شاذة إذا مـا قـوبلت بتجربة حياتنا اليومية العاديـة وذاكرتنـا الجسـمانية. إننـا نقـول مـع البروفيسـور و. نايت بأن "غياب ذاكرة أي فعل جرى فـي حالـة سـابقة لا يمكـن أن يكـون برهانـاً قاطعاً على أننا لم نعش هذا الفعل." وعلى كل صاحب عقل منصف بين خصـومنا أن يوافق على ما يقوله بطلر في *محاضرات فـي الفلسـفة الأفلاطونيـة* [126] مـن أن "الإحساس بالغلوِّ الذي يصـفعنا بـه [وجـود الـروح قبـل الجسـم] يضـرب بجـذوره السرية في أحكامنا المتحاملة المادية أو نصف المادية." وعلاوة على ذلـك، نقـول بأن الذاكرة، كما دعاها أولمبيوذوروس، هي ببساطة الهوام، وهي أضعف ما يُركَن إليه فينا. [127] أما أمُّونيوس ساكَّاس فقد شدد على أن *الذاكرة* هي الملكـة الوحيـدة في الإنسان التي تتعارض مباشرة مع التكهُّن، أو النظر في المستقبل. ثم تذكَّرْ أن الذاكرة شيء وأن *الذهن* أو الفكر شيء آخر: فالأولى آلة تسجيل، سِجِلٌّ ما أسهل أن يتعطل، والثاني (الأفكار) أبدية ولا تفنى. فهل ترفض الاعتقـاد بوجـود أشـياء أو بشر معينين لمجرَّد أن عينيك الجسمانيتين لـم تقعـا عليهـم؟ ألا تكفـي الشـهادات الجماعية للأجيال الماضية الـتي رأت يوليـوس قيصـر ضـمانةً بـأنه قـد عـاش ذات مرة؟ فلم لا تؤخَذ بعين الاعتبار الشهادة نفسها للحواس النفسانية للجماهير؟

السائل: ولكن ألا تعتقد بأن هذه التمييزات هي من الرهافة بحيث لا تقبلها غالبية البشر؟

الثيوصوفي: بل قل غالبية الماديين. ولهؤلاء نقـول دونكـم: حـتى فـي الفسـحة القصيرة للعمر العادي، الذاكرة أضعف من أن تسجِّل كل أحداث عمر واحد. فكـم من المرات ترقد أهم الأحداث هاجعة في ذاكرتنا حتى يوقظها تداعٍ مـا للأفكـار، أو تحثها على النشاط والأداء صِلة مـا أخـرى. تلكـم هـي حـال المسـنِّين علـى وجـه الخصوص، الذين يتبيَّن دوماً أنهم يعانون من ضعف الاستذكار. لذا فإننا حين نتذكر ما نعرف عن المبادئ الجسمانية والروحية في الإنسان، فليس فشل ذاكرتنـا فـي تسجيل حياتنا وأعمارنا السابقة هو ما يجب أن يـثير عجبنـا، بـل العكـس، فيمـا لـو حصل.

لماذا لا نتذكر أعمارنا الماضية؟

---

126 - *Lectures on Platonic Philosophy*. (م)

127 - يقول أولمبيوذوروس (في *Platonis Phæd*): "الهوام هو حاجز أمام تصوراتنا العقلية؛ وبذلك، عندما نضطرب باللوامح الملهمة للألوهة، إذا تدخَّل الهوام، خمدت الطاقة الحماسية؛ فإن الحماس والوَجْد متعاكسان. ولو سئلنا فيما إذا كان في وسع النفس أن تتنشط بدون الهوام لأجبنا بأن إدراكها للكلِّيات يبرهن على أن في وسعها ذلك. فلها، إذن، إدراكات مستقلة عن الهوام؛ بيد أن الهوام، في الوقت ذاته، يلازم طاقاتها، كما تلاحق العاصفة من يبحر في البحر."

[تتضمن كلمة φαντασία اليونانية معنى *الظهور* (ظهور أشياء غير مألوفة تبعث على الوهم بالطبع)، معنى *صورة* تتشكل في الذهن بقدرة الخيال. وهي تشير كذلك إلى الملكة العقلية المبدعة للصور – *الخيال*. (ويجدر بنا أن نتذكر بأن هذه الصور يمكن أن تكون تمثلاً لإدراك تمثلاً مباشراً أو لذكريات منشطة، إن لم نقل لظواهر وهمية.) وتُشتَق كلمة φάντασμα من الجذر نفسه أيضاً. (م)]

السائل: لقد أعطيتَني نظرة إجمالية عن المبادئ السبعة؛ فكيف تعلِّل فقداننا التام لأي استذكار بأننا قد سبق لنا أن عشنا؟

الثيوصوفي: إنها تعلل ذلك بسهولة عظيمة. فلما كانت تلك "المبادئ" التي ندعوها جسمانية (والتي لا ينكر العلم وجود أي منها، مع أنه يطلق عليها أسماء أخرى [128] تتحلل بعد الموت مع عناصرها المكوِّنة، ليس في وسع *الذاكرة*، هذه الذاكرة الزائلة لشخصية زائلة، إلى جانب دماغها، لا أن تتذكر ولا أن تسجل شيئاً في التجسد اللاحق للـ**أنية**. العَوْد للتجسد يعني أن هذه *الأنية* ستتزوَّد بجسم جديد ودماغ جديد وذاكرة *جديدة*. لذا فإن في توقعنا من هذه *الذاكرة* أن تتذكر ما لم تسجله أبداً من السخف بقدر ما في فحصنا تحت المجهر قميصاً لم يرتده القاتل، وفي تفتيشنا عليه عن بقع دم لا يمكن العثور عليها إلا على الثياب التي ارتداها، من العبث. ليس القميص النظيف هو ما يجب أن نستنطق، بل الثياب المرتداة ساعة ارتكاب الجرم؛ فإذا احترقت هذه الثياب أو أُتلِفَت أنَّى لكم الوصول إليها؟

السائل: أجل! ولكن أنَّى لكم أنتم الإيقان أن المجرم ارتكب الجرم أصلاً، أو أن "الرجل صاحب القميص النظيف" عاش من قبل؟

الثيوصوفي: ليس بالوسائل الفيزيائية بكل تأكيد؛ ولا بالاتكال على شهادة ما لم يعد موجوداً. ولكن هناك ما يدعى بالبيِّنة من قرائن الأحوال، بما أن قوانيننا الحصيفة تقبل بها ربما أكثر مما ينبغي لها أن تفعل. فحتى يقتنع المرء بحقيقة العَوْد للتجسد والأعمار الماضية عليه أن يضع نفسه في حالة اتصال مع أنيَّته الحقيقية الدائمة، وليس مع ذاكرته الزائلة.

السائل: ولكن إذا كان الناس لا يعتقدون بما *لا يعرفون ولم يروا* قط فمن باب أولى ألا يضعوا أنفسهم في حالة اتصال معه.

الثيوصوفي: إذا كان الناس، بمن فيهم أكثرهم ثقافة، يعتقدون بالجاذبية، والأثير، [129] والقوة، وكل ما يمت إلى العلم بصلة من التجريدات و"فرضيات العمل" التي لم يروها، ولم يلمسوها، ولم يشمُّوها، ولم يسمعوها، ولم يذوقوها، لِمَ لا يعتقد سواهم، بناءً على المبدأ نفسه، بأنيَّتهم الدائمة، وهي "فرضية عمل" أكثر منطقية وأهم بكثير من أية فرضية أخرى؟

السائل: فما هو أخيراً هذا المبدأ الأزلي الغامض؟ هل لك أن تشرح طبيعته بحيث يفهمه الجميع؟

---

128 - ألا وهي: الجسم، والحياة، والغرائز الهوائية والحيوانية، والـ"وثن" النجمي لدى كل إنسان (سواء تم إدراكها بالفكر أو بعين العقل، أو موضوعياً بمعزل عن البدن)؛ إنها المبادئ التي ندعوها *ستهولا-شريرا، برانا، كاما-روبا، ولِنْغا-شريرا* (انظر الباب السادس).

129 - سائل افتراضي ظن العلماء أنه كان يملأ الفضاء كله. (كان العلماء يظنون أنه الوسط الحامل للموجات الكهرمغناطيسية، وبخاصة الضوء. وقد تبين عدم وجود مثل هذا الوسط من جراء النتيجة المباشرة وغير المتوقَّعة لتجربة مايكلسون ومورلي عام 1887.) وليس المقصود به هنا العنصر الخامس الذي يختصر عناصر الطبيعة التقليدية الأربعة (التراب، الماء، الهواء، النار) في الكيمياء القديمة. (م)

الثيوصوفي: إنه **الأنية** التي تعاود التجسد، "الأنا" *الفردية* الخالدة – لا الأنا الشخصية؛ وباختصار، مركبة **الموناد** الأتما–بودهية؛ إنه ما يثاب في ديفاخان ويعاقَب على الأرض؛ وأخيراً، ما يتعلق به فقط انعكاس *سكندها* كل تجسُّد على حدة أو صفات هذا الانعكاس. [130]

السائل: ماذا تعني بالـ*سكندها*؟

الثيوصوفي: ما قلته لتوي بالضبط: "الصفات"، بما فيها *الذاكرة*، التي تذبل كلها كالزهرة، بعد أن تخلف وراءها شذى ضعيفاً فقط. هاك مقطع آخر من كتاب هـ. س. أولكوت *التعليم البوذي* [131] يمت بصلة مباشرة إلى الموضوع. إنه يتناول المسألة كما يلي: "يتذكر الإنسان المسن أحداث شبابه، رغم أنه قد تغير بدنياً وذهنياً. فلم، إذن، لا نستميل إلينا استذكار أعمار ماضية من ولادتنا المنصرمة إلى هذه الولادة؟ لأن الذاكرة متضمَّنة في الـ*سكندها*، وبما أن الـ*سكندها* تكون قد تغيرت مع العمر الجديد، تنشأ ذاكرة جديدة هي سجلٌّ هذا العمر بعينه. ومع ذلك فإن سجل أو انعكاس كل الأعمار الماضية يجب أن ينجو؛ إذ إن الأمير سدهارتا، عندما أصبح بوذا، شاهد تسلسل ولاداته السابقة كاملاً... وكل من يبلغ حالة *جهانا* [132] يستطيع على هذا النحو أن يتعقب مستعرضاً توالي أعماره في الماضي." إن هذا يثبت لكم أنه على حين تتعلق صفات الشخصية التي لا يطالها الموت – كالمحبة، والطيبة، والرحمة، إلخ – بالأنية الخالدة وتطبع عليها، إذا جاز التعبير، صورة دائمة للوجه الإلهي للإنسان الذي كان، فإن الـ*سكندها* الجسمانية الخاصة بها (تلك التي تولِّد النتائج الكرمية الأبرز) سريعة التلاشي كومضة البرق، ولا تستطيع أن تَسِمَ الدماغ الجديد بسمة الشخصية الجديدة؛ ومع ذلك فإن فشلها في ذلك لا يضير هوية الأنية المعاودة للتجسد على الإطلاق.

السائل: هل تعني الإشارة إلى أن ما يبقى هو ذاكرة النفس، كما تدعونها، باعتبار أن النفس أو الأنيَّة ليست إلا الشيء الواحد نفسه، في حين لا يبقى من الشخصية شيء؟

الثيوصوفي: ليس تماماً؛ فهناك شيء ما من كل شخصية يجب أن ينجو – اللهم إلا إذا كانت هذه الشخصية شخصية امرئ ماديٍّ *مطلق*، ليس في طبيعته حتى شق رفيع يتسرب منه شعاع روحي – لأنها تخلِّف سمتها الأبدية على الذات الدائمة أو الأنيَّة الروحية المعاودة للتجسد. [133] (انظر فقرة "في وعي ما بعد الموت وما قبل الولادة" [الباب 9]). الشخصية، بجملة الـ*سكندها* الخاصة بها، تتغير أبداً مع كل ولادة جديدة. إنها، كما سبق أن قيل، مجرد الدور الذي يلعبه الممثل (الأنيَّة

---

130 - هناك خمس *سكندها* أو صفات واردة في التعاليم البوذية: "*روبا* (الشكل أو الجسم)، الخصائص المادية؛ *فيدنا*، الحس؛ *سَنَّا*، الأفكار المجردة؛ *سمكهارا*، الميول الذهنية؛ *فِنَّانا*، القدرات الذهنية. منها نتشكل؛ بها نعي الوجود؛ وعبرها نتواصل مع العالم من حولنا."

131 - هـ. س. أولكوت رئيس الجمعية الثيوصوفة [آنذاك (م)] ومؤسِّسها. وقد صادق على صحة التعليم الموقرُ هـ. سومنغالا، كبير سدنة شريبادا وغالِّي، ومدير (كلية) فديوديا باريفنا في كولومبو، باعتبارها متوافقة مع سُنَّة الكنيسة البوذية الجنوبية.

132 - كلمة باللغة البالِّية تعني *الامتصاص*. وهي تذكِّر بكلمة *دهيانا* السنسكريتية التي تعني التأمل، أو *لايا* التي تعني الفناء. (م)

133 - أو *الذات الروحانية* خلافاً للـ*ذات* الشخصية. على الطالب ألا يخلط بين هذه الأنيَّة الروحية و**"الذات العليا"** ألا وهي *أتما*، الإله فينا الذي لا ينفصل عن الروح الكلية.

الحقة) لأمسية واحدة. لهذا السبب لا نحتفظ بأية ذاكرة على الصعيد الجسماني عن أعمارنا الماضية، رغم أن "الأنية" *الحقة* عاشتها برمَّتها وتعرفها جميعاً.

السائل: فكيف لا يحدث أن يَسِمَ الإنسان الحقيقي أو الروحاني "أنا"ـه الشخصية الجديدة بسمة هذه المعرفة؟

الثيوصوفي: فما قولك، إذن، في خادمتين في مزرعة فقيرة تتكلمان بالعبرية وتعزفان على الكمنجة في حالة غيبوبة أو في حالة سرنمية، بينما تجهلان كلاهما في حالتهما العادية؟ [134] ذلك لأن الأنيَّة الروحية، كما سيخبرك أي عالم نفساني حق من المدرسة القديمة، لا من مدرستكم المعاصرة، لا تفعل إلا عندما تُشَلُّ الأنيَّة الشخصية. فالـ"أنا" الروحية للإنسان عليمة ومفطورة على كل معرفة، في حين أن الذات الشخصية ابنة بيئتِها وأَمَةُ الذاكرة الجسمانية. ولو كان للأنا الروحية أن تتجلَّى تجلياً غير منقطع وبدون عراقيل، لما عاد ثمة بشر على الأرض، ولكنَّا جميعاً آلهة.

السائل: ومع ذلك لا بدَّ أن هناك استثناءات وأن يتذكَّر بعضهم.

الثيوصوفي: هناك بالفعل من يتذكرون. ولكن منذا يصدِّق ما يقولون؟ المادية الحديثة تصنف أمثال مرهفي الحس هؤلاء في عداد الهستيريين المُهَلْوِسين والمتحمسين المعتوهين أو المدلِّسين. فليقرأوا، على كل حال، المؤلفات في هذا الموضوع، وعلى الأخص *العَوْد للتجسد، دراسة لحقيقة منسية* من وضع س. د. ووكر، [135] ع. ج. ث.، ليقعوا فيه على جملة البراهين التي أتى بها المؤلف القدير والتي تتناول هذه المسألة التي كثر حولها الجدل. يكلم أحدُهم الناسَ عن النفس، فيسأل بعضهم: "ما النفس؟"، "هل سبق أن برهنتَ على وجودها؟" لا جدوى بالطبع من الدخول في نقاش مع الماديين من الناس؛ ومع ذلك، يطيب لي أن أطرح عليهم أيضاً هذا السؤال: "هل في مقدوركم أن تتذكروا ما كنتم عليه أو ما قمتم به وأنتم بعدُ أطفال صغار؟ هل احتفظتم بأصغر استذكار من حياتكم أو خواطركم أو أفعالكم أو بأنكم عشتم أصلاً إبان الشهور الثمانية عشرة الأولى أو السنتين الأوليين من عمركم؟ لم إذن لا تنكرون، بالاستناد إلى المبدأ عينه، أنكم عشتم أصلاً كأطفال صغار؟ وحين نضيف إلى هذا كله أن الأنيَّة أو *الفردية* المعاودة للتجسد لا تستبقي إبان الفترة الديفاخانية إلا زبدة تجربة حياتها الأرضية أو شخصيتها الماضية، إذ تنطوي التجربة الجسمانية في حالة من الكمون، [136] أو تترجَم، إذا جاز القول، إلى صياغات روحية، وحين نتذكر أيضاً أن المدة بين ولادتين تمتد، بحسب ما يقال، من عشرة قرون إلى خمسة عشر قرناً، ينقطع في أثنائها الوعي الجسماني عن الفعل انقطاعاً تاماً ومطلقاً، إذ لا تتوفر أجهزة يعمل من خلالها، وبذلك *ينعدم وجوده*، إذ ذاك ينجلي سبب غياب كل تذكرة في الذاكرة الجسمانية الصرف.

---

134 - هناك أيضاً حالة الصبي توم الأعمى الذي ظهرت عليه، على الرغم من عماه، موهبة غير عادية في العزف على البيانو وهو بعدُ طفل صغير. (م)

135 - E. D. Walker, *Reincarnation, a Study of a Forgotten Truth*, New York: Macoy Publ. & Masonic Supply Co. (م)

136 - باللاتينية في النص: *in potentia*. (م)

السائل: قلت لتوِّك أن **الأنيَّة الروحية** عليمة بكل شيء. فماذا يحل إذن بذلك العلم الكلِّي الذي تتبجحون به إبان حياتها الديفاخانية، كما تسمُّونها؟

الثيوصوفي: إنها في أثناء ذلك الوقت تبقى أولاً مكنونة وكامنة لأن الأنيَّة الروحية (مركَّب *بودهي–مَنَس*) *ليست* **الذات** *العليا*، الكلِّية العلم وحدها لأنها واحدة مع النفس الكلِّية أو العقل الكلِّي؛ وثانياً، لأن ديفاخان هو الاستمرار المُؤَمْثَل للحياة الأرضية التي يخلِّفها المرء وراءه؛ وهو فترة تسوية جزائية، وثواب على الحيف والشقاء غير المستحَقَّين اللذين عاناهما في تلك الحياة بعينها. إنها في ديفاخان كلية العلم، إنما *بالقوَّة* فقط؛ *وبالفعل* في النرفانا حصراً، حين تندغم الأنيَّة في النفس–العقل الكلِّي. ومع ذلك فإن *الأنيَّة* تصبح مجدداً *شبه* عليمة بكل شيء في أثناء تلك الساعات على الأرض حين تجعلها ظروف غير اعتيادية وتغييرات فسيولوجية في البدن حرة من عوائق المادة. بهذا تزودك الأمثلة عن المسرنمين، عن الخادمة المسكينة المتكلمة بالعبرية والخادمة الأخرى العازفة على الكمنجة، المذكورتين أعلاه، بإيضاح للقضية التي نحن في صددها. بيد أن هذا لا يعني أن التعليلات لهاتين الواقعتين التي يقدمها لنا الطب خالية من الحقيقة؛ إذ إن إحدى الفتاتين كانت قد سمعت معلِّمها القس، قبلئذٍ بسنوات، يقرأ في مؤلفات عبرية بصوت مرتفع، وسمعت الأخرى فناناً يعزف على الكمنجة في المزرعة. لكن ما كان في وسع أي منهما أن تفعل ما فعلت على هذا النحو من الكمال لو لم يحدب عليهما **ذاك**، العليم بكل شيء بفضل تماثل طبيعته مع العقل الكلِّي. فههنا فعل المبدأ الأعلى فعله في *السكندها* وحرَّكها؛ أما في الحالة الثانية، فعندما شُلَّت الشخصية تجلَّت الفردية. فالرجاء ألا تخلط بين الحالتين.

في الفردية وفي الشخصية [137]

137 - حتى في كتابه *التعليم البوذي* وجد الكولونيل أولكوت نفسه، تحت وطأة منطق الفلسفة الغيبية، مضطراً إلى تصويب أغلاط المستشرقين السابقين الذين لم يوضحوا مثل هذا التمييز، وبرَّر للقارئ ذلك بقوله: "الظهورات المتوالية على الأرض، أو ’الهبوط على عالم الأجيال‘، للأجزاء المنسجمة والمتماسكة (*سكندها*) لكائن معين بقوة *تَنْها*، إنما هي توالٍ للشخصيات. وفي كل ولادة تختلف **الشخصية** عن شخصية ولادة سابقة أو لاحقة فيما بعد. إن كرما، الإله المحرِّك للآلة، يتنكر (أو لنقل، ينعكس) تارة في شخصية حكيم، وتارة أخرى في شخصية حرفي، وهكذا دواليك من أول خيط الولادات إلى آخره. ولكن مع أن الشخصيات تتغير أبداً فإن خيط الحياة الواحد الذي تنتظم فيه حبات الخرز يتواصل بلا انقطاع؛ إنه دوماً ذلك *الخط عينه* لا سواه أبداً. لذا فهو فردي، هو موجة حيوية فردية بدأت في *نرفانا*، أو الجانب الذاتي للطبيعة، كما بدأت موجة الضوء أو الحرارة التي تجتاز الأثير عند مصدرها الدينامي؛ وتنطلق هذه الموجة مجتازة الجانب الموضوعي للطبيعة بدافع *كرما* وتوجيه *تنها* (الرغبة غير المشبعة في الوجود) المبدع، وتمضي عبر تغيرات دورية عديدة عائدة إلى *نرفانا*. ويدعو السيد ريس–ديفدز ما يمر من شخصية إلى أخرى على طول السلسلة الفردية ’الطبع‘، أو ’المفعال‘. وبما أن ’الطبع‘ ليس مجرد تجريد ميتافيزيائي، إنما محصلة للخصائص الذهنية وللخصال المعنوية، أفلا يعيننا اعتبار موجة الحياة كالفردية، واعتبار كلٍّ من حلقات سلسلة تظاهراتها الولادية شخصية منفصلة، على تبديد ما يدعوه السيد ريس–ديفدز ’ذريعة لغز يائسة‘ (*البوذية*، ص 101). إن الفرد الكامل، من وجهة النظر البوذية، هو بوذا، فيما أظن. فالبوذا إنْ هو إلا زهرة الإنسانية النادرة بدون أدنى إضافة غيبية. وبما أن أجيالاً لا عدَّ لها (’أربع *أسنكهيَّا* ومئة ألف دورة‘ [Fausböll and Rhys-Davids, *Buddhist Birth Stories*, p. 13]) مطلوبة ليتفتح *إنسان* واحد عن بوذا، ولما كانت *إرادته الحديدية ليصبح بوذا* تسري عبر الولادات المتوالية كلها، ماذا ندعو ما يريد ويثابر على هذا النحو؟ أندعوه الطبع؟ أم ندعوه الفردية: فردية لا تتجلَّى في كل ولادة منها إلا جزئياً، إنما مشيَّدة من لبنات تعود إلى كل الولادات؟" (*التعليم البوذي*، الملحق أ. 137)

السائل: ولكن ما الفرق بين الاثنتين؟ أعترف أني ما زلت في جهل من الأمر. أنتم، إذن، بالفعل مقصِّرون في ترسيخ ذلك الفرق عينه في أذهاننا.

الثيوصوفي: هذا ما أحاول أن أفعل، ولكن هيهات! فإن توضيح هذا التمييز لبعضهم لأعسر من جعلهم يُجِلُّون متعذرات صبيانية، لا لشيء إلا لأنها من قبيل السُّنَّة، ولأن السُّننية تحظى بالاحترام. فمن أجل أن تفهم الفكرة جيداً عليك أن تدرس أولاً طائفتي "المبادئ": المبادئ *الروحية*، أو المبادئ التي تنتمي إلى الأنيَّة التي لا يدركها الفناء؛ والمبادئ *المادية*، أو المبادئ التي تكوِّن أجسام تلك الأنيَّة أو سلسلة شخصياتها المتغيرة أبداً. دعنا نطلق عليها أسماء ثابتة ونقول إن:

1. *أتما*، أو *"الذات العليا"*، ليست روحك أو روحي، لكنها كنور الشمس تسطع على الكل. إنه *"المبدأ الإلهي"* المتخلِّل كلَّ شيء، غير المنفصل عن روحه *المتعالية* الواحدة المطلقة، كما أن شعاع الشمس لا ينفصل عن نور الشمس.

2. *بودهي* (النفس الروحانية) ليست إلا مركبة. فلا الأول ولا الثانية، مجتمعين أو منفصلين، يستطيعان أن يكونا ذوا فائدة لجسم الإنسان، إلا بمقدار ما يستطيع نور الشمس وأشعته أن يكون ذا فائدة لكتلة من الغرانيت مدفونة في الأرض، *اللهم إلا إذا استوعب الشفعَ الإلهي وعيٌ ما، وانعكس فيه*. فلا *أتما* ولا *بودهي* يقعان في متناول *كرما*، لأن الأول هو أعلى مظاهر *كرما*، *أداته الفاعلة* **بذاته** عينها، من جهة، والثانية لاواعية *على هذا الصعيد*، من جهة أخرى. أما هذا الوعي أو العقل فهو

3. *مَنَس*[138]، مشتق *أهمكارا*، "صورة الأنا"، أو الأنا-نية، أو نتاجها، على نحو منعكس. لذا فإنه، حين يكون متحداً بالأولين اتحاداً لا تنفصم عراه، يدعى **الأنية الروحية**، *تَيْجَسي* ("الوضَّاء"). تلكم هي الفردية الحقة، أو الإنسان الإلهي. إن هذه الأنية هي التي – إذ تتجسد في الأصل في الصورة البشرية *العديمة الشعور* التي يحرِّكها حضور الموناد المثناة فيها، بدون أن تكون واعية لها (لأنها كانت عديمة الوعي) – تصنع من ذلك الشكل ذي المظهر البشري *إنساناً حقيقياً*. إن تلك الأنية، أو ذلك "الجسم العِلِّي"، هو الذي يحدب على كل شخصية يضطره *كرما* إلى التجسد فيها؛ وهذه الأنية هي التي تتحمل مسؤولية كل الخطايا التي تُرتكَب عبر (وفي) كل جسم أو شخصية جديدة – ألا وهي الأقنعة الزائلة التي تخفي الفرد الحقيقي عبر سلسلة الولادات الطويلة.

السائل: ولكن هل في هذا عدل؟ لِمَ يجب على هذه الأنية أن تتلقى العقاب كنتيجة لأفعال نسيتْها؟

---

138 - **مَهَة** أو "العقل الكلي" هو مصدر *مَنَس*. وهذا الأخير هو *مَهَة*، أي الذهن، في الإنسان. ويدعى *مَنَس* أيضاً *كشِتْرَجْنا*، "الروح المتجسمة"، لأن *المَنَسِا-بوترا*، أو "أبناء العقل الكلِّي"، هم، بحسب فلسفتنا، الذين *خلقوا*، أو بالحري صنعوا، الإنسان *المفكِّر*، *"مَنو"*، بالتجسد في بشرية الذرية الثالثة لكَوْرنا. إن *مَنَس*، إذن، هو *أنيَّتنا الروحية* الدائمة، هو **الفردية**؛ أما شخصياتنا المتنوعة التي لا عدَّ لها فليست إلا أقنعتها الخارجية.

الثيوصوفي: إنها لم تنسها؛ إنها تعرف أخطاءها وتتذكرها بقدر ما تتذكر أنتَ ما فعلتَه بالأمس. ألأن ذاكرة تلك الحزمة من المكوِّنات الجسمانية المسماة بـ"الجسد" لا تستذكر ما فعلته سالفتها (الشخصية *التي كانت*) تتخيل أنت أن الأنية الحقة قد نسيته؟ كأنك تقول إنه من الضيم أن يعاقَب حذاء جديد، في قدمي صبي يُجلَد لأنه سرق تفاحاً، على أمر لا يعرف عنه الحذاء شيئاً!

السائل: أفلا توجد كيفيات للاتصال بين الوعي أو الذاكرة الروحية وبين الوعي أو الذاكرة البشرية؟

الثيوصوفي: بالطبع توجد، لكنها لم تنل قط اعتراف علماء نفسكم العلميين المحدثين. إلامَ تعزون الحدس، "صوت الضمير"، والتوجسات، والتذكرات المبهمة غير المعينة، إلخ، إلخ، إن لم يكن إلى مثل هذه الاتصالات؟ فليته كانت لغالبية المثقفين، على الأقل، بصيرة كولريدج [139] الروحية الرفيعة التي تُظهِر مبلغ حدسه في عدد من تعليقاته! استمع إلى ما يقول في صدد احتمال كون "كل الخواطر في ذاتها لا تفنى". "إذا قُيِّض لملَكة الفطنة ('الانتعاشات' المفاجئة للذاكرة) أن تصير أشمل، لما تطلبت إلا تنظيماً مختلفاً وملائماً – *الجسم السماوي* بدلاً من *الجسم الأرضي* – لكي تَمثُل أمام كل نفس بشرية *الخبرة الجامعة لعمرها* (*لأعمارها*، بالأحرى) *الماضي برمَّته*." وهذا *الجسم السماوي* هو **أنيَّتنا** المَنَسية [نسبة إلى *مَنَس*].

في ثواب الأنيَّة وعقابها

السائل: سمعتك تقول إن *الأنية*، أياً كانت عليه حياة الشخص الذي تجسدت فيه على الأرض، لا تُبتَلى أبداً بعقاب بعد الموت.

الثيوصوفي: أبداً، إلا في حالات استثنائية ونادرة لن نتكلم عليها هنا، لأن طبيعة "العقاب" لا تشبه أياً من تصوراتكم اللاهوتية عن العقاب الأبدي.

السائل: ولكن إذا كانت الأنيَّة تعاقَب في هذه الحياة على الأخطاء المرتكَبة في حياة سابقة فإنها هي أيضاً التي ينبغي أن تثاب، سواء هنا، أو عندما تغادر جسمها.

الثيوصوفي: إن الأمر يتم على هذا النحو فعلاً. فإذا لم نكن نقبل بأي عقاب خارج هذه الأرض فلأن الحالة الوحيدة التي تعرفها الذات الروحية في الآخرة هي حالة غبطة خالصة.

السائل: ماذا تعني؟

الثيوصوفي: أعني ببساطة أن *الجرائم والخطايا المرتكَبة على صعيد موضوعي وفي عالم مادي لا يمكن أن يعاقَب عليها على صعيد ذاتي محض*. فنحن لا نؤمن

---

139 - هو صموئيل تيلر كولريدج (1772-1834)، الشاعر المتصوف البريطاني الذي كتب مع ووردزوورث *القصائد الغنائية*. (م)

بالجحيم أو بالنعيم كمكانين، ولا بنيران موضوعية لا تنطفئ وديدان لا تمـوت، [140] ولا بأورشليم شوارعها مرصوفة بالياقوت والماس. [141] أما ما نعتقد بـه فهـو *حالـة* بعـد الموت أو حالة ذهنية، تشبه الحالة التي نكون فيها في أثناء حلم زاهر. فنحن نعتقد بقانون سرمدي قـوامه المحبـة المطلقـة والعدالـة المطلقـة والرحمـة المطلقـة. ونحن، إذا نؤمن به، نقول: "مهما تكن الخطيئة والعواقب الوخيمة للخرق الكرمـي الأصـلي للأنيَّـات [142] المتجسـدة حاليـاً، لا يمكـن لأي إنسـان (أو الصـورة الماديـة والدورية للكيان الروحي) أن يُعتبَر، بأية درجـة مـن درجـات العـدل، مسـؤولاً عـن عواقب ولادته. إنه لا يطلب أن يولد، كما أنه لا يستطيع أن يختـار الوالـدين اللـذين سوف يهبانه الحياة. إنه من كل وجه ضحية بيئته، ابن ظـروف لا قِبَـل لـه بهـا. وإذا جرى استقصاء كلٍّ من ذنوبه بإنصاف لوُجِدَت تسع حالات من عشر كـان فيهـا هـو الذي اقتُرِفَت الخطيئة في حقِّه، ولم يكـن الخـاطئ. الحيـاة فـي أحسـن الأحـوال تمثيلية لا رحمة فيها، بحر عاصف ينبغي إجتيازه، وزر ثقيل كثيراً ما ننـوء بـه. عبثـاً حاول كبار الفلاسفة سبرها واكتشاف علَّة وجودها، وأخفقوا جميعاً باستثناء أولئـك الـذين حصـلوا علـى مفتاحهـا، ألا وهـم حكمـاء الشـرق. إن الحيـاة، كمـا يصـفها شكسبير: [143]

... ما هي إلا ظل شارد – ممثل مسكين،

ينتفخ كبراً ويستشيط ساعته على المسرح،

ثم لا يُسمَع له صوت. إنها حكاية

يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف،

إنما لا معنى لها..."

حقاً لا شيء هي الحياة فـي أجزائهـا المنفصـلة، لكـنْ علـى الجـانب الأعظـم مـن الأهمية في كلِّيتها أو سلسلة حيواتها. كيفما كان الأمر فإن كل حياة فرديـة تقريبـاً، في تفتحها الكامل، شقاء. فهل لنا أن نصدق أن ذلك الرجل المسكين العاجز، بعـد أن تتقاذفه أمواج الحياة الغاضبة كقطعة مسوِّسة من الحطب، سيقدَّر له، إذ يتبيَّن

---

140 - إشارة إلى إنجيل مرقس 9: 48 وغيره. (م)

141 - لعلها إشارة إلى الوصف المطنب لأورشليم السماوية في رؤيا يوحنا 21: 9-27. (م)

142 - على هذا الخرق بُنِيَت عقيدة سقوط الملائكة القاسية والمجافية للمنطق. وهي مشروحة في المجلد الثاني من *العقيدة السرية*. إن "أنيَّاتنا" جميعاً كيانات مفكِّرة وعقلانية (*مَنَسا-بوترا*) سبق لها أن عاشت، إنْ في هيئة بشر أو في هيئات أخرى، في *دور الحياة* (*مَنْفَنْتارا*) السابق، وحتَّم عليها كرماها أن تتجسد في *إنسان* هذا الدور. ولقد كان يعلَّم في **الأسرار** أنها، إذ تأخرت في الامتثال لهذا القانون (أو "رفضت أن تخلق"، كما تقول الهندوسية عن الـ*كومارا* والحكاية المسيحية عن كبير الملائكة ميخائيل)، أي أخفقت في التجسد في الوقت المعين، تدنَّست الأجسام التي كانت مقدَّمة لها (Vide Stanzas VIII. and IX. in the “Slokas of Dzyan,” vol. II. *The Secret Doctrine*, pp. 19 & 20.)، ومن هنا الخطيئة الأصلية للأشكال العديمة الشعور وعقاب *الأنيات*. فالمقصود بالملائكة العاصين الذين طُوِّح بهم في جهنم يُفسَّر ببساطة بما أصاب هذه الأرواح أو الأنيات النقية من سجن في أجسام من مادة نجسة، أي في أجساد.

143 *Macbeth*, Act 5, scene 5. (م) -

أنه أضعف من أن يقاومها، أن يعاقَب باللعنة *الأبدية*، أو حتى بعقاب مـؤقت؟ أبـداً! سواء كان الأمـر يتعلـق بخـاطئ عـادي أو بخـاطئ كـبير، بـامرئ طيـب أو شـرير، بمذنب أو بريء، فإن الـ*مَنو* ("الأنيَّة المفكِّرة") الذي أضناه الإرهاق، حالمـا يتحـرر من وزر الحياة الجسمانية، يفوز بحقه في فترة من الراحة والغبطة المطلقين. إن القانون نفسه المعصوم في حكمته وعدله، وليس بالأحرى في رحمته، الذي يُنـزِل بالأنيَّة المتجسدة العقابَ الكرمي [نسبة إلى كرما] على كل خطيئة ارتُكِبَـت إبـان الحياة المنصرمة على الأرض، يُعِدُّ للكيان الذي يفارق جسـمه فسـحة طويلـة مـن الراحة الذهنية، أي النسيان التام لكل حدث محزن، بل حتى لأصـغر خـاطر مـؤلم، فلا يبقى في ذاكرة النفس إلا تذكُّر كـل مـا كـان غبطـة، أو مـا أدَّى إلـى السـعادة. فأفلوطين الذي قـال إن جسـدنا هـو نهـر ليـثي [144] الحقيقـي – لأن "النفـوس الـتي تغطس فيه تنسى كل شيء" – كان يعني أكثر مما قال. لأنه كما أن ليـثي جسـمِنا الأرض مثل نهر ليثي، فكذلك يكون *جسمنا السماوي* في *ديفاخان*، بل وأكثر بكثير.

السائل: هل لي أن أفهم أن القاتل أو منتهك القانون الإلهي والبشري، بكل صـوره، يُسـمَح له أن يتملَّص من العقاب؟

الثيوصوفي: من قال ذلك؟ إن لفلسفتنا عقيدة في العقاب لا تقـل صـرامة عـن عقاب أشد الكالفينيين [145] تشدداً، لكنها أكثر فلسفية واتساقاً مـع العدالـة المطلقـة بما لا يقاس. فما من فعل يبقى بمنجى من العقاب – ولا حتى فكـرة آثمـة واحـدة؛ بل وتُعاقَب الفكرة عقاباً أقسى من الفعل، لأن الفكرة أشد سطوة بالإمكـان مـن حيث توليد نتائج شريرة من أي فعل. [146] نحن نؤمن بقانون جزائي معصـوم يسـمى **كرما**، يفصح عن ذاته في تسلسل طبيعي متلازم من العلل والمعلولات الحتمية.

السائل: وكيف، أو أين، يعمل؟

الثيوصوفي: كل عامل مستحق أجرته، كمـا تقـول الحكمـة فـي الإنجيـل؛ وكـل فعل، حسناً كان أم سيئاً، هو أمٌّ وَلود، كما تقول حكمة الدهور. اجمع بين القـولين، تجد "لماذا". فبعد الجواز للنفـس، وقـد تملَّصـت مـن أوصـاب الحيـاة الشخصـية، بتعويض كافٍ، لا بل أكثر من كافٍ بمئة ضعف، فإن *كرما*، يؤازره جيش الـ*سكندها*، يرابط على عتبة *ديفاخان*، من حيث تعاوِد الأنيَّةُ الخروجَ للقيام بتجسد جديد. ففـي هذه اللحظة يتأرجح المصير المستقبلي للأنية التي نالت قسطها مـن الراحـة فـي ميزان الجزاء العادل، إذ ترزح مجدداً تحت سلطان القانون الكرمي الفعال. ففـي هذه الولادة الجديدة المُعَدَّة لها – تلك الولادة التي اختارها وهيَّأ لها ذلك **القـانون** السري الذي لا يلين إنما المعصـوم فـي عـدل أحكـامه وحكمتهـا – تعـاقَب خطايـا الحياة السابقة للأنيَّة. بيد أن الأنيـة لا تُطـرَح فـي أي جحيـم خيـالي، بألسـنة لهـب

144 - Λήθη كلمة يونانية تعني "النسيان". راجع أفلاطون، *الجمهورية*، 10: 621، أ، ب. (م)

145 - نسبة إلى جان كالفن أو كوفان (1509-1564)، المصلح الديني الفرنسي المشايع للوثريين (1533)، الذي اضطر لمغادرة باريس حتى وضع عصا الترحال في جنيف عام 1541. وقد أراد أن يجعل من هذه المدينة حاضرة نموذجية، ففرض عليها انضباطاً صارماً. كتابه الرائس *تأسيس الدين المسيحي* يقوم على التأكيد على ربوبية الله، سيد قدر الإنسان وخلاصه من خلال التقدير المسبق. (م)

146 - من هنا، على سبيل المثال، قول المسيح: "من نظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (متى 5: 28)، وحديث الرسول العربي: "إنما الأعمال بالنيات، ولكلِّ امرئ ما نوى".

مسرحية وشياطين مذنَّبة ذوات قرون تدعو للسخرية، بل على هـذه الأرض حقـاً، صعيد خطاياها ومنطقتها، حيـث سـيكون عليهـا أن تكفِّـر عـن كـل خـاطر أو فعـل سيئ. وما زرعته إيَّاه سوف تحصد.[147] وسوف يجمع العَوْد للتجسد من حوله جميع الأنيَّات الأخرى الـتي تـألمت، سـواء مباشـرة أو علـى نحـو غيـر مباشـر، علـى يـد *الشخصية* الماضية، أو حتى بواسطتها اللاواعية. إن نمسيس[148] هـي الـتي سـتلقي بهاتيك الأنيَّات على طريق الإنسان *الجديد*، حاجبةً *القديم*، **الأنية** الأبدية، و...

السائل: ولكن أين العدل الذي تتحدث عنه إذا كانت هذه "الشخصيات" الجديدة غير داريــة بأنها أخطأت أو أُخطِئ في حقها؟

الثيوصوفي: هل لنا أن نقول عن معطف مسروق يقطِّعـه صـاحبه وهـو يحـاول انتزاعه من ظهر سارقه إنه يُعامَل بإنصاف؟ إن حـالَ "الشخصـية" الجديـدة حـالُ ثوب جديد بخصائصه النوعية، من لون وشكل ومميزات؛ غير أن الإنسان *الحقيقـي* الـذي يرتـديه هـو أثيـم الأيـام الغـابرة نفسـه. إن *الفرديـة* هـي الـتي تتـألم عـبر "شخصيتها". وهذا وحده يمكن أن يعلل الحيـف الرهيـب فـي توزيـع النصـيب فـي الحياة على البشر، مع أن هـذا الحيـف *ظـاهري* وحسـب. وحيـن ينجـح فلاسـفتكم المحدثون في تقديم سبب كافٍ لتعليل ولادة هذا العدد الكبير مـن البشـر الأبريـاء الطيبين ظاهرياً، لا لشيء إلا لكي يتألموا طـوال حيـاتهم؛ لتعليـل ولادة هـذا العـدد الكبير من المساكين في الفاقة والشظف في الأحياء الحقيرة للمدن الكبيرة، وقد تخلَّى عنهم القدر والبشر؛ لتعليل ولادة هؤلاء في الشقاء والضنك، في حيـن يفتـح سواهم أعينهم على الضوء في القصور؛ لتعليل كثرة منح النسب الكريـم والـثروة لأسوأ البشر وندرة منحهما لمـن هـم أهـل لهمـا؛ لتعليـل وجـود متسـوِّلين ذواتهـم *الباطنة* أنداد لأرفع البشر وأنبلهم؛ حين يتمكن فلاسفتكم أو لاهوتيوكم مـن تقـديم تعليل مُرضٍ لهذا كلِّه، وللمزيد أيضـاً، إذ ذاك فقـط، وليـس قبلـه، سـيحق لكـم ردُّ نظرية العَوْدَ للتجسد. لقد آنس أعظم الشعراء وأجلُّهم حقيقة الحقائق هـذه علـى نحو مبهم. فشِلِّي[149] آمن بها، وشكسبير لا بدَّ فكَّر فيها وهو يكتب في عبث الولادة. تذكَّر كلماته:

لماذا ينبغي لولادتي أن تشد إلى الأرض روحي العارجة؟

أليست المخلوقات قاطبة خاضعة للزمن؟

---

147 - راجع كتاب:

Sir Edwin Arnold, *The Light of Asia*, Book the Eighth.

ورسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية 6: 7 و8. (م)

148 - إلهة الثأر عند قدماء الإغريق. (م)

149 - هو برسي بسشي شِلِّي (1792-1822)، الشاعر وكاتب المقالة والمسرح البريطاني العظيم الذي اتسم إلهامه الرومانسي الخالص، المقترن بالأفلاطونية، برغبة عارمة في ربط الإنسان والطبيعة في إيقاع حيوي واحد. (م)

هناك جحافل من المتسوِّلين على الأرض الآن،

يعودون بأنسابهم إلى الملوك،

وملوك عديدون الآن، ما كان آباؤهم

إلا أنذال زمانهم ... ...

استبدل بكلمة "آباء" كلمة "أنيَّات" تحصل على الحقيقة.

***

الباب التاسع

في كاما–لوكا وديفاخان

في مصير "المبادئ" الدنيا

السائل: تكلَّمتَ على *كاما–لوكا*؛ فما هو؟

الثيوصوفي: عندما يموت المرء فإن مبادئه الثلاثة الدنيا تغادره إلى الأبد؛ وأعني الجسم، والحياة، ومركبة المبدأ الأخير، الجسم النجمي أو قرين الإنسان *الحي*. وعندئذٍ فإن مبادئه الأربعة – المبدأ المركزي أو المتوسط، النفس الحيوانية أو *كاما–روبا*، مع ما استوعبه من *مَنَس* الأدنى، والثلاثية العليا – تجد نفسها جميعاً في *كاما–لوكا*. وهذه حوزة نجمية، هي *الأعراف* في اللاهوت السكولستي، وهي

هاذِس الأقدمين. وهي، إذا توخَّينا الدقة، حوزة بمعنى نسبي وحسب؛ إذ ليست لها ناحية معينة ولا حدود، لكنها توجد *ضمن* الفضاء الذاتي؛ أي أنها تتعدى إدراكاتنا الحواسية. ومع ذلك فهي موجودة، وفيها تلبث *الإيذولا* [جمع *إيذولون*] النجمية لكل الكائنات التي عاشت، بما فيها الحيوانات، بانتظار *موتها الثاني*. وهذا الموت يطرأ على الحيوانات مع التحلل والتلاشي التام لجزيئاتها *النجمية* عن آخرها. أما *الإيذولون* [150] البشري فيبدأ هذا الموت عنده عندما يقال إن الثلاثية الأتما–بودهي–مَنَسية "تنفصل" عن المبادئ الدنيا، أو انعكاس *الشخصية السابقة*، بالاستغراق في الحالة الديفاخانية.

السائل: وماذا يحدث بعدئذٍ؟

الثيوصوفي: عندئذٍ فإن الشبح الكاما–روبي، وقد بقي مجرَّداً من المبدأ المفكِّر الحامل للمعلومات، من *مَنَس* الأعلى، ومن المظهر الأدنى للأخير، أي الفطنة الحيوانية، لا يعود يتلقى النور من الذهن الأعلى، ويعدم دماغاً مادياً يعمل من خلاله، وبالتالي ينهار.

السائل: بأية طريقة؟

الثيوصوفي: إنه ينحط إلى حالة الضفدع الذي يقتطع المشرِّح أجزاء من دماغه. فهو لا يعود قادراً على التفكير، حتى على الصعيد الحيواني الأدنى. وهو، من وقتئذٍ فصاعداً، لا يعود حتى *مَنَس* الأدنى، بما أن "الأدنى" ليس شيئاً بدون "الأعلى".

السائل: وهل هذا الكيان المعدوم هو الذي نجده يتمَيْدَد [يتجسَّم] في حجرات جلسات الوسطاء؟

الثيوصوفي: إنه هو عينه. غير أنه كيان معدوم فيما يخص القدرات على التعقُّل والتفكير؛ ومع ذلك فهو *كيان*، وإن يكن نجمياً وهيولياً، كما يتبيَّن في حالات معينة، حينما ينجذب مغناطيسياً بصورة غير واعية نحو وسيط، فينتعش مؤقتاً ويحيا فيه *بالوكالة*، إذا جاز التعبير. هذا "الطيف"، أو *الكاما–روبا*، قد يقارَن بـ*قنديل البحر*، ذي المظهر الأثيري الهلامي مادام يسبح في عنصره الطبيعي، أو الماء (***الهالة الخاصة بالوسيط***)؛ لكنه ما إن يُلقى خارجه حتى يتحلل في اليد أو على الرمل، ولا سيما في ضوء الشمس. ففي هالة الوسيط يعيش نوعاً من الحياة بالنيابة ويعقل وينطق إما من خلال دماغ الوسيط وإما من خلال أدمغة الأشخاص الآخرين الحاضرين. لكن هذا قد يقودنا بعيداً جداً، بحيث نطأ أرض الآخرين التي لا رغبة لي في التطاول عليها. فلنقتصر على موضوع التقمص.

السائل: وما هو التقمص؟ وما هي المدة التي تبقى إبانها *الأنية* المتجسِّدة في حالة *الديفاخان*؟

---

150 - من كلمة εἴδωλον اليونانية التي تعني "وثن"؛ وتشير إلى المركبة النجمية للشخص المتوفى. (م)

الثيوصوفي: هذه، كما تعلَّمنا، تتوقف على درجة روحانيـة التجسُّـد الأخيـر وعلـى مقدار أحقِّيته أو عدم أحقِّيته. معدَّل هذا الوقت يتراوح بين عشرة قـرون وخمسـة عشر قرناً، كما سبق أن قلت لك.

السائل: ولكن لماذا ليس بمكنة هذه الأنيَّة أن تتجلَّى وتتواصل مع البشر الفانين كما يزعـم الأرواحيون؟ ماذا الذي يحول دون أمٍّ والتواصل مع أبنائها الذين تركتْهم على الأرض، ويحـول دون تواصل الزوج مع الزوجة، وهكذا دواليك؟ لا بدَّ لي من الاعتراف بأنه معتقد مُعَزٍّ للغايـة؛ ولا يخيَّل إليَّ أن الآخذين به من الإحجام إلى حدِّ العزوف عنه.

الثيوصوفي: ولا هم بمجبرين على العزوف عنه، اللهم إلا إذا اتفق لهـم أن يـؤثروا الحقيقة على الخيال، مهما كان مبلغ "العزاء" فيه. قد تكـون عقائـدنا غيـر ملائمـة للأرواحيين؛ ومع ذلك فليس من شيء نعتقد به ونعلِّمه يساوي نصـف مـا يبشـرون به أنانيةً وقسوة.

السائل: لا أفهمك. ما هو الأناني فيه؟

الثيوصـوفي: هـو عقيـدتهم فـي عـودة الأرواح، "الشخصـيات" الحقيقيـة، كمـا يقولون؛ ولسوف أخبرك لماذا. إذا كان *ديفاخان* – وسـمِّه "الفـردوس" إذا شـئت، "مكان نعيم وغبطة عليا"، إذا طاب لك ذلك – مثلَ هـذا المكـان (أو لنقـل *الحالـة*) فإن المنطق يقول لنا بأن ما من حزن أو حتى ظلٍّ من وجع يمكن أن يُختبَر هنـاك. "الله سوف يكفكف كل الدموع من عيون" أولئك المقيمين فـي الفـردوس، علـى حدِّ ما نقرأ في الكتاب من وعود عديـدة. فـإذا كـانت "أرواح المـوتى" تُمكَّـن مـن العودة ومن رؤية كل ما يجـري علـى الأرض، وبخاصـة *فـي منـازلهم*، أيُّ نـوع مـن النعيم هو المُعدُّ لهم؟

لماذا لا يؤمن الثيوصوفين بعودة "الأرواح" الطاهرة

السائل: ماذا تعني؟ لماذا تفترض أن هذا سوف يحدُّ من نعيمهم؟

الثيوصوفي: لأنه ببساطة سيفعل؛ ودونك مثال على ذلك. تموت أمٌّ تاركة وراءهـا أطفالها الصغار العاجزين – اليتامى الذين تعبدهم – وربما زوجاً حبيبـاً أيضـاً. نحـن نقول بأن "روحها" أو *أنيَّتها* – تلك الفردية المفعمـة الآن، إبـان الفـترة الديفاخانيـة برمَّتها، بأنبل المشاعر التي حملتها *شخصـيتها* المأسـوف عليهـا، أي الحـدب علـى أطفالها، والشفقة على المتألِّمين، وهكذا دواليك – نقـول بأنهـا الآن منفصـلة كليـاً عن "وادي الدموع"، وبأن قوام نعيمها المستقبلي هو ذلك الجهل المُنعَم بـه عليهـا بكل الويلات التي خلفتها وراءها. بينما يقول الأرواحيون، على العكس، بأنهـا علـى وعي بها بما لا يقل عما سبق، *بل يفوقه حتى*؛ إذ إن "الأرواح تـرى أكـثر ممـا يـرى الفانون في الجسد". أما نحن فنقول بأن نعيم الـ*ديفاخان* عبارة عن قناعتها التامة بأنها لم تغادر الأرض قط، وبأنه ليس ثمة شيء يدعى الموت أصلاً؛ بـأن وعـي الأم الروحي فيما بعد الموت سـيمثِّل لهـا بأنهـا تحيـا محاطـة بأطفالهـا وبجميـع الـذين أحبتهم؛ وبأنها لن تعدم أية ثغرة، أية صلة، لتجعل من حالتهـا المجـرَّدة مـن البـدن أكمل سعادة وأوفرها إطلاقاً. الأرواحيون ينكرون هذا صراحة. فبحسـب عقيـدتهم

لا يتحرر الإنسان التعس من أحزان هذه الحياة حتى بالموت، ولن تضل قطرةٌ واحدة من أوجاع كأس الحياة وآلامها طريقَها إلى شفتيه. وبما أنه يرى كل شيء الآن فإنه، شاء أم أبي، سوف يجرعها حتى الثمالة المريرة. هكذا فإن الزوجة المُحِبة، التي كانت مستعدة في أثناء حياتها أن تصرف الأسى عن زوجها مؤدِّية الثمن من دم قلبها، مقضيٌّ عليها الآن أن ترى، في عجز تام، يأسَه، وأن تسجل كل دمعة ساخنة يسفحها على فقدها. لا بل الأنكى أنها قد ترى الدموع تجف بأسرع مما كانت تظن، إذ يشرق عليه – والد أطفالها – وجهٌ حبيب آخر، فتجد امرأة أخرى تستأثر بمودته بدلاً منها؛ مقضيٌّ عليها أن تسمع أيتامها يطلقون اسم "الأم" المقدس على امرأة لا يهمهم أمرها، وترى أولئك الأطفال يُهمَلون، إن لم تُسَأ معاملتُهم. بحسب هذه العقيدة تصير "النفحة اللطيفة لحياة الخلود"، بدون أية مرحلة انتقالية، طريقاً جديدة إلى الشقاء الذهني! ومع ذلك فإن أعمدة *لواء النور*، المجلة المتمرسة للأرواحيين الأمريكيين، تغص برسائل من الموتى، "الراحلين الأعزاء"، الذين يكتبون واصفين مبلغ *سعادتهم*! فهل مثل هذه الحالة من المعرفة تتوافق مع النعيم؟ "النعيم"، في مثل هذه الحالة، هو بمثابة أعظم اللعنات، والغضب الأبدي الأرثوذكسي فرجٌ قطعاً بالمقارنة معه!

السائل: ولكن كيف تتجنب نظريتكم هذا؟ كيف يمكنكم المصالحة بين نظرية العلم الكلِّي للنفس بعماها عما يجري على الأرض؟

الثيوصوفي: لأنه كذا هو قانون المحبة والرحمة. إبان كل فترة ديفاخانية للأنيَّة، تتسربل هذه، إذا جاز القول، على كونها كلِّية العلم بما هي كذلك، *بانعكاس* "الشخصية" التي كانتْها. لقد أخبرتُك لتوِّي بأن الإزهار *المثالي* لكل الصفات أو النعوت المجرَّدة، وبالتالي الخالدة والأبدية، كالمحبة والرحمة، وكمحبة الخير والحق والجمال، التي نطقت أبداً في قلب "الشخصية" الحية، تتمسك بعد الموت بالأنيَّة، وبالتالي تتبعها إلى *ديفاخان*. تصبح الأنية في الوقت الحاضر، إذن، الانعكاس المثالي للكائن الإنساني الذي كانتْه أخيراً على الأرض، *وذاك الانعكاس* ليس كلِّي العلم. فلو كان كذلك لما كان أبداً في الحالة التي ندعوها *ديفاخان* أصلاً.

السائل: فماذا هي أسبابكم لذلك؟

الثيوصوفي: إذا كنت تريد إجابة تتقيد بفلسفتنا بحذافيرها لقلت لك عندئذٍ بأن هذا يعود إلى أن كل شيء وهم (*مايا*) خارج الحقيقة الأزلية، التي لا شكل لها، ولا لون، ولا حد. إن من بلغ مقاماً أبعد من حجاب *مايا* – وأولئك هم النطساء والمُسارَرون الأعلون – لا حاجة لهم إلى *ديفاخان*. أما الإنسان الفاني العادي فإن نعيمه فيه نعيم تام. إنه ذهول *مطلق* عن كلِّ ما سبَّب له وجعاً أو حزناً في التجسد الماضي، وحتى ذهول عن وجود أشياء كالوجع أو الحزن أصلاً. إن المقيم في *ديفاخان* يحيا دورته المتوسطة بين تجسدين محاطاً بكل ما تاق إليه عبثاً، وفي صحبة كل مَن أحبَّ على الأرض. لقد بلغ تحقيق كل ما اشتاقت إليه نفسه. وهو بذلك يحيا طوال قرون وجوداً من السعادة *الصرف*، التي هي الثواب على آلامه

إبان الحياة الأرضية. وباختصار فإنه يستحم في بحر من الغبطة المتواصلة لا تقيسها إلا أحداث من غبطة أعظم درجةً حتى.

السائل: لكن هذا أكثر من مجرد أضلولة؛ إنه وجود مكوَّن من هلوسات مخبولة!

الثيوصوفي: قد يكون كذلك من منظارك، لكنه ليس كذلك من منظار الفلسفة. أليست حياتنا الأرضية برمَّتها، فضلاً عن ذلك، ممتلئة بمثل هذه الأضاليل؟ ألم تلتقِ يوماً برجال وبنساء يعيشون لسنوات في فردوس مجنون؟ فإذا اتفق لك تعلمِ أن زوج الزوجة، الذي تعبده وتعتقد أنها محبوبته، لا يَصدُقها المشاعر، هل تمضي إليها وتحطم قلبها وحلمها الجميل بأن توقظها بفظاظة على الواقع؟ لا أظنك تفعل. أقولها ثانية: مثل هذا الذهول و*الهلوسة* – إذا طاب لك أن تدعوه كذلك – ما هو إلا قانون رحيم من قوانين الطبيعة والعدالة الصارمة. وعلى كل حال، فإن هذا الاستشراف أبهر بكثير من القيثارة الذهبية للأرثوذكسية مع زوجَيْ الأجنحة المصاحبين لها. إن التأكيد بأن "النفس التي تحيا كثيراً ما تعرج وتطوف شوارع أورشليم السماوية المأنوسة، زائرةً الآباءَ والأنبياء، مسلِّمةً على الرسل، ومتملِّيةً جيش الشهداء" قد يبدو في نظر بعضهم أكثر ورعاً. ومع ذلك فإنه هلوسة من شأنها أن تضلِّل أكثر بكثير، بما أن الأمهات يحببن أبنائهن حباً لا يموت، كما نعلم، بينما ما تزال طبيعة الشخوص المذكورة في "أورشليم السماوية" مشكوكاً فيها نوعاً ما. لكني مع ذلك أؤثر قبول "أورشليم الجديدة"، بشوارعها المرصوفة كواجهات محلِّ جواهري، على أن أجد السلوى في عقيدة الأرواحيين العديمة الشفقة. وحدها فكرة أن *النفوس العاقلة الواعية* للأب، أو الأم، أو الابنة، أو الأخ، تجد نعيمها في "مصطاف" – وهي فكرة أكثر طبيعية بقليل من "أورشليم الجديدة"، وإن تكن لا تقل عنها سخفاً من حيث وصفُها – تكفي لجعل المرء يفقد كل احترام يكنُّه لـ"فقيديه". فالاعتقاد بأن روحاً طاهرة يمكنها أن تشعر بالغبطة وهي مقضي عليها أن تشهد على خطايا، وأخطاء، وخيانة، وفوق كل ذلك، آلام أولئك الذين فرَّق الموت بينها وبينهم والذين تخصهم بحبها، بدون أن يكون بوسعها إسعافهم، لهو خاطر مجنِّن.

السائل: إنها حجة بليغة حقاً. أعترف بأني لم أرَ الأمر في هذا الضوء.

الثيوصوفي: هي كذلك. والمرء الذي يتخيل شيئاً كهذا يوماً أناني قطعاً حتى اللب وخلو من حسِّ العدالة المجزية. نحن مع أولئك الذين فقدناهم في الشكل المادي، ونحن أقرب، أقرب بكثير إليهم الآن مما كنَّا عندما كانوا أحياء. وهذا ليس من بنات مخيِّلة المقيم في الـ*ديفاخان*، كما قد يتخيل بعضهم، بل هو الواقع. ذلك أن المحبة الإلهية الخالصة ليست مجرد ثمرة القلب البشري، بل تضرب بجذورها في الأبدية. المحبة الروحية المقدسة لا تموت، وكرما يلمُّ، عاجلاً أم آجلاً، شملَ جميع الذين أحبوا بعضهم بعضاً بمثل هذه المودة الروحية لكي يتجسدوا مجدداً في مجموعة أسرية واحدة. نقول مرة أخرى بأن للمحبة فيما يتعدى القبر، مع أنك قد تدعوها وهماً، قدرة سحرية وإلهية تنعكس على الأحياء. إن *أنية* أمٍّ ممتلئة محبة للأبناء المتخَيَّلين الذين تراهم بالقرب منها – هذه الأنيَّة تحيا حياة سعادة، لا تقل *في نظرها* عنها وهي على الأرض – وهذه المحبة يظل يشعر بها الأبناء في الجسد

دائماً. ولسوف تتجلَّى في أحلامهم، ومراراً في أحداث متنوعة – في حالات حماية ونجاة *موفَّقة من الله*؛ فالمحبة درع قوية، ولا يحدها المكان والزمان. وما يصح على "الأم" الديفاخانية يصح كذلك على بقية العلاقات والتعلقات الإنسانية، ما خلا الأناني والمادي الصرف منها. والمقايسة سوف توحي لك بالباقي.

السائل: فأنتم، إذن، لا تقبلون، ولا في أيَّة حالة، إمكانية تواصل الأحياء مع روح *متجردة من البدن*؟

الثيوصوفي: بلى، هناك حالة، بل حتى استثناءان من القاعدة. الاستثناء الأول هو فترة الأيام القليلة التي تعقب مباشرة موت الشخص وقبل أن تعبر *الأنيَّة* إلى الحالة الديفاخانية. أما استفادة أيِّ بشر فانٍ فائدة جمة، اللهم إلا في حالات استثنائية معدودة – (عندما تقسرُ شدةُ الرغبة لدى الشخص المحتضر في العودة لقصد ما الوعيَ الأعلى على *البقاء صاحياً*، وبالتالي فإن *الأنيَّة* حقاً أو "الروح" هي التي تواصلت) – من عودة الروح إلى المرتبة *الموضوعية* فشأنها شأن آخر. فالروح تكون مذهولة بعد الموت وسرعان ما تهوي فيما ندعوه "اللاوعي *ما قبل الديفاخاني*". أما الاستثناء الثاني فنجده لدى الـ*نرمانكايا*.

السائل: ماذا عنهم؟ وما هو مدلول الاسم عندكم؟

الثيوصوفي: إنه الاسم الذي يُطلَق على أولئك الذين، مع أنهم فازوا بالحق في الـ*نرفانا* والراحة الدورية – (*ليست* "ديفاخان"، باعتبار أن الأخير هو وهم من أوهام وعينا، حلم سعيد، وباعتبار أن أولئك المؤهلين للـ*نرفانا* يجب أن يكونوا قد فقدوا كلياً كل رغبة في أوهام العالم أو إمكانية من إمكانياتها) – زهدوا في الحالة النرفانية رأفةً بالبشرية وبأولئك الذين تركوهم على الأرض. مثل هذا الناطس، أو القديس، أياً كان الاسم الذي تطلقه عليه، إذ يرى في الراحة في النعيم، بينما البشرية تئن تحت وطأة البؤس الناجم عن الجهل، فعلةً أنانية، يزهد في الـ*نرفانا* ويعقد العزم على البقاء غير مرئي *في الروح* على هذه الأرض. ليس لأولئك أجسام مادية، بما أنهم قد خلفوها وراءهم؛ لكنهم، فيما عدا ذلك، يبقون بكافة مبادئهم الأخرى، حتى *في الحياة النجمية* في فلكنا نحن. وهؤلاء يمكنهم التواصل مع ثلة من النخبة، إنما ليس مع وسطاء *عاديين* قطعاً.

السائل: لقد طرحت عليك السؤال عن الـ*نرمانكايا* لأني قرأت في بعض مطالعاتي بالألمانية وغيرها أنه كان الاسم الذي أطلِقَ على الظهورات أو الأجسام الأرضية التي اتخذها البوذاوات في تعاليم بوذية الشمال.

الثيوصوفي: هي كذلك؛ إلا أن شوشوا هذا الجسم الأرضي بفهمهم إياه على أنه الجسم *الموضوعي* و*الفيزيائي*، وليس النجمي والذاتي المحض.

السائل: وأي خير يمكنهم أن يفعلوا على الأرض؟

الثيوصوفي: ليس الكثير، فيما يخص الأفراد، بما أنه لا يحق لهم التدخل في كرما، ولا يمكنهم إلا أن ينصحوا ويلهموا البشر الفانين في سبيل الخير العام. ومع ذلك فهم يقومون بأعمال مفيدة أكثر مما تتصور.

السائل: هذا ما لن يصدق به العلم، ولا حتى علم النفس الحديث. فعند هؤلاء أنه لا يمكن لأية نتفة من الفطنة أن تبقى بعد الدماغ المادي. فما جوابك لهم؟

الثيوصوفي: لن أتجشم حتى عناء الجواب، وسأكتفي بالرد بالكلمات التي أعطِيَتْ لـ"م. أ. أوكسُن": "الفطنة *تدوم* فعلاً بعد أن يموت الجسم. مع أن الأمر لا يتعلق بالدماغ وحده... فمن المعقول أن نطرح مما نعلم عدم قابلية الروح الإنسانية للفناء" (*هوية الروح*، ص 69). [151]

السائل: لكن "م. أ. أوكسُن" أرواحي؟

الثيوصوفي: بالضبط، وهو الأرواحي *الحق* الوحيد الذي أعرف عنه، مع أننا قد نختلف معه على الكثير من المسائل الفرعية. ما عدا ذلك، لا يوجد أرواحي يدنو من الحقائق الغيبية أقرب مما يفعل هو. إنه، كأيٍّ واحد منَّا، لا يكل من الكلام "على الأخطار الداهمة المحدقة بكل مَن يفتقر إلى العدة الكافية، من الطائشين المتخبطين في الغيبيات، مجتازاً العتبة بدون أن يتحسب للثمن." [152] وخلافنا الوحيد يتعلق بمسألة "هوية الروح". فيما عدا ذلك، أنا، من جانبي، أكاد أتفق معه تماماً، وأقبل بالطروحات الثلاثة التي ضمَّنها في خطابه بتاريخ تموز 1884. إن هذا الأرواحي المرموق، بالأحرى، هو الذي يختلف معنا، ولسنا نحن الذين نختلف معه.

السائل: وما هي هذه الطروحات؟

الثيوصوفي: خلاصتها:

1. "أن هناك حياة تتواقت مع الحياة المادية للجسم، مع بقائها مستقلة عنها.
2. "أن هذه الحياة، كنتيجة طبيعية ضرورية، تمتد فيما يتعدى حياة الجسم" (نقول إنها تمتد إبان *ديفاخان*).
3. "أن هناك تواصلاً بين ساكني حالة الوجود تلك وسكان العالم الذي نحيا فيه الآن."

كل شيء يتوقف، كما ترى، على المظاهر الصغرى والثانوية لهذه الطروحات الأساسية. كل شيء يتوقف على نظرتنا إلى الروح والنفس، أو *الفردية والشخصية*. الأرواحيون يخلطون بين الاثنين "في واحد"؛ بينما نحن نفصل بينهما، ونقول، فيما عدا الاستثناءين المذكورين أعلاه، إنه ليس لأيِّ *روح* أن تعاود زيارة

151 - وليم ستنتون موسس، *هوية الروح*، 1879. (م)
152 - "بعض الأمور مما *أعرف* عن الأرواحية وبعضها مما *لا* أعرف."

الأرض، مع أن النفس الحيوانية يمكنها ذلك. ولكن فلنعد مجدداً إلى موضوعنا المباشر، الـ*سكندها*.

السائل: بدأت أفهم فهماً أفضل الآن. إن روح هذه الـ*سكندها*، إذا جاز القول، التي هي الأكثر نبلاً، إذ تتعلق بالأنيَّة المتجسدة، تنجو، وتنضاف إلى مخزون خبراتها الملائكية. والصفات المتعلقة بالـ*سكندها* المادية، ذات الدوافع الأنانية والشخصية، التي، إذ تختفي من مسرح الفعل بين تجسدين، هي التي تعاود الظهور في التجسد اللاحق كعواقب كرمية ينبغي التعويض عنها؛ وبالتالي فإن الروح لن تغادر *ديفاخان*. أليس الأمر كذلك؟

الثيوصوفي: يكاد الأمر يكون كذلك. وإذا أضفتَ إلى هذا أن قانون الجزاء، أو كرما، مثيباً الأسمى والأكثر روحانية في *ديفاخان*، لا يقصِّر في إثابتها من جديد على الأرض بإتاحة المجال لها للمزيد من الانبساط على الأرض، ومزوداً الأنية بجسم يناسبها، ستكون عندئذٍ على صواب تماماً.

بضع كلمات في الـ*سكندها*

السائل: وإلامَ تصير الـ*سكندها* الأخرى، الـ*سكندها* الدنيا للشخصية، بعد موت الجسم؟ هل تفنى تماماً؟

الثيوصوفي: إنها تبقى موجودة، ومع ذلك غير موجودة – وهذا سرٌّ ميتافيزيائي وغيبي جديد عليك. إنها تفنى بوصفها المخزون العملي المتاح للشخصية؛ وهي تبقى بوصفها *عواقب كرمية*، بذوراً، تتدلَّى في جوِّ المرتبة الأرضية، متأهبة للحياة، وكأنها حشد من الأبالسة الحاقدة، لتتعلق بالشخصية الجديدة للأنيَّة عندما تتقمص من جديد.

السائل: هذا حقاً يفوق فهمي، ويصعب فهمه.

الثيوصوفي: ليس مادمتَ قد استوعبت كافة التفاصيل. فإذ ذاك سوف ترى أن عقيدة التقمص هذه، من حيث المنطق، والتماسك، والفلسفة العميقة، والرحمة والقسط الإلهيين، لا يعدلها شيء على الأرض. إنها اعتقاد بتقدم دائم لكل أنيَّة متجسدة، أو نفس إلهية, في تطور من الظاهر إلى الباطن، من المادي إلى الروحي، بالغةً في نهاية كلِّ مرحلة الوحدة المطلقة مع المبدأ الإلهي. من عزم إلى عزم، من جمال مرتبة وكمالها إلى الجمال والكمال الأعظمين لمرتبة أخرى، مع تبوُّأ مجد جديد، ومعرفة وسلطان جديدين في كل دورة، ذلكم هو قَدَرُ كلِّ أنيَّة، تصير على هذا النحو مخلِّصةَ نفسِها في كلِّ عالم وفي كلِّ تجسد.

السائل: لكن المسيحية تعلِّم الأمر نفسه؛ إنها كذلك تبشِّر بالتقدُّم.

الثيوصوفي: أجل، إنما بإضافة شيء آخر. إنها تخبرنا بتعذر بلوغ الخلاص بدون معونة مخلِّص عجائبي، وبالتالي تقضي بالهلاك على كلِّ مَن لا يؤمنون بالعقيدة. هذا فقط هو الاختلاف بين اللاهوت المسيحي والثيوصوفيا. الأول يوجِب الإيمان بنزول الأنيَّة الروحية في *الذات الدنيا*؛ بينما الثانية تلقِّن ضرورة جهاد المرء في سبيل الارتقاء بنفسه إلى حالة الخريستوس أو *بودِّهي*.

السائل: ألا ترى أن الثيوصوفيا، بتعليمها اضمحلال الوعي في حال الفشل، تعلِّم ما هو بمثابة فناء *الذات*، في نظر غير الميتافيزيائيين؟

الثيوصوفي: من وجهة نظر المؤمنين *حرفياً* بقيامة الجسد، والمصرِّين على أن كلَّ عظم، كل شريان، وكل ذرة لحم سوف تقوم جسمانياً يوم الدينونة – بالطبع تعلِّم ذلك. إذا كنت مازلت تصرُّ أن الشكل الفاني والصفات المنتهية هي التي تصنع الإنسان *الخالد*، إذ ذاك فإننا لن نصيب من التفاهم إلا أقلَّه. وإذا لم تفهم ذلك فإنك، بحصر وجود كلِّ أنيَّة بعمر واحد على الأرض، تجعل من الألوهة إندرا [153] المخمور أبداً، الوارد ذكره في الحرف الميت للـ*بورانا*، [154] مولوخ قاسياً، إلهاً يزرع على الأرض فوضى لا تُفكفَك، ويطالب، مع ذلك، بالامتنان له عليها، إذ ذاك فإن من الخير لنا أن نتوقف عن هذه المناقشة.

السائل: بل فلنعد، مادمنا قد انتهينا من موضوع الـ*سكندها*، إلى مسألة الوعي الذي يبقى بعد الموت. فهذه هي النقطة التي تهم غالبية الناس. فهل نحصِّل في *ديفاخان* معرفة أكثر مما نحصِّل في الحياة الأرضية؟

الثيوصوفي: من أحد الوجوه، يمكننا أن نحصِّل معرفة أكثر؛ أي أننا نستطيع أن ننمِّي أكثر أية مَلَكة أحببناها وناضلنا من أجلها إبان الحياة، على أن تخص الأمور المجرَّدة والمثالية، كالموسيقى، والرسم، والشعر، إلخ، بما أن *ديفاخان* هو مجرَّد استمرار مؤَمْثَل وذاتي للحياة الأرضية.

السائل: ولكن إن كانت الروح في *ديفاخان* حرة من المادة ما الذي يمنعها من حيازة المعرفة كاملة؟

الثيوصوفي: لأن الأنيَّة، كما أخبرتك، تكون مقرونة، إذا جاز القول، إلى ذاكرة تجسدها الأخير. بذلك إذا قلَّبت نظرك فيما قلتُ، وربطت الوقائع جميعاً بعضها إلى بعض، سوف تدرك أن الحالة الديفاخانية ليست حالة علم كلِّي، بل استمرار متسامٍ للحياة الشخصية التي انتهت لتوِّها. إنها استراحة النفس من أوصاب الحياة.

السائل: لكن الماديين العلميين يؤكِّدون أنه بعد موت المرء لا شيء يبقى منه؛ أن الجسم البشري يتفكك إلى عناصره المكوِّنة؛ وأن ما ندعوه النفس هو مجرد وعي ذاتي مؤقت ناتج كمحصول ثانوي للفعل العضوي، ولا بدَّ أن يتبخَّر كالبخار. أليست حالتهم الذهنية حالة غريبة؟

الثيوصوفي: ليست غريبة على الإطلاق، على ما أرى. إذا كانوا يقولون بأن وعي الذات يتوقف بموت الجسم، عندئذٍ فإنهم، في حالتهم، ينطقون ببساطة بنبوءة غير واعية؛ إذ إنهم حالما يقتنعون قناعة راسخة بما يؤكِّدون، فإن كل حياة واعية بعد الموت تصير متعذرة عليهم فعلاً. إذ إن ثمة *فعلاً* استثناءات من كل قاعدة.

153 - إله السماء في الهندوسية. (م)
154 - كتب الأساطير الشعبية الهندية. (م)

في الوعي ما بعد الموت وما قبل الولادة [155]

السائل: ولكن إذا نجا وعي الذات الإنساني من الموت كقاعدة، لماذا ينبغي أن تكون ثمة استثناءات؟

الثيوصوفي: في المبادئ الأساسية للعالم الروحي لا مجال لأي استثناء. لكن ثمة قواعد تسري على المبصرين، وأخرى تسري على الذين يفضلون البقاء عميان.

السائل: أوافق على ما تقول وأفهمه. إنْ هو إلا زيغ الإنسان الأعمى، ينكر وجود الشمس لأنه لا يبصرها. ولكن بعد الموت لا بدَّ أن عين روحه سوف ترغمه على الإبصار. أهذا ما تعني؟

الثيوصوفي: لن يرغمه على ذلك شيء، كما لن يرى شيئاً على الإطلاق. فهو، إذا أمعن إبان حياته في إنكار استمرار الوجود بعد الموت، فسوف يعجز عن إبصارها، لأن مقدرته الروحية المقموعة في الحياة لن تنمو بعد الموت، وسوف يبقى أعمى. إنك، بإصرارك على أنه *لا بدَّ* أن يراها، تعني على ما يبدو شيئاً بينما أعني أنا شيئاً آخر. أنت تتكلم على روح الروح، أو على شعلة الشعلة – أو *أتما*، باختصار – فتلتبس عليك بالنفس الإنسانية، *مَنَس*... أنت لا تفهمني؛ فدعني أوضح لك الأمر. زبدة سؤالك برمَّتها هي معرفة إذا ما كان الفقدان التام للوعي الذاتي ولإدراك الذات ممكناً بعد الموت في حالة الآخذ الصريح بالمذهب المادي، أليست كذلك؟ وأجيبك بأنه ممكن. لأني، انطلاقاً من اعتقادي الراسخ بعقيدتنا الباطنية، التي تشير إلى فترة ما بعد الموت، أو الزمن الفاصل بين عمرين أو بين موت والولادة التي تعقبه، بوصفها حالة انتقالية، أقول إن حالة ما بعد الموت تلك، سواء كان ذلك الفاصل بين فصلين من فصول مسرحية الحياة الوهمية يدوم سنة أو مليون سنة، هي عينها حالة إنسان مستغرق في إغماءة موت، بدون أي خلل في القانون الأساسي.

السائل: لكن بما أنك قلت لتوِّك بأن القوانين الأساسية لحالة ما بعد الموت لا تجيز أية استثناءات كيف يمكن لهذا أن يكون؟

الثيوصوفي: ولا أقول بأنها تجيز فعلاً أيَّ استثناء. لكن القانون الروحي للاستمرار لا ينطبق إلا على الأمور الواقعية حقاً. ففي نظر مَن قرأ *أوبنشاد مندوكيا والفيدنتا سارا* وفهمهما يصبح هذا كله واضحاً للغاية. لا بل أقول المزيد: حسب المرء أن يفهم ما نعنيه بـ*بودِّهي* وثنائية *مَنَس* ليكتسب إدراكاً واضحاً لماذا قد يخفق المادي في البقاء بقاءً واعياً لذاته بعد الموت. فلما كان *مَنَس*، في مظهره الأدنى، هو مقعد الذهن الأرضي، فإنه، بالتالي، لا يقدر أن يمنح غير ذلك الإدراك للكون الذي يتأسَّس على بيِّنة ذلك الذهن؛ إنه لا يستطيع أن يمنح الرؤية الروحية. ويقال في المدرسة الشرقية إنه بين *بودِّهي* و*مَنَس* (*الأنِّيَّة*)، أو إشفرا و*براجنا*، [156] لا يوجد في

155 - نُشِرَت بعض المقاطع من هذا الفصل ومن الفصل السابق في عدد كانون الثاني 1889 من *لوسيفر* على هيئة "حوار في أسرار الآخرة". ولم يكن المقال آنذاك يحمل توقيعاً، وكأن المحرِّر هو الذي كتبه، لكنه كان بقلم كاتب المصنف الحالي.

156 - *إشفرا* هو الوعي الجمعي للألوهة المتجلِّية، برهما، أي الوعي الجمعي لجحافل الدهيان تشوهن (راجع: *العقيدة السرية*)؛ و*برجنا* هي حكمتها الفردية.

الواقع فرق أكثر مما يوجد *بين الغابة وأشجارها، بين بحيرة ومياهها*، كما تعلِّم الـ*مندوكيا*. إن شجرة واحدة أو مئات الأشجار الميتة من جراء نقص في الحيوية، أو من جراء اجتثاثها، لا تقدر أن تحول بين الغابة وبين أن تظل غابة.

السائل: لكن *بودِّهي*، كما أفهمها، تمثل في هذا التشبيه الغابة، و*مَنَس–تَيْجَسي*[157] يمثل الأشجار. وإذا كان البوذا خالداً كيف يمكن لما هو شبيه به، أي *مَنَس–تَيْجَسي*، أن يفقد وعيه برمَّته حتى يوم تجسده الجديد؟ لا أقدر أن أفهم الأمر.

الثيوصوفي: لا تقدر لأنك تخلط بين تمثيل مجرَّد للكل وبين تغيرات طارئة على الشكل. تذكَّر أنه إذا كان يصح قول ذلك في *بودِّهي–مَنَس* الخالد بلا شروط لا يصح قول الشيء نفسه في *مَنَس* الأدنى، وحتى أقل منه في *تَيْجَسي*، الذي هو مجرد صفة. فما من واحد منهما، لا *مَنَس* ولا *تَيْجَسي*، يمكن أن يوجد بمعزل عن *بودِّهي*، النفس الإلهية، لأن الأول (*مَنَس*)، في مظهره الأدنى، صفة نعتية للشخصية الأرضية، والثاني (*تَيْجَسي*) مماثل للأول، لأنه الـ*مَنَس* نفسه، إنما وقد انعكس عليه نور *بودِّهي*. وبدورها، تبقى *بودِّهي* روحاً لاشخصية وحسب بدون هذا العنصر الذي تستعيره من النفس الإنسانية، التي تقيِّدها وتُظهِرها، في هذا الكون الوهمي، *وكأنها شيء منفصل* عن النفس الكلِّية إبان فترة دورة التجسد برمَّتها. ولنقل بالحري أن *بودِّهي–مَنَس* لا يمكنه في الأبدية لا أن يموت ولا أن يفقد وعيه الذاتي المركَّب، ولا إمكانية استذكار تجسداته السابقة التي ارتبطت فيها الاثنتان – أي النفس الروحانية والنفس البشرية – ارتباطاً وثيقاً. لكن الأمر ليس كذلك في حالة شخص مادي، لا تتلقَّى نفسُه البشرية أيَّ شيء من النفس الإلهية، وليس هذا وحسب، بل وترفض حتى الاعتراف بوجودها. يكاد يتعذر عليك أن تطبق هذه المسلَّمة على صفات النفس البشرية ومؤهِّلاتها؛ إذ إن هذا أشبه بقولك إن خلود نفسك الإلهية يجعل بالتالي نضرة خدِّك خالدة بالضرورة؛ بينما هذه النضرة، مثلها كمثل *تَيْجَسي*، مجرد ظاهرة عابرة.

السائل: هل أفهم من قولك إننا يجب ألا نخلط في أذهاننا بين النومينون [الجوهر] وبين الفينومينون [المظهر]، بين العلَّة وبين معلولها؟

الثيوصوفي: أجل، أقول ذلك، وأكرِّر بأن إشعاع *تَيْجَسي* نفسه، إذ ينحدُّ بـ*مَنَس* أو النفس البشرية وحدها، يصير مجرد مسألة وقت؛ لأن كلا الخلود ووعي ما بعد الموت يصيران، عند شخصية الإنسان الأرضية، مجرد صفتين مقيَّدتين، بما أنهما يتَّكلان الاتِّكال كلَّه على الشروط والمعتقدات التي أوجدتْها النفس البشرية نفسها إبان حياة الجسم. إن كرما يعمل بلا توقف: نحن لا نحصد في *آخرتنا* إلا ثمرة ما زرعناه نحن في هذه الدنيا.

السائل: ولكن إذا اتفق لأنيَّتي، بعد فناء جسمي، أن تستغرق في حالة غيبوبة تامة، إذ ذاك أين يكون العقاب على خطايا حياتي الماضية؟

---

157 - *تَيْجَسي* يعني "المشع" نتيجة اتِّحاده بـ*بودِّهي*؛ أي *مَنَس*، النفس الإنسانية، وقد استنارت بإشعاع النفس الإلهية. لذا فإن *مَنَس–تَيْجَسي* يمكن أن يوصف بالذهن المشع؛ العقل *البشري* المُضاء بنور الروح؛ و*بودِّهي–مَنَس* هو انكشاف العقل الإلهي *مضافاً إليه* العقل البشري ووعي الذات.

الثيوصوفي: تعلَّم فلسفتنا أن العقاب الكرمي لا يصيب الأنيَّة إلا في تجسدها المقبل. فهي بعد الموت لا تتلقى إلا الثواب على العذابات المكابَدة غير المستحَقة إبان تجسدها الماضي. [158] لذا فإن عقاب ما بعد الموت، حتى بالنسبة للشخص المادي، هو عبارة عن غياب أيِّ ثواب والفقدان التام لوعي المرء لغبطته ولراحته. كرما هو وليد الأنيَّة الأرضية، ثمرة أفعال الشجرة التي هي الشخصية الموضوعية التي يراها الجميع، بقدر ما هو ثمرة كافة خواطر "الأنا" الروحية ودوافعها حتى؛ لكن كرما هو أيضاً الأم الحانية، التي تشفى الجراح التي أنزلتها بالأنيَّة إبان الحياة السابقة، قبل أن تبدأ بتعذيب هذه الأنيَّة بأن تُنزِل بها جراحاً جديدة. إذا جاز أن يقال، من ناحية، إنه لا يوجد أي شقاء ذهني أو جسماني في حياة إنسان فانٍ ليس الثمرةَ المباشرة والعاقبةَ لخطيئة ما في عمر سابق، فإن هذا الإنسان، من ناحية ثانية، بما أنه لا يحتفظ بأي استذكار منه في حياته الفعلية، ويشعر بأنه لا يستحق مثل هذا العقاب، ويظن، بالتالي، بأنه لا يشقى لذنب ارتكبه، فإن هذا وحده يكفي تبريراً لأهلية النفس البشرية للعزاء والراحة والغبطة الأكمل في وجوده بعد الموت. ما فتئ الموت يجيء لذواتنا الروحية كعاتِقٍ وصديق. أما الشخص المادي، الذي، على الرغم من ماديَّته، لم يكن إنساناً سيئاً، فإن الفاصل بين العمرين سيكون مثل النوم غير المتقطع والوادع للطفل، إما الخالي تماماً من الأحلام وإما المملوء بصور لن يدركها إدراكاً محدداً؛ بينما سيكون، بالنسبة للإنسان الفاني المتوسط، حلماً زاهراً كالحياة، ومليئاً بالغبطة وبالرؤى الواقعية.

السائل: إذن فالإنسان الشخصي لا بدَّ أن يستمر في مكابدة العقوبات التي ابتلتْ الأنيةُ بها نفسَها مكابدة *عمياء*؟

الثيوصوفي: ليس تماماً. ففي لحظة الموت المهيبة يرى كلُّ إنسان، حتى عندما يكون الموت مباغتاً، حياته الماضية برمَّتها مستعرَضة أمامه، في أدقِّ تفاصيلها. لبرهة قصيرة واحدة تصير الأنيَّة *الشخصية* واحدة مع *الأنيَّة الفردية* الكليَّة العلم. لكن هذه البرهة كافية لتبيِّن له سلسلة العلل برمَّتها التي كانت فاعلة إبان حياته. إنه الآن يرى نفسه ويفهمها كما هي، غير مزيَّنة بالإطراء وخداع الذات. إنه يقرأ حياته، باقياً كمُشاهِد يهبط بنظره إلى الحلبة التي يغادرها؛ وهو يشعر بعدالة كل المعاناة التي انهالت عليه ويعرفها.

السائل: هل هذا يحدث للناس جميعاً؟

الثيوصوفي: بلا أيِّ استثناء. والأخيار جداً والقديسون يرون، على ما تعلَّمنا، ليس الحياة التي يغادرونها وحسب، بل حتى عدة حيوات سابقة أوجدوا فيها العلل التي جعلت منهم ما كانوا إياه في الحياة التي انتهت لتوِّها. إنهم يقرُّون بقانون كرما في كل هيبته وعدله.

---

158 - بعض الثيوصوفيين استنكر هذه الجملة، لكن الكلمات هي كلمات السيد، والمعنى المرتبط بكلمتي "غير مستحَقة" هو المعنى المعطى أعلاه. في الكرَّاس رقم 6 لشركة النشر الثيوصوفية استُعمِلَت جملة، تمَّ نقدها لاحقاً في مجلة *لوسيفر*، كان القصد منها الإيحاء بالمعنى نفسه. ومع أنها من حيث الشكل كانت ركيكة ومعرَّضة للنقد المسدَّد إليها، إلا أن فكرتها الجوهرية كانت أن البشر كثيراً ما يعانون من نتائج أعمال يقوم بها غيرهم، وهي بالتالي نتائج لا تنتمي بالدقة إلى الكرما الخاص بهم – وعلى هذه المعاناة يستحقون بالطبع تعويضاً.

السائل: وهل ثمة ما يقابل هذا قبل الولادة من جديد؟

الثيوصوفي: أجل. فكما أن المرء لحظة الموت يسترجع ببصيرته الحياة التي عاشها، كذلك فإن *الأنَّيَّة*، في اللحظة التي تولد فيها من جديد على الأرض، بعد أن تستيقظ من حالة *ديفاخان*، تختبر رؤيا استباقية للحياة التي تنتظرها، وتدرك كافة العلل التي أفضت إليها. إنها تدركها وترى مستقبليَّتها، لأنه بين *ديفاخان* والولادة من جديد تستعيد *الأنَّيَّة* وعيها المَنَسي كاملاً، وتصبح من جديد لوقت قصير الإله الذي كانتْه، قبل أن تنزل للمرة الأولى في المادة، امتثالاً للقانون الكرمي، وتتجسد في الإنسان الجسدي الأول. ذلك أن "الخيط الذهبي" يرى كلَّ "حبَّاته" ولا يفقد أياً منها.

المقصود حقاً بالفناء

السائل: لقد سمعت بعض الثيوصوفيين يتكلمون على خيط ذهبي تنتظم عليه أعمارهم. فماذا يقصدون به؟

الثيوصوفي: جاء في الكتب المقدسة الهندوسية أن ما يكابد التجسد الدوري هو الـ*سوتراتما*، الذي يعني حرفياً "خيط النفس". وهذا المصطلح مرادف للأنية المتقمصة – *مَنَس* مقترناً إلى *بودِّهي* – التي تمتص الاستذكارات المَنَسية لكافة الأعمار السابقة. وهي تُدعى كذلك لأن سلسلة أعمار الإنسان الطويلة مضمومة معاً في ذلك الخيط الواحد، مثلها كمثل الحبَّات على خيط. وفي بعض الأوبنشاد نجد هذه التقمصات المتكررة مشبَّهَة بحياة الإنسان التي تنوس دورياً بين النوم والصحو.

السائل: لا بدَّ لي من القول إن هذا لا يبدو واضحاً كلَّ الوضوح، وسأقول لك لماذا. عند الإنسان المستيقظ يبدأ يومٌ جديد، لكن ذلك الإنسان هو، نفساً وجسماً، عينه الإنسان الذي كان بالأمس؛ بينما عند كل تجسد يجري تغير كامل، ليس في الغلاف الخارجي والجنس والشخصية وحسب، ولكن حتى في القدرات الذهنية والنفسية. لا يبدو لي التشبيه صحيحاً تماماً. فالمرء الذي ينهض من النوم يتذكر بوضوح تام ما فعله أمس، وأمس الأول، وحتى قبل شهور وسنوات. لكن ما من أحد منَّا يستذكر حياة سابقة استذكاراً طفيفاً أو أيَّ واقعة أو حدث يتعلق بها... قد أنسى في الصباح ما حلمت به ليلاً، لكني على كلِّ حال أعرف أني قد نمت وعندي يقين بأني كنت حياً إبان النوم؛ ولكن أي استذكار لديَّ من تجسدي الماضي حتى لحظة الموت؟ كيف يمكنك أن توفِّق بين هذين الأمرين؟

الثيوصوفي: بعض الناس يستذكرون فعلاً تجسداتهم الماضية إبان الحياة؛ لكن هؤلاء بوذاوات ومسارَرون. وهذا ما يسميه اليوغانيون *سَمَّاسَمْبودِّهي*، أو معرفة المرء السلسلة الكاملة لتجسداته الماضية.

السائل: لكننا، نحن البشر العاديين، الذين لم يبلغوا *سَمَّاسَمْبودِّهي*، كيف لنا أن نفهم هذا التشبيه؟

الثيوصوفي: بدراسته ومحاولة فهم خصائص أنواع النوم الثلاثة فهماً أصح. النــوم قانون عام وثابت ينطبق على الإنسان وعلى البهيمة، لكن ثمة أنواعاً مختلفـة مـن النوم، والمزيد من الأنواع المختلفة من الأحلام والرؤى.

السائل: لكن هذا يقودنا إلى موضوع آخر. فلنعد إلى الإنسـان المـادي الـذي، وإنْ لـم يكـن ينكر الأحلام، الأمر الذي يصعب عليه أن يفعله، فإنه ينكر الخلود بعامة وبقاء فرديته الخاصة.

الثيوصوفي: والمادي على حق، من حيث لا يـدري. النفـس عنـد امـرئ لا يتحلَّـى بإدراك داخلـي لخلـود نفسـه ولا بإيمـان بـه، لا يمكـن لهـا أبـداً أن تصـير بـودِّهي–تَيْجَسي، بل تبقى مجرد *مَنَس*، ولا خلود ممكناً لـ*مَنَس* وحـده. فمـن أجـل أن يحيـا المرء في العالم وصولاً إلى حياة واعية، عليه قبل كل شيء أن يؤمن بتلك الحيـاة إبان الوجود الأرضي. إن كل الفلسفة عن وعي ما بعد الموت وخلود النفس مبنيـة على هاتين الحكمتين المأخوذتين من العلم السري. إن الأنيَّة تتلقى دومـاً بحسـب استحقاقها. فبعد تحلل الجسم تبدأ عندها فترة من الـوعي التـام الصـحو، أو حالـة من الأحلام المشوشة، أو من النوم الخالي تماماً من الأحلام، لا يتميَّز من الفنــاء – وهذه هي أنـواع النـوم الثلاثـة. فـإذا وجـد فسـيولوجيونا علـة الأحلام والـرؤى فـي تحضير غير واعٍ لها إبان وقت الصحو فلماذا لا يسلِّم بالأمر نفسه فيما يخـص أحلام ما بعد الموت؟ أكرر: *الموت هو عينه النوم*. فبعد الموت، يبدأ أمام عيني النفــس الروحيتين، اسـتعراضٌ بحسـب برنامـج نتعلَّمـه وكـثيراً مـا نـؤلِّفه تأليفـاً غيـر واعٍ: تحقيق عملي للمعتقدات *الصحيحة* أو للأوهام التي خلقناها بأنفسـنا. فـالميثودي[159] سيكون ميثودياً، والمسلم مسلماً، لبعض الوقت على الأقل – في فردوس متخيَّــل كامل من خلق كلِّ امرئ وصنعه. وهذه هي ثمار شجرة الحيـاة فيمـا بعـد المـوت. وبالطبع فإن إيماننا أو عدمه في واقع الخلود الواعي لا طاقة له على التـأثير علـى الواقعية غير المشروطة لحدوث الأمر نفسه مـادام موجـوداً؛ لكـن الإيمـان بـذلك الخلود أو عدمه، بوصفه خاصية كيانـات مسـتقلة أو منفصـلة، لا بـدَّ أن يلـوِّن ذلـك الواقع عند انطباقه على كلٍّ من هذه الكيانات. هل بدأت تفهم الأمر الآن؟

السائل: أظنني بدأت أفهم. فالإنسان المادي، إذ يكفر بكل شيء لا تستطيع أن يبرهن عليه حواسه الخمسة أو المنطق العلمي، المؤسَّس حصراً على المعطيات الـتي تـزوِّده بهـا هـذه الحواس، على الرغم من قصورها ومـن نبـذها لكـلِّ تجـلٍّ روحـي – هـذا المـرء يقبـل الحيـاة بوصفها الوجود الواعي الوحيد. لذا فإنه سوف ينال بحسـب معتقـداته. ولسـوف يفقـد أنيَّتـه الشخصية، فيغوص في نوم مجرد من الأحلام حتى صحو جديد. فهل الأمر كذلك؟

الثيوصوفي: يكاد يكـون كـذلك. فلنتـذكر التعليـم العـالمي عمليـاً القائـل بوجـود نوعين من الوجـود الـواعي: الأرضـي والروحـي. والوجـود الثـاني يجـب أن يُعتبَـر حقيقياً من حيث إنه تسكنه الموناد الأبدية، السرمدية، الخالدة؛ بينما ترتـدي الأنيَّـة المتجسدة أقمصة مختلفة كلياً عن أقمصة التجسد السابق، التي كل شـيء فيهـا، ما خلا أنموذجها الروحي الأول، محكوم عليه بتغير هـو مـن الجذريـة بحيـث إنهـا لا تترك أثراً وراءها.

---

159 - أحد أفراد فرقة مسيحية بروتستانتية من أتباع جون وزلي. (م)

السائل: كيف ذلك؟ هل يمكن لـ"أنا"ي أن تضمحل، ليس مؤقتاً، مثل وعي الشخص المادي، ولكن على نحو تام بحيث لا تترك وراءها أيَّ أثر؟

الثيوصوفي: بحسب التعليم، لا بدَّ لها أن تضمحل، برمَّتها، إلا المبدأ الذي، إذ ينضم إلى الموناد، يصبح بذلك ماهية محض روحية لا يطالها فناء، واحدة معها في الأبدية. أما في حالة المادي الممعن في ماديَّته، الذي لم تنعكس *بودِّهي* في "أنا"ه الشخصية قط، كيف يمكن لهذه أن تصطحب إلى الأبدية قسيماً واحداً من تلك الشخصية الأرضية؟ "أنا"ك الروحية خالدة؛ لكنها لا تستطيع أن تصطحب من ذاتك الحالية إلى الأبدية إلا ما أصبح حقيقاً بالخلود، وأعني، فقط عبير الزهرة التي اجتثها الموت.

السائل: طيب، وماذا عن الزهرة، الـ"أنا" الأرضية؟

الثيوصوفي: هذه الزهرة، ككل الأزهار السابقة واللاحقة التي تفتحت وسوف تتفتح على الغصن الأم، الـ*سوتراتما* – وكلها بنات جذر واحد هو بودِّهي – سوف تعود إلى التراب. "أنا"ك الحالية، كما تعلم، ليست الجسم الجالس أمامي الآن، كما ليست بعدُ ما يمكنني أن أسميه *مَنَس–سوتراتما*، بل هي *سوتراتما–بودِّهي*.

السائل: لكن هذا لا يفسر لي، على الإطلاق، لماذا تسمي حياة ما بعد الموت خالدةً ولانهائية وحقيقية، والحياة الأرضية مجرد شبح أو وهم، على اعتبار أن لحياة ما بعد الموت تلك حدوداً، مهما كانت أوسع بكثير من حدود الحياة الأرضية.

الثيوصوفي: بلا شك. فالأنيَّة الروحية للإنسان تتحرك في الأبدية كنوَّاس ينوس بين ساعات الولادة والموت. ولكن إذا كانت هذه الساعات، التي تشير إلى فترات الحياة الأرضية والحياة الروحية، محدودة في استمرارها، وإذا كان لعدد مثل هذه الأشواط نفسه في الأبدية بين النوم والصحو، الوهم والحقيقة، بداية ونهاية، فإن الحاجَّ الروحي، من ناحية ثانية، أبدي. لذا فإن ساعات حياته ما بعد الموت، عندما يقف، وقد تجرَّد من بدنه، وجهاً لوجه مع الحقيقة وليس مع سرابات أعماره الأرضية العابرة، إبان فترة ذلك الحج الذي ندعوه "دورة التقمصات" – هاتيك الساعات، في تصورنا، هي الواقع الوحيد. مثل هذه الفواصل، على الرغم من محدوديَّتها، لا تحول دون الأنيَّة، وهي في طور كمالها أبداً، من اتباع الدرب – لا تحيد عنه، وإن يكن ذلك تدريجياً وببطء – ذلك المفضي إلى تحوِّلها الأخير، عندما تصبح تلك الأنيَّة، وقد بلغت غايتها، كائناً إلهياً. هذه الفواصل والأشواط تعين على بلوغ هذه النتيجة النهائية بدلاً من عرقلته؛ فبدونها ليس بوسع الأنيَّة الإلهية أن تبلغ غايتها النهائية أبداً. لقد سبق لي أن قدمت لك مرة توضيحاً مألوفاً بتشبيهي *الأنيَّة*، أو *الفردية*، بممثل، وتقمصاتها العديدة المتنوعة بالأدوار التي يمثلها. فهل يجوز لك أن تدعو هذه الأدوارَ أو ملابسَها فرديةَ الممثل نفسه؟ فالأنيَّة، مثلها كمثل ذلك الممثل، مرغمة إبان دورة الضرورة، حتى عتبة الـ*بَرِنرفانا* نفسها، على لعب أدوار عديدة، منها ما تكرهه. ولكن كما النحلة تجني عسلها من كلِّ زهرة، تاركة ما تبقى طعاماً لديدان الأرض، كذلك تفعل فرديتنا الروحية، سواء سمَّيناها *سوتراتما* أو أنيَّة. إنها تجني من كلِّ شخصية أرضية، يرغمها كرما على التقمص فيها، رحيق الخواص الروحية ووعي الذات وحسب، موحِّدةً هذه جميعاً في كلٍّ واحد، حتى

تخرج من شرنقتها بوصفها *دهيان تشوهن* ممجَّداً. ولهفي على هاتيك الشخصيات الأرضية التي لم تستطع أن تجني منها شيئاً. فمثل تلك الشخصيات لا تستطيع قطعاً أن تبقى حية بقاءً واعياً بعد انقضاء عمرها الأرضي.

السائل: بذلك، إذن، يبدو أن خلود الشخصية الأرضية ما يزال مشروطاً. فهل الخلود نفسه، إذن، *ليس* غير مشروط؟

الثيوصوفي: مطلقاً. لكن الخلود لا يمكن أن يخص *غير الموجود*؛ أما كل ما هو موجود بوصفه **سَتْ**، أو يصدر عن **سَتْ**، فخلوده وأبديَّته مطلقان. المادة هي القطب المضاد للروح، ومع ذلك فكلاهما واحد. إن ماهية ذلك كلِّه، أي الروح والقوة والمادة، أو الثلاثة في واحد، لا نهاية لها بقدر ما لا بداية لها أيضاً؛ لكن الشكل الذي تتخذه هذه الوحدة المثلَّثة إبان تجسداتها، أي مظهرها الخارجي، ليس جزماً إلا وهم تصوراتنا الشخصية. لذا فإننا نعتبر *نرفانا* والحياة الكلِّية وحدهما حقيقيين، بينما نحيل الحياة الأرضية، بما فيها شخصيتها الأرضية، وحتى وجودها الديفاخاني، إلى العالم الشبحي للوهم.

السائل: ولكن لماذا، والحالة هذه، يُدعى النوم حقاً، والصحو وهماً؟

الثيوصوفي: إنها ببساطة مقارنة لتسهيل اكتناه الموضوع، وهي، من منظار التصورات الأرضية، مقارنة صحيحة جداً.

السائل: ومع ذلك، إذا كانت الحياة الآتية قائمة على العدل وعلى الجزاء المستحَق على كلِّ معاناتنا الأرضية، لا أقدر أن أفهم كيف يمكن في حالة الماديين – والكثيرون منهم أناس شرفاء ومحسنين حقاً – ألا يبقى من شخصيتهم شيء إلا حثالة زهرة ذابلة.

الثيوصوفي: لم يقل أحدٌ شيئاً كهذا قط. فما من امرئ مادي، مهما كان إمعانه في الإلحاد، يمكن أن يموت إلى الأبد في امتلاء فرديته الروحية. ما قيل هو أن ذلك الوعي، في حالة المادي، يمكن أن يختفي إما كلياً أو جزئياً، بحيث لا تنجو من شخصيته أية بقايا واعية.

السائل: أليس هذا هو الفناء بعينه؟

الثيوصوفي: قطعاً لا. فقد ينام المرء نوم الأبرار، فتفوته عدة محطات إبان رحلة طويلة بالقطار، بدون أدنى استذكار أو وعي، ثم يصحو في محطة أخرى ويواصل الرحلة ماراً بمحطات أخرى لا عدَّ لها، حتى يتم بلوغ نهاية الرحلة أو الغاية. لقد ذُكِرَت لك ثلاثة أنواع من النوم: النوم بلا أحلام، النوم المشوش، والنوم الحقيقي إلى حدٍّ أن أحلام النائم تبدو له وقائع تامة. فإذا كنتَ تؤمن بالأحلام الأخيرة لم لا تؤمن بالأولى؟ فبحسب ما هي عليه الحياة الآخرة التي يؤمن بها المرءُ ويتوقعُها كذلك هي الحياة التي سينالها. فمن لم يتوقع حياة آتية سينال في الفاصل بين تقمصين خواءً مطلقاً، هو بمثابة فناء. وهذا ليس إلا تنفيذ البرنامج الذي تكلَّمنا عليه، البرنامج الذي وضعه الماديون أنفسهم. ولكن ثمة أنواعاً متعددة من الماديين، كما تقول. فالأناني الشرير ذو الأثرة، الذي لم يسفح دمعة قط على أحد

سوى نفسه، مضيفاً بذلك إلى إلحاده عدم الاكتراث التام بالعالم أجمع، يجب، عند عتبة الموت، أن يتخلَّى عن شخصيته إلى الأبد. وهذه الشخصية، بما أنها تعدم أية وشيجة تعاطف تربطها بالعالم من حولها، وبالتالي تعدم أيَّ شيء يشدها إلى *سوتراتما*، ينجم عن ذلك أنه مع لفظها آخر أنفاسها تنقطع الصلة بين الاثنين. وبما أنه لا يوجد *ديفاخان* لمثل هذا المادي فإن الـ*سوتراتما* سوف يتقمص من جديد من فوره تقريباً. أما أولئك الماديون الذين لم يضلوا إلا في إلحادهم وحسب فلن يغفلوا في نومهم إلا عن محطة واحدة فقط. وسوف يحين وقت يدرك فيه ذلك المادي السابق نفسَه في الأبدية، وربما يندم على فقده حتى يوماً واحداً، محطة واحدة، من الحياة الأبدية.

السائل: ومع ذلك، أليس من الأصح قولنا إن الموت هو ولادة في حياة جديدة، أو عودة من جديد إلى الأبدية؟

الثيوصوفي: لك أن تقول ذلك إذا راق لك. إنما تذكَّر أن الولادات تختلف، وأن هناك ولادات لكائنات "مولودة ميتة"، هي *إخفاقات* للطبيعة. علاوة على ذلك، فإن أفكاركم الغربية الجامدة حول الحياة المادية تجعل كلمتي "حي" و"كائن" لا تنطبقان على الحالة الذاتية المحضة للوجود ما بعد الموت. وهذا لأن تصوراتكم الغربية عن الحياة والموت، باستثناء تصورات ثلة من الفلاسفة الذين لا تقرؤهم الكثرة، والذين يبلغ تشويشهم حداً يحول بينهم وبين تقديم صورة واضحة عن الأمر، قد أمست أخيراً من الضيق بحيث إنها أفضت، من ناحية، إلى المادية الأكثر فظاظة، ومن ناحية أخرى، إلى التصور الأكثر مادية حتى عن الحياة الآخرة التي صاغها الأرواحيون في "مصطافهم". فهناك تأكل نفوس الناس، وتشرب، وتنكح، وتعيش في فردوس لا يقل حسية عن جنة محمد، وإن يكن أقل فلسفية منها. كما أن التصورات الشائعة للمسيحي غير المتعلِّم ليست بأفضل منها، لا بل هي أكثر مادية منها إن أمكن. فالسماء المسيحية، ما بين الملائكة مجبوبة الرأس، والأبواق النحاسية، والقيثارات الذهبية، وبين نيران الجحيم المادية، تبدو أشبه ما تكون بمشهد خلاب في تمثيلية إيمائية ميلادية.

إنك تجد كل هذه الصعوبة في الفهم من جراء هذه التصورات الضيقة، ليس إلا. إن كون حياة النفس المتجردة من البدن، وإن تكن تتصف بكل حيوية الواقع، كما في أحلام معينة، خلواً من أيِّ شكلٍ فظٍّ الموضوعية من الحياة الأرضية، هو الذي جعل الفلاسفة الشرقيين يقارنون فيما بينها وبين الرؤى في أثناء النوم.

كلمات محددة للدلالة على أشياء محددة

السائل: ألا ترى أن سبب التشويش الحاصل في أذهاننا بخصوص الوظائف التي يختص بها كل "مبدأ" في الإنسان هو عدم وجود مصطلحات محددة وثابتة للإشارة إلى كلٍّ من هذه "المبادئ"؟

الثيوصوفي: لقد فكرت في الأمر من جانبي. لقد نجم المشكل برمَّته مما يلي: لقد شرعنا في عرض "المبادئ"، وفتحنا نقاشات حولها، مستعملين تسمياتها

السنسكريتية بدلاً من مباشرة سبك مرادفات لها بالإنكليزية يستعملها الثيوصوفيون. يجب علينا أن نحاول تدارك هذا الأمر الآن.

السائل: حسناً تفعل؛ فمن شأن هذا أن يجنِّبنا المزيد من اللبس. إذ ما من كاتبين ثيوصوفيين، على ما يبدو لي، اتفقا حتى الآن على إطلاق الاسم نفسه على "المبدأ" نفسه.

الثيوصوفي: بيد أن الخلط ظاهري أكثر منه حقيقي. لقد سمعت بعض ثيوصوفيينا يعبِّرون عن دهشتهم من عدة مقالات تتكلم على هذه "المبادئ" وينتقدونها؛ لكن لدى الفحص عنها لم نجد فيها خطأ أسوأ من خطأ استعمال كلمة "نفس" للدلالة على المبادئ الثلاثة بدون تحديد التمييزات فيما بينها. لقد كتب السيد أ. ب. سِنِّيت – أول كتَّابنا الثيوصوفيين وأوضحهم بلا منازع – فقرات شاملة وبديعة الأسلوب في "الذات العليا". [160] وقد أساء بعضهم تصور فكرته الحقيقية من جراء استعماله كلمة "نفس" بمعناها العام. ومع ذلك، هي ذي بضعة مقتطفات ستبيِّن لك مبلغ شمول ووضوح كلِّ ما يكتب في الموضوع:

"... إن النفس الإنسانية، ما إن تنطلق كفردية بشرية [161] على دروب التطور، فإنها تجتاز فترات متناوبة من الوجود الجسماني والوجود الروحي نسبياً. إنها تعبر من مرتبة، أو طبقة، أو شرط، للطبيعة إلى شرط آخر بإرشاد من قراباتها الكرمية، فتحيا في تقمصاتها الحياة التي سبق لكرما أن قدَّرها عليها، معدِّلة تقدمها ضمن حدود الظروف، وإذ تولِّد كرما جديداً بحسن تحيُّنها للفرص أو سوئه، تعود إلى الوجود الروحي (*ديفاخان*) بعد كل حياة جسمانية – مروراً بمنطقة *كاما–لوكا* المتوسطة بينهما – من أجل الاستراحة واستجماع قواها ومن أجل الامتصاص التدريجي في ماهيَّتها، على غرار التطور الكوني، لخبرات الحياة المكتسبة "على الأرض" أو إبان العمر الأرضي. علاوة على ذلك، فإن هذه النظرة إلى المسألة سوف تطرح العديد من الاستدلالات الجانبية على كلِّ من يتفكر في الموضوع؛ منها، على سبيل المثال، أن انتقال الوعي من *كاما–لوكا* إلى الشوط الديفاخاني من هذا التقدم لا بدَّ أن يكون متدرِّجاً [162]؛ أنه لا يوجد في الحقيقة خط قاطع يفصل بين تنويعات الشروط الروحية، حتى إن المرتبتين الروحية والجسمانية، على غير ما تلمِّح النظريات المادية، غير مفصولتين الواحدة عن الأخرى بجدار، كما تبيِّن الملَكات النفسية لدى أناس أحياء؛ أن حالات الطبيعة جميعاً موجودة من حولنا في الوقت نفسه، وتخاطب ملَكات إدراكية مختلفة؛ وهكذا دواليك... فمن الواضح أنه إبان الوجود الجسماني يبقى الناس الذين يتمتعون بملَكات نفسية على اتصال بمراتب الوعي ما فوق الفيزيائي؛ ومع أن غالبية الناس لا يتمتعون بمثل هذه الملَكات فإننا جميعاً، كما تبيِّن ظواهر النوم، وحتى... ظواهر السرنمة [163] أو المسمرية [164] بخاصة، قادرون على الدخول في حالات وعي لا تمت الحواس الجسمانية الخمس إليها بصلة. نحن – أي النفوس فينا – لسنا مبحرين، إذا جاز

---

160 - راجع محاضر "**محفل لندن** للجمعية الثيوصوفية"، رقم 7، تشرين الأول، 1885.

161 - هي "الأنيَّة المتقمصة"، أو "النفس الإنسانية"، كما سماها، *الجسم العلِّي* عند الهندوس.

162 - غير أن طول هذا "الانتقال" يتوقف على درجة الروحانية لدى الشخصية السابقة للأنيَّة المتجردة من جسمها. فكل من كانت حياته روحانية جداً يكون هذا الانتقال، على كونه متدرِّجاً، سريعاً جداً. أما فيما يخص ذوي الميول المادية فيكون هذا الزمن أطول.

163 - السير في أثناء النوم. (م)

التعبير، في بحر المادة على غير هدى مطلقاً. فنحن نحتفظ قطعاً باهتمام أو بحقوق ناجية على الشاطئ الذي أقلعنا منه ذات مرة. لذا فإن سيرورة التجسد ليست موصوفة وصفاً دقيقاً عندما نتكلم على وجود *متناوب* على المرتبتين الجسمانية والروحانية، فنتصور بذلك النفس ككيان تام ينزلق بكلِّيته من حالة وجود إلى حالة أخرى. فلعل التعريفات الأصح لتلك السيرورة هي التي تمثل للتجسد بوصفه يجري على هذه المرتبة الجسمانية للطبيعة من جراء سيلان ينبعث من النفس. وبذلك يكون العالم الروحي على الدوام هو المسكن المناسب للنفس، الذي لا تغادره كلياً أبداً؛ *وتلك القطعة من النفس غير القابلة للتَمَيْدُد* [التحول إلى مادة] *التي تقيم بصفة دائمة على المرتبة الروحية قد تصح عليها، ربما، تسمية* **الذات العليا**."

هذه "الذات العليا" هي ***أتما***، وهي بالطبع "غير قابلة للتَمَيْدُد"، كما يقول السيد سِنِّيت. لا بل إنه لا يمكن أبداً أن يكون "موضوعياً" أياً كان الظرف، حتى بالنسبة إلى الإدراك الروحي الأسمى. إذ إن *أتمن*، أو "الذات العليا"، هو حقاً برهمن، **المطلق**، وهو لا يتميَّز عنه ففي ساعات الـ*سمادهي* يكون الوعي الروحي الأعلى للمسارَر مستغرقاً بكلِّيته في الماهية **الواحدة**، التي هي *أتمن*، وبالتالي، لا يمكن لأيِّ شيء أن يكون موضوعياً في نظره باعتباره واحداً مع الكل. بيد أن بعض ثيوصوفيينا درجوا على استعمال كلمتي "ذات" و"أنيَّة" كمترادفتين، وعلى الإشارة بمصطلح "ذات" إلى "ذات" أو *أنيَّة* الإنسان الفردية العليا أو حتى الشخصية، في حين أن هذا المصطلح ينبغي ألا يُطبَّق أبداً إلا على *الذات الكلِّية الواحدة*. ومن هنا اللبس. أما عند الكلام على *مَنَس*، "الجسم العِلِّي"، فيجوز لنا أن نسميه – عندما نربطه إلى الإشعاع البودِّهيِّ – **"الأنيَّة العليا"**، وليس "الذات العليا" مطلقاً؛ إذ حتى *بودِّهي*، "النفس الروحانية"، ليست **الذات**، بل *مركبة* **الذات** وحسب. أما "الذوات" الأخرى جميعاً – من نحو الذات "الفردية" والذات "الشخصية" – فينبغي عدم الكلام عليهما أو الكتابة عنهما أبداً بدون نعوتهما الصفاتية والمميِّزة.

بذلك ففي هذه المقالة الممتازة للغاية في "الذات العليا"، يُطبَّق هذا المصطلح على *المبدأ السادس* أو *بودِّهي* (مقروناً، بالطبع، إلى *مَنَس*؛ إذ إنه بدون هذا الاتحاد ليس ثمة مبدأ أو عنصر مفكِّر في النفس الروحانية)؛ وبذلك فقد أتاح المجال لمثل سوء الفهم هذا. وتصريحه بأن "الطفل لا يحصل على مبدئه *السادس* – أو يصير كائناً مسؤولاً أخلاقياً قادراً على توليد كرما – حتى بلوغه سن السابعة" يبرهن على المقصود بال**ذات العليا** فيما وَرَدَ. لذا فإن المؤلف القدير على حق تماماً في شرحه بأنه بعد أن تعبر "الذات العليا" إلى الكائن الإنساني وتُشبِع بوعيها الشخصيةَ – وهذا لا يحصل إلا عند أصحاب البنية اللطيفة وحسب – فإن "الناس من أصحاب الملَكات النفسية قد يدركون هذه الذات العليا بالفعل من حين لآخر عبر حواسهم الألطف". لكن أولئك الذين يقصرون مصطلح "الذات العليا" على المبدأ الإلهي الكلِّي أيضاً "على حق" حين يسيئون فهمه. إذ إننا حين

---

164 - نسبة إلى فرانتس أنطون مسمر (1734-1815)، وهي جملة الظواهر الناتجة عن وجود حقل مغناطيسي يحيط بالجسم أطلق مسمر عليه تسمية "المغناطيسية الحيوانية". (م)

نقرأ، بدون أن نستعد لهذه النقلة في المصطلحات الميتافيزيائية،[165] بأن "الذات العليا، إذ تتجلَّى كلياً على المرتبة الجسمانية، ... تبقى مع ذلك أنيَّة روحية واعية على مرتبة الطبيعة المقابلة" – نميل إلى أن نفهم من "الذات العليا" الواردة في هذه الجملة *"أتما"*، ومن الأنيَّة الروحية *"مَنَس"*، أو بالحري بودِّهي-*مَنَس*، وبالتالي أن نرتاب في صحة الأمر برمَّته.

فمن أجل تجنب مثل سوء الفهم هذا من الآن فصاعداً أقترح ترجمة المصطلحات الغيبية الشرقية ترجمة حرفية إلى الإنكليزية وتقديم هذه الترجمة من أجل استعمالها اللاحق:

الذات العليا هي	*أتما*، الشعاع غير المنفصل عن **الذات الواحدة** الكلِّية. إنه الإله *فوقنا* أكثر منه الإله فينا. طوبى للإنسان الذي يفلح في إشباع *أنيَّته الباطنة* به!
الأنيَّة الروحية *الإلهية* هي	النفس الروحانية أو بودِّهي، المتحدة اتحاداً وثيقاً مع *مَنَس*، المبدأ الذهني، الذي بدونه لا توجد **أنيَّة** أصلاً، إنما *مركبة* أتمية وحسب.
"الأنيَّة" **الباطنة** أو **العليا** هي	*مَنَس*، المبدأ "الخامس"، كما يسمى، مستقلاً عن *بودِّهي*. والمبدأ الذهني لا يكون الأنيَّة الروحية إلا عندما يندغم في *بودِّهي* مشكِّلاً وإياها مبدأ واحداً – وما من امرئ مادي *يُفترَض* فيه أن يحوي فيه *مثل* هذه الأنيَّة، مهما بلغ شأو مقدراته العقلية. إنه *الفردية* الدائمة أو "الأنيَّة المتقمِّصة".
"الأنيَّة" **الدنيا** أو **الشخصية** هي	الإنسان الجسماني مقترناً بذاته *الدنيا*، أي الغرائز الحيوانية، والأهواء، والشهوات، إلخ. وهي تدعى "الشخصية الزائفة"، وهي عبارة عن *مَنَس الأدنى* مقترناً بـ*كاما-روبا*، وفاعلاً عبر الجسم المادي وشبحه أو "قرينه".

أما "المبدأ" المتبقي *برانا*، أو "الحياة"، فهو، توخياً للدقة، القوة أو الطاقة المشعة لـ*أتما* – بوصفه الحياة الكلِّية و**الذات الواحدة** – مظهره الأدنى أو الأكثر جسمانية (في آثاره) بالحري، باعتباره متجلياً. *برانا* أو الحياة تتخلل كينونة الكون الموضوعي برمَّتها؛ وهي لا تدعى "مبدأ" إلا لأنها العامل الذي لا غنى عنه والمبدأ المحرِّك للإنسان الحي.

السائل: هذا التقسيم، باعتباره مبسَّطاً للغاية في تأليفاته، مناسب أكثر، فيما أظن. أما الآخر فهو مسرف في الميتافيزيائية.

165 - تنطبق "النقلة في *المصطلحات الميتافيزيائية*" هنا فقط على النقلة في مكافئاتها المترجَمة عن المصطلحات الشرقية؛ فإنه حتى يومنا هذا لم تَرِدْ في الإنكليزية أية مصطلحات كهذه، الأمر الذي اضطر كلَّ ثيوصوفي إلى نحت المصطلحات الخاصة به من أجل ترجمة فكره. لقد آن الأوان، إذن، للاستقرار على جملة تسميات محددة.

الثيوصوفي: إذا وافق عليه البرَّانيون والثيوصوفيون جميعاً فمـن شـأنه جزمـاً أن يجعل الأمور أقرب إلى الفهم منالاً بكثير.

***

الباب العاشر

في طبيعة مبدئنا المفكِّر

سرُّ الأنيَّة

السائل: آنستُ من المقبوس الذي أوردتَه قبيل قليل من *التعليم البوذي* تبايُناً ليتك تفسِّره. فقد جاء فيه أن الـ*سكندها* – بما فيها الذاكرة – تتغير مع كلِّ تقمـص جديـد. ومـع ذلـك فثمـة تشديد على أن انعكاس الأعمار الماضية (المصنوعة برمَّتها، على ما قيل لنا، من الـ*سكندها*) "يجب أن يبقى". حتى هذه اللحظة لم يتضح لذهني تماماً بعـدُ مـا هـو بالدقـة الشـيء الـذي يبقى؛ فليتك تشرح لي الأمر. ما هو؟ أهو ذلك "الانعكـاس" وحسـب، أم تلـك الـ*ـسكندها*، أم أنها دوماً تلك الأنية بعينها، ذلك الـ*مَنَس*؟

الثيوصوفي: لقد شرحت للتوِّ بأن المبدأ المعاود للتجسد، أو ما نـدعوه الإنسـان *الإلهي*، لا يطالُه فناءٌ طوال دورة الحياة: لا يفنى بوصـفه *كيانـاً* مفكـراً، بـل وحـتى بوصفه صورة أثيرية. مـا "الانعكـاس" إلا *التـذْكِرَة المُرَوْحَنَـة*، [166] فـي أثنـاء الفـترة الديفاخانية، للـ*شخصية السابقة*، أكانت السيد فلان أو السيدة فلانة – التي تتواحـد معها *الأنية* في أثناء تلك الفترة. وبما أن هـذه الفـترة ليسـت إلا اسـتمراراً للحيـاة الأرضـية، إذا جـاز التعـبير، أو نقطـةَ الأوج أو ذروةً، فـي سلسـلة غيـر منقطعـة، للَّحظات القليلة السعيدة من ذلك العمر الـذي مضـى بعينـه، فـإن علـى *الأنيـة* أن تتواحد مع الوعي *الشخصي* لتلك الحياة، إذا ما بقي منه شيء.

السائل: هذا يعني أن *الأنية*، على الرغم من طبيعتهـا الإلهيـة، تصـرف كـل فـترة مـن هـذه الفترات بين تجسدين في حالة من الإظلام الذهني أو الجنون المؤقت.

الثيوصوفي: لك أن تعتبرها كمـا تشـاء. أمـا نحـن، إذ نعتقـد بـأنه، ماعـدا الحـق **الأحد**، ليس من شيء إلا وهو وهم عـابر – بمـا فـي ذلـك الكـون بأسـره – فلسـنا ننظر إليها باعتبارها جنوناً، بل كمتوالية أو انبساط للحياة الأرضـية طـبيعي للغايـة. مـا الحيـاة البشـرية؟ إنْ هـي إلا حزمـة مـن أشـد الخـبرات تنوعـاً، مـن الأفكـار والانفعالات والآراء المتغيرة يومياً. ففي شبابنا مراراً ما نكرِّس أنفسنا متحمِّسـين لمثال، لبطل أو لبطلة ما، نحاول أن نقتدي به أو بها ونحييه أو نحييها فينا. غير أننـا، بعد بضع سنوات، حينما تذوي نضارةُ مشاعرنا الفتيـة وتثـوب إلـى رشـدها، نكـون أول مَن يضحك من أوهامنا. ومع ذلك فقد كنا ذات يـوم قـد واحـدْنا شخصـيتَنا مـع شخصية المثال في ذهننا – خصوصـاً إذا كـانت شخصـية كـائن حـي – إلـى حـدٍّ أن الأولى كانت مندمجة بكليتها في الثانية وضائعة فيها. فهل يصح أن نقول في امرئ في الخمسين إنه عينه الكائن الذي كانه في العشرين؟ الإنسان *البـاطن* يبقـى هـو هو؛ أما الشخصية الحية الظاهرة فإنها تتحول وتتغير تماماً. فهل يجوز لك أيضـاً أن تسمي هذه التغيرات في الحالات الذهنية البشرية جنوناً؟

السائل: فماذا تسميها *أنت*، وبالأخص، كيف تعلِّل ديمومة الأول وزوال الثانية؟

الثيوصوفي: إن عقيدتنا لبالمرصـاد لمثـل هـذا السـؤال، والإجابـة عليـه ليسـت بالأمر العسير علينا. يكمن المفتاح في وعي ذهننـا المثنَّـى، وكـذلك فـي الطبيعيـة المزدوجة للمبدأ الذهني. هناك، من جهة، وعيٌ روحي، هو العقل المَنَسي المتنـوِّر بنور *بودِّهي*، ذلك الذي يـدرك المجـرَّدات إدراكـاً ذاتيـاً؛ وهنـاك، مـن جهـة أخـرى،

---

166 - أي المصعَّدة إلى العالم الروحي. (المترجم)

الوعي المُحِسُّ (النور *المَنَسي* الأدنى) غير المنفصل عن دماغنا وحواسنا الجسمانية. وهذا الوعي الأخير خاضع للدماغ وللحواس الجسمانية، وهو، باعتباره يعوِّل عليها بدوره بالمقدار نفسه، يجب بالطبع أن يخبو ثم ينطفئ أخيراً مع اختفاء الدماغ والحواس الجسمانية. وحده النوع الأول من الوعي، الضارب بجذره في الأبدية، يبقى ويحيا إلى الأبد، ويجوز، بالتالي، أن يُعتبَر خالداً. أما كل ما عداه فيندرج في باب الأوهام العابرة.

السائل: فماذا تقصد حقاً بالوهم في هذه الحالة؟

الثيوصوفي: هناك وصف جيد جداً له في المقالة المذكورة لتوِّها في "الذات العليا". هاك ما يقول فيها الكاتب:

> **تتناغم النظرية التي نحن في صددها (تبادل الأفكار بين *الأنية العليا* والذات الدنيا) تناغماً جيداً جداً مع النظر إلى هذا العالم الذي نحيا فيه باعتباره عالم الوهم الفينوميني، حيث المراتب الروحية للطبيعة، من جهة أخرى، هي عالم أو مرتبة الحق النوميني. تلك الناحية من الطبيعة التي تضرب النفس الدائمة فيها بجذورها، إذا جاز التعبير، لهي حقيَّة أكثر من تلك الناحية التي تتفتح فيها أزهارُها الزائلة لبرهة وجيزة، تذوي بعدها وتسقط متناثرة، بينما تسترد النبتة الطاقة على الطلوع بزهرة جديدة. هَبْ أن الحواس العادية كانت لا تدرك إلا الأزهار، وكانت جذور هذه تضرب في حالة من حالات الطبيعة لا قِبَلَ لنا بلمسها أو برؤيتها – أما يكون شأن الفلاسفة في عالم كهذا، يتكهَّنون بوجود أشياء كالجذور في مرتبة أخرى من مراتب الوجود، أن يقولوا عن الأزهار بأنها ليست النباتات الحقيقية، وبأنها ليست بذات أهمية غير نسبية، بل مجرد ظواهر وهمية للحظة بعينها.**

هذا ما أعنيه. ليس العالم الحق الدائم هو العالم الذي تتفتح فيه أزهارُ الحيوات الشخصية العابرة والزائلة، بل العالم الذي نجد فيه جذر الوعي – ذلك الجذر الذي يتخطى الوهم ويقيم في الأبدية.

السائل: ماذا تعني بالجذر المقيم في الأبدية؟

الثيوصوفي: أعني بهذا الجذر الكيان المفكِّر، الأنية التي تتجسد، سواء اعتبرناها "ملاكاً" أو "روحاً" أو قوة. من كلِّ ما يقع تحت مداركنا الحسية، وحده ما ينمو مباشرة من ذلك الجذر الخفي في الأعلى أو يرتبط به يُكتَب له أن يقاسمه حياته الخالدة. من هنا فإن كلَّ خاطر أو فكرة أو شوق نبيل من خواطر وأفكار وأشواق الشخصية التي تبلِّغها هذه الأنية، إذ يصدر عن هذا الجذر ويتغذى منه، لا بدَّ أن يصير دائماً. أما الوعي الجسماني، باعتباره خاصية "المبادئ" المُحِسَّة – لكنْ الدنيا (*كاما-روبا* أو الغريزة الحيوانية، وقد استنارت بالانعكاس المَنَسي الأدنى) – أو النفس البشرية، فيجب أن يتلاشى. فإن ما يبدي نشاطاً، والجسمُ غافٍ أو

مشلول، هو الوعي الأعلى، وإن تكن ذاكرتنا لا تسجل خبرات كهذه إلا تسجيلاً ضعيفاً وغير دقيق (بسبب آليتها)، ومراراً ما تفشل حتى في الاحتفاظ بأدنى انطباع عنها.

السائل: ولكن كيف يكون *مَنَس*، مع أنكم تدعونه *نوس*، أو "إلهاً"، بهذا الضعف في أثناء تجسداته، بحيث يتمكن منه فعلياً جسمُه ويكبِّله؟

الثيوصوفي: في وسعي أن أفحمك بالسؤال نفسه فأسأل: "كيف يصح لذاك الذي تعتبرونه "رب الأرباب" والإله الحي الواحد أن يكون *من الضعف* بحيث يجيز للشر (أو إبليس) أن ينال *منه* ومن سائر مخلوقاته، سواء حين يمكث في السماء، أو في أثناء الفترة التي تجسد فيها على الأرض؟" يقيناً أنك سوف تجيب أيضاً: "ذلك سر، وحرامٌ علينا أن نفحص عن أسرار الله." ولكن بما أن فلسفتنا الدينية لا تحرِّم علينا ذلك [167] فإني أجيب على سؤالك بأنه، اللهم إلا إذا تنزَّل إلهٌ بصفته *أفاتارا*، [168] ما من مبدأ إلهي ماخلا هذه الحالة، إلا ويتعطَّل وينشلُّ بالمادة الحيوانية الهوجاء. ستبقى للتغايُر اليد الطولى على التجانس على مرتبة الأوهام هذه، وكلما كانت ماهيةٌ ما أقرب إلى مبدئها–الجذر – التجانس الأوَّلي – كان إنفاذُ هذه سلطانَها على الأرض أصعب. القدرات الروحية والإلهية ترقد هاجعة في كلِّ كائن إنساني؛ وكلما اتسع مدى بصيرته الروحية كان حضور الإله فيه أقوى. ولكن لما كان البشر الذي يشعرون بذلك الإله هم القلة النادرة، ولما كانت الألوهة، كقاعدة وسطية، مغلولة ومحدودة في فكرنا بتصوراتنا السابقة – تلك الأفكار التي يلقِّنوننا إياها منذ الطفولة – لذا فمن الصعب عليك جداً أن تفهم فلسفتنا.

السائل: أتكون هذه الأنية فينا هي إلهنا؟

الثيوصوفي: قطعاً لا. فأيُّ "إله" ليس الألوهة الكلِّية، بل شرارة وحسب من بحر النار الإلهية الواحد. إلهنا *فينا*، أو "أبونا الذي في السر"، هو ما ندعوه **الذات العليا**، *أتما*. لقد كانت أنيتنا المتجسدة في أصلها إلهاً، مثلها في ذلك مثل كافة الفيوض البدئية عن المبدأ المجهول الواحد. لكنها منذ "سقوطها في المادة" واضطرارها إلى التجسد طوال مدة الدور، على التوالي، من البداية إلى النهاية، لم تعد ذلك الإله الحر المغتبط، بل حاجٌّ مسكين في سبيله إلى استعادة ما فَقَدَ. في وسعي أن أجيبك إجابة أوفى بتكرار ما جاء عن **الإنسان الباطن** في *إيزيس سافر*: [169]

> ***منذ الأزمنة الموغلة في القِدَم كانت الإنسانية ككل على قناعة دائمة بوجود كيان روحي شخصي في الإنسان الجسماني الشخصي. وهذا الكيان الباطن كان إلى حدٍّ ما إلهياً، بمقدار قربه من التاج. وكلما كانت الوحدة أوثق كان قَدَر الإنسان***

---

167 - يقول بولس الرسول (1 كورنثوس 2: 10 و11): "... الروح يفحص عن كلِّ شيء حتى أعماق الله. فمن ذا الذي يعرف أسرار الإنسان غير الروح الذي في الإنسان؟ وكذلك ما من أحد يعرف أسرار الله غير روح الله...". (م)

168 - كلمة سنسكريتية تتضمن معنى "النزول" وتشير إلى كافة تجسدات الإله في بشر. (م)

169 - Vol. II., p. 593.

أسجى وكانت الشروط الخارجية أقل خطورة. وهذا الاعتقاد ليس تزمتاً وليس تطيُّراً، بل هو شعور غريزي دائم الحضور بالتجاور مع عالم روحاني غير مرئي، على كونه ذاتياً بالنسبة إلى حواس الإنسان الظاهر، فإنه موضوعي تماماً بالنسبة إلى الأنية الباطنة. علاوة على ذلك، كانوا يعتقدون *بوجود شروط خارجية وداخلية تؤثر في تقرير إرادتنا لأفعالنا*. لقد كانوا يأبون الجبرية؛ إذ إن الجبرية تستلزم وجود سُنَّة عمياء تنصاع لقدرة ما أكثر عمى أيضاً. كانوا بالأحرى يؤمنون *بالقَدَر* أو *كرما*، الذي يحوكه كل امرئ حول نفسه خيطاً خيطاً، من الميلاد حتى الممات، مثلما يصنع العنكبوت نسيجه؛ وهذا القَدَر يوجِّهُه ذلك الحضورُ الذي اصطلح بعضهم على تسميته بالملاك الحارس، أو خليلنا الإنسان الباطن النجمي، الذي ليس، في أغلب الأحيان، غير الجنِّي الشرير للإنسان الجسداني أو *الشخصية*. لكليهما سلطان على الإنسان، لكن لا بدَّ لأحدهما من أن يسود؛ ومنذ بدء العراك الخفي يقوم *قانون التعويض والجزاء* الشديدُ والحتمي بالتدخل وأخذ مجراه، متابعاً بأمانة تأرجُح الصراع. وعندما يُحاك آخر خيط، ويبدو الإنسان وكأنه مقمَّط بالشبكة التي صنعها، إذ ذاك يجد نفسه تماماً تحت سلطان قَدَره الذي *صنعه بنفسه*. وعندئذٍ إما أن يثبِّته هذا القَدَر كالصَّدَفة الجامدة على الصخرة الراسية، وإما أن يحمله بعيداً كالريشة في مهب الإعصار الذي حرَّضتْه أفعالُه.

ذلكم هو قَدَر *الإنسان* – الأنية الحق، وليس الإنسان الآلي، أي *الصَّدَفَة* التي تُعرَف بهذا الاسم. فعلى عاتقه يقع أمر قهر المادة.

طبيعة *مَنَس* المركَّبة

السائل: لكنك كنت تريد أن تخبرني شيئاً عن طبيعة *مَنَس* الجوهرية وعن العلاقة التي تربط بينه وبين *سكندها* الإنسان الجسماني؟

الثيوصوفي: إن هذه الطبيعة، الغامضة، البروتيوسية،[170] المتعالية عن كلِّ إدراك، التي تكاد تكون مبهمة في ارتباطاتها بالمبادئ الأخرى، هي التي يصعب جداً إدراكُها، بل ويصعب أكثر تفسيرها. *مَنَس* "مبدأ" وهو، إلى ذلك، "كيان" وفردية أو أنية. إنه "إله"، ومع ذلك مقضي عليه أن يخضع لدورة لا تنتهي من التجسدات، يتحمل مسؤولية كلٍّ منها، ويشقى من جراء كلٍّ منها. يبدو هذا كله متناقضاً بمقدار ما هو محيِّر؛ ومع ذلك هناك مئات الناس، حتى في أوروبا، يدركون هذا ملء إدراكه، لأنهم لا يستوعبون الأنية في كلِّيتها وحسب، بل وفي مظاهرها العديدة أيضاً. وأخيراً، إذا شئتُ أن يكون كلامي مفهوماً، عليَّ أن أبدأ من البداية وأعطيك لمحة موجزة عن نَسَب هذه الأنية.

170 - نسبة إلى الإله الإغريقي بروتيوس Proteus الذي كان بمقدوره اتخاذ أيِّ شكل يريده، في أيِّ وقت. (م)

السائل: هيا، قل ما عندك.

الثيوصوفي: حاول أن تتخيل "روحاً"، كائناً سماوياً – أياً كان الاسم الذي نطلقه عليه – إلهياً في طبيعته الجوهرية، لكنه ليس من النقاء بما يكفي لكي يكون *واحداً مع* **الكل**، وعليه، لكي يحقق ذلك، أن يطهِّر طبيعته على هذا النحو لكي يظفر أخيراً بتلك الغاية. إنه لا يستطيع أن يقوم بذلك إلا بالمرور *فردياً وشخصياً*، أي روحياً وجسمياً، عبر كلِّ خبرة وشعور يوجد في الكون المتعدد والمتمايز. لذا فإن عليه، بعد أن يكتسب خبرة كهذه في الممالك الدنيا، ويصعد عالياً فأعلى على مراقي سلَّم الوجود كلِّها، أن يكابد كلَّ تجربة في المراتب البشرية. إنه، من حيث ماهيَّتُه نفسُها، **فكر**، وهو، بالتالي، يُدعى في صيغة الجمع *مانَسا بُترا*، "أبناء العقل (الكلِّي)". هذا "الفكر" *المتفرِّد* هو ما ندعوه، نحن الثيوصوفيين، الأنية الإنسانية *الحق*، الكيان المفكِّر المحبوس في صندوق من اللحم والعظم. ذلكم قطعاً كيان روحاني، وليس من *مادة*، وكيانات كهذه هي **الأنيات** المتجسدة التي تحيي حزمة المادة الحيوانية التي ندعوها البشرية، والتي تدعى *مانَسا* أو "العقول". لكنها، متى سُجِنَت، أو تجسدت، ازدوجتْ ماهيَّتُها: أي أن *أشعة* العقل الإلهي السرمدي، باعتبارها كيانات فردية، تتخذ خاصية مزدوجة هي (أ) خاصيتها الفطرية *الجوهرية*، العقل المتشوق إلى السماء (*مَنَس* الأعلى)، و(ب) صفة التفكير البشرية، أو ملَكة التعقُّل الحيواني، المُعَقْلَنَة بفضل تفوُّق الدماغ البشري، *مَنَس* الأدنى أو النازع إلى *كاما*. الأول ينجذب إلى *بودِّهي*، والثاني، ينزع نحو الهبوط إلى مقعد الأهواء والرغبات الحيوانية. لا مكان لهذه في ديفاخان، كما ليس لها أن تخالط الثالوث الإلهي الذي يصعد ككلٍّ **واحد** إلى الغبطة العقلية. ومع ذلك فإن الأنية، أو الكيان المَنَسي، هي التي تتحمل مسؤولية كافة خطايا الصفات الدنيا، مثلما يؤاخَذ الوالد على معاصي ولده، مادام هذا الأخير غير مسؤول.

السائل: أيكون هذا "الولد" هو "الشخصية"؟

الثيوصوفي: نعم، هو هي. لذا فإن التقرير بأن "الشخصية" تموت بموت الجسم لا يقرِّر كلَّ شيء. فالجسم، الذي لم يكن إلا الرمز الموضوعي للسيد فلان أو السيدة فلانة، يضمحل مع كلِّ *السكندها* المادية الخاصة به، بما هي التعبيرات المرئية عنه. غير أن كل ما كان يكوِّن إبان الحياة حزمةَ الخبرات *الروحية*، وأنبلَ الأشواق، والمودَّاتِ التي لا تبيد، والطبيعةَ *السمحاء* للسيد فلان أو للسيدة فلانة، يتشبث طوال الفترة الديفاخانية **بالأنية** التي تتواحد مع القسم الروحاني من ذلك الكيان الأرضي الذي توفي متوارياً عن الأنظار. و**الممثل** يكون متشرباً للدور الذي أدَّاه لتوِّه إلى حدِّ أنه يحلم به الليل الديفاخاني بطوله، وتستمر هذه *الرؤيا* حتى تحين ساعةُ عودته إلى خشبة مسرح الحياة للقيام بدور آخر.

السائل: ولكن كيف لم تجد هذه العقيدة، القديمة قِدَم الإنسان المفكِّر، كما تقول، أيَّ متسع لها – في اللاهوت المسيحي، على سبيل المثال؟

الثيوصوفي: أنت مخطئ لأنها وجدت مثل هذا المتَّسع. [171] بيد أن اللاهوت قد شوَّهها، مثلما فعل بعقائد أخرى كثيرة، حتى لم يعد بالإمكان التعرف إليها. يسمي اللاهوتُ **الأنيةَ** الملاكَ الذي يهبُنا الله إيَّاه ساعة ولادتنا *للعناية بنفسنا*. ولكن بدلاً من سؤال ذلك "الملاك" عن معاصي "النفس" المسكينة العاجزة فإن هذه الأخيرة هي التي تُعاقَب، وفقاً للمنطق اللاهوتي، على خطايا الجسد والذهن جميعاً! إن النفس، *نسمة* الله اللامادية و*خليقته المزعومة*، هي التي يُكتَبُ عليها، عبر شعبذة ذهنية ولا أعجب، أن تتلظى في جحيم مادي بدون أن تحترق أبداً، [172] على حين ينجو "الملاك" معفى من الضرائب، بعد أن يطوي قوادمَه البيض ويرطِّبها ببضع دمعات. أجل، تلك هي "أرواحنا المسعِفة"، "رسل الرحمة" الذين يُرسَلون، كما يخبرنا الأسقف مَنْتْ:

.... من أجل إيفاء الخير

لورثة الخلاص، من أجلنا ما فتئوا

يحزنون حين نخطئ، ويبتهجون حين نتوب...

ومع ذلك يصير من الجلِّي أن جميع أساقفة العالم قاطبة، إذا ما طُلِبَ منهم أن يقدموا تعريفاً جامعاً مانعاً لما يقصدونه بالـ*نفس* ووظائفها، لعجزوا عن ذلك عجزهم عن إرشادنا إلى أية شبهة منطق في الإيمان القويم!

تعليم العقيدة في إنجيل يوحنا

السائل: قد يردُّ أشياع هذا المعتقَد بأن المذهب القويم، وإن كان يَعِدُ الخاطئ غير التوَّاب والآخذ بالمذهب المادي بوقت عصيب في جحيم شديد الواقعية نوعاً ما، فإنه يمنحهم، من جهة أخرى، فرصة للتوبة حتى آخر دقيقة. كما أنهم لا يعلِّمون فناء الشخصية أو فقدانها – وهو الأمر عينه.

الثيوصوفي: إذا كانت الكنيسة لا تعلِّم شيئاً من هذا القبيل فإن يسوع، من جانب آخر، يفعل؛ وهذا أمر هام، على الأقل في نظر الذين يُنزِلون المسيح منزلة أعلى من المسيحية.

السائل: هل يعلِّم المسيح فعلاً شيئاً من هذا القبيل؟

الثيوصوفي: نعم، يعلِّم، كما سيخبرك أيُّ عالِم غيبي راسخ في العلم أو حتى قبالي. يعلِّم المسيح، أو الإنجيل الرابع على كلِّ حال، العَوْد للتجسد، كما يعلِّم فناء الشخصية – على أن تتناسى الحرف الميت وتتمسك بالروح الباطنية. تذكَّر الآيتين

---

171 - جاء في أحد مقالات الثيوصوفي الكبير وليم ك. دجدج: "[...] وبعد التلاميذ جاء آباء الكنيسة الأوائل، ومن بينهم أوريجينس الذي علَّم عقيدة العَوْد للتجسد. لكن نفوذه المتنامي ألَّب عليه غيرة بعض الجهَّال من الآباء، وفي مجمع القسطنطينية عام 500 ب م حرَّموا العقيدة التي كان يعلِّمها بوصفها مضلِّلة، وبذلك ضاعت على العالم الغربي." (م)

172 - لأنها من "طبيعة أسبستوسية" [مادة مقاومة للاحتراق]، على حدِّ التعبير البليغ والملتهب لترتوليانوس إنكليزي حديث.

الأولى والثانية من الإصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا. عمَّ يتكلم المثل إن لم يكن يتكلم على *الثالوث الأعلى* في الإنسان؟ *أتما* هو الكرَّام، والأنية الروحية أو بودِّهي (خريستوس) هي الكرمة، في حين أن النفس الحيوانية والحيوية، *الشخصية*، هي "الغصن": "أنا الكرمة *الحق*، وأبي هو الكرَّام. كل غصن فيَّ لا يثمر يفصله... وكما أن الغصن، إن لم يثبت في الكرمة، لا يستطيع أن يثمر من نفسه، فكذلك أنتم لا تستطيعون أن تثمروا إن لم تثبتوا فيَّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان [...]. *من* لا يثبت فيَّ يُلقَ كالغصن إلى الخارج *فييبس*، فيجمعون الأغصان ويلقونها في النار فتشتعل." [173]

دعنا الآن نفسِّر على هذا النحو: أما وأننا لا نؤمن بنيران جهنم التي يلذُّ للاهوت أن يراها مبطِّنةً للوعيد الموجَّه إلى *الأغصان*، نقول إن "الكرَّام" يعني *أتما*، رمز المبدأ اللانهائي، اللاشخصي، [174] في حين تمثل الكرمة النفس الروحانية، *خريستوس*، بينما يمثل كلُّ "غصن" تجسداً جديداً.

السائل: ولكن ما البراهين التي بحوزتكم لتأييد مثل هذا التأويل الاعتباطي؟

الثيوصوفي: إن في علم الرموز العالمي ضمانة على صحَّته وعلى كونه ليس اعتباطياً. يقول هرماس عن "الله" إنه "غرس الكرمة"، [175] أي خلق البشرية. وقد جاء في القبالة أن شيخ الشيوخ، أو "الوجه الطويل"، يغرس كَرْماً، حيث يرمز الكَرْم إلى البشرية، والكرمة تعني الحياة. لذا فقد جاء أن روح *"المسيح الملك"* تغسل ثيابها في *الخمرة* اللدنية، منذ خلق العالم. [176] *والمسيح* الملك هو **الأنية** المتطهرة *بغسل ثيابها* (أي شخصياتها في العَوْد للتجسد) في *الخمرة اللدنية*، أو *بودِّهي*. آدم، أو آ-دم هو "الدم". وحياة الجسد هي في الدم (*نِفش*، النفس)، بحسب سفر *اللاويين*، الإصحاح 17. [177] وآدم قدمون هو الابن الوحيد. ونوح أيضاً يغرس كرمة [178] – المهاد المجازي لبشرية المستقبل. وكنتيجة لتبنِّي المجاز نفسه نجده وارداً في *المخطوطة النصرانية*، حيث جاء ذكر سبع كَرْمات تُنسَلُ – هي ذرِّياتنا السبع مع مخلِّصيها أو *بوذاواتها* السبعة – التي تنبت من إيوكَبَر-كسيفو، تسقيها فرهو (أو برشا) رابا. [179] وحين سيعرج المباركون بين مخلوقات النور سيبصرون إيافار-كسيفو، *رب* **الحياة**، و**الكرمة** الأولى. [180] وهكذا فإن هذه الاستعارات القبالية تتكرر في *الإنجيل بحسب القديس يوحنا* (15: 1).

---

173 - إنجيل يوحنا 15: 1-6. (م)

174 - إبان تلقين *الأسرار*، كان كبير الكهنة الأقدسين، "الآب"، هو الذي يزرع الكرمة. ولكلِّ رمز سبعة مفاتيح للولوج إليه. أما الذي كان يُكاشَف بالملأ الأعلى فكان يدعى دوماً "أباً".

175 - Hermas, *Pastor*, silmilitude V, 6. (م)

176 - *Zohar*, comm. on the *Genesis*, XL., 10.

177 - الصحيح: "لأن *نفس* الجسد هي في الدم ولذلك جعلته لكم على المذبح ليكفَّر به عن نفوسكم لأن الدم يكفِّر عن النفس." (الأحبار 17: 11) (م)

178 - جاء في سفر التكوين 9: 20: "... رأيت كأن جفنة كرم بين يدي، وفي الجفنة ثلاثة قضبان، وكأني بها أفرعتْ وأقلعت ونضجت عناقيدها وصارت عنباً." نذكِّر أيضاً ببيت ابن الفارض الشهير: "شربنا على ذكر الحبيبِ مدامةً سَكِرْنا بها من قبل أن يُخلَقَ الكَرْمُ." (م)

179 - *Codex Nazaræus*, Vol. III., pp.60, 61.

180 - Ibid., Vol. II., p. 261.

وليتنا لا ننسى أن **الأنية** في المنظومة البشرية – وحتى وفقاً لأولئك الفلاسفة الذين يجهلون تقسيمنا السباعي – أو *الإنسان المفكِّر* يدعى *الكلمة*، أو ابن النفس والروح. فكما جاء في أحد المؤلفات الباطنية، "*مَنَس* هو ابن الملك ...... والملكة .... بالتبنِّي" (المرادفان الباطنيان لـ*أتما* وبـ*ودِّهي*). إنه عند أفلاطون "الإله–الإنسان" الذي يصلب نفسه في *الفضاء* (أي دوام مدة دورة الحياة) من أجل افتداء **المادة**. وهو يقوم بذلك بالتجسد المرة تلو المرة، وبذلك يقود الإنسان قُدُماً نحو الكمال، فيخلي المجال للأشكال الدنيا لكي تتفتح عن أشكال عليا. وهو لا يني في كلِّ حياة يطور نفسه ويساعد الطبيعة الجسمانية على التقدم؛ وحتى حالة فقدانه العرضية والنادرة جداً لإحدى شخصياته، في حال كانت هذه الأخيرة خلواً تماماً من شرارة واحدة حتى من الروحانية، تساعد في تقدمه الفردي.

السائل: ولكن قطعاً إذا كانت *الأنية* تُسأل عن معاصي شخصياتها فإنها تؤاخَذ أيضاً على ضياع واحدة منها، أو بالأحرى على فنائها التام.

الثيوصوفي: قطعاً لا – إلا إذا لم تحرِّكْ ساكناً لدفع هذا المصير المريع. ولكن إذا عجز صوتُها – *صوت ضميرنا* – على الرغم من جهودنا كلِّها، عن خرق جدار المادة، إذ ذاك فإن غلاظة هذه الأخيرة الناجمة عن الطبيعة الناقصة للمواد تصنَّف مع إخفاقات أخرى للطبيعة. حسب الأنية قصاصاً أنها تُحرَم من الديفاخان، ولاسيما اضطرارها إلى التجسد الذي يكاد يكون فورياً.

السائل: إن هذه العقيدة القائلة بإمكان خسارة المرء نفسَه – أو شخصيته، كما تسمونها – *لتنهَضُ* ضد النظريتين المثاليتين لكلا المسيحيين والأرواحيين معاً، على الرغم من أن سويدنبرغ يتبنَّاها إلى حدٍّ ما فيما يسميه *بالموت الروحي*. أما هم فلن يقبلوها أبداً.

الثيوصوفي: ليس لهذا أن يبدِّل واقعة في الطبيعة بأيِّ حال من الأحوال، إذا كانت واقعة فعلاً، أو يحول دون وقوعها من حين لآخر. فالكون، بكلِّ ما فيه، معنوياً كان أم ذهنياً، جسمانياً، نفسانياً، أم روحانياً، مبني على قانون مُحكَم التوازن والتناغم. وكما قيل أعلاه، [181] ليس بإمكان القوة النازعة إلى المركز أن تتجلَّى في الدوران المتناغم للأجرام السماوية بدون القوة الطاردة من المركز؛ والأشكالُ جميعاً، كما وتقدُّمها، نتاجٌ لهذه القوة المزدوجة في الطبيعة. أما الروح (أو *بودِّهي*) فهي القوة الروحية الطاردة من المركز، بينما النَّفْس (*مَنَس*) هي الطاقة الروحية النازعة إلى المركز؛ وعليهما من أجل إحداث نتيجة واحدة أن تكونا متحدتين ومتناغمتين اتحاداً وتناغماً كاملين. هَبْ أن الحركة للنفس الأرضية النازعة إلى المركز الذي يجذبها قد انقطعتْ أو تأذَّت؛ أو هَبْ أن عرقلةَ مادةٍ أثقل من أن تستطيع حملها، أو أثقل مما يليق بالحالة الديفاخانية، قد أوقفَتْ تقدُّمَها، إذا ذاك فإن تناغم الكل سوف يختل. إن الحياة الشخصية، أو ربما انعكاسها المثالي بالأصح، لا يمكن أن تستمر إلا إذا أمدَّتْها القوةُ المزدوجة، أي الاتحاد الوثيق بين بودِّهي و*مَنَس* في كلِّ عَوْد للتجسد أو كلِّ حياة شخصية. إن أدنى انحراف عن التناغم كفيل بالإخلال بها؛ وحين تختلُّ بما لا رجعة فيه فإن القوتين تنفصمان

181 - *Vide Isis Unveiled*, Original edition, Vol. I, pp. 318-9.

لحظة الموت. ولا يطول الأمر بالصورة *الشخصية* (التي تدعى *كاما روبا* أو *مايافي روبا* على حدٍّ سواء) – التي يلتحق برعمُها الشخصي بالأنية في الحالة العادية، ويتبعها إلى ديفاخان *ويضفي* على *الفردية* الدائمة لونَها *الشخصي* (مؤقتاً، إذا جاز التعبير) – أن تُسحَب لكي تمكث في *كاما لوكا* ولكي تفنى تدريجياً. فإن اللحظة المصيرية والحاسمة لا تأتي إلا بعد موت الفاسقين تماماً والمتجرِّدين من كلِّ روحانية والأشرار الذين لم يعد بالإمكان افتداؤهم. فإذا أُحبِط المجهودُ الأخيرُ اليائسُ الذي تقوم به **الذات الباطنة** (*مَنَس*) في أثناء الحياة لتشدَّ شيئاً من الشخصية إليها وإلى شعاع بودهِّي الإلهية الساطع، وإذا أُجيز لهذا الشعاع أن يحتجب أكثر فأكثر عن قشرة الدماغ الجسماني التي تزداد كثافة، فإن **الأنية** الروحانية أو *مَنَس*، حالما تتحرر من الجسم، تبقى منقطعة تماماً عن جثمان الشخصية الأثيري؛ وهذا الأخير، أو *كاما روبا*، إذ ينقاد لانجذاباته الأرضية، فإنه ينشدُّ إلى *هاذِس* – الذي ندعوه الـ*كاما لوكا* – ويلبث فيه. تلك هي "الأغصان اليابسة" التي ذكر يسوع أنها لم تثبت في *الكرمة*. بيد أن الفناء ليس أبداً آنياً، وقد يستغرق إتمامُه أحياناً قروناً. على أن الشخصية تبقى هناك في صحبة *بقايا* أنيات شخصية أوفر حظاً، وتصير معها *صَدَفَة* و*عنصرية*. وكما جاء في *إيزيس*، فإن هاتين الفئتين من "الأرواح" – *الأصداف والعنصريات* – هي التي تؤدي دور "النجوم" الهادية على الخشبة الروحية لمسرح "التجسمات".[182] وكن على ثقة من أنها ليست هي التي تتجسد؛ لذا فإن قلة قليلة من هؤلاء "الراحلين الأعزاء" يعرفون شيئاً عن العَوْد للتجسد، وبذلك يضللون الأرواحيين.

السائل: ولكم أليست مؤلفة *إيزيس سافر* متهمة بأنها هاجمت التقمص؟

الثيوصوفي: أجل، ولكن متهميها أناس أساؤوا فهم ما قيل. لدى وضع ذلك المؤلَّف لم يكن أحدٌ من الأرواحيين يؤمن بالتقمص، لا الإنكليز منهم ولا الأمريكيين، وما جاء في الكتاب عن *العَوْد للتجسد* كان موجَّهاً ضد الأرواحيين الفرنسيين الذين لا تعادل نظريتُهم في لافلسفيَّتها ولامعقوليَّتها إلا التعليم المشرقي في منطقيَّته وتماسك حقيقته. فالآخذون بالتقمص من مدرسة ألان كاردِك يؤمنون بعَودٍ للتجسد اعتباطي وفوري. عندهم يمكن للأب الميت أن يتجسد في ابنته التي لم تولد بعدُ، وهلم جرا. ليس لديهم لا ديفاخان، ولا كرما، ولا أية فلسفة من شأنها أن تسوِّغ ضرورة الولادات الجديدة المتتالية أو تبرهن عليها. فكيف يمكن لمؤلِّفة *إيزيس* أن تحاجج ضد العَوْد *الكرمي* للتجسد، ذي الفواصل المديدة التي تتراوح بين 1000 و 1500 سنة، وهذه العقيدة هي من معتقدات البوذيين والهندوس أساسُها؟

السائل: إذن فأنتم ترفضون نظريات الأرواحيين، فرنسيين وأنكلوسكسون، جملة وتفصيلاً؟

---

182 - المقصود بالـ"تجسمات" تلك الهيئات المادية التي تظهر في جلسات الأرواحيين، فيظنونها "أرواحاً" تتخذ صورة مادية، بينما هي ليست في الواقع إلا تلك الأصداف أو الأحداث النجمية التي تتحرق إلى تلبية الرغبات والشهوات غير المشبعة في الحياة الشخصية للمتوفى باستعمالها الأجسام اللطيفة للمشاركين في الجلسة. (م)

الثيوصوفي: ليس جملةً، إنما نرفض ما يتعلـق بالمعتقـدات الأساسـية الخاصـة بكلٍّ من الفئتين. كلتاهما تعوِّل علـى مـا تقـوله "أرواحُهمـا"؛ وكـلٌّ منهمـا يعـارض الأخرى بمقدار ما نعـارِض، نحـن الثيوصـوفيين، كلتيهمـا. الحقيقـة واحـدة؛ وحيـن نسـمع الأشـباح الفرنسـيين يبشِّـرون بـالعَوْد للتجسـد، والأشـباح الإنكليـز ينفـون العقيدة ويندِّدون بها، نقول إن "الأرواح" الفرنسـية أو "الأرواح" الإنكليزيـة تهـرف بما لا تعرف. أما نحن فنؤمن مع كلا الفريقين بوجود "أرواح"، أو كائنات غير مرئية تتمتع بكثير أو بقليل من الفطنة. ولكن، في حيـن أن أنواعهـا وأجناسـها *جحفـل*،[183] فإن خصومنا لا يقرُّون بوجود أرواح غير "الأرواح" البشرية المتجرَّدة من جسـومها التي تنتمي غالبيتها، على ما نعلم، إلى فئة **الأصداف** الكامالوكية.

السائل: إنـك تبـدي الكـثير مـن المـرارة حيـال الأرواح. فبمـا أنـك بسـطتَ لـي نظراتكـم والأسباب التي تحول دونكـم والاعتقـاد بتجسُّـم الأرواح المتجـرِّدة مـن أجسـامها – أو "أرواح الموتى" – أو بإمكان الاتصال بها مباشرة في جلسات استحضار الموتى، هل لـك أن تنـوِّرني فيما يتعلق بواقعة أخرى أيضاً؟ لم لا يكلُّ بعـض الثيوصـوفيين مـن الحـديث عـن مبلـغ خطـر التواصل مع الأرواح والوساطة؟ هل لديهم أسباب وجيهة تدعوهم لذلك؟

الثيوصوفي: ينبغي أن نفترض ذلك. من جانبي *عندي* مثل هذه الأسباب. فنظراً لمعرفتي اللصيقة، الممتدة على نصـف قـرن، لهـذه "المـؤثرات" اللامرئيـة، إنمـا الملموسة بحيث لا سبيل إلى إنكارها، بدءاً من العنصرانيات الواعيـة، فالـ*أصداف* نصف الواعية، نزولاً حتى الأشباح عديمة الحس التي ليست لها صفة تُذكَر من كل الأنواع، أدَّعي بأن لنظراتي وزناً في هذا المجال.

السائل: هل لك أن تأتي بمثال أو بأمثلة تبيِّن لماذا يجب أن تُعتبَر هذه الممارسات خطرة؟

الثيوصوفي: يتطلب هذا من الوقت أطول مما في وسعي أن أخصِّص لك. على كلِّ سبب أن يُبَتَّ فيه بالنتائج التي تنجم عنه. فلتستعرِض تاريـخ الأرواحيـة طـوال الأعوام الخمسين الأخيرة، منذ عودتها إلى الظهور فـي هـذا القـرن فـي أمريكـا – واحكم بنفسك فيما إذا كانت قد جلبت على أشياعها خيراً أو ضـرراً أكـثر. أرجـوك افهمني. لست أهاجم الروحانية الحق، بل الحركة الحديثة التي تحمل ذلك الاسـم، وتلك الفلسفة المزعومة التي اختُلِقَت لتعليل ظواهرهم.

السائل: أفلا تعتقد بوجود ظواهرهم على الإطلاق؟

الثيوصوفي: لأني أستند في اعتقـادي بوجودهـا إلـى أسـباب أكـثر مـن وجيهـة، ولأني أعرف أنها – ما خلا بعض حالات الاحتيال العَمْد – صحيحة صحة أننا نحيا أنت وأنا، ينفر كياني برمَّته منها. أكرِّر أنني لا أتكلم إلا على الظواهر الجسمانية وحدها، وليس على الظواهر الذهنية أو حتى النفسانية. الطير علـى أشـكالها تقـع. أعـرف شخصياً عدداً من الرجال والنساء المترفعين عـن الـدنايا، الأنقيـاء، الأخيـار، ممَّـن صرفوا سنوات من حياتهم بإرشادٍ مباشر، وحتى حماية، مـن "أرواح" عليـا، سـواء متجردة مـن جسـومها أو كوكبيـة. لكـن هـذه العقـول ليسـت مـن فئـة جـون كنـغ

183 - استعارة من الإنجيل وردت فيه عند ذكر حادثة إخراج الشياطين من الممسوس (مرقس 4: 9)، وتعني: "كثيرة جداً". (م)

وإرنست التي تظهر في حجرات جلسات استحضار الأرواح. فهذه العقول العليا لا ترشد البشر وتقودهم إلا في حالات نادرة استثنائية، إذ تنجذب إليهم وتنشدُّ مغناطيسياً بفضل الماضي الكرمي للفرد. لا يكفي لجذبها الجلوسُ "بانتظار ما سيجري"! فذلك لا يفتح الباب إلا لحشد من "الأشباح" – طيِّبها، شريرها، ولامباليها – التي يمسي الوسيط عبداً لها مدى الحياة. وإني لأرفع صوتي ضد مثل هذه الوساطة والخِلطة المشاعيتين مع القطارب [184] الخبيثة، وليس ضد التصوف الروحي. فهذا مشرِّف وقدسي؛ بينما الأوْليين من طبيعة الظواهر نفسها التي حُكِمَ من جرائها بالعذاب قبل قرنين على ذلك العدد الغفير من الساحرات والمشعوذين. اقرأ غلانفل وغيره من المؤلفين ممَّن كتبوا في موضوع الشعوذة وستجد مدوَّنةً في كتاباتهم مثيلات غالبية – إن لم نقل كافة – الظواهر الجسمانية لـ"أرواحية" القرن التاسع عشر.

السائل: هل ترمي إلى التلميح بأنها شعوذة ليس إلا؟

الثيوصوفي: ما أرمي إليه هو أن كل هذا التعامل مع الموتى، واعياً كان أم غير واعٍ، هو *استحضار للموتى*، وهو ممارسة شديدة الخطورة. فقبل موسى بعصور كان مثل هذا الاستدعاء للأموات يُعتبَر لدى جميع الأمم الذكية أمراً شائناً وقاسياً، بالنظر إلى أنه كان يقلق راحةَ النفوس ويعرقل تفتحها التطوري نحو حالات أرفع. ما انفكت الحكمة الجمعية للقرون الماضية قاطبة تندِّد بشدة بمثل هذه الممارسات. وأخيراً، سأقول لك ما لم أنِ أكرِّره شفاهاً وكتابةً طوال خمسة عشر عاماً: فعلى حين تهرف بعض "الأرواح" المزعومة بما لا تعرف، وتكرِّر – مثل الببغاوات – ما تجده في أدمغة الوسيط وغيره من الناس ليس غير، فإن بعضها الآخر شديد الخطورة، ولا يملك أن يزين للمرء إلا الشر. هاتان واقعتان بيِّنتان. اذهب إلى حلقات ألان كاردِك الأرواحية تجدْ "أرواحاً" تصرُّ على صحة التقمص وتتكلم مثل كاثوليك رومان مطبوعين؛ ثم توجَّهْ إلى "الراحلين الأعزاء" في إنكلترا وأمريكا تسمعهم ينفون التقمص صراحة، مندِّدين بمن يعلِّمونه، متمسِّكين بنظرات البروتستانتية. إن خيرة وسطائكم وأقدرهم عانوا جميعاً في صحة أجسامهم وأذهانهم. تفكَّر في النهاية التعسة لتشارلز فوستر الذي قضى نحبه مجنوناً يهذي في مصحة للأمراض العقلية؛ تفكَّر في سليد، المصروع؛ في إغْلِنتُن – خيرة الوسطاء في بريطانيا اليوم – الذي يكابد الداء عينه. تذكَّر حياة د. د. هوم، الرجل الذي كان ذهنُه ممتلئاً سخطاً ومرارة والذي لم يفُهْ قط بكلمة طيبة واحدة عن كلِّ من كان يشتبه في امتلاكه قدرات نفسانية وكان يسفِّه جميع الوسطاء الآخرين حتى مماته المرير. لقد عانى كالفن [185] الأرواحية هذا سنين طوال من داء شوكي رهيب، أصابه من جراء مخالطته للـ"أرواح"، ومات محطماً تماماً. تفكَّر أيضاً في مصير المسكين واشنطن آيرفنغ بِشوب التعس. لقد عرفتُه في نيويورك، يوم كان في الرابعة عشر، وكان وسيطاً، ما في ذلك ريب. صحيح أن الرجل المسكين احتال على "أرواحه"، فأطلق عليها تسمية "النشاط العضلي

---

184 - فئة من "العفاريت" في التراث الشعبي الأوروبي. (م)

185 - إشارة إلى جان كالفن (1509-1564)، أحد أئمة المذهب البروتستانتي وناشر الكنيسة الإصلاحية في فرنسا وسويسرا، الذي عُرِفَ بتكفيره لأتباع المذاهب الأخرى كافة؛ والمقصود أن سلوك الوسيط المذكور في نطاق الأرواحية كان شبيهاً بسلوك كالفن في نطاق الدين. (م)

اللاواعي"، الأمر الذي هلَّلت له جميعُ هيئات المغفَّلين من متضلِّعين وعلماء والذي عبَّأ جيبه. ولكن *اذكروا محاسن موتاكم* [186] - كانت ميتتُه محزنة. لقد حرص جاهداً على إخفاء نوباته الصرعية – أول أعراض الوساطة الحقيقية وأشدها – ومن يدري إن كان ميتاً أو في غيبوبة حين عوين بعد "مماته". أقرباؤه يصرون أنه كان ما يزال حياً، إذا أخذنا برقيات وكالة رويترز على محمل التصديق. وأخيراً دونك الشقيقتين فوكس، المحنَّكتين بين الوسطاء، مؤسِّستي الأرواحية الحديثة ومحرِّكتيها الأوليين. فبعد أكثر من أربعين عاماً من التواصل مع "الملائكة"، جعلتهم هذه "الملائكة" مخبولتين لا أمل في برئهما، تندِّدان الآن، في محاضرات علنية، بعمل وفلسفة حياتهما برمَّتها بوصفها خديعة. فهل لك أن تقول لي أيَّ ضرب من الأرواح كان ذاك الذي لقَّنهما؟

السائل: أيكون استنتاجك هذا صائباً؟

الثيوصوفي: ماذا تستنتج من انهيار خيرة طلاب مدرسة معينة للغناء نتيجة إرهاق حناجرهم وتقرُّحها؟ لا بدَّ أنك سوف تستنتج أن النهج المتَّبع كان سيئاً. لذا أعتقد أن الاستنتاج منصف للأرواحية سواء بسواء حين نشاهد خيرة وسطائها واقعين فريسة مصير كهذا. ليس في وسعنا إلا أن نقول: فليبُتَّ المهتمون بالأمر في شجرة الأرواحية من ثمارها، وليتفكَّروا في العبرة. نحن الثيوصوفيين اعتبرنا الأرواحيين دوماً إخواناً لنا، لديهم ميولنا الصوفية عينها؛ أما هم فقد اعتبرونا دوماً أعداء. ولما كنا مؤتمَنين على فلسفة أعرق فقد حاولنا من جانبنا أن نساعدهم ونحذِّرهم؛ لكنهم جازونا بالشتم وبالطعن فينا وفي دوافعنا بكل السباب الممكن. ومع ذلك فإن خيرة الأرواحيين الإنكليز تقول بما نقول به تماماً حيثما تناولوا معتقدهم تناولاً جدياً. اسمع م. أ. أوكسُن يعترف بهذه الحقيقة: "الأرواحيون مغالون في الميل إلى القول حصراً بتدخل أرواح خارجية في عالمنا هذا وإلى *تجاهل قدرات الروح المتجسِّدة*." [187] فلماذا يُطعَن فينا، إذن، ونسفَّه على قولنا بالشيء عينه بالضبط؟ من الآن فصاعداً لن يكون لنا دخل في الأرواحية، ولنعد الآن إلى التقمص.

***

186 - باللاتينية في الأصل: *De mortius nil nisi bonum*. (م)

187 - *Second Sight*, “Introduction.”

الباب الحادي عشر

في أسرار التقمُّص

الولادات الدورية المستجدة

السائل: أنت تقصد، إذن، أننا جميعًا عشنا على الأرض من قبل، في العديد مـن التقمُّصـات الماضية، وأننا سوف نواصل حياتنا على هذا النحو؟

الثيوصوفي: أجـل. إن دورة الحيـاة، أو دورة الحيـاة الواعيـة بـالأحرى، تبـدأ بتمايز الحيوان البشري الفاني إلى جنسين، وسوف تنتهي باختتام الجيل الأخيـر من البشر، في الجولة السابعة والذرية السابعة من النوع البشري. وباعتبار أننا لسنا بعدُ إلا في الجولة الرابعة والذرية الخامسة، فإن مـدَّتها أسـهل تخيُّلاً منهـا تعبيرًا.

السائل: ونحن نستمر في التقمُّص في *شخصيات* جديدة على الدوام؟

الثيوصوفي: بكل تأكيد نستمر؛ وذلك لأن دورة الحياة أو فترة التقمُّـص هـذه قد تصحُّ مقارنتُها بعمر الإنسان. فكما أن كلَّ عمر من هذه الأعمـار مكـوَّن مـن نهارات من النشاط تفصل بينهـا ليـالٍ مـن النـوم أو مـن القعـود عـن النشـاط، كذلك، في دورة التقمُّص، تتبع العمرَ النشيطَ راحةٌ ديفاخانية.

السائل: وهذا التوالي من الولادات هو الذي يُعرَّف به عمومًا بوصفه التقمُّص؟

الثيوصوفي: هو كذلك. فإن تقدم الملاييـن الـتي لا تُحصـى مـن الأنيَّـات نحـو الكمال النهائي والراحة النهائيـة (مـادامت فـترة النشـاط) لا يتـمُّ إلا عِـبر هـذه الولادات إياها.

السائل: وما الذي ينتظم مدةَ هذه التقمُّصات أو خصائصها المتميزة؟

الثيوصوفي: إنه *كرما*، قانون العدالة الجزائية الشامل.

السائل: وهل هو قانون عاقل؟

الثيوصوفي: في نظر المادي، الذي يدعو قانون الدورية الـذي ينتظـم تجميـع الأجسام المختلفة، وسائر القوانين الأخرى في الطبيعـة، قـوى عميـاء وقـوانين

ميكانيكية، لا ريب أن *كرما* سيكون قانون مصادفة، لا أكثر. أما في نظرنا، لا يمكن لأيِّ نعت أو صفة وصفُ ذلك القانون اللاشخصي الذي ليس كيانًا، بل قانون ساري المفعول شامل. إذا سألتَني عن الفطنة السببية فيه لا بدَّ أن أجيبك بأني لا أعلم. لكنْ إذا سألتني أن أعرِّف آثاره وأن أخبرك بالمكانة التي تشغلها في معتقداتنا يجوز أن أقول إن خبرة آلاف العصور بيَّنتْ لنا أنها *العدل والحكمة والفطنة* المطلقة السديدة. إذ إن *كرما*، في آثاره، هو المسدِّد المتواصل للظلم الإنساني ولكلِّ قصورات الطبيعة؛ المعدِّل الصارم للأخطاء؛ القانون الجزائي الذي يثيب ويعاقب بالقسط المتساوي. إنه، بالمعنى الأكثر تشدُّدًا، "لا يحابي الأشخاص"، مع أنه، من جهة أخرى، لا يمكن استرضاؤه ولا تحييده بالصلاة. وهذا معتقد يشترك فيه الهندوس والبوذيون، الذين يعتقدون جميعًا بـ*كرما*.

السائل: العقائد المسيحية تناقض كلا الهندوس والبوذيين في هذا؛ وأشك في أن يقبل مسيحيٌّ واحد بهذا التعليم.

الثيوصوفي: أجل، وقد بيَّن إنْمَن السبب في ذلك منذ سنوات عديدة خَلَتْ. فعلى حدِّ قوله، بينما "يقبل المسيحيون بأيِّ هراء، مادامت الكنيسة تعمِّمه بندًا من بنود الإيمان [...]، فإن البوذيين يذهبون إلى أن لا شيء يناقضُه الصوابُ المعافى يصحُّ أن يكون عقيدة من عقائد بوذا الصحيحة." إنهم لا يعتقدون بأية مغفرة لخطاياهم، إلا بعد عقاب ملائم وعادل على كلِّ فعلة أو خاطرة شريرة في تقمُّص لاحق، وبعد تعويض مناسب للأطراف المتضرِّرين.

السائل: أين يَرِدُ هذا؟

الثيوصوفي: في غالبية كتبهم المقدسة. ففي *عجلة الناموس* (ص 57) يمكنك أن تجد المبدأ الثيوصوفي التالي: "يعتقد البوذيون أن لكلِّ فعل أو كلمة أو خاطرة عاقبة، لا بدَّ أن تظهر، عاجلاً أو آجلاً، في الحالة الحاضرة أو في الحالة المقبلة. الأفعال الطالحة تُنتِج عواقب طالحة، والأفعال الصالحة تُنتِج نتائج صالحة: الازدهار في هذا العالم، أو الولادة في السماء (*ديفاخان*) [...] في الحالة المقبلة."

السائل: والمسيحيون يؤمنون بالشيء نفسه، أليسوا كذلك؟

الثيوصوفي: ويحك، لا. إنهم يؤمنون بالعفو وبمغفرة الخطايا جميعًا. إنهم موعودون بأنهم إذا آمنوا وحسب بدم المسيح (الضحية *البريئة*!)، بدمه المسفوح قربانًا منه فداءً عن خطايا البشرية جمعاء، فإنه سيكفِّر عن كلِّ الخطايا المميتة. أما نحن فلا نعتقد بالتكفير بالنيابة، ولا بإمكانية مغفرة أيِّ إله لأصغر الخطايا، حتى إذا كان "مطلقًا *شخصيًّا*" أو "لانهائيًّا"، إذا جاز لمثل هذا الشيء أن يوجد أصلاً. ما نعتقد به هو العدالة الصارمة المنصفة. وفكرتنا عن الألوهة الكلِّية المجهولة، متمثِّلةً في *كرما*، هي قدرة معصومة لا يمكن، بالتالي، أن يعتورها غضب أو رحمة، إنما فقط الإقساط المطلق، الذي يترك كلَّ علَّة،

عَظُمِتْ أم صَغُرَتْ، تستنفد معلولاتها المحتومة. إن قول يسوع: "بالكيل الذي تكيلون به يُكال لكم" (متى 7: 2) لا يشير، لا تصريحًا ولا تلميحًا، إلى أيِّ أمل في رحمة أو خلاص مقبلين بالوكالة. لهذا فإننا، إذ نقرُّ في فلسفتنا بصواب هذه العبارة، لا يسعنا إلا أن نشدِّد بغير حدٍّ في التوصية على الرحمة والإحسان ومغفرة الإساءات المتبادلة. *لا تقاوموا الشرَّ* [يسوع] وكن *بالخير للشرِّ قاهرًا* [بولس الرسول] وصيتان بوذيتان؛ وقد بُشِّر بهما أصلاً بالنظر إلى جبرية القانون الكرمي. إن تولِّي الإنسان للقانون، على كلِّ حال، لهو من قبيل الظنِّ التجديفي. فالقانون البشري يجوز له أن يتخذ تدابير مقيِّدة، لا قصاصية؛ إن امرأً، مع إيمانه بـ*كرما*، يقتصُّ لنفسه ويرفض أن يغفر الإساءات، فيردُّ بذلك على الخير بالشر، مجرمٌ ولا يؤذي إلا نفسه. فبما أن *كرما* لا بدَّ أن يقتصَّ من المرء الذي أساء إليه، فإنه، بسعيه إلى إنزال عقوبة إضافية بعدوِّه، بدلاً من أن يترك ذلك العقاب للقانون الأعظم، مضيفًا إليه حصَّته الضئيلة، لا يولِّد من جراء ذلك إلا سببًا لثواب مقبل يناله عدوُّه وعقابًا مستقبليًّا يطاله هو. إن هذا المعدِّل المعصوم يحدِّد، في كلِّ تقمُّص، نوعية التقمُّص التالي، الذي يتعيَّن بمجموع المزايا أو المثالب في التقمُّصات السابقة.

السائل: هل لنا، إذن، أن نستنبط ماضي المرء من حاضره؟

الثيوصوفي: أجل، لكنْ بمقدار ما نتأكَّد من أن حياته الحاضرة هي ما ينبغي عدلاً أن تكون عليه للتكفير عن خطايا الحياة الماضية. بالطبع – باستثناء الرائين والنطاسين الكبار – لا نستطيع كبشر عاديين أن نعرف ماهية تلك الخطايا. فكما أننا من نزر المعطيات في حوزتنا يتعذَّر علينا حتى أن نعيِّن ما كان عليه شبابُ رجل مسنٍّ، كذلك لا نستطيع، بالأحرى، استخلاص نتائج نهائية من مجرَّد ما نراه في حياة امرئ ما بخصوص ما كانت عليه حياته الماضية.

ما هو *كرما*؟

السائل: ولكن ما هو *كرما*؟

الثيوصوفي: نحن، كما سبق أن قلت، نعتبره *القانون الأقصى* للكون، مصدر وأصل ومنبع كافة القوانين الأخرى الموجودة في الطبيعة برمَّتها. *كرما* هو القانون المعصوم الذي يوازن ما بين المعلول والعلَّة، على المراتب الجسمانية والذهنية والروحانية للوجود. فبما أنه ما من سبب يبقي بدون النتيجة المترتبة عليه، من الأكبر إلى الأصغر، من خلل كوني نزولاً حتى حركة يدك، وبما أن العلل تولِّد معلولاتٍ من جنسها، فإن *كرما* هو ذلك القانون الخفي المجهول *الذي يوازن بحكمة وفطنة وإنصاف* بين كلِّ نتيجة وسببها، مقتفيًا أثر الأخير حتى صانعه. ومع أنه، بحدٍّ ذاته، *غير قابل للمعرفة* فإن فعله قابل للإدراك.

السائل: فهو إذن "المطلق"، "غير القابل للمعرفة" مرة أخرى، وليس بذي فائدة تُذكَر في تعليل مشكلات الحياة؟

الثيوصوفي: على العكس. فمع أننا لا نعرف ماهية *كرما* بحدِّ ذاته، وفي جوهره، فإننا *نعرف* قطعًا *كيفية* عمله، ويمكننا أن نعرِّف طريقة عمله ونَصِفَها بدقة. غير أننا *لا* نعرف *علَّته* القصوى، مثلما أن الفلسفة الحديثة تعترف عالميًّا بأن العلَّة *القصوى* لأيِّ شيء "غير قابلة للمعرفة".

السائل: وما قول الثيوصوفيا فيما يتعلق بتلبية الحاجات الأكثر عملية للبشرية؟ ما هو التعليل الذي تقدِّمه فيما يخص الشقاء الفظيع والعوز المدقع اللذين يسودان بين ما يسمَّى بـ"الطبقات الدنيا"؟

الثيوصوفي: لبُّ الموضوع هو أن كافة هذه الشرور الاجتماعية الكبرى – التمييز الطبقي في المجتمع، والتمييز بين الجنسين في شؤون الحياة، والتوزيع غير المتساوي لرأس المال والعمل – هذه كلُّها ناجمة عما نسميه، اختصارًا لكنْ صوابًا، ***كرما***.

السائل: ولكن قطعًا هذه الشرور كلُّها، التي تبدو وكأنها تنزل بالجماهير نوعًا ما كيفما اتفق، ليست الـ*كرما* الفعلي المستحَق و**الفردي**؟

الثيوصوفي: لا، لا يصح أن يعرَّف بها بهذه الصرامة في نتائجها، بحيث تبيِّن أن كلَّ بيئة فردية، وشروط الحياة الخاصة التي يجد كلُّ شخص نفسه فيها، ليست أكثر من الـ*كرما* الجزائي الذي ولَّده الفرد في حياة سابقة. يجب أن نُبقي نُصْبَ أعيننا أن كلَّ ذرة خاضعة للقانون العام الذي يحكم الجسم برمَّته الذي تنتمي إليه تلك الذرة؛ وهنا نقع على السياق الأوسع للقانون الكرمي. ألا تدرك أن جملة الـ*كارما* الفردي تصير *كرما* الأمَّة التي ينتمي إليها أولئك الأفراد، وأكثر من ذلك، أن مجموع *كرما* الأمَّة هو *كرما* العالم؟ الشرور التي تتحدث عنها لا تخصُّ الفرد وحده أو حتى الأمَّة، بل هي عالمية إلى حدٍّ ما. وضمن هذا المنظار الأوسع للتواكل البشري يجد قانونُ *كرما* مخرجَه المشروع والممهَّد.

السائل: هل أفهم من ذلك، إذن، أن قانون *كرما* ليس بالضرورة قانونًا فرديًّا؟

الثيوصوفي: هذا ما أعنيه بالضبط. فمن المتعذَّر أن يعيد *كرما* تعديل توازن القوى في حياة العالم وتقدُّمه إلى نصابه ما لم يكن يتصف بنهج عمل واسع وشامل. يعتبر الثيوصوفيون صحيحًا أن تواكل البشرية هو علَّة ما يسمَّى الـ***كرما* التوزيعي**؛ وهذا القانون هو الذي يقدِّم الحلَّ لقضية الشقاء الجماعي الخطيرة والتفريج عنه. وعلاوة على ذلك، فإن القانون الغيبيَّ ينصُّ أن المرءَ الذي يتسامى على نقائصه الفردية لا يمكن إلا أن يرفع، وإنْ قليلاً، الجسمَ برمَّته الذي يشكِّل جزءًا لا يتجزأ منه. وعلى النحو نفسه، فإن المرءَ الذي يأثم، أو يعاني نتائج الإثم، لا يفعل ذلك وحده. ففي الواقع، لا وجود لشيء يدعى "انفصالية"؛ وقوانين الحياة لا تجيز الاقتراب من تلك الحالة الأنانية إلا في حدود النية أو الدافع.

السائل: ألا توجد وسائل يمكن بها تركيز الـ*كارما* التوزيعي أو *كرما* الأمَّة أو تجميعه، إذا جاز القول، وسَوْقُه إلى تحقيقه الطبيعي أو الشرعي بدون كلِّ هذا العذاب المتمادي؟

الثيوصوفي: كقاعدة عامة، وضمن حدود معينة يتصف بها العصر الذي ننتمي إليه، لا يمكن التسريع من قانون *كرما* أو إبطاؤه في تحقيقه. لكنـي متأكـد مـن الأمر التالي: لم يتم قط بلوغ حدود الممكن في أيٍّ من هـذين الاتجـاهين. أصغِ إلى السرد التالي لطور مـن أطـوار العـذاب القـومي، ثـم اسـألْ نفسـك، آخـذًا بالحسبان القوة الفاعلة للـ*كرما* الفردي والنسبي والتوزيعي، عمـا إذا لـم يكـن بالإمكان تعديل هذه الشرور تعديلاً واسعًا والتفريـج عنهـا عمومًـا. مـا أنـا علـى وشك قراءته لك هو بقلم مخلِّصة وطنية، امرأة، إذ تغلَّبتْ علـى الـذات، وبـاتت حرَّة الاختيار، اختارت أن تخدم الإنسانية، حاملة على عاتقيها على الأقل مقـدار ما يستطيع عاتقا امرأة أن يحملاه من *كرما* الأمَّة. هذا ما تقول:

أجل، إن الطبيعة تتكلَّم دومًا، ألا تظنون ذلك؟ – غير أننا أحيانًا نـثير مـن الضجيج ما يعلو على صوتها. لذا فمن المريح جدًّا أن نخرج مـن المدينـة ونستكنَّ برهة في أحضان الأم. أتذكر أمسية في هامستِد هيـث تفرجنـا فيها على الشمس وهي تغيب؛ ولكـن ويلـي! – علـى أيِّ عـذاب وبـؤس غابت تلك الشمس! جلبتْ إليَّ سيدةٌ بـالأمس سـلَّة كـبيرة مـن الأزهـار البرية. فكرت بأن بعض أفراد أسرتي في إيسْتْ إنْدْ كانوا أحقَّ منِّي بها؛ وهكذا نزلت بها إلى مدرسـة فقيـرة جـدًّا فـي وايتشـابل هـذا الصـباح. وليتك رأيت كيف أشـرقتْ تلـك الوجـوه الصـغيرة الشـاحبة! ثـم ذهبـت لشراء طعام للعشاء لبعض الأطفال في مطعم صغير. كـان واقعًـا فـي شارع خلفي ضيق، مليئًا بأناس يتـدافعون؛ كـانت رائحـة نتـن لا يوصـف تنبعث من سمك ولحم وأطعمة أخرى، تعجُّ جميعًا في شـمس وايتشـابل التي تقرِّح بدلاً من أن تطهِّر. كان المطعم خلاصة لكلِّ الروائح: فطـائر باللحم بقرش واحد، كتل كريهـة مـن "الطعـام" ورفـوف مـن الـذباب – مذبح لبعلزبول[188] نفسه! وحوله أطفال يتكالبون على الفتـات، أحـدهم، بوجه كوجه ملاك، يجمع نوى الكرز بمثابة حميـة خفيفـة ومغذيـة. عـدت غربًا، وكلُّ عصبٍ فيَّ يرتعد مقشعرًّا، متسائلة عما إذا كان ثمة ما يمكـن القيام به في بعض أحياء لندن غير ابتلاعها في زلـزال وتجديـد سـكانها عن بكرة أبيهم، بعد تغطيسهم في نهر ليـثي[189] مـا، بحيـث لا يسـتبْقون أثرًا لذكرى! عندئذٍ فكرت في هامستِد هيـث وشـرعت فـي التفكُّـر. لـو استطاع المرء، بأعجوبة ما، أن يظفر بالقدرة على إنقاذ هـؤلاء النـاس، لما كان الثمن يستحق العـدَّ؛ لكـن ألا تـرون معـي أن النـاس هـم الـذين ينبغي أن يتغيَّروا – فكيف يمكن إنجاز ذلك؟ في الشـرط الـذي يعيشـون فيه الآن لن يستفيدوا من أية بيئة يمكن وضعهم فيهـا؛ بيـد أنهـم، فـي محيطهم الحالي، لا بدَّ أن يستمروا فـي التفسـخ. هـذا البـؤس الـذي لا ينتهي، المقطوع الأمل منه، وهذا الانحطاط البهيمي، الـذي هـو ثمرتـه وجذره، يحطم قلبي. إنه أشبه بشجرة البَنيان: كلُّ غصن يتجذَّر ويطلـق فروعًـا جديـدة. أي فـرق بيـن هـذه المشـاعر والمشـهد الهـادئ فـي هامستد! ومع ذلك فنحن، أشقاء وشقيقات هذه المخلوقات المسكينة، ليس لدينا الحق في التمتع بأحياء مثل هامستِد هيث إلا لاكتساب القـوة

188 - رئيس الشياطين في التراث اليهودي. (م)

189 - نهر "النسيان" في الأساطير اليونانية؛ مَن يسبح فيه يفقد ذاكرته. (م)

لإنقاذ أحياء من نحوٍ وايتشابِل. (*بتوقيع اسم يتمتع بقدر من الاحترام والشهرة لا يجيز إعطاءه للمتهكِّمين.*)

السائل: تلك رسالة حزينة لكنها جميلة؛ وأظنها تقدِّم تقديمًا باديًا للعيان كيفية العمل الرهيبة لما سمَّيتَه "الـ*كرما* النسبي والتوزيعي" ولكن، أوَّاه! لا يبدو أن ثمة أمل قريب لأيِّ تفريج، ما لم يحدث زلزالٌ أو أيُّ بلاء عام مماثل!

الثيوصوفي: بأيِّ حقٍّ نفكِّر على هذا النحو، في حين أن بمقدور نصف البشرية أن يُحْدِثَ تفريجًا فوريًّا للحرمان الذي يعاني منه رفاقُهم؟ عندما يساهم كلُّ فرد في الخير العام بما في وسعه من مال، أو جهد، أو فكر مشرِّف، إذ ذاك، وإذ ذاك فقط، سيعود ميزان الـ*كرما* القومي إلى نصابه – وحتى ذلك الوقت ليس لنا الحقُّ ولا الصواب في القول إن هناك على الأرض حياة أكثر ممَّا في وسع الطبيعة أن تقوم بأوده. وإنه لمن نصيب النفوس البطولية، نصيب مخلِّصي قومنا وأمَّتنا، أن يجدوا علَّة هذا الضغط غير المتساوي للـ*كرما* الجزائي، فينهضوا، بجهد فائق، لإعادة تعديل ميزان القوى وإنقاذ القوم من بلاء معنويٍّ أشد كارثيةً وأدْوَمَ شرًّا بألف مرة من نظيرته الكارثة المادية، التي يبدو أنك ترى فيها المخرج الوحيد الممكن لهذا البؤس المتراكم.

السائل: طيب، قُلْ لي، إذن، كيف تصفون قانون *كرما* هذا على نحوٍ إجمالي؟

الثيوصوفي: نحن نصف *كرما* بوصفه قانون إعادة التعديل الذي ينزع أبدًا إلى إعادة التوازن المختل إلى نصابه في العالم الجسماني وإلى ترميم التناغم المكسور في العالم المعنوي. نقول إن *كرما* لا يعمل دومًا بهذه الطريقة أو تلك، إنما بأنه يعمل *فعلاً* لكي يرمِّم التناغم ويصون قسطاس التوازن، الذي بفضله يوجد الكون.

السائل: أعطني مثالاً موضِّحًا على ذلك.

الثيوصوفي: سأعطيك لاحقًا توضيحًا كاملاً. لكنْ تخيَّل الآن بِركةَ ماء. هَبْ أن حجرًا سقط في الماء وصنع مويجاتٍ مُقَلْقِلَة. هذه المويجات تنوس بين الوراء والأمام حتى تنحو أخيرًا، من جرَّاء فعل ما يسميه الفيزيائيون قانون تبدُّد الطاقة، إلى الراحة ويعود الماء إلى وضع السكون الهادئ الذي كان عليه. بالمثل، فإن جميع الأفعال، على كلِّ مرتبة، تنتج قَلْقَلَةً في التناغم المتوازن للكون، والذبذبةُ الناجمة على هذا النحو تستمر في الجريان إلى الوراء وإلى الأمام، إذا كان نطاقُها محدودًا، حتى يعود التوازن إلى نصابه. ولكن بما أن كلَّ قَلْقَلَةٍ كهذه تبدأ من نقطة معينة ما، من الواضح أنه لا يمكن إعادة التوازن والتناغم إلى نصابهما إلا بإعادة ملاقاة، *في تلك النقطة بالذات*، كافة القوى التي حُرِّكَتْ انطلاقًا منها. ولديك هنا برهان على أن عواقب أفعال الإنسان وخواطره إلخ لا بدَّ أن ترتدَّ *عليه* بالقوة نفسها التي حُرِّكَتْ بها.

السائل: لكني لا أرى مِنْ سجية معنوية في هذا القانون. يبدو لـي مثـل القـانون الفيزيـائي البسيط الذي ينصُّ على أن الفعل وردَّ الفعل متساويان ومتعاكسان.

الثيوصوفي: لا عجب أن أسمعك تقول ذلـك. لقـد ترسَّـختْ فـي الأوروبييـن عادةُ اعتبار الحقِّ والباطل، الخير والشرِّ، أمورًا تخصُّ جملـة قـوانين اعتباطيـة، إمـا مـن وضـع البشـر، وإمـا مـن فَـرْض إلـه شخصـي عليهـم. غيـر أننـا، نحـن الثيوصوفيين، نقول بأن "الخير" و"التناغُم"، من ناحية، و"الشـر" و"اللاتنـاغم"، من ناحية أخرى، إنما هي مترادفات. لا بل أكـثر مـن ذلـك، نـذهب إلـى أن كـلَّ الألم والشقاء نتاج لقصور في التناغم، وأن السبب الوحيد الرهيب، الذي لا ثاني له، لقَلْقَلَة التوازن هو *الأثرة* في شكل أو في آخر. من هنا فـإن *كرمـا* يـردُّ إلـى كلِّ امرئ *العاقبة الفعلية* لأفعاله هو، بدون أيِّ اعتبـار لخاصـيَّتها المعنويـة؛ لكـن بما أنه يتلقَّى حصَّته عن *الكل*، فمن الواضح أنه سيضطر إلـى التكفيـر عـن كـلِّ الآلام التي تسبَّب فيها، مثلما أنه سوف يحصد، فَرَحًا وسرورًا، ثمـارَ كـلِّ الفـرح والتناغم الذي ساعد على تحقيقه. خير ما أفعل الآن هـو أن أقتطـف، لفائـدتك، مقاطع من كتب ومقالات بقلم ثيوصوفيينا – مَن لديهم منهم تصـورٌ صـحيح عـن *كرما* تحديدًا.

السائل: ليتك تفعل، بما أن أدبياتكم تبدو ضنينة جدًّا بخصوص هذا الموضوع.

الثيوصوفي: ذلك لأنه *أصعب* عقائدنا جميعًا. منذ وقت قصير ظهر الاعـتراض التالي بقلم أحد المسيحيين:

> **هَبْ أن التعليم الثيوصوفي صحيح، وأن "على الإنسان أن يكون مخلِّـص نفسه، أن يتغلَّب علـى النفـس وينتصـر علـى الشـرِّ الـذي فـي طـبيعته المزدوجة، من أجل أن ينال انعتاق نفسه"، مـاذا يتعيَّـن علـى المـرء أن يفعل بعد أن يصحو ويتحوَّل إلى حدٍّ مـا عـن الشـرِّ والإثـم؟ كيـف لـه أن يحصل على الانعتاق، أو المغفرة، أو محو الشرِّ أو الإثـم الـذي سـبق أن ارتكبه؟**

يقدِّم السيد ج. هـ. كونلي جوابًا في محلِّه، مفاده أنه ما لأحَدٍ أن يأمل في "جعل القاطرة الثيوصوفية تسير على السكة الثيولوجية."[190] فعلى حدِّ قوله:

> **إن إمكان التملُّص من المسؤولية الفردية ليس من مفاهيم الثيوصوفيا. ففي هذا المذهب ليس ثمة شيء مـن نحـو المغفـرة أو "محـو الشـرِّ أو الإثـم اللـذين سـبق ارتكابهمـا"، اللهـم إلا بالعقـاب المناسـب لمرتكـب الخطيئة إياها وبترميم التناغم في الكون الـذي تقَلْقَـلَ مـن جـراء تلـك الفعلة الآثمة. لقد كان الشرُّ شرُّه، وبينما يتعيَّن علـى آخريـن أن يعـانوا من عواقبه فإن التكفير لا يتم إلا على يده هو.**
>
> **إن الحالة المنظور فيها [...] التي يكون المرءُ فيهـا قـد "صـحا وتحـوَّل إلى حدٍّ ما عن الشرِّ أو الإثم" هي الحالة الذي يكون المرء فيها قد أدرك**

190 - أي "اللاهوتية"، الخاصة بالفقه المسيحي – خلافًا للمعنى الأصلي لكلمة *theologia* اليونانية التي تعني "المعرفة الإلهية" أو "معرفة الله" (من *ثيوس*، "إله"، و*لوغوس*، "معرفة"). (م)

أن أفعاله شريرة وتستحق العقاب. في ذلك الإدراك يسود حتمًا حسٌّ بالمسؤولية الشخصية؛ وحسُّ المسؤولية المروِّءة تلك يتناسب تمامًا مع مدى صحوته أو "تحوُّله". وبينما يشتد عليه هذا الحسُّ يُحَثُّ على قبول عقيدة التكفير بالنيابة.

يقال له بأنه يجب أيضًا أن يتوب – وما من شيء أيسر من ذلك. ذلك أنه من لطائف ضعف الطبيعة البشرية أن نميل بالضبط إلى الندم على الشرِّ الذي ارتكبناه عندما يُلفَتُ انتباهُنا إليه، بعد أن نكون قد عانينا منه نحن أو تمتعنا بثماره. ولعل تحليل هذا الشعور عن كثب يبيِّن لنا أن ما نندم عليه هو بالحري الضرورة التي بدا أن الشرَّ يتطلَّبها كوسيلة لبلوغ مآربنا الأنانية، لا الشرَّ نفسه.

مهما بدا مغريًا منظورُ طرح وزر آثامنا "عند أسفل الصليب" هذا للذهن العادي فإنه لا يزكِّي نفسه في نظر الطالب الثيوصوفي. فهو لا يفقه لماذا يمكن للخاطئ، ببلوغه معرفةَ شرِّه، أن يستحق أية مغفرة على إثمه الماضي أو أيَّ محوٍ لذلك الإثم؛ أو لماذا تؤهِّله التوبة أو السلوك المقبل القويم لتعليق قانون الارتباط بين السبب والنتيجة الكوني من أجله. فنتائج فِعاله الشريرة ما تزال موجودة؛ والمعاناة التي تسببتْ فيها آثامُه للآخرين لا تمحى. الطالب الثيوصوفي يأخذ نتيجة الإثم في حقِّ الأبرياء في حسبانه؛ إنه لا يعتبر الشخص المذنب وحسب، بل وضحاياه أيضًا.

الشر انتهاك لقوانين التناغم التي تحكم الكون، والقصاص الناجم عنه يجب أن ينزل بمنتهك ذلك القانون نفسه. لقد نطق المسيح بالتحذير: "اذهب ولا تخطئ ثانية لئلا تصاب بأسوأ" وقال القديس بولس: "اعملوا من أجل خلاصكم. ما يزرعه المرء إياه يحصد." وذلك، للمناسبة، هو صياغة مجازية بديعة لعبارة *البورانا* الأقدم بكثير من الإنجيل – ومفادها أن "كلَّ إنسان يحصد عواقب أفعاله."

ذلكم هو مبدأ قانون *كرما* الذي تعلِّمه الثيوصوفيا. وسينِّتّ، في كتابه *البوذية الباطنية*، وَصَفَ *كرما* بكونه "قانون السببية الأخلاقية". و"قانون الجزاء"، كما تترجم السيدة بلافاتسكي معناه، أفضل. إنه القوة التي

> **مع أنها غامضة، تقودنا قُدُمًا حتمًا**
>
> **عبر دروب لا تخطر بالبال من الذنب إلى العقاب.**

لكنه أكثر من ذلك. إنه يثيب المزايا بمقدار الحتمية والسعة التي يعاقب عليها المثالب. إنه نتاج كلِّ فعل وخاطرة وكلمة وتصرف؛ به يقولب البشرُ أنفسَهم وحيواتِهم وخبراتِهم. إن الفلسفة الشرقية ترفض فكرة نفس جديدة مخلوقة من أجل كلِّ مولود جديد. إنها تعتقد بوجود عدد محدَّد من المونادات، تتطور وتنمو باطرَّادٍ كمالاً عبر استيعابها للعديد من الشخصيات المتتالية. وهذه الشخصيات هي نتاج *كرما*؛ وبفضل *كرما* والتقمُّص تعود المونادا الإنسانية مع الزمن إلى مصدرها – الألوهة المطلقة.

وفي كتابه *التقمص* يقدِّم إ. د. ووكر التعليل التالي:

> **عقيدة *كرما*، بإيجاز، تنصُّ على أننا صنعنا أنفسنا على ما نحن بأفعالنا السابقة، وعلى أننا نبني أبديَّتنا المقبلة بأفعالنا الحالية. ما مِن قَدَر غير الذي نعيِّنه نحن بأنفسنا. ما مِنْ خلاص أو دينونة إلا التي نقدِّرها نحن على أنفسنا [...]. ولأنها لا تقدِّم أية حماية للأفعال المذنبة وتتطلب رجولة خالصة فإن ترحيب الطبائع الضعيفة بها أقل من ترحيبها بالمذاهب الدينية اليسيرة، من نحو التكفير بالنيابة، والشفاعة، والمغفرة، والاهتداء على فراش الموت [...]. ففي مجال العدالة الأبدية، يرتبط الأذى والعقاب ارتباطًا لا تنفصم عراه بوصفهما الحَدَثَ نفسه، لأنه ليس ثمة تمييز فعلي بين الفعل ونتيجته [...]. إن *كرما*، أو أفعالنا القديمة، هو الذي يشدُّنا مجدَّدًا إلى الحياة الأرضية. ومقام الروح يتغير بحسب *كرما*ها؛ وهذا *الكرما* يحرِّم أية استمرارية مطوَّلة في حالة واحدة، لأنه يتغير *فعلاً* على الدوام. فمادام الفعل محكومًا بدوافع مادية وأنانية فإن نتيجة ذلك الفعل يجب أن تتجلَّى في العودات الجسمانية إلى الولادة بالدوام نفسه. وحده الإنسان الخالص من الأنانية تمامًا يستطيع أن يتملَّص من جذب الحياة المادية. لم يبلغ ذلك إلا الصفوة، لكنه غاية الإنسانية.**

ثم يقتطف الكاتب من *العقيدة السرية*:

> **مَنْ يعتقدون بـ*كرما* ينبغي أن يعتقدوا بالقَدَر الذي يحوكه كلُّ إنسان حول نفسه، من الولادة حتى الممات، خيطًا خيطًا، مثلما يحوك العنكبوت شباكه؛ وهذا القَدَر مقود إما بالصوت السماوي للنمط الأولي غير المرئي خارجنا، أو بإنساننا النجمي أو الباطن الألصق بنا، الذي كثيرًا جدًّا ما يكون الجنِّي الشرير للكيان المتجسِّم الذي يدعي إنسانًا. كلاهما يقود إلى الإنسان الظاهر، لكن أحدهما ينبغي أن يسود؛ ومنذ مستهل هذه المعمعة غير المرئية نفسه يتدخل قانون التعويض الصارم والجبري ويتخذ مساره، متابعًا عن كثب تقلُّبات المعركة. وعندما يحاك آخرُ خيوط، ويبدو المرء وكأنه مغلَّف بالشبكة التي صنعها بنفسه، إذ ذاك يجد نفسه خاضعًا تمام الخضوع لسلطان هذا القَدَر الذي صنعه بنفسه [...]. أما عالِم الغيبيَّات أو الفيلسوف فلن يتكلَّم على طيبة العناية الإلهية أو قسوتها؛ بل، مطابقًا بينها وبين *كرما-نميسيس*،[191] سوف يعلِّم بأنه، في كلِّ حال، يصون الأخيار ويكلؤهم برعايته في هذه الحياة وفي الحيوات المقبلة، وأنه يعاقب الآثم – أجل، حتى ولادته الجديدة السابعة – مادام، بإيجاز، أثرُ تَسبُّبِه في قَلْقَلَة أصغر ذرة في عالم التناغم اللانهائي حتى لم يوازَن أخيرًا. إذ إن حُكْمَ *كرما* الأوحد – وهو حُكْمٌ أبدي قيوم – هو التناغم المطلق في عالم المادة، مثلما هو الأمر في عالم الروح. لذا فإنه ليس *كرما* الذي يثيب أو يعاقب، بل نحن الذين نثيب أنفسنا أو نعاقبها بحسب ما إذا كنَّا نعمل مع الطبيعة، من خلالها، ومعها، ممتثلين للقوانين التي يتوقف عليها ذلك التناغم، أو خارقين إياها. وما كان لسُبُل *كرما* أن تصير عصية على الفهم لو أن البشر عملوا متحدين متناغمين، لا متفرِّقين متنابذين. إذ إن جهلنا لتلك السُّبل – التي يدعوها فريق من البشر سُبُلَ العناية الدامسة والمعقدة،**

---

191 - نميسيس، إلهة الثأر عند قدماء الإغريق. (م)

بينما يرى فريق آخر فيها فعلَ الجبرية العمياء، وفريقٌ ثالث مصادفة محضة، بلا آلهة ولا شياطين يقودونها – سيختفي ببساطة إذ نَسَبْنا هذه كلَّها إلى علَّتها الصحيحة وحسب [...]. نحن نقف حيارى أمام لغز صنعتنا وأحاجي الحياة التي لا نطيق حلَّها، ثم نتهم السفنكس[192] العظيم بافتراسنا. لكن الحقَّ أنه ليست ثمة حوادث في حياتنا، ولا يوم مكروه، أو فأل سيئ، إلا ويمكن اقتفاء أثره حتى أفعالنا نحن في هذه الحياة أو في حياة أخرى [...]. وقانون *كرما* متواشجُ الحياكةِ مع قانون التقمُّص بما لا فكاك منه [...]. وحدها هذه العقيدة يمكنها أن تفسِّر لنا مشكلة الخير والشر الغامضة، وتصالح الإنسان مع ظلم الحياة الظاهري الرهيب. لا شيء غير يقين كهذا من شأنه أن يهدِّئ من روع حسِّنا المتمرِّد بالعدالة. إذ إنه حين ينظر امرؤ غير مطَّلع على هذه العقيدة النبيلة من حوله ويرصد التفاوتات في الولادة والحظوظ، في العقل والمقدرات؛ عندما يرى الأمجاد تُسبَغ على الحمقى والفاسقين، الذين أمطر عليهم الطالعُ أفضاله بمجرد امتيازهم بالنسب، ويرى جارهم، بما يتمتع به من عقل راجح وفضائل نبيلة – الأكثر استحقاقًا من كلِّ وجه – يهلك من الفاقة ومن نقص العطف – عندما يرى المرء هذا كلَّه ويضطر إلى التولِّي، عاجزًا عن التفريج عن المعاناة غير المستحَقَّة، وأذناه تطنَّان وقلبه يدمى من صراخ الألم من حوله – فإن معرفة *كرما* المباركة تلك وحدها تحول بينه وبين لعن الحياة والبشر، وكذلك خالقهم المفترَض [...]. هذا القانون، سواء كان واعيًا أو غير واعٍ، لا يقدِّر شيئًا ولا أحدًا تقديرًا مسبقًا. إنه يوجد حقًّا منذ الأبد وفيه، إذ هو الأبدية نفسها؛ وهو، بهذه المثابة، بما أنه ليس ثمة فعل يتساوى مع الأبدية، لا يصح أن يقال بأنه يفعل، بل هو الفعل نفسه. إنه ليس الموجة التي تُغرِقُ الإنسان، بل الفعل الشخصي لذلك المسكين الذي يمضي عن عَمْدٍ ويضع نفسه تحت طائلة الفعل اللاشخصي للقوانين التي تحكم حركة المحيط. *كرما* لا يخلق شيئًا والقانون الكرمي ينتظم النتائج – باعتبار هذا الانتظام ليس فعلاً، بل هو التناغم الكلِّي، الميَّال أبدًا إلى العودة إلى نصابه الأصلي، مثل غصن، إذ يُحنى قسرًا، يرتدُّ بقوة مكافئة. فإذا اتفق له أن يخلع الذراع التي حاولت أن تثنيه عن وضعه الطبيعي، هل نقول إن الغصن هو الذي كسر ذراعنا، أم أن حماقتنا نحن هي التي تسببت في ضررنا؟ لم يسعَ *كرما* قط لتدمير الحرية العقلية والفردية، مثل الإله الذي اخترعه أهل التوحيد. وهو لم يدبِّر أحكامه في الظلمة عن قصد لكي يحيِّر الإنسان، ولن يعاقب مَنْ يجرؤ على تقصِّي أسراره. على العكس، إن مَنْ يكشف، عبر الدراسة والتأمل، دروبه الشائكة، ويلقي ضوءًا على تلك السُّبُل المظلمة، التي يهلك في تعرجاتها كلُّ هذا العدد من البشر من جراء جهلهم لمتاهة الحياة، يعمل من أجل خير رفاقه البشر. *كرما* قانون مطلق وأبدي في عالم التجلِّي؛ وبما أنه لا يمكن أن توجد إلا علَّة مطلقة واحدة، علَّة أبدية واحدة، حاضرة أبدًا، فإن المعتقدين بـ*كرما* لا يجوز اعتبارهم ملحدين أو ماديين، وأقل من ذلك جبريين؛ إذ إن *كرما* واحد مع غير القابل للعلم، الذي هو مظهر من مظاهره، في آثاره في عالم الظواهر.

---

192 - كائن جسمه جسم لبؤة ورأسه رأس امرأة. هو وحش طيبة في أسطورة أوديب الإغريقية الذي يطرح على المارة أحجية ويفترسهم إذا لم يتمكَّنوا من حلِّها: "ما هو الكائن الذي يدبُّ على أربعة في طفولته، ويسير على اثنتين في منتصف عمره، ويسير على ثلاثة في شيخوخته؟" (م)

وتقول كاتبة ثيوصوفية قديرة أخرى (*غاية الثيوصوفيا*، للسيدة ب. سينِّتّ):

كلُّ فرد يصنع *كرما*، إما صالح وإما طالح، في كلِّ فعل وخاطرة في حياته اليومية؛ وهو، في الوقت نفسه، يستنفد في هذه الحياة الـ*كرما* الناتج من أفعال الحياة السابقة ورغباتها. عندما نرى أناسًا مصابين بأمراض ولادية يجوز لنا أن نفترض، في مأمن من الغلط، بأن هذه الأمراض هي النتائج الحتمية لأسباب ولَّدوها في ولادة سابقة. قد يُحاجَج بأن هذه البلايا، بما أنها وراثية، فإنها لا تمتُّ بصلة إلى تقمُّص ماضٍ؛ لكننا ينبغي أن نتذكر أن الأنية، الإنسان الحق، الفردية، ليس لها أصلٌ روحي في الوالدين اللذين تتجسَّم من خلالهما مجدَّدًا، بل تنشدُّ إلى التجانسات التي جذبها نمطُ حياتها السابق من حولها في التيار الذي يحملها، عندما يحين وقت الولادة من جديد، إلى البيت الأكثر ملاءمة لتفتُّح تلك لميول [...]. عقيدة *كرما* هذه، عندما تُفهَم حقَّ فهمها، مصمَّمة جيدًا لتقود أولئك الذين يدركون حقيقتها إلى نمط حياة أرقى وأفضل وتساعدهم؛ إذ إنه يجب ألا ننسى أن خواطرنا أيضًا، وليس أفعالنا وحسب، متبوعة بكلِّ تأكيد بحشد من الظروف لا بدَّ أن تؤثر، خيرًا أو شرًّا، في مستقبلنا، والأهم من ذلك، مستقبل العديد من رفاقنا من المخلوقات. فلو كانت خطايا السهو والتفويض، على نحوٍ ما، تخصُّنا نحن وحدنا، فإن أثرها على *كرما* الخاطئ سيكون طفيفَ العواقب. إن واقع أن كلَّ خاطرة وفعل عبر الحياة يحمل في ثناياه، صلاحًا أو طلاحًا، تأثيرًا من جنسه على أعضاء آخرين من الأسرة الإنسانية يجعل حسًّا صارمًا من العدالة، والمناقب، وعدم الأنانية، من الضرورة بمكان من أجل السعادة أو التقدُّم المقبلين. إن ارتكاب جريمة، أو انطلاق خاطرة شريرة من الذهن، حالما يتم، لا رجعة فيه – ولا يمكن لأيِّ مقدار من التوبة أن يمحو نتائجه في المستقبل. التوبة، إذا كانت صادقة، ستردع المرء عن تكرار الأغلاط؛ لكنها لا تستطيع أن تنجيه أو تنجي غيره من نتائج الأغلاط التي سبق أن ارتُكِبَتْ والتي ستلاحقه لا محالة إما في هذه الحياة أو في الولادة الجديدة التالية.

ويتابع السيد ج. هـ. كونلي:

إن المعتقدين بدين قائم على عقيدة كهذه على استعداد تام لمقارنتها بدين آخر يكون فيه قَدَرُ الإنسان إلى الأبد معيَّنًا بحوادث عمر أرضي وجيز واحد، يسلوه في أثنائه وَعْدُ "حيثما تسقط الشجرة، هناك سوف تلبث"؛ دين تكون فيه أبهى آماله، عندما يصحو على معرفة إثمه، عقيدةُ التكفير بالنيابة، وفيه تكون حتى هذه العقيدة مقيَّدة، بحسب قانون إيمان الكنيسة المشيخية البروتستانتية.

بأمر من الله، من أجل ظهور مجده، بعضُ البشر والملائكة مقدَّر عليهم مسبقًا الحياةُ الأبدية، فيما بعضُهم الآخر مقضيٌّ عليهم مسبقًا بالموتُ الأبدي.

وهؤلاء الملائكة والبشر، المقدَّر والمقضي عليهم مسبقًا، مكوَّنون بصفة خاصة لا تبديل لها؛ وعددهم مؤكد ومعيَّن بحيث إنه لا يمكن له لا أن يزداد ولا أن ينقص [...]. وبما أن الله اصطفى المختارين لمجده

[...] فما مِنْ أحَدٍ مفتدى بالمسيح، مدعو، مبرَّر، متبنَّى، متقدِّس، ومخلَّص فعليًّا، غير المختارين وحسب.

أما بقية البشرية فقد حلا له، بحسب تدبير مشيئته التي لا يُسبَر لها غور، بها يهب الرحمة أو يمسكها كما يحلو له، لمجد سلطانه المطلق على خلقه، أن يجوز عنهم ويكتب عليهم الخزي والغضب على خطاياهم تسبيحًا لعدله الفائق.

هذا ما يقوله المنافح القدير. وأفضل ما نختتم به الموضوع، على غراره، هو مقتطف من قصيدة رائعة. هو ذا يقول:

إن الجمال البديع لعرض إدونْ أرنولد لـكرما في قصيدة *نور آسيا* [193] يحدوني إلى إيرادها هنا؛ لكنها أطول من أن تَرِدَ برمَّتها. فها مقتطفات منها:

كرما – تلك النفس في كلِّيتها

وهي الأشياء التي فَعَلَتْ، والخواطر التي انتابتها،

"الذات" التي حاكتْها بلحمة الزمان غير المنظور

متقاطعة مع سداة الأفعال غير المرئية.

*** * * * ***

قبل البداية وبلا نهاية،

كالفضاء أزليَّة، واثقةً كاليقين،

تثبُتُ قدرةٌ إلهية تدفع إلى الخير،

ووحدها قوانينُها تدوم.

لا أحد يزدريه؛

مَنْ يعصَه يخسر، ومن يخدمه يكسب؛

والخير الخفي يكافئه بالسلام والغبطة،

والشر الخفي بالأوجاع.

يرى كلَّ شيء، ولا شيء يخفى عليه؛

193 - قصيدة طويلة رائعة يقصُّ فيها الشاعر سيرة حياة البوذا سيدهرتا غوتاما. (م)

افعل الصواب – يكافئك! افعل غلطًا واحدًا –

يَنزِلْ بك قصاصُه العادل،

حتى إذا أخَّره دهرما طويلاً.

لا يعرف غضبًا ولا مغفرة؛ بما هو الحقيقة التامة،

تدابيره معصومة، وميزانه المقسِّط يزن؛

الزمن عنده ليس بشيء، في وسعه أن يحكم غدًا،

أو بعد أيام عديدة.

* * * * *

كذا هو القانون الذي يقود إلى البِرِّ،

الذي ليس بمقدور أحدٍ أخيرًا أن يحوِّل مجراه أو يوقِفَه؛

لبابُه هو المحبة، غايتُه

هي السلام والتحقيق الحلو. أطِعْه.

والآن أنصح لك بمقارنة نظراتنا الثيوصوفية في *كرما*، قانون الجزاء، والحكم فيما إذا لم تكن أكثر فلسفية وعدالة من هذه العقيدة الجامدة، القاسية والحمقاء، التي تختزل "الله" إلى عفريت أبله – من ذلك المذهب الذي ينصُّ أن "المختارين وحدهم" سيُكتَبُ لهم الخلاص، بينما يُقضى على البقية بالهلاك الأبدي!

السائل: نعم، أفهم ما ترمي إليه عمومًا؛ لكني أتمنى عليك أن تعطيني مثالاً عيانيًّا ما على فعل *كرما*.

الثيوصوفي: هذا ما لا أستطيع أن أفعله. الشيء الوحيد الذي في وسعنا أن نستيقن منه، كما سبق أن قلت، هو أن حيواتنا وظروفنا الحالية هي النتائج المباشرة لأفعالنا وخواطرنا في حيوات قد مَضَتْ. لكنْ نحن – باعتبارنا لسنا لا رائين ولا مُسارَرين – ليس في وسعنا أن نعرف شيئًا عن تفاصيل عمل قانون *كرما*.

السائل: هل يستطيع أحد، وإنْ كان ناطسًا أو رائيًا، أن يتتبَّع سيرورة إعادة الموازنة الكرمية هذه بالتفصيل؟

الثيوصوفي: جزمًا يستطيع: "الذين *يعرفون*" يستطيعون ذلك بإعمال قدراتهم الكامنة حتى في البشر قاطبة.

مَن هُم أولاء الذين يعلَمون؟

السائل: فهل يصحُّ هذا على أنفسنا وعلى الآخرين على حدٍّ سواء؟

الثيوصوفي: أجل يصحُّ. كما قلتُ لتوِّي، فإن الرؤية المحدودة هي نفسها عند الجميع – إلا الذين بلغوا في التقمُّص الحالي ذروة الرؤيا الروحية والبصيرة. فكلُّ ما في وسعنا أن نتصوَّره هو أنه لو كان ينبغي للأشياء أن تكون مختلفة بالنسبة إلينا لكانت مختلفة بالفعل، وأننا على ما صَنَعْنا من أنفسنا، ولا نملك إلا ما استحققناه بأنفسنا.

السائل: أخشى أن من شأن مثل هذا التصور أن يُذيقنا المرارة.

الثيوصوفي: أعتقد أن الأمر على العكس تمامًا. فإن تكذيب قانون الجزاء العادل هو الذي من شأنه في الغالب أن يوقظ كلَّ شعور قِتالي في الإنسان. فالطفل، كالرجل سواء بسواء، يستاء من العقاب، أو حتى من مجرَّد توبيخ يعتقد أنه لم يستحقه، أكثر بكثير مما يستاء من عقاب أقسى إذا شعر بأنه استحقه. إن الاعتقاد بـ*كرما* هو أسمى أسباب تصالُح المرء مع قَدَره في هذه الحياة، والباعث الأقوى على الاجتهاد من أجل تحسين تجسُّده التالي. فكلا السبب والدافع، بالفعل، ينعدم إذا افترضنا أن قَدَرَنا هو نتيجة أيِّ شيء غير *القانون* الصارم، أو أن المصير بين أيدٍ أخرى غير يديه هو.

السائل: لقد أكَّدت لتوِّك بأن منظومة التقمُّص هذه، الخاضعة للقانون الكَرْميِّ، معهودٌ بها إلى الصواب، والعدل، والحسِّ الخُلُقي. ولكن، إذا صحَّ الأمر، ألا يتم هذا على حساب التضحية بصفتَي التعاطف والرأفة الألطف، ويتسبب، بالتالي، في تقسية الغرائز الأرقِّ للطبيعة الإنسانية؟

الثيوصوفي: في المظهر وحسب، وليس في الجوهر. لا يمكن لإنسان أن يحصل على أكثر من مُستَحَقِّه أو أقل منه بدون أن يوقع ظلمًا بحقِّ الآخرين أو جورًا عليهم يتناسب مع هذا الخلل؛ والقانون الذي يمكن حَرْفُه عِبْر الرحمة لا بدَّ أن يكون مَجْلَبَةً لبؤس أشد من البؤس الذي يجنِّبه، مَجْلَبَةً لنقمة ولعنات أكثر من الامتنان. تذكَّرْ أيضًا أننا، إنْ كنَّا نوجِد الأسباب التي تحرِّض نتائج هذا القانون، لا نُجريه بهذه المثابة؛ فهو الذي يُجري نفسه. وكذلك أن أوْفَرَ زادٍ لتجلِّي الرحمة والعطف *العادلين* نجده في حالة الـ*ديفاخان*.

السائل: تتكلَّم على النُّطساء وكأنهم استثناء من قاعدة جهلنا المعمَّم. فهل يعلمون حقًّا أكثر مما نعلم عن التقمُّص والحالات المقبلة؟

الثيوصوفي: أجل، يعلمون. فبالتمرُّس في مَلَكات نملكها جميعًا، إنما نَمَّوْها هم وحدهم حتى الكمال، دخل هؤلاء بالروح هذه المراتب والحالات التي كنَّا

نناقشها. فإبَّان عصور طوال، درستْ أجيالٌ متوالية من النُّطساء أسرارَ الوجود، والحياة، والموت، والعَوْد للولادة، وعلَّموا جميعًا بدورهم بعض الوقائع التي تعلَّموها على ذلك النحو.

السائل: وهل غاية الثيوصوفيا هي إعداد النُّطساء؟

الثيوصوفي: تعتبر الثيوصوفيا البشرية فيضًا من الألوهة على درب عودتها إلى منبعها. وعند نقطة متقدِّمة على الدرب، يبلغ النطاسة أولئك الذين كرَّسوا عدة تجسُّدات لتحقيقها. إذ، تذكَّر جيدًّا، ما من امرئ قط بلغ مرتبة النطاسة في العلوم السرية في عمر واحد؛ إنما العديد من التجسُّدات ضروري لذلك بعد تشكيل قصد واعٍ ومباشرة التدريب المطلوب. قد يكون العديد من الرجال والنساء في وسط مجتمعنا نفسه باشروا هذا العروج نحو الاستنارة منذ عدة تجسُّدات، ومازالوا، من جراء الأوهام الشخصية للحياة الراهنة، إما جاهلين للأمر، وإما في طريقهم إلى تضييع كلِّ فرصة في هذا العمر للمضيِّ قُدُمًا. إنهم يشعرون بانجذاب لا يُعانَد نحو الغيبيات و***الحياة العَلِيَّة***، لكنهم، مع ذلك، من التمسُّك بشخصياتهم والتعصب لرأيهم، ومن الشغف بالمغريات المضلِّلة للحياة الدنيوية وبملذات العالم الزائلة، بحيث يتخلون عنها؛ وبذلك يفوِّتون على أنفسهم فرصتهم في ولادتهم الراهنة. أما بالنسبة للبشر العاديين، المشدودين إلى الواجبات العملية للحياة اليومية، فإن نتيجةً بمثل هذا النأي غير ملائمة لهم كهدف ولا هي بالدافع الفعَّال قطعًا.

السائل: فماذا، إذن، يمكن أن يكون هدفهم أو قصدهم الخاص عندما ينتسبون إلى الجمعية الثيوصوفية؟

الثيوصوفي: العديد منهم مهتم بعقائدنا ويشعرون غريزيًّا بأنها أصدق من عقائد أيِّ دين عقائدي. وبعضهم الآخر آلى على نفسه أن يبلغ أعلى مُثُل الواجب الإنساني.

الفرق بين الإيمان والمعرفة؛ أو بين الإيمان الأعمى والعاقل

السائل: تقول إنهم يقبلون بعقائد الثيوصوفيا ويؤمنون بها. لكنْ، بما أنهم لا ينتمون إلى أولئك النُّطساء الذين جئت لتوِّك على ذِكْرهم، لا بدَّ، إذن، أن يقبلوا تعاليمكم *إيمانًا أعمى*. ففيمَ يختلف هذا الإيمان عن إيمان الأديان الاتِّباعية؟

الثيوصوفي: مثلما تختلف الثيوصوفيا في معظم النقاط الأخرى كذلك تختلف في هذه النقطة. ما تسميه أنت "الإيمان" – الذي هو، في الواقع، *إيمان أعمى* فيما يتعلق بدساتير إيمان الأديان المسيحية، يصير عندنا *"المعرفة"*، أي التسلسُل المنطقي للأشياء التي *نعرفها عن الوقائع* في الطبيعة. عقائدكم تتأسَّس على التفسير، وبالتالي، على شهادات الرَّائين التي وصلتكم *قيلاً عن قال*؛ أما عقائدنا فتتأسَّس مباشرة على شهادات الرائين التي لا يطالها تحريف

أو تبديل. فاللاهوت المسيحي العادي، على سبيل المثال، يقول بأن الإنسان من مخلوقات الله، ومؤلَّف من ثلاثة أجزاء مكوِّنة – الجسم والنفس والروح – كلها لا غنى عنه لسلامته، وكلها، سواء في الشكل الغليظ للوجود الأرضي الجسماني أم في الصورة الأثيرية لخبرة ما بعد القيامة، ضروري لتكوينه هكذا إلى الأبد، بحيث يكون لكلِّ امرئ وجودٌ دائم منفصل عن بقية البشر وعن الألوهة. أما الثيوصوفيا، من ناحية أخرى، فتقول بأن الإنسان، بما أنه فيض عن الماهية الإلهية المجهولة، لكنْ الحاضرة أبدًا واللانهائية، فإن جسمه، ككلِّ شيء آخر، غير دائم، وبالتالي وهم؛ وبأنْ وحدها الروح فيه هي الجوهر الدائم الأوحد؛ وحتى هذه تفقد فرديتها المنفصلة ساعة تعود إلى الاتحاد التام من جديد ***بالروح الكلِّية***.

السائل: إذا كنَّا نفقد فرديتنا حتى، إذ ذاك فإن الأمر ليس إلا فناءً محضًا.

الثيوصوفي: أقول إن الأمر *ليس كذلك*، مادمت أتكلَّم على الفردية *المنفصلة*، وليس على الفردية الكلِّية. فالأخيرة تصير كجزء متحوِّلة في الكل: *قطرة الندى* لا تتبخر، بل تصير البحر. هل *يفنى* الإنسان الجسماني عندما يتحول من جنين إلى شيخ؟ أي ضرب من الغرور الشيطاني يكون غرورنا إذا وضعنا وعينا وفرديتنا المتناهيين في الصِّغَر في مقام أعلى من الوعي الكلِّي واللانهائي!

السائل: يُستَنتَج من ذلك، إذن، أنه ليس هناك، بالفعل، إنسان، وأن كلَّ شيء روح؟

الثيوصوفي: أنت مخطئ. يُستَنتَج من ذلك أن اقتران الروح بالمادة ليس إلا مؤقتًا؛ أو، بعبارة أوضح، بما أن الروح والمادة واحد، باعتبارهما القطبين المتضادين للجوهر *الكلِّي* المتجلِّي – فإن الروح تفقد أحقيَّتها باسمها مادام أصغر جزيء وذرة من جوهرها المتجلِّي متشبثًا بصورة ما، من جراء التمايز. الاعتقاد بغير ذلك هو *الإيمان الأعمى*.

السائل: بذا فإنكم بناءً على *المعرفة*، لا على *الإيمان*، تؤكِّدون أن المبدأ الدائم، الروح، يمر بالمادة مرور الكرام؟

الثيوصوفي: سأصوغ الأمر على نحو مختلف فأقول إننا نؤكد أن مظهر المبدأ الدائم و*الواحد*، الروح، *كمادة*، عابر، وليس، بالتالي، أكثر من وهم.

السائل: حسن جدًّا – وهذا تقولون به بناءً على معرفة وليس على إيمان؟

الثيوصوفي: تمامًا. لكن بما أني أرى تمامًا ما ترمي إليه، يحسن بي أن أبادرك بالقول إننا نذهب إلى أن *الإيمان*، كما تذهب أنت إليه، مجرد مرض ذهني، وبأن الإيمان الحق، أي πίστις الإغريق، هو *"اعتقاد يتأسَّس على المعرفة"*، سواء استند إلى برهان الحواس الجسمانية أو *الروحانية*.

السائل: ماذا تعني؟

الثيوصوفي: أعني أنه إذا كان الفرق بين الاثنين هو ما تريـد معرفتـه، إذ ذاك يمكنني أن أقول لك إن ثمـة فارقًـا عظيمًـا بيـن *إيمـان يتأسَّـس علـى مرجعيـة* و*إيمان يتأسَّس على الكشف الروحي*.

السائل: وما هو؟

الثيوصـوفي: الأول هـو اسـتيقان بشـري و*تطيُّـر*، والثـاني اعتقـاد الإنسـان و*كشـفه*. فكمـا يقـول البروفسـور ألكزانـدر وايلـدر فـي مقـدِّمته لـ*الأسرار الإلفسـينية*[194]: "إن الجهـل هـو الـذي يـؤدي إلـى انتهـاك المقدَّسـات. فالبشـر يستخفون بما لا يُحسِنون فهمه [...]. إن التيار الباطن لهـذا العـالم يتـوجَّه نحـو غاية واحدة؛ والاستيقان البشري [...] ينطوي علـى قـدرة تكـاد تكـون لانهائيـة، على إيمان مهول قادر على الإحاطـة بأسـمى حقـائق الوجـود برمَّتـه." وأولئـك الذين يحدُّون ذلك "الاسـتيقان" بالدسـاتير الإيمانيـة القائمـة علـى المرجعيَّـات وحدها لن يسبروا أبدًا تلك القدرة، ولن يستشفوها حتى، في طبيعتهم. إيمـانهم متشبث بشدة بالمرتبة الخارجية وغير قادر على تفعيل الماهية التي تحكمـه؛ إذ إن القيام بذلك يحتِّم عليهم أن يطالبوا بحقِّهم في المحاكمة الفردية – وهـذا مـا لا *يجرؤون* أبدًا على فعله.

السائل: وهل ذلك "الكشف" هو الذي يرغمكم على رفض الله كآب، ملك، وحاكم شخصي للكون؟

الثيوصوفي: بالضبط. نحـن نـؤمن بمبـدأ غيـر قابـل للعلـم أبـدًا، لأن الغلـط الأعمى وحده من شأنه أن يجعل المرء يذهب إلى أن الكون، والإنسان العاقـل، وسائر الروائع المحتواة حتى في عالم المادة، يمكن أن تنمو بدون *قـوى عاقلـة* ما تقوم على ذلك الترتيب الخارق الحكمة لكافة أجزائها. من شأن الطبيعـة أن تضلَّ – وهي مرارًا ما تفعل – لناحية تفاصيلها وفي التجلِّيات الخارجية لعناصرها المادية، لكنها لا تضلُّ أبدًا لناحية عِلَلِها ومعلولاتها الباطنـة. لقـد ذهـب الوثنيـون القدامى بخصوص هذه المسألة مذاهب أكثر فلسـفيةً مـن نظرائهـم الفلاسـفة المحدثين، أكانوا لاأدريـين، مـاديين، أو مسـيحيين؛ إذ لـم يحـدث قـط أن طـرح كـاتبٌ وثنـي حـتى الآن قضـية أن الغضـب والرحمـة ليسـتا شـعورين منتهييـن، ويمكن، لهذا السبب، أن تُجعَلا من صفات إله *لانهائي*. لذلك كان آلهتهـم جميعًـا من طبيعة منتهية. يعبِّر كاتب *عجلة القانون* السـيامي عـن الفكـرة عـن إلهكـم الشخصي عينها التي نعبِّر عنها؛ وهاك ما يقول (ص 25):

> **قـد يـؤمن البـوذي بوجـود إلـه، مسـتعلٍ علـى سـائر الصـفات والنعـوت البشرية – إله كامل، مستعلٍ على الحب والبغـض والغيـرة، ينعـم بهـدوء بسكينة لا ينغِّصها شيء. وعن مثل هـذا الإلـه لا يتكلَّـم أبـدًا باستصـغار،**

194 - Thomas Taylor, *The Eleusinian and Bacchic Mysteries*, a Dissertation, New York, J.W. Bouton. [المترجم]

ليس رغبةً في كسب رضاه ولا تورُّعًا عن إغضابه، لكنْ عن إجلال طبيعي. لكنه لا يقدر أن يفهم إلهًا يتصف بنعوت البشر وصفاتهم، إله يحب ويبغض ويغضب؛ إله يقصِّر دون معاييره أو حتى معايير إنسان صالح عادي، سواء كان الإله الذي يصفه المبشِّرون المسيحيون أو المحمديون أو البراهمة [195] أو اليهود.

السائل: لكن بالمقابلة بين إيمانين، أليس إيمان المسيحي الذي يعتقد، في عجزه وتواضعه البشريين، أن هناك آبًا رحيمًا في السماء يقيه الغواية، يُعينُه على الحياة، ويغفر له زلاَّته، أفضل من إيمان البوذيين والفيدنتيين والثيوصوفيين البارد والمتكبِّر، الذي يتاخم الجَبْرية؟

الثيوصوفي: لكَ أن تواصل تسمية اعتقادنا "إيمانًا" إذا كان ذلك يحلو لك. ولكن مادمنا عدنا من جديد إلى هذه المسألة التي لا تفتأ تتكرَّر، أسألك بدوري: إيمانًا مقابل إيمان، أليس الإيمان القائم على المنطق والصواب الصارم أفضل من الإيمان المتَّكئ على مجرد المرجعية البشرية أو على عبادة الأبطال؟ "إيمانـ"*نا* يتمتع بكلِّ القوة المنطقية للبداهة الرياضية أن 2 + 2 = 4. إما إيمانكم فهو أشبه بمنطق بعض النساء العاطفيات اللواتي قال فيهن تورغينييف بأن 2 زائد 2 يساوي في نظرهن عمومًا 5، وحبة مسك! علاوة على أن إيمانكم إيمان لا يتعارض وحسب مع كلِّ مفهوم قابل للتصور عن العدل والمنطق، بل ويقود، لدى تحليله، الإنسان إلى الهلاك المعنوي، ويعرقل تقدُّم النوع الإنساني، ويجعل القوة حقًّا – وبذلك يحوِّل كلَّ أحد رجلين إلى قابيل لشقيقه هابيل.

السائل: إلام تلمِّح؟

هل يحق لله أن يغفر؟

الثيوصوفي: إلى عقيدة التكفير عن الخطايا؛ ألمِّح إلى دستور الإيمان الخطير ذاك الذي تؤمنون به، والذي يعلِّم أنه مهما كان مبلغ عِظَم جرائمنا بحقِّ قوانين الله والإنسان، حسبنا أن نؤمن بتضحية يسوع بنفسه من أجل خلاص البشرية، فيغسل دمُه كلَّ بقعة دم. عشرون عامًا وأنا أحذِّر من هذه العقيدة؛ ولعلِّي بهذا الصدد ألفت نظرك إلى مقطع من *إيزيس سافر*، المكتوب في العام 1875. هذا ما تعلِّمه المسيحية وما نحاربه:

"رحمة الله لا حدود لها ولا يُسبَر لها غور. فمن المتعذَّر تصوُّر خطيئة بشرية هي من استحقاق اللعنة بحيث لا يكفي الثمن المدفوع سلفًا لافتداء الخاطئ لإزالتها، وإنْ يكن أسوأ ألف مرة. وعلاوة على ذلك، لا يفوت الأوان أبدًا للتوبة. فمع أن المسيء قد ينتظر حتى الدقيقة الأخيرة من الساعة الأخيرة من آخر أيام حياته الفانية قبل أن تنبس شفتاه الشاحبتان بشهادة إيمانه، فإنه قد يذهب إلى الجنة؛ فكما أن اللص المحتضر [إلى يمين يسوع] على الصليب فعلها

195 - المقصودون هنا هم البراهمة الطائفيون. إذ إن *بَرَبْرَهْمَن* الفيدنتيين هو الإله الذي نقبله وبه نؤمن.

كذلك يستطيع آخرون لا يقلون عنه سوءًا أن يفعلوها. هذا هو مذهب الكنيسة ورجال الدين، يطرق به رؤوسَ مواطنيكم وُعَّاظُ إنكلترا المفضَّلون، في قلب "نور القرن التاسع عشر"" – أكثر العصور امتلاءً بالمفارقات. ولكن إلام يقودنا ذلك كلُّه؟

السائل: ألا يجعل هذا المسيحيَّ أسعد من البوذي أو البرهمي؟

الثيوصوفي: لا، ليس الإنسان المتعلِّم، على كلِّ حال، بما أن هؤلاء قد فقدوا عمليًّا منذ أمد بعيد كلَّ اعتقاد بدستور الإيمان القاسي هذا. لكنه قطعًا يقود أولئك الذين ما يزالون يؤمنون به *على نحو أيسر إلى عتبة كلِّ جريمة قابلة للتصوُّر* من أيِّ دستور آخر سمعتُ به. دعني أقتطع لك من *إيزيس سافر* مرة أخرى (انظر المجلد 2، ص 542 و543):

إذا خرجنا من دائرة المعتقَد الصغيرة ونظرنا إلى الكون ككلٍّ يتوازن بالانتظام الحاذق للأجزاء، كيف يمكن لأيِّ منطق مُحكَم، كيف يمكن لأيِّ بصيص ضئيل من حسِّ العدالة، ألا يتمرَّد ضدَّ التكفير بالوكالة! إذا خَطِئَ المجرم إلى نفسه وحسب ولم يُسِئْ إلى أحد سواه، إذا كان بالتوبة الصادقة يستطيع أن ينال إلغاء الأحداث الماضية، ليس من ذاكرة الإنسان وحسب، لكنْ أيضًا من ذلك السجلِّ الخالد، الذي ليس لأيِّ إله – ولا حتى أعلى العليِّين – أن يجعلها تزول، إذ ذاك فإن هذا الدستور قد لا يكون غير قابل للفهم إلى هذا الحد. لكن الذهاب إلى أن في وسع أحدهم أن يسيء إلى أخيه الإنسان، فيقتل، ويخل بتوازن المجتمع وبالنظام الطبيعي للأشياء، ثم – عِبْر الجُبْن أو الأمل أو القسر، لا يهم – يُغفَر له بإيمانه أن سَفْحَ دم ما يغسل الدم الآخر المسفوح – فهذا لا يُعقَل! هل يمكن ل*نتائج* جريمة أن تُلغى، وإنْ قُيِّضَ للجريمة نفسها أن تُغفَر؟ نتائج سبب ما غير محدودة أبدًا بحدود السبب، كما لا يمكن لنتائج الجريمة أن تقتصر على المسيء وضحيَّته. لكلِّ عمل صالح، ككلِّ عمل طالح، نتائجُه، التي لا تقل عيانًا عن أثر الحجر المرمي في الماء الراكد. التشبيه مطروق، لكنه خير تشبيه أمْكَن تصوُّره قط؛ فلنستعمله. عِظَمُ الدوائر المتمركزة وسرعتها يتناسبان طردًا مع عِظَمِ الشيء المقلِقِل أو صِغَره، لكن أصغر حصاة، لا بل أضأل ذرة غبار، تصنع تجعيداتها على سطح الماء. وهذه القلقلة ليست وحدها مرئية وعلى السطح. فتَحْتَه، غير مرئية، في كلِّ اتجاه – في الخارج والأسفل – تدفع كلُّ قطرة أختها حتى تتأثر الجوانبُ والقاعُ بالقوة. لا بل أكثر، يتخلخل الهواء فوق الماء، وهذه القلقلة تعبُر، كما يخبرنا الفيزيائيون، من طبقة إلى طبقة خارجًا في الفضاء إلى أبد الآبدين؛ لقد أُطلِقَ مؤثِّرٌ في المادة، وذلك لا يضيع أبدًا، ولا يمكن استقدامُه من جديد أبدًا! [...]

الأمر عينه يصحُّ على الجريمة، كما يصحُّ على ضدِّها. فالفعل قد يكون آنيًّا، لكن النتائج أبدية. فإذا كان بإمكاننا، بعد أن يُرمى الحجر في المستنقع، أن نستقدمه من جديد إلى اليد، ونطوي الدوائر، ونلغي القوة المنتشرة، ونعيد المويجات الأثيرية إلى سابق حالة عدمها، ونزيل كلَّ أثر لفعلة إلقاء المقذوف، بحيث يتعذَّر على سجلِّ الزمن أن يبيِّن أن

ذلك حَدَثَ قط، إذ ذاك، *إذ ذاك فقط* قد نستمع صابرين إلى مسيحيين يجادلون في فعالية هذا التكفير بالوكالة،

ونكف عن الاعتقاد بالقانون الكَرْمي. أما أن الأمر على ما هو الآن فإننا ندعو العالم بأسره إلى أن يقرِّر أية من عقيدتينا هي الأكثر اعترافًا بالعدالة الإلهية، وأية منهما هي الأقرب إلى العقل، حتى استنادًا إلى بيِّنة البرهان والمنطق البشريين.

السائل: ومع ذلك فإن الملايين يؤمنون بالمعتقد المسيحي ويرتضونه لأنفسهم.

الثيوصوفي: إنْ هو إلا محض إفراط في الرقة العاطفية يطغى على مَلَكاتهم المفكِّرة، لن يقبل به أيُّ محسنٍ أو غيريٍّ حقيقي أبدًا. إنه ليس حتى حلمًا بالأثرة، بل كابوس للعقل الإنساني. انظر إلى أين يقود، وأخبرني اسم ذلك البلد الوثني الذي تُرتَكَب فيه الجرائم في سهولة أكبر أو بعدد أغزر من البلاد المسيحية. انظر إلى السجلات السنوية الطويلة والشنيعة للجرائم المرتكَبة في الدول الأوروبية؛ ودونك أمريكا البروتستانتية التوراتية: ففي السجون هناك يجري من *الاهتداءات* أكثر مما يجري في أثناء *الاجتماعات الرعوية* العامة والمواعظ. "انظر الحال التي وصلتها حصيلة العدالة المسيحية (!): قتلة مضرَّجو الأيدي، بتحريض من أبالسة الشهوة، والثأر، والجشع، والتعصب، أو حتى التعطُّش البهيمي إلى الدم، يقتلون ضحاياهم، بدون أن يمنحوهم، في أغلب الحالات، وقتًا للتوبة أو للالتجاء إلى يسوع. ولعل هؤلاء ماتوا خاطئين، وبالطبع – بمقتضى المنطق اللاهوتي – نالوا جزاء إساءاتهم الكبرى أو الصغرى. لكن القاتل، إذا اعتقلتْه العدالة البشرية، وأودعتْه السجن، رقَّ لحاله العاطفيون، وصلّوا معه ومن أجله، فتلفَّظ بكلمات الاهتداء السحرية، يمضي إلى منصة الإعدام طفلاً مفتدًى من أطفال يسوع! فلولا جريمة القتل لما أمكن الصلاة معه، وافتداؤه، والمغفرة له. حقًّا لقد أحسن هذا الرجل صنعًا بجريمته؛ إذا إنه بذلك فاز بالسعادة الأبدية! وماذا عن الضحية، وعن أسرته أو أسرتها، والأقارب، والعيال، وعلاقاته الاجتماعية – أليس لدى العدالة من مكافأة لهم؟ هل ينبغي عليهم أن يشْقَوْا في الدنيا وفي الآخرة، في حين أن مَن أساء إليهم جالس إلى جانب "لص الجلجثة الصالح"، مغبوطًا إلى الأبد؟ حول هذه المسألة يلزم رجال الدين صمتًا حَذِرًا." (*إيزيس سافر*) بتَّ الآن تعلم لماذا يرفض الثيوصوفيون – الذين ينعقد معتقدهم ورجاؤهم الأساسيان على العدالة للجميع، كما في السماء كذلك على الأرض – هذا المعتقد.

السائل: مصير الإنسان النهائي، إذن، ليس سماءً يقوم الله عليها، بل التحول التدريجي للمادة إلى عنصرها البدئي: الروح؟

الثيوصوفي: إنه تلك الغاية النهائية التي يتجه صوبها كلُّ شيء في الطبيعة.

السائل: ألا يعتبر بعضكم هذا الارتباط، أو "سقوط الروح في المادة"، شرًّا، ويعتبرون العَوْد للولادة عذابًا؟

الثيوصوفي: بعضهم يرى هذا الرأي، ويكدح، بالتالي، لاختصار فترة اختباره على الأرض. غير أنه ليس شرًّا صرفًا، بما أنه يوفِّر الخبرة التي نبني عليها المعرفة والحكمة. وأعني تلك الخبرة التي *تعلِّم* أن حاجات طبيعتنا الروحية لا يمكن أبدًا أن يلبيها غير السعادة الروحية. فمادمنا في الجسد، نحن خاضعون للألم، للشقاء، ولسائر الحوادث المخيِّبة التي تقع إبان الحياة. لذا، ومن تدارُك هذا، نحصل بالتدريج على المعرفة التي وحدها يمكن أن تُمِدَّنا بالفرج والأمل بمستقبل أفضل.

*** *** ***

الباب الثاني عشر

ما الثيوصوفيا العملية؟

الواجب

السائل: لِمَ الحاجة، إذن، إلى العودات إلى التجسُّد مادامت جميعًا، على حدٍّ سواء، تُخفِق في تأمين سلام دائم؟

الثيوصوفي: لأن الغاية النهائية لا يمكن بلوغُها إلا عن طريق خبرات الحياة، ولأن جُلَّ هذه الخبرات عبارة عن ألم وشقاء. وليس بوسعنا أن نتعلَّم إلا عِبْرهما. أما الأفراح والملذات فلا تعلِّمنا شيئًا؛ فهي سريعة الزوال، ولا يمكن

لها، على المدى الطويل، أن تجلب غير التخمة. وعلاوة على ذلك، فـإن إخفاقنـا المستمر في العثور على أيِّ رضًى دائم في الحياة، يفي بحاجات طبيعتنا العليا، يرينا بوضوح أن تلك الحاجات لا يوفى بها إلا على صعيدها عينه، ألا وهو الصـعيد الروحي.

السائل: أتكون النتيجة الطبيعية لهذا رغبةً في مبارحة الحياة بطريقة أو بأخرى؟

الثيوصوفي: إذا كنت تقصد بمثل هذه الرغبة الرغبـةَ فـي "الانتحـار"، إذ ذاك أقول لك جزمًا لا. مثل هذه النتيجة لا يمكن لها أبدًا أن تكـون نتيجـة "طبيعيـة"، بل مردُّها دومًا إلى اعتلال مخِّيٍّ سوداوي، أو إلى نظرات مادية راسخة وقويـة. إنه أسوأ الجرائم، ووخيم في عواقبه. إما إذا كنت ببساطة تقصد بالرغبة التـوقَ إلى بلوغ الوجود الروحي، وليس لهفةً إلى مبارحة الأرض، لدعوتُها حينئـذٍ رغبـة جد طبيعية فعلاً. وإلا فإن الموت الطوعي يكون تخلِّيًا عن موقعنا الحـالي وعـن الواجبات المنوطة بنا، كما يكون محاولـةً للتملُّـص مـن المسـؤوليات الكَرْميـة، وبالتالي، التورُّط في إيجاد *كَرْما* جديد.

السائل: ولكنْ إذا لم تكن الأفعال على المرتبة الجسمانية باعثـة علـى الرضـى، لِـمَ ينبغـي على الواجبات – وهي أفعال من هذا الصنف – أن تكون حتمية؟

الثيوصوفي: لأن فلسـفتنا تعلِّمنـا، قبـل كـلِّ شـيء، أن الغـرض مـن القيـام بواجباتنـا حيـال جميـع البشـر، وحيـال أنفسـنا فـي المقـام الأخيـر، ليـس بلـوغ السعادة الشخصية، بل سعادة الآخرين؛ إحقاق الحقِّ في سـبيل الحـق، وليـس في سبيل ما قد نجنيه منه. السعادة – أو الرضى بالأصح – قد ينجم بالفعـل عـن أداء الواجب، لكنه ليس الدافع إليه ويجب ألا يكون كذلك.

السائل: ماذا تعنون بالدقة بـ"الواجب" في الثيوصوفيا؟ هو ليس قطعًا الواجبات المسيحية التي كَرَزَ بها يسوع ورُسُله، بما أنكم لا تعترفون لا بذاك ولا بهؤلاء.

الثيوصوفي: أنت مخطئ مرة أخرى. فما تسمِّيه "الواجبات المسيحية" لقَّنه كلُّ المصلحين الأخلاقيين والدينيين قبل العهد المسيحي بعصور طويلة. فكلُّ ما كان عظيمًا وسخيًّا وبطوليًّا في الأيام الخوالي، لم يَجْرِ الكلامُ عليه والوعظ فيـه من على المنابر، كما في زماننا، بل كانت *تعمل بموجبه* أممٌ بأسـرها أحيانًـا. إن تاريخ الإصلاح البوذي غنـي بأنبـل الصـنائع وأكثرهـا بطولـة فـي إيثارهـا. عبـارة "كونوا كلُّكم قلبًا واحدًا في الرأفة والإخـاء والرحمـة والتواضـع؛ لا تـردُّوا الشـرَّ بالشرِّ والشتيمة بالشتيمة، بل باركوا" [196] – كان أتباع بوذا يطبِّقونهـا عمليًّـا قبـل بطرس بقرون عدة. أخلاق المسيحية جليلة، ما في ذلك ريب؛ لكن مما لا يقبـل الإنكار أيضًا أنها ليست بالجديدة، وتعود بأصولها إلى الواجبات "الوثنية".

السائل: وكيف يمكنـك أن تعـرِّف بهـذه الواجبـات، أو بــ"الـواجب"، عمومًـا، كمـا تفهمـون المصطلح؟

---

196 - رسالة القديس بطرس الأولى 3: 8-10. (المترجم)

الثيوصوفي: الواجب هو *ما يجب* علينا حيال الإنسانية، حيال رفاقنا البشر، جيراننا، أسرتنا، وخصوصًا ما ندين به لجميع مَن هم أفقر وأعجز منَّا. فهذا *دَيْن*، ما لم يُسدَّد في أثناء الحياة، يخلِّينا مُعْسِرين [197] روحيًّا ومفلسين خلقيًّا في تجسُّدنا التالي. الثيوصوفيا هي لباب *الواجب*.

السائل: كذلك هي المسيحية حين تُفهَم حقَّ فهمها وتطبَّق حقَّ تطبيقها.

الثيوصوفي: إنها كذلك ولا شك؛ غير أنها، لو لم تكن *دين شفاه* في الممارسة، لما كان للثيوصوفيا دورٌ يُذكَر بين المسيحيين. لكنها، لسوء الحظ، ليست من هذا القبيل إلا أخلاق شفاه. فأولئك الذين يقومون بواجبهم نحو الكل، ومن أجل الواجب وحده، هم قلَّة؛ وأقل منهم أولئك الذين يؤدون ذلك الواجب، ويبقون مكتفين برضى ضميرهم الخفي. إن

...... صوت الإطراء العلني

الذي يكرِّم الفضيلة ويكافئها؛ [198]

هو الموضوع دومًا نصب أعين المُحسِنين "الذائعي الصيت". جميل أن يقرأ المرء عن الأخلاق الحديثة أو أن يستمع إلى نقاش فيها؛ لكنْ ما قيمة الكلمات إذا لم تُترجَم إلى أفعال؟ وأخيرًا: إذا سألتني عن كيفية فهمنا للواجب الثيوصوفي عمليًّا، وبالنظر إلى *كرما*، لأجبتك بأن واجبنا هو أن نجرع بلا تأفُّف، وحتى القطرة الأخيرة، كلَّ ما تحويه كأس الحياة في مخزونها لنا، ألاَّ نقطف ورود الحياة إلا من أجل العبير الذي تسفحه على *الآخرين*، وأن نكتفي نحن بالأشواك، إذا لم يكن بالوسع التمتع بذلك العبير بدون أن يُحرَم أحدُهم منه.

السائل: هذا كلُّه مبهم جدًّا. ففيمَ تتفوقون على المسيحيين فيما تقومون به؟

الثيوصوفي: ليس الأمر ما نقوم به نحن أعضاء الجمعية الثيوصوفية – مع أن بعضنا يفعل ما بوسعه – بل في مقدار الشوط الأبعد من المسيحية الحديثة نحو الخير الذي تقود إليه الثيوصوفيا. أقول – *الفعل*، الفعل الملتزم، بدلاً من مجرَّد النية والكلام. قد يكون امرؤٌ على ما يحلو له، أشد البشر دنيوية وأثرة وقسوة قلب، بل قد يكون من الأوغاد المغرِقين في السوء، دون أن يمنعه ذلك من أن يسمِّي نفسه مسيحيًّا، أو يمنع الآخرين من اعتباره كذلك. لكنْ ما من ثيوصوفي يستحق هذا الاسم لم يتشبَّع تمامًا بصحة بديهية كارلايل: "غاية الإنسان *عمل*، لا فكرة، وإن تكن أنبل الأفكار" – ولم يوقِّع حياته ويسوِّها على غرار هذه الحقيقة. إن المجاهرة بحقيقة ما ليست وضعَها موضع التطبيق بعدُ؛ وكلما كان لهذه الحقيقة جَرْسٌ أجمل وأجل، علا الكلامُ عن الفضيلة أو الواجب، بدلاً من العمل بهما، وتذكَّر المرء دومًا، رغمًا عنه، ثمار البحر الميت. *المماذقة* [199] هي

---

197 - عاجزين عن الإيفاء. (م)

198 - لم نعثر على المصدر. (م)

199 - هي القول بلا فعل؛ وضدها المخالصة. (م)

من الرذائل أقذعها؛ وهي أبرز ملامح أعظم البلاد البروتستانتية في هذا القرن – إنكلترا.

السائل: فما الذي تعتبرونه دَيْنًا نحو البشرية بعامة؟

الثيوصوفي: الاعتراف التام بالمساواة في الحقوق والامتيازات للجميع، وبدون تمييز بين عرق أو لون أو منزلة اجتماعية أو نَسَب.

السائل: ومتى تعتبرون أن هذا الدَّيْن لم يوفَّ؟

الثيوصوفي: حينما يقع أدنى اعتداء على حقِّ الآخر – أكان ذلك الآخر إنسانًا أو أمَّة؛ حينما يحدث أيُّ تقصير في معاملته بالمقدار نفسه من العدل واللطف والمراعاة أو الرحمة التي نرغب فيها لأنفسنا. إن نظام السياسة الحالي برمَّته يقوم على إغفال مثل هذه الحقوق وعلى أشرس أنواع الإصرار على الأثرة القومية. يقول الفرنسيون: "العبد سرُّ سيِّده" [200]؛ وعليهم أن يضيفوا: "المُواطِن سرُّ السياسة الوطنية."

السائل: وهل تقومون بدور ما في السياسة؟

الثيوصوفي: نحن، كجمعية، نحرص على تجنب السياسة، للأسباب الموضَّحة أدناه: فالسعي إلى إنجاز إصلاحات سياسية قبل أن نكون أجرينا إصلاحًا على *الطبيعة البشرية* هو *أشبه بجعل الخمرة الجديدة في زِقاق قديمة.* [201] فلنجعل البشر يشعرون في أعماق قلوبهم بواجبهم الحقيقي الصحيح نحو البشر أجمعين ويقرُّون به، فتختفي من تلقاء نفسها كلُّ مفاسد السلطة، كلُّ القوانين الجائرة في السياسة القومية، مما كان مبنيًّا على الأثرة البشرية أو الاجتماعية أو السياسية. أحمق هو البستاني الذي يسعى إلى اقتلاع الأعشاب الضارة من مشتله بقطعها عند سطح التربة، بدلاً من أن يجتثَّها من الجذور. فما من إصلاح سياسي مستديم يمكن أن يتحقَّق يومًا ما، مادام الأناسُ الأنانيون أنفسهم باقين، كما في الماضي، على رأس الأمور.

صلات ج.ث. بالإصلاحات السياسية

السائل: الجمعية الثيوصوفية ليست، إذن، منظَّمة سياسية؟

الثيوصوفي: جزمًا لا. إنها منظَّمة دولية بأرقى المعاني، باعتبار أن في صفوف أعضائها رجالاً ونساءً من كافة العروق والمذاهب وأشكال الفكر، يعملون سوية من أجل غاية واحدة، ألا وهي النهوض بالإنسانية؛ لكنها، كجمعية، لا تشارك في أية سياسة، قومية كانت أم حزبية.

السائل: ولِمَ ذلك؟

---

200 - « Tel maître, tel valet. »

201 - العبارة للمسيح، وهي مأخوذة من إنجيل مرقس 2: 22. (م)

الثيوصوفي: لا لشيء إلا للأسباب التي ذكرتُها. وعلاوة على ذلك فإن العمل السياسي يجب أن يتنوع بالضرورة بتنوُّع ظروف الزمان وخصائص الأفراد. في حين أن أعضاء ج.ث.، من حيث طبيعةُ موقعهم كثيوصوفيين، متفقون على مبادئ الثيوصوفيا – وإلا لما انضموا إلى الجمعية أصلاً – لكن هذا لا يقضي بأن يكونوا على رأي واحد في كلِّ مسألة أخرى. إنهم، كجمعية، لا يستطيعون أن يعملوا معًا إلا في القضايا التي يشتركون فيها جميعًا – أي في الثيوصوفيا نفسها؛ أما كأفراد، فلكلٍّ منهم مطلق الحرية في اتِّباع الخطِّ المحدَّد للتفكير والعمل السياسيين الخاص به أو بها، مادام لا يتنافى مع المبادئ الثيوصوفية أو يسيء إلى الجمعية الثيوصوفية.

السائل: لكن ج.ث. بمجملها لا تتهرب قطعًا من المسائل الاجتماعية التي تتعاظم أهميتُها اليوم بهذه السرعة؟

الثيوصوفي: إن لفي مبادئ ج.ث. عينها برهانًا على أنها لا تتهرب – أو بالأصح على أن غالبية أعضائها لا يتهربون. فإذا لم يكن بوسع البشرية أن تنمو، ذهنيًّا وروحيًّا، بغير الالتزام، قبل كلِّ شيء، بأشدِّ القوانين الفسيولوجية إحكامًا وعلمية، فإنه يناط بجميع الذين يجاهدون في سبيل هذا النموِّ أن يقوموا بكلِّ ما بوسعهم من أجل تطبيق تلك القوانين إجمالاً. إن جميع الثيوصوفيين، للأسف، يعلمون علم اليقين بأن الوضع الاجتماعي للجماهير العريضة من الناس، في البلدان الغربية بالأخص، يجعل من المتعذَّر، على أجسامهم وأرواحهم على حدٍّ سواء، أن تنال نصيبها من التدريب اللائق، بما يوقف نموَّ كليهما. ولما كان هذا التدريب وهذا النمو واحدًا من الأهداف الصريحة للثيوصوفيا فإن ج.ث. تتعاطف تمامًا مع كافة الجهود الصادقة في هذا الاتجاه وتتناغم معها.

السائل: ولكن ماذا تعني بـ"الجهود الصادقة"؟ إن لكلِّ مصلح اجتماعي دواءه العجائبي؛ وكلُّ مصلح يعتقد بأن دواءه هو الشيء الوحيد الأوحد الذي يقدر أن يحسِّن البشرية وينقذها؟

الثيوصوفي: هذا صحيح كلَّ الصحة – وهو السبب الحقيقي من وراء قلة العمل الاجتماعي المُرضي الذي يتم إنجازه. فغالبية هذه الوصفات العجائبية خلو من أيِّ مبدأ قائد بحق، وهي قطعًا تفتقر إلى مبدأ واحد يصل بعضها إلى بعض؛ وبذلك يُهدَر وقتٌ وطاقة ثمينين بلا طائل. فالبشر، بدلاً من أن يتكاتفوا، يُنازع بعضُهم بعضًا؛ وهذا كثيرًا ما يجري – بكلِّ أسف – من أجل الشهرة والمكاسب، بدلاً من أن يكون من أجل القضية التي يجهرون أنها في القلب منهم، والتي ينبغي أن تكون لها الصدارة في حياتهم.

السائل: كيف تُطبَّق المبادئ الثيوصوفية، إذن، في سبيل تشجيع التعاون الاجتماعي والمثابرة على الجهود الصادقة من أجل الإصلاح الاجتماعي؟

الثيوصوفي: دعني أذكِّرك بهذه المبادئ بإيجاز: الوحدة والسببية الشاملتين، التضامن الإنساني، قانون *كرما*، التقمُّص. تلكم هي الحلقات الأربع للسلسلة الذهبية التي ينبغي أن تضمَّ الإنسانية في أسرة واحدة، في أخوَّة شاملة واحدة.

السائل: وكيف ذلك؟

الثيوصوفي: في حالة المجتمع الراهنة، وخاصة في البلدان المتحضِّرة المزعومة، نحن نواجه مواجهة مستمرة حقيقةَ أن أعدادًا كبيرة من الناس يعانون من البؤس والفقر والمرض. إن وضعهم الجسماني مُزْرٍ، وملَكاتهم الذهنية والروحية تكاد غالبًا أن تكون هاجعة. وعلى غير ذلك، يعيش أشخاص كثيرون، عند الطرف الآخر من السلَّم الاجتماعي، حياةَ لامبالاة ملهوجة، ورفاهية مادية، وتهتُّك أناني. هذان الشكلان من أشكال المعيشة ليسا محض مصادفة – فكلاهما نتيجة للشروط المحيطة بأولئك الخاضعين لكلٍّ منهما؛ وإهمال الواجب الاجتماعي، من جانب، وثيق الصلة للغاية بالتفتح المكبوح والموقوف، من جانب آخر. إن قانون السببية الشاملة ليصحُّ على علم الاجتماع صحته على فروع العلم الحق كافة. غير أن هذه السببية الشاملة تقتضي بالضرورة، كنتيجة منطقية لازمة عنها، ذلك التضامن الإنساني الذي تشدِّد عليه الثيوصوفيا أيَّما تشديد. فإذا كان فعل الواحد يعود أثرُه على حياة الكلِّ – وهذه هي الفكرة العلمية الصحيحة – فإن بلوغ التضامن الإنساني الحقيقي، الذي تنهض عليه السلالةُ البشرية، لن يتحقَّق أبدًا إلا بأن يصير كلُّ الرجال إخوةً وكلُّ النسوة أخواتٍ، وبأن يمارس الجميع في حياتهم سلوكًا أخويًّا حقًّا. إن هذا الفعل والتفاعل، تلك الأخوة الحق التي يحيا فيها الواحد للكلِّ والكلُّ للواحد، هي واحد من المبادئ الثيوصوفية الأساسية التي يجب على كلِّ ثيوصوفي أو ثيوصوفية أن يلتزم، ليس بتعليمه وحسب، بل وبإعماله في حياته أو حياتها الفردية.

السائل: هذا كلُّه جيد جدًّا كمبدأ عام؛ ولكن كيف السبيل إلى تطبيقه تطبيقًا ملموسًا؟

الثيوصوفي: أُنظر هنيهة إلى ما تدعوه بالوقائع الملموسة للمجتمع البشري. لا تقابِل فحسب بين حياة جماهير الناس، بل بين حياة الكثيرين ممَّن يُدعَوْن بالطبقتين الوسطى والعليا، وما يمكن أن تكون عليه هذه الحياة تحت شروط أكثر صحَّة وأنبل، يسود فيها العدل واللطف والمحبة، بدلاً من الأثرة واللامبالاة والوحشية التي يغلب عليها التسيُّد الآن. إن كلَّ ما في البشرية من خير ومن شرٍّ يضرب بجذوره في الطبع البشري؛ وهذا الطبع مشروط – وقد أُشرِطَ – بالسلسلة التي لا تنتهي من الأسباب والنتائج. لكن هذا الإشراط ينطبق على المستقبل بقدر ما ينطبق على الحاضر والماضي. إن الأثرة واللامبالاة والوحشية لا يمكن أن تكون أبدًا الحالة السوية للسلالة البشرية – إذ إن في الأخذ بهذا الرأي يأسًا من الإنسانية – وهذا ما لا يملك أيُّ ثيوصوفي أن يفعله. فبلوغ التقدم ممكن، لكنه لا يمكن له أن يتم إلا بتنمية أنبل الخصال. إن التطور الحق يعلِّمنا أننا، بتعديل الوسط الذي تحيا فيه المتعضِّية، نستطيع تعديلها وتحسينها؛ وهذا يصحُّ بأدقِّ المعاني فيما يتعلق بالإنسان. لذا فإن كلَّ ثيوصوفي ملتزمٌ بالقيام بكلِّ ما بوسعه، وبكلِّ ما أوتي من قوة، بمدِّ يد العون إلى كلِّ مجهود اجتماعي حكيم ومدروس يضع نصب عينه تحسين وضع الفقراء. بيد أن مثل هذه الجهود ينبغي أن تُصرَفَ بقصد أن ينالوا حريتهم الاجتماعية النهائية، أو

لتنمية حسِّ الواجب لدى مَن يغلب عليهم إهمالُه في كلِّ ما يتصل بالحياة تقريبًا.

السائل: أوافقك. ولكن مَن ذا يقرِّر إذا كانت الجهود الاجتماعية حكيمة أو غير حكيمة؟

الثيوصوفي: ما من شخص أو مجتمع يستطيع أن يطرح قاعدة لا تقبل النقض في هذا الصدد؛ وعلى الكثير أن يُترَك للمحاكمة الفردية. غير أن بالإمكان تقديم اختبار عام: هل ينحو العمل المقترَح نحو تشجيع تلك الأخوَّة الحقيقية التي ترمي الثيوصوفيا إلى تحقيقها؟ لن يجد ثيوصوفي حق صعوبةً كبيرةً في تطبيق مثل هذا الاختبار؛ فحالما يرضى عن النتيجة، سيكون واجبُه منوطًا باتجاه تشكيل الرأي العام. ولا يمكن أن يتمَّ بلوغُ هذا بغير تلقين تلك التصورات الأعلى والأنبل عن الواجبات العامة والخاصة التي يقوم عليها كلُّ إصلاح روحي ومادي. وفي كلِّ حالة قابلة للتصور عليه أن يجعل من نفسه مركزًا للعمل الروحي؛ ومنه ومن حياته الفردية اليومية، ينبغي أن تشعَّ تلك القوى الروحية التي وحدها تستطيع أن تجدِّد رفاقه البشر.

السائل: ولكنْ لِمَ عليه أن يقوم بهذا؟ أليس هو الآخر، مثله كمثل الجميع، مشروطًا بـكرماه، كما تعلِّمون؟ وألا ينبغي على *كرما* أن يُستنفَد، بالضرورة، على نحوٍ ما؟

الثيوصوفي: إن قانون *كرما* عينه هو الذي يؤيِّد كلَّ ما قلت. فلا طاقة للفرد على الانفصال عن السلالة البشرية، ولا للسلالة على الانفصال عن الفرد. قانون *كرما* ينطبق على الجميع، على حدٍّ سواء، مع أن الجميع ليسوا من التفتح سواء. فالثيوصوفي، في مساعدته للآخرين على التفتح، يعتقد أنه لا يساعدهم على تحقيق *كرما*هم وحسب، بل ويسدِّد *كرما*ه هو أيضًا، بالمعنى الأدق للكلمة. إن تفتح الإنسانية، التي يشكِّل وإياهم جزءًا لا يتجزأ منها، هو ما يضعه نصب عينيه؛ وهو يعلم أن أيَّ تقصير من جانبه في الاستجابة للأسمى في نفسه لا يؤخِّره هو وحسب، بل يؤخِّر الجميع أيضًا في مسيرتهم قُدُمًا. إنه، بأفعاله، يستطيع أن يعسِّر أو ييسِّر على البشرية بلوغ مرتبة الوجود التالية الأعلى.

السائل: أية صِلَة بين هذا وبين رابع المبادئ التي ذكرتَها، ألا وهو التقمُّص؟

الثيوصوفي: الارتباط وثيق للغاية. إذا كانت حياتنا الحالية تعتمد على تفتح مبادئ معينة عن البذور العائدة إلى عمر سابق فإن القانون يسري فيما يتعلق بالمستقبل. فمتى أحطنا بفكرة أن السببية الشاملة ليست حاضرًا وحسب، بل هي ماضٍ وحاضر ومستقبل، فإن كلَّ فعل على مرتبتنا الحالية سيشغل بصورة طبيعية وبسهولة مكانه الصحيح، وسيظهر لنا في صلته الحقيقية بنا وبالآخرين. كلُّ فعل خسيس وأناني يُعيدُنا القهقرى وليس إلى الأمام، في حين أن كلَّ خاطر نبيل وكلَّ تصرُّف سَمْحٍ هما مَرْقاةٌ إلى مراتب وجودية أسمى وأمجد. فلو كانت هذه الحياة هي كلَّ شيء لكانت، من أكثر من قبيل، فقيرة ومزرية حقًّا؛ لكنها، بوصفها تهيئة لفلك الوجود التالي، يمكن لنا أن نجعل منها البوابة

الذهبية التي نعبر منها – لا على نحو أناني وبمفردنا، بل في صحبة رفاقنا – إلى القصور القائمة وراءها.

في التضحية بالنفس

السائل: أتكون العدالة للجميع على حدٍّ سواء، والمحبة لكلِّ مخلوق، أرفع مراتب الثيوصوفيا؟

الثيوصوفي: لا، فثمة أيضًا مرتبة أرفع منها بكثير.

السائل: وما هي؟

الثيوصوفي: هي منح الآخرين *أكثر* من الذات – هي *التضحية بالنفس*. تلكم كانت المرتبة والمقياس السائد الذي اتَّسم به، على الأخص، كبار حكماء الإنسانية ومعلِّميها – وأخص بالذكر غوتاما بوذا في التاريخ، ويسوع الناصري، كما وَرَدَ ذكرُه في الأناجيل. ولهذه السجية وحدها أن تكفل لهما إجلالَ أجيال البشر التي أتت بعدهما وامتنانَها. غير أننا نقول إن التضحية بالنفس يجب أن تؤدَّى بتمييز؛ فمثل هذا التخلِّي عن الذات، إذا تمَّ بمنأى عن العدل، أو خبط عشواء، بغضِّ النظر عن العواقب، قد لا ينجلي بلا طائل وحسب، بل يتبيَّن أنه مؤذٍ أيضًا. فمن القواعد الأساسية للثيوصوفيا إنصافُ النفس – باعتبار المرء نفسَه واحدةً من مجموع البشرية، وليس كإنصاف ذاتيٍّ شخصيٍّ، لا أكثر ولكنْ لا أقل منه نحو الآخرين – اللهم، بالفعل، إلا إذا كنَّا، بالتضحية بذات *واحدة*، يمكن لنا أن نفيد المجموع.

السائل: هل لك أن توضِّح فكرتك بتقديم مثال؟

الثيوصوفي: ثمة في التاريخ أمثلة عديدة لإيضاحها. فالثيوصوفيا ترى أن التضحية بالنفس من أجل الخير العملي لنجدة الكثيرين، أو العديد من الناس، لهي أشرف بما لا يقاس من إنكار الذات من أجل فكرة مذهبية، من نحو فكرة "إنقاذ الوثنيين من *الدينونة*"، على سبيل المثال. ففي رأينا أن الأب دَمْيان، شاب الثلاثين الذي وَهَبَ حياته كلَّها قربانًا في سبيل مساعدة المجذومين في مولوكاي والتخفيف من عذابهم، والذي مضى ليعيش ثمانية عشر عامًا وحده معهم، حتى أصابه المرض المقزِّز أخيرًا فأرداه، *لم يمت سدى*. لقد فرَّج عن ألوف الأشقياء البائسين ومَنَحَهم سعادة نسبية؛ سلا عنهم، ذهنيًّا وجسمانيًّا. لقد ألقى ببصيص من النور في ليل حياة مظلم موحش، لا نظير للقنوط منها في قيود المعاناة البشرية. لقد كان *ثيوصوفيًّا حقيقيًّا*، وستبقى ذكراه حية في سجلاتنا أبد الدهر. إن هذا الكاهن البلجيكي المسكين لهو، في نظرنا، أعظم بما لا يقاس من جميع أولئك المبشِّرين، على سبيل المثال، الحمقى الصادقين، لكنْ المأخوذين بالمجد الباطل، ممَّن ضحوا بحياتهم في جزر بحر الجنوب أو في الصين. أي خير فيما فعلوا؟ ففي الحالة الأولى، توجَّهوا إلى أناس لم ينضجوا بعدُ لتقبُّل أية حقيقة؛ وفي الثانية، إلى أمَّة تُجاري مدارسُ فلسفتها

الدينية في سموِّها أية مدارس أخرى، لو أن الشعب المـؤتمَن عليهـا وفَّـق بيـن حياته وبين وصايا كونفوشيوس وغيره من حكماء ذلك الشعب. لقد ماتوا ضحايا لأكلة لحوم البشر والهمج غير المسؤولين، ولتعصُّب عامة الشـعب وكراهيتهـم؛ في حين أنهم، لو توجَّهوا إلى محافش وايتشـابل [202] أو أيِّ حـيٍّ مماثـل مـن تلـك الأحياء تحت شمس مدنيَّتنا السـاطعة، المكتظـة بالهمـج المسـيحيين وبالجـذام الذهني، لربمـا صـنعوا خيـرًا حقيقيًّـا، ووفَّـروا حيـاتهم فـي سـبيل قضـية أجـدى وأشرف.

السائل: لكن المسيحيين لا يرون ذلك.

الثيوصوفي: بالطبع لا، لأنهـم يعملـون بمعتقـد مغلـوط فيـه. إنهـم يعتقـدون أنهم، بتعميد جسم همجي غيـر مسـؤول، ينقـذون نفسـه مـن الدينونـة. تنسـى إحدى الكنائس شهداءها، بينما ترسم كنيسة أخرى فـي عـداد القدِّيسـين أناسًـا من أمثال لابرو، الذي ضحَّى بجسمه مدة أربعين عامًا، لا لشيء إلا لينفع الهَوام التي ترعى فيه، وينصبون لهم التماثيل. فلو كانت لدينا الوسائل لنصب التماثيل لنصبنا واحدًا للأب دَمْيان، ذلك القديس العملي الحق، ولخلَّدنا ذكراه إلى الأبـد، بوصفه قدوة حية للبطولـة الثيوصـوفية وللرحمـة والتضـحية بـالنفس اللـتين لا تليقان إلا بالبوذا وبالمسيح.

السائل: فأنتم، إذن، تعتبرون التضحية بالنفس واجبًا؟

الثيوصوفي: أجل – ونفسِّر ذلـك بتبيـان أن الإيثـار جـزء لا يتجـزأ مـن التفتـح الذاتي. بيد أن علينا أن نتبصَّر. إذ لا يحق للمـرء أن يتضـور جوعًـا *حـتى المـوت* حتى يحصل إنسان آخر على طعام، ما لم تكن حيـاة ذلـك الإنسـان، بمـا لا يـدع مجالاً للشك، أنفع للمجموع من حياته هو. غير أن من واجبه أن يضحِّي براحتـه، وأن يعمل من أجل الآخرين، إذا كانوا غير قادرين على العمل بأنفسهم. إن مـن واجبه أن يَهَبَ كلَّ ما يمتلك حصرًا، ولا ينفع أحدًا سواه، إذا كـان يُمسِـكه بأنانيـة عن الآخريـن. الثيوصـوفيا تعلِّـم نكـران الـذات، لكنهـا لا تعلِّـم تضـحيةً بـالنفس متهورة لا خير فيها، ولا هي تسوِّغ التعصب.

السائل: ولكن كيف لنا أن نبلغ مقامًا ساميًا كهذا؟

الثيوصوفي: بوضع وصـايانا موضـع التطـبيق المسـتنير. بالاسـتعانة بصـوابنا الأعلى، بحدسنا الروحي وحسِّنا الخُلُقي، وبالانصياع لما يمليـه علينـا مـا نـدعوه "الصوت الخافت الصغير" لضـميرنا، ألا وهـو صـوت **أنيَّتـ**نا، الـذي ينطـق فينـا بأعلى من زلازل يهوه ورعوده، حيث "يغيب الرب".

السائل: إذا كانت هذه هـي واجباتنـا نحـو الإنسـانية بعامـة، فمـا هـي واجباتنـا نحـو جوارنـا المباشر، كما تفهمونها؟

---

202 - من أحياء لندن الموغلة في الفقر والبؤس آنذاك. (م)

الثيوصوفي: هي عينها، *زائدة* تلك الواجبات التي تنشأ من فروض خاصة تتعلق بروابطنا الأسرية.

السائل: ليس صحيحًا، إذن، كما يُشاع، أنه عندما ينضمُّ أحدهم إلى الجمعية الثيوصوفية سرعان ما يشرع في الانفصال التدريجي عن زوجته وأولاده وفي الاستعفاء من واجباته الأسرية؟

الثيوصوفي: هي، وغيرها كثير، فرية لا أساس لها من الصحة. إن أول الواجبات الثيوصوفية هو قيام المرء بواجباته نحو *كلِّ* البشر، ولاسيما نحو الذين يدين لهم بمسؤولياته *النوعية*، إما لأنه اضطلع بها طوعًا، كروابط الزواج، أو لأن قَدَرَه حالفه معها – وأعني تلك المسؤوليات الواجبة نحو الوالدين أو أقرب الناس.

السائل: وماذا عن واجب الثيوصوفي حيال نفسه؟

الثيوصوفي: أن يسيطر على *الذات الدنيا* ويقهرها *عِبْر الذات* ***العليا***؛ أن يتطهَّر في سريرته وخُلُقه؛ ألا يخشى شيئًا أو أحدًا غير محكمة ضميره؛ ألا يشرع في شيء ولا يُتِمَّه. أي أنه إذا استصوب القيام بشيء، فليقمْ به علانية وبجسارة؛ أما إذا لم يستصوبه فلا يقربنَّه أصلاً. إن من واجب الثيوصوفي أن يخفِّف من وزره بأن يفكِّر في الحديث المأثور عن إبكتيتوس الذي يقول: "لا تلهينَّك عن أداء واجبك *أية غضاضة فارغة قد تأتيك من العالم السفيه*؛ فإن استهجانه يتعدَّى حدود سلطانك، وبالتالي، يجب ألا يشغل أيَّ حيِّز من اهتمامك."

السائل: هَبْ، مع ذلك، أن واحدًا من أعضاء جمعيتكم تذرَّع بعجز غيره من الناس عن العمل بالإيثار، بحجة أن "الأقربين أولى بالمعروف"، مصرًّا على أنه أكثر انهماكًا، أو أشد فقرًا، من أن ينفع الإنسانية أو أيَّ فرد من أفرادها حتى – ما هي قواعدكم في حالة كهذه؟

الثيوصوفي: ما من امرئ يحق له القول إنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا من أجل الآخرين، أية كانت ذريعته. فكما قال أحد الكتَّاب الإنكليز: "قُمْ بواجبك المناسب في المكان المناسب، فتجعل العالم كلَّه مدينًا لك." إن كأس ماء بارد يُعطى قبل فوات الأوان لعابر سبيل برَّح به العطش لَواجبٌ أنبل وأجدى من اثنتي عشرة وليمة تُهدَر في غير أوانها في أناس يستطيعون أن يتحمَّلوا تكاليفها. ما من امرئ ليس مستعدًّا بعدُ يقدر أن يصبح *ثيوصوفيًّا* – وإن يكن يستطيع أن يظلَّ عضوًا في جمعيتنا على كلِّ حال. ليست لدينا قواعد نحمل بها أيَّ إنسان على أن يصبح ثيوصوفيًّا عمليًّا إذا لم يكن يرغب في أن يصبح كذلك.

السائل: فلِمَ ينتسب إلى الجمعية أصلاً؟

الثيوصوفي: هو الأدرى بما يفعل. فهاهنا أيضًا، ليس لنا الحق في التعجيل بالحكم على شخص ما، حتى وإن علا ضدَّه صوتُ مجتمع بأسره – وبإمكاني أن أبرِّر لك لماذا. في يومنا هذا، لم يعد "صوت الشعب" (فيما يخص صوت

المتعلِّمين على الأقل) هو "صوت الإله"،[203] بل بالحري صوت التحامُل، والدوافع الأنانية، وأحيانًا كثيرة، صوت اللاشعبية. من واجبنا أن نزرع البذور من أجل المستقبل، وأن نحرص على جودتها، لا أن نقف للتحرِّي عن *سبب* قيامنا بذلك، وعن كيفية ودواعي اضطرارنا إلى هدر وقتنا، وذلك لأن أولئك الذين سوف يجنون الحصاد في الأيام المقبلة لن يكونوا نحن أبدًا.

في البِرِّ

السائل: وكيف تنظرون، أيها الثيوصوفيون، إلى واجب البِرِّ المسيحي؟

الثيوصوفي: عن أيِّ بِرٍّ تتكلَّم؟ بِرِّ الذهن، أم البِرِّ العملي على الصعيد المادي؟

السائل: أعني البِرَّ العملي، باعتبار أن فكرتكم عن الأخوَّة العالمية تضم، بالطبع، البِرَّ الذهني.

الثيوصوفي: في بالك، إذن، التطبيق العملي للوصايا التي نطق بها يسوع في عظته على الجبل.

السائل: بالضبط.

الثيوصوفي: فلِمَ تدعوها "مسيحية"، إذن؟ هل لأن آخر ما يفكِّر فيه مسيحيو اليوم هو تطبيق هذه الوصايا في حياتهم؟! – على الرغم من أن مخلِّصكم نادى بها وطبَّقها عمليًّا.

السائل: ومع ذلك فهناك العديدون ممَّن يقضون حياتهم في إجراء الصدقات.

الثيوصوفي: نعم، لكنْ من فضلة ثرواتهم الضخمة! لكن دلَّني على ذلك المسيحي، بين كبار المحسنين، الذي يتخلَّى للصِّ يرتعش بردًا ويتضور جوعًا، قد يسرق قميصه، عن ردائه أيضًا؛ أو يعرض خدَّه الأيمن لِمَنْ يلطمه على خدِّه الأيسر،[204] ولا يفكِّر حتى في الاستياء من ذلك؟

السائل: آه، ولكن لا تنسَ أن هذه الوصايا يجب ألا تؤخَذ على محمل الحرف. لقد تغيَّرت الأزمنة والظروف منذ أيام المسيح. وعلاوة على ذلك، فقد كان يتكلَّم بالأمثال.

الثيوصوفي: إذ ذاك لِمَ لا تعلِّم كنائسكُم بأن عقيدة الدينونة الأبدية ونار جهنم يجب أن تُفْهَم بوصفها *من الأمثال* هي الأخرى؟ ولِمَ يصرُّ عددٌ من أكثر وعَّاظكم شعبية، بينما هم يسمحون إجمالاً بفهم هذه "الأمثال" كما تفسِّرونها، على المعنى الحرفي لنيران جهنم وعلى التعذيب *الجسماني* لنفس "من طبيعة

---

203 - بحسب مثل روماني قديم: *Vox populi, vox Dei*. (م)

204 - إشارتان، على التوالي، إلى قولين ليسوع في إنجيل متى 5: 40-41: "من أراد أن يحاكمك ليأخذ قميصك، فاترك له رداءك أيضًا" و"من لطمك على خدِّك الأيمن، فاعرضْ له الآخر".

الأميانت"[205]؟ إذا كانت الأولى "مثلاً" فإن الثانية كذلك. إذا كانت نار جهنم حقيقة حرفية فإن على وصايا المسيح في العظة على الجبل أن تُطاعَ بالحرف الواحد. وإني لأؤكد لكم أن العديدين ممَّن لا يعتقدون بألوهية المسيح – مثل الكونت ليف تولستوي وعدد من الثيوصوفيين – يطبِّقون بحرفيَّتها هذه الوصايا، النبيلة نظرًا لطابعها العالمي. ولربما طبَّقها غيرهم كثير من الرجال الطيبين والنساء الطيبات، لو لم يكونوا أكثر من متيقنين من أن مسيرة كهذه في الحياة سوف تنتهي بهم، أغلب الظن، إلى مأوى المجانين – من فرط ما هي *مسيحية* قوانينُكم!

السائل: ولكن الجميع قطعًا يعلمون أن كذا من الملايين تُصرَف سنويًّا على المبرَّات الخاصة والعامة.

الثيوصوفي: أوه، نعم؛ ويَعْلَقُ نصفُها بالأيدي التي تتناقلها قبل أن تصل إلى المعوزين؛ في حين أن حصة كبيرة أو ما يتبقى منها يصل إلى أيدي المتسوِّلين المحترفين – الذين هم أكسل من أن يعملوا – وبهذا لا ينتفع منه بشيء أهلُ البؤس والشقاء فعلاً. ألم تسمع بأن أولى نتائج فيض الإحسان على حيِّ إيست إنْدْ في لندن كانت ارتفاع أسعار الإيجار في وايتشابل بحوالى عشرين في المائة؟

السائل: فما العمل إذن؟

الثيوصوفي: العمل فرديًّا، وليس جماعيًّا؛ اتِّباع الوصايا البوذية الشمالية: "لا تضعنَّ أبدًا طعامًا في فم جائع بيدِ سواك"؛ "لا تدع أبدًا ظلَّ جارك (*شخص ثالث*) يتوسَّط بينك وبين محلِّ جُوْدك"؛ "لا تترك أبدًا للشمس وقتًا تجفف فيه دمعةً قبل أن تكون قد كفْكَفْتَها بنفسك"؛ وأيضًا: "لا تعطِ أبدًا مالاً للمحتاج ولا طعامًا للكاهن الذي يستجدي على بابك *بواسطة خَدَمِكَ*، لئلا ينتقص مالُك من الامتنان، أو ينقلب طعامُك إلى صفراء."

السائل: ولكن كيف لهذا أن يُطبَّق عمليًّا؟

الثيوصوفي: الأفكار الثيوصوفية عن البِرِّ تعني البذل *الشخصي* من أجل الآخرين؛ الرحمة واللطف *الشخصيين*، الاهتمام *الشخصي* برفاه المعذَّبين؛ التعاطف والتبصُّر والعون *الشخصي* في همومهم أو احتياجاتهم. نحن الثيوصوفيين لا نعتقد بصحة تقديم المال (على افتراض أنه متوفِّر لدينا) بواسطة أيدي غيرنا من الناس ومنظَّماتهم. نحن نعتقد بإمكان إعطاء المال قدرةً وفعاليةً أعظم بألف مرة بصلتنا وتعاطفنا الشخصيين مع أولئك الذين يحتاجونه. نحن نؤمن بإشباع جوع النفس إيمانَنا بملء خواء المعدة – إن لم يكن أكثر؛ إذ إن الامتنان يُحسِنُ إلى مَن يشعر به أكثر مما يُحسِنُ إلى مَن يُشعَر نحوه به. أين الامتنان الذي كان على "ملايين ليراتك" أن تستدرَّه؟ وأين المشاعر الطيبة التي كان عليها أن تحرِّضها؟ أهو بادٍ في كراهية فقراء إيست

205 - أي لا تحترق. (م)

إنْدْ للأغنياء؟ في تنامي فريق الفوضوية وفساد النظام؟ أم في الآلاف من هاتيك الفتيات العاملات التعسات، ضحايا نظام "الكدح"، [206] المدفوعات كلَّ يوم إلى تدبُّر أمر معيشتهنَّ بشقِّ النفس باللجوء إلى البغاء؟ أفهل يشكركم المسنُّون العجزة من رجالكم ونسائكم على المآوي؛ أو فقراؤكم على المساكن الوبيئة والوخيمة التي يُسمَح لهم فيها بِنَسْلِ أجيال جديدة من الأطفال المعتلِّين الغدبيين الكسيحين، [207] لا لشيء إلا لضخِّ المال في جيوب أمثال شايلوك [208] من مُلاَّك هذه البيوت؟ لهذا فإن كلَّ دينار ذهبي من تلك "الملايين" التي تبرَّع بها أناس طيبون، يطمعون في أن يصيروا من المحسنين، يحطُّ كلعنة محرقة على الفقراء الذين يُفترَض فيها أن تفرِّج كربتهم – بدلاً من أن تكون بركة عليهم. نحن ندعو هذا *توليد كرما قومي* – ولسوف تكون نتائجه رهيبة يوم الحساب!

الثيوصوفيا للجماهير

السائل: وأنتم تعتقدون بأن الثيوصوفيا قد تستطيع، بتدخُّلها، إزالة هذه الشرور، ضمن شروط حياتنا الحديثة العملية والعصيبة؟

الثيوصوفي: لو كان لدينا مال أكثر، ولو لم يكن على غالبية الثيوصوفيين أن تعمل من أجل كفاف يومها، أؤمن جزمًا بأننا كنَّا نستطيع ذلك.

السائل: كيف؟ هل تتوسمون في عقائدكم أن تجد تربة لها بين الجماهير غير المتعلِّمة، في حين أنها من الاستغلاق والصعوبة بحيث إنها تكاد أن تستعصي على المثقفين من الناس؟

الثيوصوفي: أنت تنسى شيئًا، ألا وهو أن تربيتكم الحديثة، التي تفاخرون بها إلى هذا الحدِّ، هي بالضبط ما يجعل الثيوصوفيا مستعصية على فهمكم. إن ذهنكم من الاكتظاظ بالبهلوانيات الفكرية والتصورات المسبقة بحيث إن حدسكم وإدراككم الطبيعيين للحقيقة يتوقفان عن العمل. فلا الميتافيزياء ولا التعليم ضروريان لجعل امرئ يفهم حقيقتَيْ *كرما* والتقمُّص في خطوطهما العريضة. أُنظرْ إلى ملايين البوذيين والهندوس الفقراء غير المتعلِّمين، الذين يرون في *كرما* والعوْد إلى التجسُّد حقيقتين وطيدتين، لا لشيء إلا لأن أذهانهم لم تُتخَم وتُمسَخ بإكراهها على السير في أخدودٍ مناوئ للطبيعة. إن شعورهم الإنساني الفطري بالعدالة لم يُشوَّه فيهم بحملهم على الإيمان بأن خطاياهم سوف تُغفَر لهم لمجرَّد أن أحدهم قد أُعدِمَ من أجلهم. ولاحِظ جيدًا أن البوذيين يعيشون وفقًا لمعتقداتهم بدون تذمُّر على *كرما*، أو ما يعتبرونه قصاصًا عادلاً؛ على حين أن عامة المسيحيين لا يعيشون وفقًا لمثالهم الخُلُقي، كما ولا يقبلون

206 - بالإنكليزية: sweating system؛ نظام يستعمل ربُّ العمل فيه اليد العاملة بأزهد الأجور، مستغلاً اضطرارها إلى العمل. (م)

207 - "الغدب" scrofula هو سلُّ العقد اللمفاوية؛ وهو مرض ينتقل غالبًا عن طريق الخنازير؛ أما "الكسيح" فالمقصود به المريض المصاب بالكساح. (م)

208 - شخصية المرابي اليهودي الشهيرة في مسرحية شكسبير *تاجر البندقية*. (م)

بنصيبهم راضين. من هنا كلُّ هذه الشكوى والاستياء وشدة الصراع على الوجود في بلاد الغرب.

السائل: ولكن أفلا تستغني هذه القناعة، التي تثني عليها إلى هذا الحدِّ، من كلِّ دافع إلى الكدِّ، فتعطِّل حركة التقدم؟

الثيوصوفي: ونحن الثيوصوفيين نقول إن تقدُّمكم ومدنيَّتكم اللذين تتبجحون بهما ليستا أفضل من سِرْب الحباحب، يرفرف فوق مستنقع ينفث أبخرة سامة وفتَّاكة. ذلك لأننا نشهد الأثرة والجريمة والفجور وكلَّ الشرور التي تخطر بالبال تنقضُّ على البشرية التعسة من صندوق بندورا[209] الذي تدعونه عصر التقدم، وتتفاقم بتفاقم مدنيَّتكم المادية. فأمام ثمن كهذا، أجْمِل بعطالة البلاد البوذية وبخمولها، اللذين لم يبرزا إلا كعاقبتين من عواقب فترات مديدة من الرقِّ السياسي.

السائل: أفيكون كلُّ هذه الميتافيزياء والسِّرانية اللتين تنشغلون بهما إلى هذا الحدِّ لا أهمية له؟

الثيوصوفي: أما بنظر الجماهير، التي لا تحتاج إلا إلى الإرشاد والدعم العمليين، فلا وزن لهما يُذكَر؛ وأما بنظر المثقفين – القادة الطبيعيين للجماهير، أولئك الذين تتبنى تلك الجماهير أنماط تفكيرهم وعملهم، عاجلاً أم آجلاً – فإنهما ذواتا أهمية كبرى. فبواسطة الفلسفة وحدها يستطيع الإنسان العاقل والمثقف أن يتجنب الانتحار الفكري الناجم عن الاعتقاد المبني على الإيمان الأعمى؛ ووحده استيعاب التواصل الدقيق والتماسُك المنطقي للعقائد المشرقية، إن لم نَقُلْ الباطنية، يؤهِّله لإدراك حقيقتها. فاليقين يولِّد النخوة، و"النخوة هي عبقرية الإخلاص، ولا طاقة للحقيقة على إحراز أيِّ نصر بدونها"، كما يقول بَلْوِرْ ليتُّون[210]؛ بينما ينوِّه إمِرسُن،[211] محقًّا كلَّ الحق، إلى أن "كلَّ حركة عظيمة ومهيبة في سجلات العالم لهي تكرِّس انتصار النخوة". فهل من شيء حريٍّ بأن يبعث شعورًا كهذا أكثر من فلسفة بهذا السموِّ، بهذا الاتِّساق، بهذه المنطقية، وبهذه الإحاطة، كعقائدنا المشرقية؟

السائل: ومع ذلك فإن أعداءها كثيرون جدًّا، والثيوصوفيا تواجه كلَّ يوم خصومًا جُدُدًا؟

---

209 - باندورا أول امرأة في العالم تُخلَق من التراب اقتصاصًا من الرجل لأنه أخذ النار من بروميثيوس؛ أما الصندوق فقد أُعطِيَ لها وأُمِرَتْ بأن لا تفتحه، ولكنها عَصَتِ الأمر وفتحتْه، فأطلقتْ منه جميع الشرور على العالم، وعندما نجحتْ في إغلاقه من جديد لم يكن قد بقي فيه إلا الأمل. (م)

210 - إدوارد جورج بَلْوِر ليتُّون (1803-1873) روائي سرَّاني إنكليزي، مؤلِّف رواية *آخر أيام بومبي* الشهيرة. (م)

211 - رالف والدو إمِرسُن (1803-1882) فيلسوف أمريكي، مؤسِّس مدرسة "التسامي" الفلسفية مع تلميذه وصديقه هنري د. ثورو. (م)

الثيوصوفي: وهذا بالضبط ما يبرهن على تفوُّقها وقيمتها الجوهريين. فالناس لا يكرهون إلا ما يخشون؛ وما من أحد يتجشم عناء الإطاحة بما لا يهدِّد الصَّغار أو يعلو عليه.

السائل: فهل تأملون في نشر هذه النخوة بين الجماهير ذات يوم؟

الثيوصوفي: ولِمَ لا؟ بما أن التاريخ يخبرنا أن الجماهير تبنَّت البوذية بحماس، في حين أن الأثر العملي لفلسفة الأخلاق هذه عليهم، كما أسلفت، لا يزال يتجلَّى في ضآلة نسبة الجريمة بين الشعوب البوذية بالمقارنة مع كلِّ ديانة أخرى. أهم ما في الأمر هو اجتثاث أخصب مصادر الجريمة والفجور – ألا وهو اعتقاد البشر بإمكان نجاتهم من عواقب فِعَالهم.[212] علِّمْهم أعظم القوانين – *كرما والتقمُّص* – ولن يشعروا توًّا في أنفسهم بالكرامة الحق للطبيعة الإنسانية وحسب، بل وسيتحوَّلون عن الشرِّ ويتجنبونه كما يتجنبون الخطر المادي.

كيف يستطيع الأعضاء مساعدة الجمعية

السائل: وكيف تتوقعون من أعضاء جمعيتكم أن يساعدوا في العمل؟

الثيوصوفي: أولاً، بدراسة العقائد الثيوصوفية واستيعابها، بحيث يمكن لهم تعليم الآخرين، وخاصة الشباب؛ وثانيًا، بانتهاز كلِّ فرصة للتحدث إلى الآخرين ولشرح ما هي الثيوصوفيا وما ليس هي، وبتصويب التصورات المغلوطة عنها ونشر الاهتمام بالموضوع؛ وثالثًا، بالمساعدة على تداول أدبياتنا، بشراء الكتب إذا توفرتْ لديهم الوسيلة لذلك، بإعارتها وتقديمها لأصدقائهم، وبحثِّ هؤلاء على القيام بذلك؛ ورابعًا، بالذود عن الجمعية ضدَّ التخرُّصات المغرضة التي تنهال عليها، بكلِّ التدابير المشروعة التي يقدرون عليها؛ وخامسًا – وهذا أهم ما في الأمر – بأن تكون حياتهم نفسُها مثلاً يُحتذى.

السائل: لكن هذه الأدبيات كلَّها، التي تعلِّقون على نشرها كلَّ هذه الأهمية، تبدو لي غير ذات فائدة عملية في مساعدة البشرية. فهذا ليس ببِرٍّ عملي.

الثيوصوفي: أما نحن فنرى غير ما ترى. نحن نرى بأن كتابًا جيدًا، يوفِّر للناس قوتًا طيبًا للفكر، يقوِّي أذهانهم ويجلوها، ويمكِّنهم من استيعاب حقائق شعروا بها شعورًا مبهمًا دون أن يستطيعوا صياغتها، لَيقدِّم خدمة حقيقية وراسخة. أما فيما يتعلق بما تسمِّيه أعمال البِرِّ العملية، لإسعاف أبدان رفاقنا البشر، فإننا نقوم بالقليل الذي في وسعنا؛ غير أن غالبيتنا، كما سبق أن قلت لك، فقراء، على حين أن الجمعية نفسها لا مال لديها حتى لدفع أجور طاقم من العاملين. إن جميع مَن يجاهدون بيننا في سبيلها، يقدِّمون تعبهم مجانًا، ويقدِّمون المال أيضًا في معظم الحالات. أما القلة التي تملك وسائل القيام بما يُدعى عادة بأعمال البِرِّ فإنها تعمل بالوصايا البوذية وتؤدي عملها بنفسها، لا

212 - يؤثَر عن البوذا قولُه: " لا في السماء، ولا في عرض البحر، ولا في كهف جبلي، ولا في أيِّ مكان من العالم، يستطيع المرء أن يتهرب من سيِّئ فِعالِه." (م)

بالوكالة أو بالتبرُّع علنًا لصناديق الإحسان. أما ما يجب على الثيوصوفي أن يقوم به، قبل كلِّ شيء، فهو نسيان شخصيته.

ما ينبغي على الثيوصوفي أن يُحجِمَ عنه

السائل: هل لديكم في جمعيتكم أية قوانين أو بنود تحريمية على الثيوصوفيين أن يتقيدوا بها؟

الثيوصوفي: لدينا العديد منها، ولكن – واأسفاه! – ما من واحد منها إلزامي. إنها تعبِّر عن المثل الأعلى لمنظمتنا؛ غير أننا مرغمون على ترك التطبيق العملي لمثل هذه الأمور لاجتهاد الأعضاء أنفسهم. ومن سوء الحظِّ أن حالة أذهان البشر في القرن الحالي هي ما هي، بحيث إننا إذا لم نسمح لهذه البنود بالبقاء على الهامش، إذا جاز التعبير، فلن يجرؤ رجل أو امرأة على المجازفة بالانضمام إلى الجمعية الثيوصوفية أصلاً. وهذا، على وجه التحديد، ما يحدوني إلى كلِّ هذا الإصرار على الفرق بين الثيوصوفيا الحق والجمعية الثيوصوفية – وِعائِها الكادح والحَسَن النية، لكن غير اللائق بها.

السائل: هل لك أن تخبرني عن هذه الصخور المُهلِكة في عرض بحر الثيوصوفيا؟

الثيوصوفي: أنت مصيب إذ تدعوها صخورًا؛ ذلك أن أكثر من ع.ج.ث. واحد، على إخلاصه وطيب نواياه، اندفع بزورقه الثيوصوفي حتى تحطَّم عليها شظايا! ومع ذلك يبدو تجنبُ أشياء معينة أسهل الأشياء في العالم. هاك، على سبيل المثال، سلسلة من أمثال هذه النواهي، التي تنطوي على واجبات ثيوصوفية إيجابية:

> **على الثيوصوفي ألا يصمت عمَّا يسمع من الأقاويل والافتراءات الشريرة التي تُشاع عن الجمعية، أو عن أشخاص أبرياء، أكانوا من زملائه أم لم يكونوا.**

السائل: ولكن هَبْ أن ما يسمعه المرء هو الحقيقة، أو قد يكون صحيحًا بدون أن يكون هو على علم بذلك؟

الثيوصوفي: عليه حينئذٍ أن يطلب براهين دامغة على الزعم، ويستمع إلى كلا الطرفين بلا تحيُّز، قبل أن يسمح للاتهام بالمرور دون تكذيب. لا يحق لك أن تصدِّق الشرَّ قبل أن تحصل على برهان على صحة التصريح لا يقبل الدحض.

السائل: وأي موقف يكون موقفه حينذاك؟

الثيوصوفي: على الرأفة والحِلْم والبِرِّ والصبر على المَكاره أن يكونوا دومًا حاضرين لحملنا على العفو عن إخواننا الخُطاة، وإصدار أرفق حُكْم ممكن على الذين يضلُّون. على الثيوصوفي ألا ينسى أبدًا أن يأخذ بالحسبان النقائصَ ومَواطِنَ الضعف في الطبيعة البشرية.

السائل: أعليه أن يعفو تمامًا في حالات كهذه؟

الثيوصوفي: في كلِّ الحالات، وخاصة إذا كان هو مَن ارتُكِبَت الخطيئة في حقِّه.

السائل: لكنْ ماذا عليه أن يفعل إذا كان بالعفو يجازف بالإساءة، أو بالسماح بالإساءة، إلى الآخرين؟

الثيوصوفي: عليه أن يقوم بواجبه – بما يُمليه عليه ضميرُه وطبيعتُه العليا – إنما بعد تمعُّن ناضج. فالعدل يقضي بعدم إيذاء أيِّ كائن حي؛ بيد أن العدل يأمرنا أيضًا بعدم السماح أبدًا بإنزال الأذى بأشخاص أبرياء، أو حتى بشخص بريء واحد، وذلك بالسماح للمذنب بالسراح، لا يردعه رادع.

السائل: وما البنود الناهية الأخرى؟

الثيوصوفي: ما من ثيوصوفي ينبغي أن يقنع بحياة خاملة أو عابثة، لا خير فيها لنفسه، ومن باب أولى، لسواه. عليه أن يعمل لمنفعة القلة الذين يحتاجون إلى مساعدته إذا لم تكن له طاقة على الكفاح في سبيل الإنسانية، وبالتالي، على العمل من أجل ترقِّي القضية الثيوصوفية.

السائل: إن هذا ليتطلَّب طبيعة استثنائية؛ وقد يكون عسيرًا على بعض الناس.

الثيوصوفي: خير له، إذن، أن يبقى خارج ج.ث.، بدلاً من أن يبحر في سفينة ليست سفينته. ليس مطلوبًا من أحد أكثر من وسعه، سواء في التفاني أو الوقت أو العمل أو المال.

السائل: وماذا بعد؟

الثيوصوفي: ما من عضو عامل له أن يعلِّق قيمةً على تقدُّمه أو تفقُّهه الشخصيين في الدراسات الثيوصوفية أكبر مما ينبغي؛ بل عليه بالحري أن يكون مستعدًّا للقيام بكلِّ ما بوسعه من العمل الإيثاري. وعليه ألا يُلقي بكلِّ عبء الحركة الثيوصوفية ومسؤوليتها الثقيلين على أكتاف ثلة العاملين المتفانين. على كلِّ عضو أن يشعر بأن من واجبه أن يأخذ الحصة التي يستطيع النهوض بها من العمل المشترك، وأن يسهم فيها بكلِّ ما أوتي من وسائل.

السائل: هذا هو الصواب بعينه. وماذا بعد؟

الثيوصوفي: ما من ثيوصوفي يحق له أن يضع كبرياءه أو مشاعره الشخصية فوق كبرياء جمعيته أو مشاعرها ككل. إن مَن يضحِّي بسمعة الجمعية، أو بسمعة سواه من الناس، على مذبح كبريائه الشخصية، أو منفعته الدنيوية، أو غروره، ينبغي ألا يُسمَح له بالبقاء عضوًا. فعضو متسرطِن واحد كفيل بإصابة البدن برمَّته.

السائل: هل من واجب كلِّ عضو أن يعلِّم الآخرين وأن يبشِّر بالثيوصوفيا؟

الثيوصوفي: إنه لكذلك فعلاً. ما من عضو يحق له أن يبقى خاملاً بحجَّة أن معارفه أقل من أن يعلِّم. فليكن على ثقة من أنه سيجد دومًا مَن هم أقل منه معرفةً. والمرء لا يكتشف جهله ويحاول إماطته قبل أن يشرع في محاولة تعليم الآخرين. لكن هذا بند ثانوي.

السائل: فما هو، في نظرك، إذن، أهم هذه الواجبات الثيوصوفية الناهية؟

الثيوصوفي: أن يكون المرء على استعداد دائم للإقرار بأغلاطه وللاعتراف بها. أن يخطئ بالحري بالمبالغة في الثناء على جهود جاره منه بالإقلال من شأنها. ألا يغتاب أبدًا شخصًا آخر أو يفتري عليه؛ بل أن يقول له دومًا، صراحة ووجهًا لوجه، كلَّ مأخذ له عليه. ألا يجعل من نفسه أبدًا صدًى لأيِّ شيء يسمعه يسيء إلى غيره، ولا أن يضمر ضغينة ضدَّ مَن يُتَّفق لهم أن يسيئوا إليه.

السائل: لكن كثيرًا ما يكون من الخطورة أن تُقال الحقيقة للناس في وجوههم. ألا تظن ذلك؟ سمعت عن واحد من أعضائكم امتعض بمرارة، وغادر الجمعية، وصار من ألدِّ أعدائها، لا لشيء إلا لأن حقائق فظة قيلت له في وجهه، وأُنْحِيَ عليه باللائمة بخصوصها.

الثيوصوفي: لقد صادفنا العديد من أمثاله. فما من عضو، بارزًا كان أم نكرة، غادرنا أصلاً بدون أن يصير عدوَّنا اللدود.

السائل: وكيف تعلِّل هذا؟

الثيوصوفي: الأمر ببساطة كما يلي: بعد أن يكون الشخص، في معظم الحالات، شديد الإخلاص للجمعية في بادئ الأمر، وبعد أن يكيل لها أشد المدائح غلوًّا، فإن العذر الوحيد الممكن الذي يستطيع مرتدٌّ أن يتخذه ذريعة لسلوكه اللاحق وقصر نظره الماضي هو أن *يلبس لَبوسَ الضحية البريئة والمخدوعة*، وبهذا يرفع اللائمة عن كاهله وينحو بها على كاهل الجمعية بعامة، وقادتها بخاصة. إن أمثال هؤلاء الأشخاص يذكِّرون المرء بالحكاية القديمة عن الرجل ذي الوجه الممسوخ الذي حطَّم مرآته على الأرض ظنًّا منه بأنه كانت تعكس سيماءه على نحوٍ معوجٍّ!

السائل: ولكنْ ماذا يجعل هؤلاء القوم ينقلبون على الجمعية؟

الثيوصوفي: إنه الغرور الجريح، في صورة أو في أخرى، في أغلب الأحيان – إنْ عمومًا لأن إملاءاتهم ونصائحهم لا يؤخذ بها بوصفها قاطعة ومعتمَدة؛ وإنْ لأنهم ممَّن يفضِّلون أن يكون لهم المُلك في جهنم على أن يخدموا في الجنَّة – باختصار، لأنهم لا يطيقون أن يكونوا في المنزلة الثانية بعد غيرهم في أيِّ شيء. هناك، على سبيل المثال، عضو – "سيد عرَّاف" حقيقي – انتقد وكاد أن يطعن في كلِّ عضو من أعضاء ج.ث.، ليس أمام الثيوصوفيين وحسب، بل أمام الغرباء أيضًا، متذرِّعًا بأن *سلوكهم جميعًا غير ثيوصوفي*، لائمًا إياهم تحديدًا على

ما كان يفعله هو نفسه طوال الوقت. وأخيرًا، ترك الجمعية، متذرِّعًا بأنه بات على يقين عميق بأننا جميعًا (المؤسِّسَيْن بالأخص) **محتالون**! هناك عضو آخر، بعد أن حاك الدسائس بكلِّ وسيلة ممكنة لكي يوضَع على رأس شعبة واسعة من الجمعية، ووجد بأن الأعضاء لم يقبلوا به، انقلب على مؤسِّسَيْ ج.ث.، وصار ألدَّ أعدائهما، ولم يفوِّت فرصة للتشهير بأحدهما، لا لشيء إلا لأن هذا الأخير لم يستطع، ولم يُرِدْ، أن *يفرضه* على الأعضاء. تلك كانت ببساطة حالة غرور جريح إلى حدٍّ فظيع. وهناك عضو آخر كان يريد ممارسة *السحر الأسود*، وقد *مارسه* في واقع الأمر – أي مارس تأثيرًا نفسانيًّا شخصيًّا في غير محلِّه على عدد من الأعضاء، في الوقت الذي كان يدَّعي فيه التفاني وسائر الخصال الثيوصوفية. وحين تمَّ وضعُ حدٍّ لهذا كلِّه، انسلخ هذا العضو عن الثيوصوفيا، وهو الآن ينشر الافتراءات والأكاذيب عن القائدين المنكودَي الحظ عينهما بأخبث الطُّرُق، ساعيًا إلى تحطيم الجمعية بتسويد سمعة اللذين لم يتمكَّن ذلك "العضو" الفاضل من خداعهما.

السائل: ماذا تفعلون بمثل هؤلاء الأشخاص؟

الثيوصوفي: ندعهم و*كرما*هم. إذا كان أحدهم يرتكب الشرَّ فهذا لا يبرِّر للآخرين ارتكابَه.

السائل: ولكن، بالعودة إلى الافتراء، أين يقع الحدُّ الفاصل بين الاغتياب وبين النقد المنصف؟ أليس من واجب المرء أن يحذِّر أصدقاءه وجيرانه ممَّن يعلم أنهم أقران خطيرون؟

الثيوصوفي: إذا كان السماح لهم بالمضيِّ بلا وازع يعرِّض أشخاصًا آخرين للأذى من جراء ذلك، فمن واجبنا قطعًا أن نصرف الخطر بتحذيرهم سرًّا. بيد أنه ما من اتِّهام ضدَّ شخص آخر، صحيحًا كان أم كاذبًا، ينبغي أن يُشاع. فإذا كان صحيحًا – والغلط لا يؤذي إلا مرتكبَه – إذ ذاك دعوه و*كرما*ه؛ أما إذا كان كاذبًا، فإنكم بذلك تتجنبون زيادة الحيف في العالم. لذا، اصمتوا عن هذه الأمور مع كلِّ مَن هو غير معنيٍّ بها مباشرة. لكنْ إذا كان في تكتُّمكم وصمتكم احتمال لتأذِّي الآخرين وتعريضهم للخطر، ساعتئذٍ أضيف إلى ما قلت: *قُلِ الحقَّ ولا تبالِ*، وقُلْ مع أنِّسْلي: "استشر الواجب، لا الأحداث." فهناك حالات يُكرَه فيها المرءُ على الهتاف: "ألا بئس التكتُّم إذا كان يحول دون أداء الواجب."

السائل: يخيَّل إليَّ أنكم، إذا عملتم بهذه الحِكَم، فسوف تجنون محصولاً بهيجًا من المشاكل!

الثيوصوفي: هذا ما نعاني منه في الواقع. لا بدَّ لنا من الإقرار بأننا الآن عرضة للتعيير عينه الذي تعرَّض له المسيحيون الأوائل. عبارة "انظروا كم يحب هؤلاء الثيوصوفيون بعضهم بعضًا!" قد تقال فينا الآن بدون أية شبهة حيف.

السائل: إذا كنتَ بنفسك تقرُّ بأن النميمة والافتراء والخصومة لا تقلُّ في ج.ث. عنها في الكنائس المسيحية – إن لم تَفُقْها – ناهيك عن الجمعيات العلمية، فأيُّ ضرب من الأخوَّة أخوَّتكم؟

الثيوصوفي: بالفعل هي نموذج مُزْرٍ، على ما هي عليه الآن – وإلى أن يُغربَل ويعاد تنظيمُه بعناية، *لن* يكون أفضل حالاً من النماذج الأخرى. إنما تذكَّر بأن الطبيعة البشرية هي هي *داخل* الجمعية الثيوصوفية و*خارجها*؛ وأعضاؤها ليسوا بقدِّيسين. إنهم، في أحسن الأحوال، خُطاة يحاولون أن يتحسَّنوا، وعرضة للتقهقر من جراء مَواطِن ضعف شخصية فيهم. أضف إلى ذلك أن "أخوَّتنا" ليست هيئة "معترفًا بها" أو راسخة؛ وهي تقف، إذا جاز القول، خارج حظيرة الشَّرْع. وهي، إلى ذلك، في وضع من الفوضى المطبقة؛ كما وأنها، ظُلمًا، *تفوق في عدم شعبيتها أية هيئة أخرى*. فلا غرو، إذن، أن يلجأ أولئك الأعضاء الذين فشلوا في تحقيق مُثُل الجمعية الأسمى، بعد أن يغادروا الجمعية، إلى أعدائنا ابتغاء نيل حمايتهم المتعاطفة، فيصبُّون جام صفرائهم ومرارتهم في آذان هؤلاء المستعدة للإصغاء للغاية! وإذ يعرفون بأنهم سيجدون الدعم، والعطف، والأذن المصغية لكلِّ اتهام يحلو لهم أن يشنُّوه ضدَّ الجمعية الثيوصوفية، مهما كان سخيفًا، فإنهم سرعان ما يفعلون ذلك، ويفشُّون غيظَهم في المرآة البريئة التي عَكَسَتْ وجوههم بكلِّ صدق. *المرء لا يغفر أبدًا لِمَن يسيء إليهم*! إن إحساسه باللطف الذي يُعامَل به، والذي يجازيه بالجحود، يدفعه إلى سَوْرةٍ هوجاء من تبرير النفس أمام العالم وأمام ضميره هو. أما العالم فهو أكثر من مستعد لتصديق كلِّ ما يقال ضدَّ جمعية يكرهها. وأما ضميره... حسبي ما قلت حتى الآن، خشية أن أكون قلت أكثر مما ينبغي!

السائل: أنتم في وضع لا تُحسَدون عليه، على ما يبدو لي.

الثيوصوفي: فعلاً. ولكن أفلا تعتقد بأنه ينبغي أن يوجد من وراء الجمعية وفلسفتها شيء هو من النبل، والسموِّ، والحقيَّة، بحيث إن قائدا الحركة ومؤسِّساها لا يزالان يواصِلان العمل من أجلها بكلِّ ما أوتيا من قوة؟ إنهما يضحِّيان من أجلها بكلِّ راحة، بكلِّ فلاح دنيوي، وبكلِّ نجاح، وحتى بطيب سمعتهما – لا بل حتى بشرفهما – لا لشيء إلا ليتلقوا في مقابل ذلك استنكارًا متواصلاً لا ينقطع، اضطهادًا لا هوادة فيه، بهتانًا لا يكلُّ، جحودًا مستمرًّا، سوءَ فهم لخيرة جهودهما، ضربات ولكمات من كلِّ حدب وصوب – في حين أنهما، بمجرَّد التخلِّي عن عملهما، سيجدان نفسيهما على الفور، وقد أُعتِقا من كلِّ مسؤولية، في مأمَن من أيِّ هجوم آخر.

السائل: أعترف بأن مثابرة كهذه تبدو لي مدهشة جدًّا؛ وقد تساءلت عن سبب قيامكم بهذا كلِّه.

الثيوصوفي: صدَّقني أننا لا نقوم به من أجل إرضاء أنفسنا، إنما أملاً في تدريب بضعة أفراد يواصلون عملنا من أجل الإنسانية، وفقًا لبرنامجه الأصلي، بعد موت المؤسِّسَيْن وارتحالهما. ولقد عثرا فعلاً على ثلة من هذه النفوس

النبيلة والمتفانية لتحلَّ محلَّهما. وبفضل هذه الثلة، ستجد الأجيال القادمة الدرب المؤدِّية إلى السلام أقل شوكًا بقليل، والطريق أكثر انفراجًا بقليل؛ وبهذا يكون هذا العذاب كلُّه قد أثمر عن نتائج طيبة، ولن تضيع تضحيتُهما بنفسهما سدى. أما الساعة، فإن الهدف الرئيسي والأساسي للجمعية هو زرع بذور في قلوب البشر، قد تنتش مع الوقت، فتؤدي، في ظروف أكثر مؤاتاة، إلى إصلاح صحيح، يقود إلى سعادة *للجماهير* أكبر من التي تمتَّعتْ بها حتى الآن.

*** *** ***

الباب الثالث عشر

عن التصورات المغلوطة حول الجمعية الثيوصوفية

الثيوصوفيا والزهد

السائل: سمعت الناس يقولون إن قواعدكم تفرض على جميع الأعضاء أن يكونوا نباتيين، متبتِّلين، وزهَّادًا عتاة؛ غير أنك لم تخبرني بشيء من هذا القبيل بعدُ. فهل لك أن تخبرني بالحقيقة القاطعة حول هذا الأمر؟

الثيوصوفي: الحقيقة هي أن قواعدنا لا تفرض شيئًا من هذا القبيل. فالجمعية الثيوصوفية لا تنتظر حتى من *أيٍّ* من أعضائها – فما بالك أن تفرض عليه! – أن يزهد من أيِّ وجه – اللهم إلا إذا أسميت *زُهدًا* التزامَهم بمحاولة جلب النفع على غيرهم من الناس والاتصاف بالإيثار في حياتهم.

السائل: ومع ذلك فإن العديد من أعضائكم نباتيون متشددون، ويقـرُّون علنًـا بنيِّتهـم البقـاء غير متزوجين. وهذه أيضًا هي، في أغلب الأحيان، حال أولئك الذين يقومون بـدور بـارز فيمـا يتعلق بعمل جمعيتكم.

الثيوصوفي: هذا طبيعي للغاية، لأن غالبية عمَّالنا المخلصين حقًّا أعضاء فـي الشعبة الباطنة للجمعية التي سبق لي أن أخبرتك عنها.

السائل: آه! فأنتم، إذن، تفرضون رياضات زهدية في تلك الشعبة الباطنة؟

الثيوصوفي: لا، نحن لا *نفرض* عليهم ولا *نحضُّهم* حتى هناك. لكن يحسُن بي، فيما أرى، أن أقدِّم لك تعليلاً لنظراتنـا فـي موضـوع التزهُّـد عمومًـا، وعنـد ذاك سوف تفهم ما يتعلق بالحِمْية النباتية وهلمجرا.

السائل: رجاءً تفضل.

الثيوصوفي: كما سبق لي أن أخبرتك، يتمنَّى غالبية الأفـراد الـذين يصـبحون حقًّا طلبة مخلصين للثيوصوفيا وعمالاً ناشطين في جمعيتنا أن يفعلوا أكثر مـن مجرَّد دراسة الحقائق التي نعلِّمها دراسـة نظريـة وحسـب. يتمنـون أن *يعرفـوا* الحقيقة اختبارًا شخصيًّا مباشرًا، وأن يدرسوا الغيبيـات بهـدف تحصـيل الحكمـة والقدرة اللتين يشـعرون أنهـم فـي حاجـة إليهمـا مـن أجـل مسـاعدة الآخريـن مساعدة ناجعـة وحصـيفة، لا عميـاء وكيفمـا اتفـق. لـذا فـإنهم، عـاجلاً أم آجلاً، ينضمون إلى الشعبة الباطنة.

السائل: لكنك قلت إن "الرياضات" الزهدية ليست إجبارية، حتى في تلك الشعبة الباطنة؟

الثيوصوفي: هي ليست كذلك فعلاً. لكن أول أمر يتعلَّمـه الأعضـاء هنـاك هـو تصورٌ صـحيح عـن علاقـة الجسـم – أو الغلاف الجسـماني – بالإنسـان البـاطن، الإنسان الحق. فالعلاقة والتفاعل بيـن هـذين المظهريـن مـن مظـاهر الطبيعـة الإنسانية، يُعلَّلان ويبيَّنان لهم، بحيث إنهم سرعان ما يتحققون من كون الإنسان البـاطن يفـوق أهميـةً قميصَـه الخـارجي أو الجسـم. إنهـم يتعلَّمـون أن التزهُّـد المغفَّل الأعمى هو ضرب من الجنون؛ أن سلوكًا من نحو سلوك القديس لابرو، الذي سبق لي أن أتيت على ذكره، أو سلوك فقراء الهند وزهَّاد الأدغـال، الـذين يشطبون أجسامهم ويحرقونها ويشوِّهونها بأقسى الطُّرُق وأشدها فظاعـة، هـو ببساطة تعذيبٌ للنفس لمقاصد أنانية – وأعني تنمية قـوة الإرادة – لكنـه عـديم الفائدة تمامًا لغاية مساعدة النموِّ الروحي الحقيقي أو الثيوصوفي. [213]

السائل: أراك تعتبر الزهد *المعنـوي* وحـده ضـروريًّا. إنـه مـن قبيـل الوسـيلة إلـى الغايـة – بوصف هذه التوازن الكامل لطبيعة الإنسان *الباطنة* وبلوغ السيادة التامة على الجسم، بكـلِّ أهوائه ورغباته.

---

213 - هذا يصح، بالطبع، على ممارسات مشابهة نقع عليها في بعض الطرق الصوفية الإسلامية، من نحو "ضرب الشيش"، على سبيل المثال لا الحصر. (م)

الثيوصوفي: بالضبط. لكن هذه الوسائل يجب أن تُستعمَل استعمالاً فطِنًا وحكيمًا، لا أعمى وأحمق – شأن العدَّاء الذي يتدرَّب ويستعد لسباق كبير، وليس كالبخيل الذي يجوِّع نفسه حتى المرض حتى يُشبِع هواه إلى الذهب.

السائل: بتُّ الآن أفهم فكرتك العامة؛ ولكن لِنَرَ كيف تطبِّقونها عمليًّا. ماذا عن الحِمْية النباتية، على سبيل المثال؟

الثيوصوفي: لقد بيَّن واحد من العلماء الألمان الكبار أن جميع أنواع الأنسجة الحيوانية، كيفما اتَّفق لك أن تطبخها، تستبقي مع ذلك بعض الخصائص البارزة للحيوان الذي استُلَّتْ منه – وهذه الخصائص يمكن التعرف إليها. وفضلاً عن ذلك، يعرف كلُّ أحد نوعَ اللحم الذي يأكله من طعمه. ونحن نمضي خطوةً إضافية قُدُمًا، ونبرهن أن لحم الحيوان، حين يتمثَّله المرءُ بوصفه طعامًا، يضفي عليه، فسيولوجيًّا، بعض خصائص الحيوان الذي استُلَّ منه. ناهيك أن العلم الغيبيَّ يعلِّم هذا لطلابه ويبرهن عليه لهم بالبرهان العياني، مبيِّنًا كذلك أن هذا الأثر "المجلِّف" أو "المُحَيْوِن" على الإنسان يكون أعظميًّا من جرَّاء لحم الحيوانات الجسيمة، وأقل منه للطيور، وأقل فأقل منه للسمك وغيره من الحيوانات ذوات الدم البارد، وأصغريًّا حين يكتفي بأكل الخضار.

السائل: ألعلَّه يحسُن به ألا يأكل على الإطلاق؟

الثيوصوفي: بالطبع – لو كان يستطيع أن يعيش من غير أن يأكل. لكن، بما أن الأمور على ما هي عليه، فلا بدَّ له من أن يأكل ليعيش. لذا ننصح للطلاب المخلصين حقًّا أن يأكلوا من الطعام ما من شأنه أن يثبِّط أدمغتهم وأجسامهم ويثقل عليها في الحدِّ الأدنى ويكون له أصغر الأثر على إعاقة نموِّ حَدْسهم وملَكاتهم وقدراتهم الباطنة وإبطائه.

السائل: أنتم، إذن، لا تتبنون سائر الحُجَج التي من عادة النباتيين بعامة أن يستعملوها؟

الثيوصوفي: قطعًا لا. فبعض حُجَجِهم ضعيفٌ جدًّا، ومرارًا ما تقوم على افتراضات مغلوطة تمامًا. لكن الكثير من الأمور التي يقولونها، من جانب آخر، صحيحة كلَّ الصحة. فعلى سبيل المثال، نحن نعتقد أن الكثير من الأمراض، وبخاصة الاستعداد الكبير للإصابة بالمرض الذي يصير من سمات زماننا البارزة، يعود في معظمه إلى أكل اللحم، ولاسيما اللحوم المعلَّبة. لكن من شأن تمحيص مسألة الحِمْية النباتية هذه بحيثيَّاتها تمحيصًا كاملاً أن يستغرق وقتًا طويلاً جدًّا؛ لذا فلننتقل إلى أمر آخر.

السائل: دعني أسألك سؤالاً آخر: ماذا يتعيَّن على أعضاء شعبتكم الباطنة أن يفعلوا فيما يخص طعامهم حين يمرضون؟

الثيوصوفي: بالطبع يتعيَّن عليهم أن يتبعوا أفضل نُصْح يمكن أن يُسدى إليهم. ألم تتفطَّن بعد إلى أننا لا نفرض أبدًا أية التزامات صارمة في هذا

الخصوص؟ تذكَّر للمرة النهائية أننا في مثل هذه المسائل جميعًا نعتمد نظرة عقلانية إلى الأمور، لا نظرة متعصِّبة. إذا كان امرؤ لا يستطيع أن يستغني عن اللحم بسبب المرض أو دوام العادة، فلا يُحرَمنَّ من أكله بأيِّ حال من الأحوال. ليس هذا جرمًا – وإن كان سيؤخر تقدُّمه قليلاً وحسب. مهما قيل أو فُعِلَ، فإن الأفعال والوظائف الجسمانية الصرفة أقل أهمية بكثير مما يفكِّر فيه امرؤ ويشعر به، من الرغبات التي يفسح لها المجال في ذهنه ويسمح لها بالتجذُّر والنمو هناك.

السائل: فما قولك فيما يتعلق بِشُرْب الخمر والمشروبات الروحية؟ أظنكم لا تنصحون للناس بشربها.

الثيوصوفي: أثرُها أسوأ على نموِّ الإنسان الخُلُقي والروحي من اللحم؛ إذ إن للكحول، بأشكاله كلِّها، تأثيرًا مباشرًا، بارزًا، ومضرًّا جدًّا على حالة المرء النفسانية. غير أن معاقرة الخمر والمشروبات الكحولية أقل ضررًا على تنمية القدرات الباطنة من الإدمان على تعاطي الحشيش والأفيون والعقاقير المشابهة.

الثيوصوفيا والزواج

السائل: فننتقل الآن إلى سؤال آخر: هل يجب على المرء أن يتزوج أو أن يبقى عازبًا؟

الثيوصوفي: هذا يتوقف على نوعية المرء الذي تعنيه. إذا كنت تعني امرأً ينوي أن يعيش *في* العالم، امرأً، على كونه ثيوصوفيًّا طيبًا مخلصًا وعاملاً شديد التحمُّس لقضيتنا، مازال مشدودًا إلى العالم بقيود وأمنيات، امرأً، باختصار، لا يشعر أنه أنهى حساباته مع ما يسمِّيه البشر الحياة، لكنه يرغب في شيء واحد – وفي شيء واحد وحسب: معرفة الحقيقة، والقدرة على مساعدة الآخرين، إذ ذاك، أقول لمثل هذا المرء إنه لا مانع من أن يتزوج، إذا كان يودُّ أن يجازف في مخاطر هذا اليانصيب، حيث فُرَصُ الخسارة أكبر بكثير من فُرَص الربح. قطعًا لا يمكن لك أن تظنَّنا من السخف والتعصب بحيث نعظ بعدم الزواج إجمالاً؟ الزواج، على العكس – اللهم إلا في بضع حالات استثنائية تتعلَّق بالغيبيات العملية – هو الحصن الوحيد ضد الفسق.

السائل: ولكن لماذا لا يستطيع المرء أن يتحصَّل على هذه المعرفة والقدرة وهو يحيا حياة زوجية؟

الثيوصوفي: ليس هاهنا، سيدي العزيز، مقام الخوض معك في مسائل فسيولوجية؛ لكني أستطيع أن أعطيك جوابًا واضحًا، أظنُّه كافيًا، من شأنه أن يعلِّل لك الأسباب الخُلُقية التي نقدِّمها لذلك. هل يستطيع امرؤ أن يخدم سيِّدين؟ لا! كذلك يتعذَّر عليه، سواء بسواء، توزيع اهتمامه بين تعاطي الغيبيات وبين زوج. فإذا حاول ذلك، سيخفق لا محالة في القيام بكلا الأمرين على الوجه الصحيح. ودعني أذكِّرك بأن الغيبيات العملية دراسة أخطر شأنًا وأكثر جدِّية

بكثير من أن يقوم بها امرؤ، ما لم يكن يتحرَّق إخلاصًا واستعدادًا للتضحية بـكلِّ *شيء، بنفسه قبل كلِّ شيء*، للفوز بغايته. لكن هذا لا ينطبق على أعضاء شعبتنا الباطنة. أنا أتكلَّم فقط على الذين عقدوا العزم على السير على درب المريدية، ذاك الذي يقود إلى الغاية الأسمى. أما أولئك الذين ينتسبون إلى شعبتنا الباطنة فهم، في معظمهم، إن لم نقل في غالبيتهم، مجرَّد مبتدئين، يستعدون في هذه الحياة للسير على تلك الدرب فعليًّا في أعمار مقبلة.

الثيوصوفيا والتربية

السائل: من أقوى حُجَجك على عدم ملاءمة الأشكال الحالية للدين في الغرب، وكذلك إلى حدٍّ ما الفلسفة المادية التي باتت الآن تتمتع بكثير من الشعبية – مع أنه يبدو أنك تعتبرها رجسًا من الخراب – حجة وجود هذا القدر الكبير من البؤس وسوء الحال، بما لا يمكن إنكاره، ولاسيما في مدننا الكبرى. لكنك يجب أن تعترف قطعًا بكلِّ ما تمَّ القيام به – وبما يتم القيام به – لتدارُك هذا الوضع بتعميم التعليم ونشر المعلومات.

الثيوصوفي: ستكاد الأجيال القادمة ألا تكون ممتنة لكم على مثل هذا "النشر للمعلومات"؛ وحتى تعليمكم الحالي لن يكون ذا فائدة تُذكَر للجماهير الفقيرة الجائعة.

السائل: آه، لكنك يجب أن تمنحنا الوقت لذلك. إذ لم ينقضِ غير بضعة سنوات على بدئنا بتعليم الناس.

الثيوصوفي: فقل لي، من فضلك، ماذا فعل دينُك المسيحي منذ القرن الخامس عشر، مادمت تعترف بأن تعليم الجماهير لم يُباشَر حتى الآن – العمل (إن كان يمكن له أن يوجد أصلاً!) الذي كان ينبغي على الكنيسة والشعب *المسيحيين*، أي أتباع المسيح، أن يقوما به؟

السائل: طيب، قد تكون على حق؛ ولكن الآن...

الثيوصوفي: دعنا وحسب ننظر في مسألة التعليم هذه من منظار أوسع، ولسوف أبرهن لك أنكم، بالعديد من تحسيناتكم التي تباهون بها، تضرون ولا تنفعون. صحيح أن المدارس المخصَّصة للأطفال الفقراء، على كونها أقل فائدة مما ينبغي أن تكون عليه بكثير، جيدة بالمقارنة مع البيئة الكريهة التي يحتِّمها عليهم مجتمعُكم العصري، إنما بثُّ القليل من الثيوصوفيا العملية من شأنه أن يساعد الجماهيرَ المعدمة الشقية في الحياة أكثر بمئة مرة من بثِّ المعلومات (عديمة الفائدة) هذا كلِّه.

السائل: ولكن، حقًّا...

الثيوصوفي: دعني أكمل، من فضلك. لقد فتحت موضوعًا يحزُّ في نفوسنا، نحن الثيوصوفيين، عميقًا، وينبغي أن أقول فيه رأيي. أوافقك كلَّ الموافقة أن هناك ميزة كبيرة لطفل صغير نشأ في الأحياء القذرة، وكان ملعبه مصارف

المياه، وعاش وسط فحش مستمر، فعلاً وقولاً، أن يوضَع يوميًّا في صفٍّ مضاء نظيف، جدرانه مزينة باللوحات، وكثيرًا ما تُبْهِج منظرَه الزهور. هناك يلقَّن أن يصير نظيفًا، لطيفًا، ومرتبًا؛ هناك يتعلَّم الغناء واللعب؛ يتمتع بألعاب توقظ فطنته؛ يتعلَّم كيف يستعمل أصابعه بلباقة؛ يخاطَب بابتسامة بدلاً من العبوس في وجهه؛ يوبَّخ أو يُداجَن بلطف بدلاً من أن يُلعَن. هذا كلُّه يؤنْسِنُ الأطفال، ينشِّط أدمغتهم، ويجعلهم قابلين لشتى المؤثرات العقلية والخُلُقية. المدارس ليست على كلِّ ما يمكن لها وما ينبغي عليها أن تكونه؛ لكنها جِنان بالمقارنة مع البيوت؛ وهي تنعكس انعكاسًا بطيئًا على البيوت. ولئن صحَّ هذا على العديد من المدارس الداخلية، غير أن نظامكم يستحق أسوأ ما يمكن أن يقال فيه.

السائل: فليكن. تابع.

الثيوصوفي: ما هو الهدف *الحقيقي* للتعليم الحديث؟ هل هو تنشئة الذهن وتنميته في الاتجاه السليم؛ تعليم المحرومين والضعفاء من الناس احتمالَ عبء الحياة (الذي يقسِّطه لهم *كرما*) برباطة جأش؛ تقوية إرادتهم؛ تلقينهم محبة القريب والشعور بالتكافل والإخاء – وبذلك ترويض الطبع وتأهيله للحياة العملية؟ بتاتًا! ومع ذلك، لا ريب في أن هذه هي أهداف كلِّ تربية سليمة. لا أحد ينكر ذلك؛ جميع مربِّيكم يقرون به، ويطنبون فعلاً في الكلام على الموضوع. لكن ما هي نتيجة عملهم *العملية*؟ كلُّ فتى وصبي، لا بل كلُّ واحد من معلِّمي المدارس الشباب سوف يجيب: "هدف التربية الحديثة هو اجتياز الامتحانات" – نظام غير مؤهَّل لتنمية المنافسة الشريفة، بل لزرع بذور الغيرة، والحسد، والكراهية تقريبًا، في نفوس الشباب بعضهم حيال بعض، وبالتالي، ترويضهم على حياة من الأثرة الشرسة والصراع على المناصب والامتيازات، بدلاً من الشعور الودود.

السائل: لا بدَّ من الاعتراف بأنك على حقٍّ في هذا.

الثيوصوفي: وما هي هذه الامتحانات – رعب الصبا والشباب المعاصرين؟ إنها ببساطة منهج للتصنيف تتمُّ به جَدْوَلَةُ تعليمكم المدرسي. إنها، بعبارة أخرى، تشكِّل التطبيق العملي للمنهجية العلمية الحديثة على *الجنس البشري*، منظورًا إليه من منظار العَقْلَنَة. بيد أن "العلم" يعلِّم أن الفكر هو نتاج التفاعل الآلي لمادة المخ [214]؛ وبالتالي، فمن المنطقي تمامًا أن التربية الحديثة تكاد أن تكون برمَّتها آلية – نوعًا من الآلة الأوتوماتيكية لتصنيع الفكر بالأطنان! حسبنا القليل من الخبرة في الامتحانات لتبيان أن التربية الناجمة عنها ما هي إلا تدريب للذاكرة الجسمانية – وعاجلاً أم آجلاً سوف تصل مدارسُكم جميعًا إلى هذه الحال المزرية. أما التنشئة الحقيقية، المتينة، للتفكير وللعاقلة فهي ببساطة متعذرة لأن كلَّ شيء ينبغي أن يحاكَم بالنتائج كما تقيسها الامتحانات التنافسية. أجل، إن التأهيل المدرسي هو من الأهمية بمكان في تكوين الطبع،

---

214 - غني عن القول إن هذا الموقف يعبِّر عن رأي "العلم" الذي ساد في أواخر القرن التاسع عشر. (م)

ولاسيما في معناه الخُلُقي. غير أن نظامكم الحديث، من أوَّله إلى آخره، يقوم على الكشوف العلمية المزعومة: "الصراع على الوجود" و"بقاء الأصلح".[215] كلُّ إنسان، طوال السنوات الأولى من حياته، يُحقَن بها، إنْ بالمثال والخبرة العمليين، أو بالتلقين المباشر، إلى أن يتعذَّر استئصالُ فكرة أن "الذات" – تلك الذات الدنيا، الشخصية، الحيوانية – هي الهدف الأقصى والجوهر النهائي للحياة من ذهنه. هاهنا مصدر المنشأ الرئيسي للعواقب التالية، بؤسًا، وجريمةً، وأثرةً لا رحمة فيها، التي تقر بها مثلما أفعل. فالأثرة، كما قيل مرارًا وتكرارًا، هي لعنة البشرية، والوالدة الخصبة لشرور هذه الحياة وجرائمها طرا – ومدارسُكم هي بؤر مثل هذه الأثرة.

السائل: ذاك كلُّه جيد من منظار العموميات، لكني أطالب ببضعة وقائع، وأود كذلك أن أعرف كيفية تدارُك ذلك.

الثيوصوفي: طيب جدًّا، سوف أحاول أن أرضيك. هناك ثلاثة تقسيمات كبرى للمؤسَّسات المدرسية: المدارس الداخلية، ومدارس الطبقة الوسطى، والمدارس الحكومية، تتدرَّج بين الأغلظ تجاريًّا وبين الكلاسيكي المثالي، يتخلَّلها الكثير من التقليبات والتداخلات. المدارس العملية التجارية تنمِّي الجانب الحديث، والمدارس الكلاسكية التقليدية القديمة تسحب محترميَّتها الثقيلة على المؤسَّسات التعليمية الحكومية لإعداد المعلِّمين. وهنا نرى بوضوح الجانبَ التجاري، العلميَّ والمادي، يحل محلَّ الجانب التقليدي والكلاسيكي البالي. ومعرفة السبب كذلك ليست بالأمر الصعب. فموضوعات فرع التربية هذا هي، إذن، الجنيهات والشلنات والقروش، بما هي *جماع الخير* في القرن التاسع عشر. بذلك فإن الطاقات التي تولِّدها الجزيئات الدماغية للذاهبين هذا المذهب متركزة جميعًا على نقطة واحدة؛ وهي، بالتالي، إلى حدٍّ ما، جيش منظَّم من العقول *المتعلِّمة* والنظرية لأقلية من البشر، مدرَّبة على السيطرة على حشود الجماهير الجاهلة والساذجة المحكوم عليهم بتطفل إخوانهم المتفوقين فكريًّا عليهم وباستغلالهم لهم وسحقهم. مثل هذا التأهيل ليس *غير ثيوصوفي* وحسب، بل هو **غير مسيحي** أيضًا. والنتيجة: العاقبة المباشرة لفرع التربية هذا هو إغراق السوق بآلات لكسب للمال، ببشر أنانيين قُساة – حيوانات – دُرِّبوا بكلِّ عناية تدريبًا يعدُّهم لافتراس رفاقهم واستغلال جهل إخوانهم الأضعف!

السائل: طيب، لكنك لا تستطيع أن تؤكد بأن ذلك يصح، على كلِّ حال، على مدارسنا الحكومية الكبرى؟

الثيوصوفي: ليس تمامًا، أوافقك. ولكن مع أن *الشكل* مختلف، فإن الروح المحرِّكة هي هي: *غير ثيوصوفية وغير مسيحية*، سواء خرَّجتْ إيتون وهارُّو[216] علماء أو رجال دين وعلماء لاهوت.

---

215 - هذان مبدآن أساسيان في المذهب التطوري، كما صاغه دارون. (م)
216 - مدرستان عموميتان إنكليزيتان كبريان. (م)

السائل: أنت حتمًا لا تقصد نعت إيتون وهارُّو بـ"التجارة"؟

الثيوصوفي: لا. النظام الكلاسيكي، بالطبع، هو، فوق كلِّ شيء، *محترم*، وهو في أيامنا هذه يثمر عن بعض الخير. وهي مازالت الأفضل بين مدارسنا الحكومية الكبرى، حيث لا يتم تحصيل تعليم فكري وحسب، بل تعليم اجتماعي أيضًا. لذا فإن من الأهمية بمكان أن يذهب أبناءُ الأسر الأرسطوقراطية الثرية البليدون إلى مثل تلك المدارس حتى يعاشروا بقية أقرانهم من شباب الطبقات "النبيلة" والميسورة. لكن، بكلِّ أسف، هناك منافسة شديدة على الدخول حتى؛ إذ إن الطبقات الميسورة في تزايد، والصبية الفقراء، لكن الأذكياء، يسعون إلى الحصول على منح من الأغنياء لدخول المدارس الحكومية، ومنها الانتساب إلى الجامعات.

السائل: بحسب هذه النظرة، على "البلداء" الأغنى أن يكدوا أكثر من رفاقهم الأفقر حتى؟

الثيوصوفي: هو كذلك. لكن الغريب في الأمر أن أصحاب عقيدة "بقاء الأصلح" لا يعملون بعقيدتهم؛ إذ تذهب جهودهم برمَّتها إلى جعل غير المؤهَّلين طبيعيًّا يحلون محلَّ المؤهلين. وبذلك فإنهم، عن طريق الرشاوى والمال الوفير، يُغرون خيرة الأساتذة بالتحول عن طلابهم الموهوبين لتلقين أبنائهم غير المؤهَّلين طبيعيًّا آليات مِهَنٍ تكتظ بهم من غير فائدة.

السائل: وإلامَ تعزو هذا كلَّه؟

الثيوصوفي: يعود هذا كلُّه إلى خبث نظام ينتج البضائع عند الطلب، بصرف النظر عن ميول الشباب ومواهبهم الطبيعية. والمرشحون الفقراء الصغار لهذا الفردوس التعليمي المبرمج يكاد أن يأتي مباشرة من دار الحضانة إلى الرتابة المملة للمدرسة الإعدادية لأبناء السادة. وهنا ينقضُّ عليه على الفور عمالُ المصنع المادي–الفكري، ويحشون دماغه حشوًا بقواعد صرف ونحو اللاتينية والفرنسية والإغريقية، بالتواريخ والجداول، بحيث، إذا كان موهوبًا قدرًا ما من العبقرية، فإنه هذه سرعان ما تُعتصَر منه بإمراره بين أسطوانات ما توفَّق كارلايل إلى تسميته بـ"المفردات الميتة".

السائل: لكنه قطعًا يُلقَّن شيئًا آخر غير "المفردات الميتة"، بل الكثير مما قد يقوده رأسًا إلى *الثيوصوفيا*، وحتى إلى الجمعية الثيوصوفية؟

الثيوصوفي: ليس الكثير. فمن التاريخ سوف يحصِّل ما يكفي من المعرفة عن أمَّته هو فقط، ليتدرَّع بدرع فولاذي من التحامُل على الشعوب الأخرى كافة، ولإغراقه في مجمع القاذورات الكريه للحقد القومي والتعطش إلى الدم المؤرَّخ – وأنت، قطعًا، لن تسمي ذلك *ثيوصوفيا*!

السائل: ما هي اعتراضاتكم الأخرى؟

الثيوصوفي: بالإضافة إلى هذا، هناك نبذة مختارة، على حدِّ زعمهم، من الوقائع الكتابية، التي يلغى من دراستها إعمالُ للعقل. إنه ببساطة درسٌ في الحفظ غيبًا، حيث تكتفي "لماذا" المدرِّس بتعليل الظروف، وليس الأسباب.

السائل: أجل، ولكني سمعتك تهنِّئ نفسك بالعدد المتزايد من اللاأدريين والملاحدة في يومنا هذا، بحيث يبدو أنه حتى الناس المدرَّبون في النظام الذي تسفِّهه بكلِّ هذا الحماس يتعلمون *فعلاً* أن يفكروا ويعقلوا بمفردهم.

الثيوصوفي: نعم، ولكن من جرَّاء ردَّة فعل صحية على ذلك النظام، وليس بفضل منه. ونحن، في جمعيتنا، نفضل بما لا يقاس اللاأدريين، وحتى عتاة الملاحدة، على المتزمِّتين، من أيِّ دين كانوا. فذهن اللاأدري مفتوح أبدًا للحقيقة؛ بينما الحقيقة تُعمي بَصَرَ المتزمِّت كما تُعمي الشمسُ بَصَرَ البومة. إن خيرة أعضائنا – أي أكثرهم حبًّا بالحقيقة، أكثرهم إحسانًا، وأصدقهم – كانوا، وهم الآن، لاأدريين وملحدين (غير مؤمنين بإله *شخصي*). ولكن ليس هناك شبان وشابات مفكرون *أحرار* من تلقاء نفوسهم، والتأهيل الباكر لا بدَّ عمومًا من أن يترك سِمَتَه على هيئة ذهن سقيم ومشوَّه. لا بدَّ لنظام تربوي سليم وصحيح أن يلد الذهن الأكثر حيوية وتحررًا، المدرَّب تدريبًا صارمًا على التفكير المنطقي الدقيق، وليس على الإيمان الأعمى. فكيف يمكن لك يومًا أن تتوقع نتائج طيبة، وأنت تُفسِد عاقلة أبنائك بحملهم على الإيمان بمعجزات الكتاب يوم الأحد، بينما تعلِّمهم طوال الأيام الستة الباقية أن أمورًا كهذه مستحيلة علميًّا؟

السائل: فماذا كنتم لتفعلون إذن؟

الثيوصوفي: لو كان لدينا المال، لأسَّسنا مدارس يتخرَّج منها أناسٌ ليسوا مرشحين للجوع ملمون بالقراءة والكتابة. على الأطفال أن يتعلَّموا، قبل كلِّ شيء، الاتكال على النفس، ومحبة البشر أجمعين، والغيرية، والإحسان المتبادل، وأكثر من أيِّ شيء آخر، كيف يفكرون ويعقلون بأنفسهم. ولسوف نختصر عمل الذاكرة الميكانيكي المحض إلى حدِّه الأدنى الضروري، ونخصِّص الوقت لتنمية حواسهم وملكاتهم الباطنة وقدراتهم الكامنة ولتدريبها. لسوف نحرص على التعامُل مع كلِّ طفل بوصفه واحدة مستقلة، وعلى تربيته بحيث يبلغ تفتحَ قدراته الأكثر تناغمًا وتوازنًا، من أجل أن تتفتح استعداداتُه الخاصة أقصى تفتحها الطبيعي. لسوف نستهدف إيجاد رجال ونساء *أحرار*، أحرار فكريًّا، أحرار معنويًّا، غير متعصبين من كلِّ النواحي، وفوق كلِّ شيء، *غير أنانيين*. ونحن نعتقد أن جلَّ هذا – إن لم نقل كلَّه – يمكن لتربية *صحيحة وثيوصوفية حقًّا* أن تؤمِّنه.

لماذا، إذن، هناك هذا التحامُل كلُّه على الج.ث.؟

السائل: إذا افترضنا أن الثيوصوفيا ليست إلا نصف ما تقول حتى، ما مسوِّغ هذا الاستياء كلِّه ضدها؟ فهذا مكمن المشكلة أكثر من أيِّ شيء آخر.

الثيوصوفي: هو كذلك. لكنْ يجب ألا يغيب عن ذهنك كم من الخصوم الألداء استعدينا منذ تأسيس جمعيتنا. كما قلت لتوِّي، لو كانت الحركة الثيوصوفية واحدة من تلك الصرعات العصرية العديدة، المأمونة الجانب في النهاية بقدر ما هي سريعة الزوال، لكان الناس اكتفوا بالسخرية منها – كما يسخر منها الآن أولئك الذين لا يفقهون القصد الحقيقي منها – ولتعمَّدوا تجاهُلها. لا شيء من هذا. الثيوصوفيا، بحكم طبيعتها، هي أكثر حركات عصرنا جدية؛ وهي، علاوة على ذلك، حركة تهدِّد في حياتها نفسها غالبية أعرق ضروب التدليس والتعصب والشرور الاجتماعية الحالية – تلك الشرور التي تسمِّن عشرةً من أصحاب المنازل العليا ومن أتباعهم من المقلِّدين والمتزلِّفين لهم وتُسعِدهم، وبضع دزِّينات من أثرياء الطبقات الوسطى، في حين أنها يقينًا تسحق وجود ملايين الفقراء وتجوِّعهم. فكِّر في هذا، ولسوف تفهم في سهولة سبب اضطهاد كهذا لا هوادة فيه من جانب أولئك الذين – وهم الأدق ملاحظة والأثقب ذهنًا – يرون فعلاً الطبيعة الحقيقية للثيوصوفيا، فيخشونها.

السائل: هل تقصد أن تقول لي إن هناك ثلة فهمتْ مقاصد الثيوصوفيا، وأنهم، لهذا السبب، يحاولون أن يسحقوا الحركة؟ ولكن إذا كانت الثيوصوفيا لا تقود إلا إلى الخير، فإنك قطعًا لا يحق لك أن تنطق بمثل هذا الاتهام الرهيب بالقسوة والغدر الخسيسين – حتى لتلك الثلة؟

الثيوصوفي: على العكس، يحق لي ذلك. فأنا لا أنعت الأعداء الذين اضطررنا إلى مجابهتهم إبان التسع أو العشر سنين الأولى من عمر الجمعية لا بالقدرة ولا بـ"الخطر"، بل فقط أولئك الذين قاموا علينا في السنين الثلاث أو الأربع الأخيرة. وهؤلاء لا يتكلَّمون ولا يكتبون ولا يكرزون ضد الثيوصوفيا، بل يعملون في الصمت ومن خلف ظهور الدمى الحمقاء المرئية التي يحركونها بخيوطهم الخفية. ولئن كانوا *خارج أنظار* غالبية أعضاء جمعيتنا، إلا أن "مؤسِّسي" جمعيتنا الحقيقيين وحماتها يعرفونهم تمام المعرفة. لكن أسماءهم يجب أن تبقى طيَّ الكتمان في الوقت الحاضر لأسباب تخصنا.

السائل: هل يعرفهم كثيرون منكم، أم أنك وحدك تعرفهم؟

الثيوصوفي: لم أقل قط *أني* أعرفهم. قد أعرفهم وقد لا أعرفهم – حسبي أن أعرف بوجودهم. وأنا *أتحداهم أن يفعلوا أسوأ ما تطاله أيديهم*. قد ينجحون في إلحاق أذى كبير بنا وفي بذر البلبلة بين صفوفنا، ولاسيما بين أصحاب القلوب الخائرة والذين لا يحكمون إلا بحسب المظاهر. لكنهم *لن يسحقوا الجمعية*، مهما فعلوا. وماعدا أولئك الأعداء الخطرين حقًّا – إنما "الخطرين" فقط على أولاء الثيوصوفيين غير المستحقين لِلَقَبِهم، الذين مكانهم بالأحرى *خارج* الج.ث.، وليس *داخلها* – فإن عدد خصومنا أكثر من أن يستهان به.

السائل: هل تستطيع أن تسمِّي هؤلاء، على الأقل، مادمت لا تريد أن تتكلَّم على الآخرين؟

الثيوصوفي: بالطبع أستطيع. علينا أن نقاوم 1) كراهية الأرواحيين، أمريكيين وإنكليز وفرنسيين؛ 2) المعارضة الدائمة من رجال الدين من

المذاهب كافة؛ 3) وبخاصة كراهية المبشِّرين في الهند واضطهادهم الذي لا يفتر؛ 4) وهذا قاد إلى حملة "جمعية البحوث النفسانية" الشهيرة والخسيسة على جمعيتنا الثيوصوفية – وهي حملة أثارتْها مؤامرةٌ حقيقية أعدَّ لها المبشِّرون في الهند. وأخيرًا، يجب أن نذكر في عِدادهم أعضاء الجمعية البارزين (؟) الذين نقضوا ولاءهم لأسباب سبق لي أن شرحتُها – وجميعهم أسهم بكلِّ ما في وسعه في زيادة التحامُل على الجمعية.

السائل: ألا يمكن لك أن تقدِّم لي تفاصيل أكثر عن هؤلاء، وذلك لكي أعرف بماذا أجيب حين أُسأل – موجزًا لتاريخ الجمعية الثيوصوفية، باختصار، ولماذا يصدِّق العالمُ هذا كلَّه؟

الثيوصوفي: السبب بسيط. فغالبية الغرباء لم تكن تعرف شيئًا عن الجمعية نفسها مطلقًا، دوافعها، غاياتها، أو معتقداتها. فمنذ بداية الثيوصوفيا نفسها، لم يَرَ العالم فيها شيئًا غير ظواهر خارقة معينة، لا يصدقها ثلثا غير الأرواحيين. وهكذا سرعان ما بات يُنظَر إلى الجمعية بوصفها كهيئة تزعُم امتلاك قدرات "عجائبية". لم يدرك العالم قط أن الجمعية كانت تعلِّم الكفر المطلق بالـ*معجزة* أو حتى بإمكان وجودها؛ وأنه في الجمعية لم يكن ثمة غير بضعة أناس يمتلكون مثل هذه القدرات النفسانية، وثلة أصغر من هؤلاء يهتمون بها حتى. كما لم يفهم أن الظواهر لم تمارَس علانية، بل خلوةً لبعض الأصدقاء، وفقط كمجرَّد شيء ثانوي للإثبات بالبرهان المباشر أن مثل هذه الأمور يمكن لها أن تمارَس بلا غرف مظلمة، ولا "أرواح"، ولا وسطاء، ولا أيِّ من المعدات المعتادة. ولسوء الحظ، تعزَّز هذا التصور المغلوط وبولغ فيه من جرَّاء الكتاب الأول في الموضوع الذي حرَّض الكثير من الإنتباه في أوروبا – كتاب السيد سينِّيت *العالم الغيبي*.[217] لئن ساعد هذا المؤلِّف كثيرًا في لفت الأنظار إلى الجمعية، إلا أنه جلب المزيد من الاستنكار والهزء والتصورات المغلوطة على أبطاله المغلوبين على أمرهم وعلى بطلته المنكودة. وقد تلقَّى واضعُ الكتاب أكثر من تحذير في *العالم الغيبي*، لكنه لم يُعِرْ انتباهًا للـ*نبوءة* – إذا إنها كانت نبوءة، على كونها نصف محجوبة.

السائل: علامَ يكرهكم الأرواحيون، ومنذ متى؟

الثيوصوفي: منذ اليوم الأول من عمر الجمعية. إذ لم يكد يُعلَم أن الجمعية، كهيئة، تكذِّب الاتصالات مع أرواح الموتى، بل تعتبر "الأرواح" المزعومة، في معظمها، انعكاسات نجمية للشخصيات المفصولة عن أبدانها، وقواقع، إلخ، حتى أعرب الأرواحيون عن كره عنيف لنا، وبخاصة للمؤسِّسين. وهذا الكره تمَّ التعبير عنه بشتى أنواع الافتراء، والانتقادات الشخصية الجائرة، والتصورات المغلوطة السخيفة عن التعاليم الثيوصوفية في الصحف الأرواحية الأمريكية كافة. وطوال سنوات، اضطُهِدنا وشُهِّر بنا وسُفِّهنا. وقد بدأ هذا في العام 1875، ومازال مستمرًا حتى يوم الناس هذا. في العام 1879، تمَّ نقل مقر الـج.ث. من نيويورك إلى بومباي، الهند، ثم إلى مدراس بصفة دائمة. وعندما

217 - A.P. Sinnett, *The Occult World*, London, Trübner & Co., Ludgate Hill, 1881.

تأسَّس الفرع الأول لجمعيتنا، الـج.ث. البريطانية، في لندن، حمل علينا الأرواحيون الإنكليز حملة شعواء، مثلما فعل رفاقهم الأمريكيون؛ ثم سار الأرواحيون الفرنسيون على خطاهم.

السائل: ولكن لماذا يعاديكم رجال الدين مادام الميل الرئيسي للعقائد الثيوصوفية، في النهاية، مناوئًا للمادية، العدوِّ اللدود لأشكال الدين في أيامنا كافة؟

الثيوصوفي: لقد عادانا رجال الدين عملاً بالمبدأ العام الذي مفاده: "من لم يكن معي فهو ضدي." وبما أن الثيوصوفيا لا تتفق مع أيِّ ملَّة أو مذهب، فلا بدَّ أن تُعتبَر عدوَّتَها جميعًا على حدٍّ سواء، لأنها تعلِّم بأنها جميعًا مخطئة، بدرجة تزيد أو تنقص. أما المبشِّرون في الهند فقد كرهونا وحاولوا تحطيمنا لأنهم رأوا زهرة الشباب الهندي المثقف والبرهمانيين، الذين استعصوا عليهم، ينضمون إلى الجمعية بأعداد غفيرة. ومع ذلك، باستثناء هذا العداء الطبقي العام، هناك في عِداد صفوف الجمعية العديد من رجال الدين، وحتى مطران أو اثنان.

السائل: فما الذي دفع بجمعية البحوث النفسانية إلى مناصبتكم العداء؟ كلاكما وضع نصب عينيه برنامج الدراسة نفسه، من بعض الوجوه، وكان عددٌ من الباحثين النفسانيين منتسبين إلى جمعيتكم.

الثيوصوفي: في بداية الأمر، كانت تربطنا صداقة طيبة جدًّا بقادة ج.ب.ن.؛ ولكن عندما نُشِرَ التهجُّم على الظواهر في *مجلة المعهد المسيحي*،[218] تؤيِّدها معلومات مزعومة مصدرها أحد الخَدَم، وجدت ج.ب.ن. أنهم وضعوا أنفسهم موضع الريبة بنشرهم في "مَحَاضِرِهم" العديد من الظواهر التي جَرَتْ ذات الصلة مع الـج.ث. فطموحهم هو أن يتخذوا وضعية هيئة *علمية حصرًا* ذات *مرجعية*؛ لذا كان عليهم أن يختاروا بين الاحتفاظ بتلك المنزلة بنبذ الـج.ث.، وحتى بمحاولة تحطيمها، وبين رؤية أنفسهم مختلطين، في رأي صادوقيي المجتمع الراقي[219]، مع الثيوصوفيين والأرواحيين "السذَّج". لم يجدوا لأنفسهم مخرجًا من المأزق، لم يجدوا خيارين، فاختاروا أن يتخفَّفوا منَّا. كان الأمر في نظرهم ضرورة لا مندوحة عنها. لكنهم من فرط اضطرارهم إلى إيجاد أيِّ دافع لدى المؤسِّسين، معقول من حيث الظاهر، إلى حياة عمادها الانقطاع المخلص والعمل الدؤوب، وإلى الغياب التامِّ لأيِّ مكسب مادي أو أيِّ امتياز آخر عندهما، لم يجد أعداؤنا بدًّا من اللجوء إلى "نظرية التجسس لحساب الروس" الشهيرة الآن، المثلَّثة التفاهة والفائقة السخف، لتفسير هذا الإخلاص. لكنهم لم يفعلوا سوى البرهان من جديد على صحة المثل القديم: "دم الشهداء بذار الكنيسة." فبعد تلقِّي الصدمة الأولى لهذا الهجوم، تضاعف عدد أعضاء الـج.ث. مرتين وثلاث مرات، لكن الانطباع السيئ الناتج مازال باقيًا. لقد أصاب كاتبٌ فرنسي بقوله: *"افتروا، افتروا دائمًا مزيدًا من الافتراء، فلا بدَّ أن يبقى دومًا شيء*

218 - *The Christian College Magazine*.

219 - بالفرنسية في النص: *le grand monde*. و"الصادوقيون" أصحاب مذهب فقهي من مذاهب الشريعة اليهودية، ينكر الآخرة والبعث؛ وقد ناصبوا المسيح وتعاليمه عداءً شديدًا. (م)

منه." [220] وتلك هي الحال: الإجحاف الظالم مازال جاريًا، وكلُّ ما هو متعلق بالج.ث. – وبمؤسِّسَيْها خاصة – يشوَّه تشويهًا زائفًا لأنه يقوم على الأقاويل الخبيثة وحدها.

السائل: ومع ذلك فإبان الـ 14 عامًا من عمر الجمعية، لا بدَّ أنكم حظيتم بما يكفي من الوقت والفرص لإظهار أنفسكم وعملكم على ما هو حقًّا؟

الثيوصوفي: كيف، أو متى، أُعطِينا مثل هذه الفرصة؟ لقد كان أمْيَزُ أعضائنا ينفرون من أيِّ شيء يبدو وكأنه يبرِّرهم علانية. لقد كانت سياستُهم دومًا: "فلنصبر حتى تزول الغمَّة"، و"ما همُّنا ما تقول الصحف وما يظنُّه الناس؟" لقد كانت الجمعية أفقر من أن تكلِّف محاضرين بإلقاء محاضرات علنية، مما جعل عَرْضَ نظراتنا وعقائدنا تقتصر على بضعة مؤلَّفات ثيوصوفية قوبلت بنجاح، لكن الناس غالبًا ما أساؤوا فهمها أو لم يدروا بها إلا سماعًا. وقد قوطعت مجلاتُنا – وما تزال – وتجوهِلَت مؤلَّفاتُنا؛ وحتى يوم الناس هذا يبدو أنه ما من أحد مستيقن تمامًا مما إذا كان الثيوصوفيون نوعًا من عبَّادي الثعبان والشيطان، أو مجرَّد "بوذيين باطنيين" – أيًّا كان معنى هذا. لم نَرَ من جدوى في الاستمرار، يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام، في تكذيب كلِّ أنواع الحكايات الملفَّقة التي لا تُصدَّق عنَّا؛ إذ ما أن كنَّا ننتهي من إحداها حتى كانت حكاية أخرى، أسخف وأخبث، تنبعث من جديد من رماد سابقتها. فتكوين الطبيعة البشرية هو ما هو بحيث إن أيَّ خير يقال في شخص ما سرعان ما يُنسى ولا يُذكَر أبدًا من بعدُ؛ إنما حسب المرء أن يتفوَّه بفرية، أو يُشيع أكذوبة يلصقها بشخصية ما غير شعبية – مهما كانت سخيفة، كاذبة، أو غير قابلة للتصديق – حتى تنتشر وتُقبَل على الفور كحقيقة تاريخية. فمثلها مثل شخصية **"كالومنيا"** [221] في مسرحية *دون باسيليو*، تنطلق الإشاعة، أولاً، كالنسيم الخفيف اللطيف الذي يكاد ألا يحرِّك العشب تحت قدميك، ولا يدري أحدٌ من أين تهب؛ ثم، في لمح البصر، تتحول إلى ريح عاتية، وتبدأ بإثارة زوبعة هوجاء، وسرعان ما تصير عاصفة مزمجرة! فمقام الافتراء بين الأخبار مقام الأخطبوط بين السمك: فهو يلتصق بذهن المرء، ويتشبَّث بذاكرتنا، التي تقتات به، تاركًا علامات لا تمحى، حتى بعد أن يزول ماديًّا. فالأكذوبة المفترية هي المفتاح الذي يستطيع أن يفتح كلَّ الأدمغة بلا استثناء. فهي تلقى الترحاب والضيافة قطعًا في كلِّ الأذهان البشرية (على أن تكون هذه على شيء قليل من التحامُل)، من أرقاها إلى أدناها، أيًّا كان مبلغ وضاعة مصدرها ودوافعها.

السائل: ألا تظن أن كلامك برمَّته مُلقى على عواهنه؟ فالإنكليز ما كانوا يومًا قومًا متأهبين لتصديق كلِّ ما يقال، وأمَّتنا مضرب المثل في حبِّها للَّعب "حسب الأصول". فالكذبة ليس لها قدمان تقف عليهما طويلاً، و...

الثيوصوفي: الإنكليز لا يقلون استعدادًا لتصديق الشرِّ عن نظرائهم من أية أمَّة أخرى – فتلك هي الطبيعة البشرية، وليست سمة قومية. أما الأكاذيب، فإن

---

220 - *« Calomniez, calomniez toujours et encore, il en restera toujours quelques chose. »*

221 - اسم الشخصية يعني "فرية" باللاتينية. (م)

لم تكن لها أقدام تقف عليها، بحسب المثل، فإن لها أجنحة على غاية من السرعة؛ وتستطيع أن تطير – بل هي تطير فعلاً – إلى أبعد وأعلى من أيِّ نوع آخر من الأخبار، في إنكلترا مثلما في غيرها. تذكَّر أن الأكاذيب والافتراءات هي النوع الأدبي الوحيد الذي يمكن لنا دومًا الحصول عليه مجانًا، من دون دفع أيِّ اشتراك! في وسعنا أن نقوم بالاختبار، إذا شئت. هل لك – أنت المهتم بالمسائل الثيوصوفية، يا مَن سمعت عنَّا الكثير – هل لك أن تطرح عليَّ أسئلة حول كلِّ ما يخطر ببالك من الإشاعات و"الأقاويل"؟ ولسوف أجيبك بالحقيقة، ولا شيء غيرها، ولك أن تُخضِع إجاباتي لأكثر وسائل التحقق صرامة.

السائل: قبل أن ننتقل إلى موضوع آخر، دعني أسمع منك الحقيقة كاملة عما يشيعه بعض الكتَّاب عنكم من كون تعاليمكم "إباحية وخبيثة"؛ كما أن هناك آخرين، متذرِّعين بأن العديد من "المرجعيات" المزعومة والمستشرقين لا يجدون في الديانات الهندية غير عبادة الجنس في كلِّ صورها، يتهمونكم بأنكم لا تعلِّمون شيئًا أفضل من عبادة القضيب. فبما أن الثيوصوفيا الحديثة، على حدِّ ما يذهبون إليه، وثيقةُ الصلة بالفكر الشرقي – الهندي بخاصة – فلا بدَّ أنها موصومة بهذه الوصمة. حتى إنهم أحيانًا يذهبون إلى حدِّ اتهام الثيوصوفيين الأوروبيين بإحياء الممارسات المرتبطة بهذه العبادة. فماذا عن هذه التهمة؟

الثيوصوفي: لقد سمعت بهذا وقرأت عنه من قبل؛ وأجيبك بأنه لم يسبق لافتراء على هذه الدرجة من الكذب وانعدام الأساس أن اختُرِع وأشيع. "السفهاء لا يرون إلا أحلامًا سفيهة"، كما يقول مثلٌ روسي. إن سماعَ مثل هذه التهم الشنيعة المرمية جزافًا بلا أدنى أساس، وبدافع الظنون وحدها، ليجعل دَمَ المرء يغلي. اسألْ مئات الرجال والنساء الإنكليز الشرفاء من أعضاء الجمعية الثيوصوفية منذ سنين إذا اتفق لهم يومًا أن لُقِّنوا أية وصية *إباحية* أو أية عقيدة *خبيثة*. افتح *العقيدة السرية*، وستجد، صفحة بعد صفحة، تنديدًا باليهود وغيرهم من الأمم، حصرًا بسبب ممارستهم لطقوس قضيبية، من جرَّاء التفسير الحرفي الميت لرموز الطبيعة والتصورات المادية الفظة لثنويَّتها في مذاهب *أهل الظاهر* كافة. إن مثل هذا التأويل المتكرِّر والسيئ النية لتعاليمنا ومعتقداتنا لهو مُخْزٍ حقًّا.

السائل: لكنك لا تستطيع أن تنكر بأن العنصر القضيبي موجود *فعلاً* في ديانات الشرق؟

الثيوصوفي: لا، لا أنكر ذلك؛ غير أني أذهب إلى أن هذا لا يبرهن على وجوده في ديانات الشرق بأكثر مما يبرهن على وجوده في المسيحية، ديانة الغرب. اقرأ كتاب *جماعة وردة الصليب* لهَرْغريف جينِّنغ، إذا أحببت أن تتأكد بنفسك من الأمر. لعل الرمزية القضيبية أكثر فجاجة في الشرق لأنها أخْلَص للطبيعة، أو بالأصح، أكثر *سذاجة* وصدقًا منها في الغرب. لكنها ليست أكثر إباحية، ولا هي توحي للذهن الشرقي بالأفكار الغليظة والفظَّة نفسها التي توحي بها للذهن الغربي – ما عدا، ربما، استثناء واحد أو اثنين، من نحو النِّحلة المشينة المعروفة باسم "مهاراجا"، أو نِحلة *فلابهاتشاريا*.

السائل: لكن أحد الكتَّاب في *الجريدة اللاأدرية* – وهو واحد من متَّهميكم – لمَّح لتوِّه أن أتباع هذه النِّحلة المشينة هم ثيوصوفيون وأنهم "يدَّعون حيازة البصيرة الثيوصوفية الصحيحة".

الثيوصوفي: لقد افترى علينا – هذا كلُّ ما في الأمر. ليس بين أعضاء جمعيتنا *فلابهاتشاريا* واحد، لا في الماضي ولا في الحاضر. أما عن حيازتهم، أو ادِّعائهم حيازة البصيرة الثيوصوفية، فهذه تلفيقة أخرى، قائمة على جهل مطبق بالنِّحَل الهندية. إن زعيم هذه الطائفة – "المهاراجا" – يدَّعي فقط الحقَّ في مال أتباعه المغفَّلين ونسائهم وبناتهم، ليس إلا. وهذه الطائفة يحتقرها الهندوس الآخرون كافة.

على كلِّ حال، ستجد مناقشة مسهبة لهذه القضية في *العقيدة السرية*، الذي أحيلك إليه مرة أخرى من أجل تعليلات مفصَّلة. ختامًا فإن روح الثيوصوفيا نفسها مناوئة تمامًا لعبادة القضيب؛ في شعبتها الغيبية أو الباطنية أكثر منها حتى في التعاليم الظاهرية. لم أقع يومًا على تصريح أكْذَب من التصريح أعلاه. هيا الآن فاسألني بعض الأسئلة الأخرى.

هل الجمعية الثيوصوفية تنظيم هدفه كسب المال؟

السائل: مفهوم. طيب، هل سبق لأيٍّ من المؤسِّسَيْن – الكولونيل هـ.س. أولكوت وهـ.ب. بلافاتسكي – أن جنى مالاً أو فائدة أو استفاد منفعة دنيوية من الـج.ث.، كما تقول بعض الصحف؟

الثيوصوفي: ولا قرشًا واحدًا. الصحف تكذب. فعلى العكس، قدَّم كلاهما كلَّ ما كان يملك، لا بل لقد أفلسا. أما عن "المنافع الدنيوية"، ففكِّر في الافتراءات والمطاعن التي تعرضا لها، ثم أعِدْ طرح السؤال!

السائل: ومع ذلك فقد قرأت في عدد من صحف المبشِّرين بأن رسوم الانتساب والاشتراكات تغطي النفقات كلَّها وتفيض عنها بكثير؛ حتى إنه إحداها قالت إن المؤسِّسَيْن يكسبان عشرين ألف جنيهًا في السنة!

الثيوصوفي: هذا معلومة ملفَّقة هي الأخرى، مثل غيرها كثير. في موازنة كانون الثاني 1889 المنشورة، ستجد تصريحًا دقيقًا ومفصلاً بكلِّ المبالغ الواردة من المصادر جميعًا منذ العام 1879. ومجموع الواردات من المصادر جميعًا (رسوم الانتساب، التبرعات، إلخ، إلخ) طوال هذه السنين العشر يقل عن ستة آلاف جنيه، وجزء كبير من هذا المبلغ أسهم به المؤسِّسان إياهما من مردود مواردهما الخاصة وكتاباتهما. وهذا كلُّه تمَّ إقرارُه علانية إقرارًا رسميًّا، حتى إن أعداءنا في جمعية البحوث النفسانية أقروه. وكلا المؤسِّسَيْن لم يعد يملك الآن شروى نقير: إحداهما أسنُّ وأكثر اعتلالاً من أن تعمل كما كانت تعمل في السابق، عاجزة عن تخصيص وقت للكتابة الأدبية حتى تساعد الجمعية بالمال، ولا يسعها أن تكتب إلا من أجل القضية الثيوصوفية؛ والثاني

يواصل الكدَّ من أجل هذه القضية كما كان دأبُه في السـابق، ولا يقابَـل بامتنـان على ذلك أكثر من ذي قبل.

السائل: لكنهما قطعًا يحتاجان إلى المال للعيش؟

الثيوصوفي: البتة. إذ مـادام يتـوفر لهمـا المأكـل والمسـكن – حـتى إذا كانـا يدينان بهما لإخلاص ثلة من الأصدقاء – فهما لا يحتاجان إلا إلى القليل أكثر.

السائل: ولكن، ألا تستطيع السيدة بلافاتسكي، بخاصة، أن تكسـب مـا يفيـض عـن حاجتهـا بكتاباتها وحسب؟

الثيوصوفي: حين كانت في الهند كانت تكسب بمعدَّل حوالى ألف روبية فـي السنة مقابل مقالات كانت تُنشَر في صحف روسية وغيرهـا، لكنهـا وهبـتْ ذلـك المال كلَّه للجمعية.

السائل: مقالات سياسية؟

الثيوصوفي: أبدًا. كلُّ ما كتبت طوال إقامتها في الهند التي دامت سبع سنين موجود هناك مطبوعًا. وهو يتناول فقط أديان الهند وأعراقها البشرية وتقاليدها، ويتناول الثيوصوفيا – ولا يتطرق إلى أبدًا السياسة، التي لا تفقه فيها شيئًا وتهتم بها أقل. كذلك فقد رفضت منذ عامين عدة عقود يبلغ مجموعهـا حـوالي 1200 روبلاً ذهبيًّا شهريًّا؛ إذ إنهـا مـا كـانت لتسـتطيع أن تقبلهـا مـن دون التخلِّـي عـن عملها من أجل الجمعية، التي كانت تحتاج إلـى وقتهـا وقوَّتهـا بالكامـل. ولـديها الوثائق لإثبات ما تقول.

السائل: أما كان في وسعها ووسع الكولونيل أولكوت أن يفعلا كما يفعل آخـرون – كالعديـد من الثيوصوفيين على الخصوص: يواصلون كلٌّ منهم امتهان مهنته ويكرِّس الفائض من وقته لعمل الجمعية؟

الثيوصوفي: لأنه بخدمة سيِّدين، لا بـدَّ لأحـد العمليـن – المهنـي أو المبَـرِّي – من أن يتأثر سلبًا. كلُّ ثيوصوفي مُلزَمٌ خُلُقيًّا أن يضـحِّي بالشخصـي فـي سـبيل اللاشخصي، بـخيره *الآني* في سبيل المنفعة *الآتية* لأناس آخرين. فـإذا لـم يكـن المؤسِّسان قدوةً فمن سيكون؟

السائل: وهل هناك كثيرون يقتدون بهما؟

الثيوصوفي: أنا ملزم بأن أجيبك بالحقيقة. في أوروبا يوجد من هؤلاء حـوالى الستة، من جملة من الفروع تتخطَّى هذا العدد.

السائل: فليس صحيحًا، إذن، أن الجمعية تملك رأسمال أو مصادر دخل خاصَّين بها؟

الثيوصوفي: هذا غير صحيح، لأنها لا تملك شيئًا من ذلك مطلقًا. أما وأن رسم الانتساب البالغ جنيهًا استرلينيًّا واحدًا والاشتراك السنوي الضئيل قد أُلغِيا، ليس من المستبعد أن يصل الأمر بطاقم العمل في مقرِّ الهند إلى الموت جوعًا!

السائل: فلم لا تجمعون الاشتراكات؟

الثيوصوفي: نحن لسنا "جيش الخلاص"؛ إذ *لا يجوز لنا* أن نتسول، *ولم نفعل* ذلك قط؛ كما أننا لم نحذُ حذو الكنائس والطوائف و"نجمع التبرعات". فما يُرسَل من حين لآخر دعمًا للجمعية – المبالغ الصغيرة التي يتبرَّع بها بعض الأعضاء المخلصين – كلُّه عبارة عن تبرعات طوعية.

السائل: لكني سمعت بأن مبالغ كبيرة من المال أُعطِيَت للسيدة بلافاتسكي. قيل منذ أربع سنوات إنها حصلت على 5000 جنيه من عضو شاب ميسور، ذهب إلى الهند للانضمام إلى الحركة، و 10000 جنيه من وجيه آخر أمريكي غني، هو واحد من أعضائكم، توفي في أوروبا منذ أربع سنوات.

الثيوصوفي: قُلْ لأولئك الذين أخبروك بهذا إنهم إما ينطقون بأنفسهم أكذوبة فظة، وإما أنهم يردِّدونها. لم يحدث *قط أن طلبت* "السيدة بلافاتسكي" *أو استلمت* ***قرشًا واحدًا*** من الوجيهين المذكورين أعلاه، ولا أيَّ شيء من هذا القبيل من أيِّ أحد آخر، منذ تأسيس الجمعية الثيوصوفية. فليحاول أيُّ حيٍّ أن يثبت صحة هذه الفرية، ليجد أنه أيسر له أن يبرهن على إفلاس بنك إنكلترا منه على أن "المؤسِّسة" المذكورة جَنَتْ أيَّ مال يومًا على حساب الثيوصوفيا. هاتان الفريتان أطلقتْهما سيدتان كريمتا المحتد من الأرسطوقراطية اللندنية، وتمَّ آنذاك تقصِّيهما على الفور وإثبات بطلانهما. إنهما جثَّتا – بل جيفتا – تلفيقتين، بعد أن دُفِنَتا في غياهب النسيان، عادتا لتطفوا من جديد على صفحة مياه البهتان الراكدة.

السائل: ثم إني أُخبِرْتُ بوجود عدة *تَرِكات* ضخمة ورثتْها الج.ث.: واحدة – وتبلغ حوالى 8000 جنيه – ورثتْها عن إنكليزي غريب الأطوار، لم يكن ينتمي حتى إلى الجمعية؛ والثانية – 3000 أو 4000 جنيه – أوصى بها ع.ج.ث. أسترالي. فهل هذا صحيح؟

الثيوصوفي: سمعت بالأولى؛ وأنا أعلم أيضًا أن الج.ث. لم تستفد أبدًا من هذه التركة، سواء تُرِكَتْ شرعًا أو لا، ولم يُبلَّغ المؤسِّسان بها رسميًّا قط. فبما أن جمعيتنا لم تكن آنئذٍ هيئة مرخَّصة، وبالتالي لم يكن لها وجودٌ شرعي، لم يُعِرْ قاضي محكمة البتِّ في صحة الوصيات اهتمامًا بمثل هذا التوريث، على ما قيل لنا، وأحال المبلغ إلى الورثة. هذا عن التركة الأولى. أما فيما يخص الثانية، فمعلوماتك صحيحة تمامًا. كان الموصي واحدًا من أعضائنا المخلصين، وقد أوصى بكلِّ ما كان يملك للج.ث. ولكن عندما جاء رئيس الجمعية، الكولونيل أولكوت، للنظر في المسألة، وجد أن للموصي أولادًا كان قد حرمهم من الميراث لأسباب عائلية. لذا فقد دعا لجنةً إلى الانعقاد، وتقرَّر بأن الميراث

يجب أن يُرفَض، وبأن تُحوَّل الأموال إلى الورثة الشرعيين. فالجمعية الثيوصوفية لن تكون حقيقة باسمها إذا اتفق لها أن تستفيد من مال يعود بحكم الواقع إلى آخرين، استنادًا إلى المبادئ الثيوصوفية على كلِّ حال، وليس على الشَّرع.

السائل: كذلك – وهذا أقوله استنادًا إلى مجلتكم أنتم، *الثيوصوفي* – هناك راجا هندي تبرَّع للجمعية بمبلغ 25000 روبية. ألم تشكروه على هذا الجود العظيم في عدد كانون الثاني 1888 من *الثيوصوفي*؟

الثيوصوفي: بلى، شكرناه بالفعل بهذه الكلمات: "يتوجَّه المؤتمر بالشكر إلى سموِّ المهاراجا ......على *وعده بهبة سخية* قدرها 25000 روبية إلى صندوق الجمعية." لقد تبلَّغ المعني امتناننا، لكن المال ما يزال "وعدًا"، ولم يصل إلى المقرِّ أبدًا.

السائل: ولكن قطعًا، إذا كان المهاراجا وَعَدَ وتلقَّى علانية شكرًا مطبوعًا على هبته، فلا بدَّ أنه سيفي بوعده؟

الثيوصوفي: قد يفعل، مع أن عمر "الوعد" 18 شهرًا! أنا أتكلَّم على الحاضر، وليس عن المستقبل.

السائل: فماذا تنوون أن تفعلوا لكي تستمروا؟

الثيوصوفي: مادام في الـج.ث. ثلة من الأعضاء الأوفياء المستعدين للعمل من أجلها من دون مكافأة ولا عرفان بالجميل، مادامت ثلة من الثيوصوفيين الطيبين يدعمونها بتبرعاتهم من حين لآخر، فسوف تستمر، ولا قدرة لشيء على كسرها.

السائل: سمعت العديد من الثيوصوفيين يتكلَّمون على "سلطان خلف الجمعية" وعن "مهاتماوات" مزعومين، مذكورين أيضًا في مؤلَّفات السيد سينِّيت، ويقال إنهم هم الذين أسَّسوا الجمعية ويسهرون عليها ويحمونها.

الثيوصوفي: قد تسخر من هذا، لكنه صحيح.

طاقم عمل الـج.ث.

السائل: هؤلاء الرجال، على ما سمعت، هم نطساءٌ كبار، خيميائيون، وكل ما تريد. فإذا كان بمقدورهم، والحال كذلك، أن يحوِّلوا الرصاص إلى ذهب وأن يحصلوا على ما يشاؤون من مال، إلى جانب اجتراح كلِّ أنواع المعجزات إراديًّا، كما جاء في كتاب السيد سينِّيت *العالم الغيبي*، لم لا يوفرون لكم المال، ويقومون بأود المؤسِّسَيْن والجمعية؟

الثيوصوفي: لأنهم لم يؤسِّسوا "ناديًا للمعجزات". إن القصد من الجمعية هو مساعدة البشر على تنمية القدرات الكامنة فيهم من خلال جهودهم واستحقاقهم. لأنهم، أيًّا كانت الظواهر التي يجترحونها أو لا يجترحونها، ليسوا

مزيِّفي نقود؛ ولا هم يستحسنون عرقلة درب الأعضاء والمرشَّحين بإغراء إضافي قوي جدًّا: *الثيوصوفيا لا تُشترى*. طوال الـ 14 سنة الماضية، وحتى هذه الساعة، لم يحصل قط أن قبض عضوٌ عامل واحد أجرةً أو راتبًا، لا من السادَّة ولا من الجمعية.

السائل: ألا يُؤْجَر أيٌّ من عمَّالكم على الإطلاق إذن؟

الثيوصوفي: لا أحد منهم حتى الآن. ولكن بما أن كلَّ أحد مضطر إلى المأكل والمشرب والملبس فإن جميع الذين يعدمون أية موارد خاصة بهم للعيش، ويكرِّسون وقتهم برمَّته لعمل الجمعية – تخصَّص لهؤلاء في المقرِّ في مدراس، الهند، ضروريات الحياة – مع أن هذه "الضروريات" متواضعة للغاية في الحقيقة! (انظر "القواعد" في آخر الكتاب.) أما وأن عمل الجمعية قد تزايد إلى هذا الحدِّ الكبير وما يزال يتزايد (ملاحظة: *بفضل الافتراءات*) في أوروبا، فقد بتنا في حاجة إلى المزيد من الأيدي العاملة. ونحن نأمل أن تكون لنا ثلة من الأعضاء "المأجورين" من الآن فصاعدًا – إذا *جاز* لهذه الكلمة أن تُستَعمَل في الحالات التي نحن بصددها؛ إذ إن كلاً من هؤلاء الأعضاء، المستعدين لبذل وقتهم *كلِّه* للجمعية، يتخلَّى عن مناصب رسمية جيدة، ذات مستقبل واعد، لكي يعملوا من أجلنا مقابل *أقل من نصف راتبه السابق*.

السائل: ومَن سوف يؤمِّن المال لهذا الغرض؟

الثيوصوفي: بعضٌ من أعضائنا الميسورين أكثر قليلاً من الآخرين. فالمرء الذي يضارب ويثري على حساب الثيوصوفيا لا يستحق أن يبقى بين صفوفنا.

السائل: لكنكم قطعًا تجنون مالاً من كتبكم ومجلاتكم ومنشوراتكم الأخرى؟

الثيوصوفي: وحدها مجلة *الثيوصوفي* [222] الصادرة في مدراس، بين المجلات، تعود بشيء من الربح؛ وهذا الربح يحوَّل دومًا إلى صندوق الجمعية، عامًا بعد عام، كما تبيِّن الحسابات المنشورة. مجلة *لوسيفر*، [223] من جانبها، تبتلع المال ببطء، لكن بانتظام، من غير أن تفلح حتى الآن في تغطية نفقاتها – بفضل مقاطعة باعة الكتب وأصحاب أكشاك محطات القطار المتديِّنين لها. أما مجلة *اللوتس* [224] في فرنسا – التي انطلقت بفضل الموارد الخاصة والمتواضعة لأحد الثيوصوفيين، الذي كرَّس لها وقته وجهده كلَّه – فقد كفَّتْ عن الصدور، من جراء الأسباب عينها، بكلِّ أسف! كما أن مجلة *الدرب* [225] النيويوركية لا تغطِّي هي الأخرى نفقاتها، بينما لم يمض على انطلاق *المجلة الثيوصوفية* [226] الباريسية غير وقت قصير، كذلك بدعم من الموارد الخاصة لسيدة عضو. فضلاً عن ذلك،

---

222 - *The Theosophist*.
223 - *Lucifer*.
224 - *Le Lotus*.
225 - *The Path*.
226 - *La Revue théosophique*.

كلما حققت الكتب الصادرة عن دار النشر الثيوصوفية في لندن ربحًا ما، فإن المحصول يخصَّص لخدمة الجمعية.

السائل: عساك تخبرني الآن بكلٍّ تستطيع عن المهاتماوات. إذ ما أكثر السخافات والأشياء المتناقضة التي تقال عنهم، حتى إن المرء لا يعرف ماذا يصدِّق، وشتى أنواع الحكايات الموجبة للسخرية تصير شائعة.

الثيوصوفي: ولك الحق كله أن تدعوها "موجبة للسخرية".

*** *** ***

الباب الرابع عشر

"مهاتماوات الثيوصوفيا"

أ"أرواحٌ من نور هم أم "أبالسة ملعونون"؟

السائل: من هم، أخيرًا، أولئك الذين تدعونهم "سادتكم"؟ بعضُهم يقول إنهم "أرواح"، أو جنس آخر من أجناس الكائنات الخارقة للطبيعة، في حين يدعوهم بعضُهم الآخر "أساطير".

الثيوصوفي: إنهم ليسوا هذا ولا ذاك. سمعتُ ذات مرة واحدًا من البرَّانيين يقول لواحد آخر إنهم جنس من *الخيالنة*[227]، أيًّا كان مثل هذا المخلوق! غير أنك إذا استمعت إلى ما يقوله الناس فلن تكوِّن أبدًا تصورًا صحيحًا عنهم. إنهم، في المقام الأول، *بشر أحياء*، يولدون كما نولد، ومقضيٌّ عليهم أن يموتوا ككلِّ البشر.

السائل: أجل، ولكن يُشاع إن بعضهم قد بلغ من العمر الألف من السنين. هل هذا صحيح؟

الثيوصوفي: إنه صحيح صحة النموِّ العجائبي للشعر على رأس شغبات ميرديث: حقًّا، كما جرى مع "المثيل"، لم تتمكن أية موسى حِلاقة ثيوصوفية من جزِّه إلى الآن. [228] كلما أنكرناه، وكلما حاولنا أن نفقِّه الناس، أضحت الاختلاقاتُ أسخف. سمعت عن بلوغ متوشالح [229] عمر الـ 969 عام؛ لكنني، إذ لم أكن مرغمًا على تصديق ذلك، سخرتُ من المعلومة، الأمر الذي جعل الكثيرين ينظرون إليَّ نظرتهم إلى زنديق مجدِّف!

السائل: فهل يتخطون حقًّا العمر العادي للبشر، إذا أخذنا الأمر على محمل الجد؟

الثيوصوفي: ما هو العمر "العادي" في نظرك؟ أذكر أنني قرأت في الـ *Lancet* [230] عن رجل مكسيكي ناف عمرُه على الـ 190 عامًا؛ غير أنني لم أسمع أبدًا عن بشر فانٍ، من العامة كان أم من النطساء، استطاع أن يعيش حتى نصف السنين التي خُصَّ بها متوشالح. غير أن بين النطساء مَن يتخطَّى بمقدار كبير ما قد يكون العمر العادي في نظرك؛ ومع ذلك، فليس في الأمر شيء عجائبي، وقلة قليلة بينهم تهتم بالعيش طويلاً.

السائل: فما معنى كلمة "مهاتما" حقًّا؟

---

227 - جمع "خيلان"، وهو جنِّي البحر، أو عروس البحر الذكر؛ نصفه الأعلى رجل ونصفه الأسفل سمكة. (المترجم)

228 - على ما يبدو، حادثة معاصرة لنشر الكتاب؛ لم نتوصل إلى معرفة شيء عنها. (م)

229 - من الآباء في اليهودية؛ جاء في التوراة أنه عاش قبل طوفان نوح وبلغ ذلك العمر المديد. (م)

230 - مجلة الجمعية الملكية للأطباء. (م)

الثيوصوفي: إنها في بساطة تعنى "نفس كبيرة" – كبيرة بفضل السموِّ الخُلُقي والمنال الفكري. فإذا كان لقب "كبير" يُطلَق على جندي سكِّير عربيد كالإسكندر، لِمَ لا ندعو "كبارًا" أولئك الذين أنجزوا فتوحات أعظم بكثير في أسرار الطبيعة من الفتوحات التي قام بها الإسكندر في ميدان الوغى؟ ثم إن المصطلح مصطلح هندي قديم جدًّا.

السائل: ولِمَ تدعونهم "سادة"؟

الثيوصوفي: ندعوهم "سادة" لأنهم معلِّمونا؛ ولأننا منهم قد اقتبسنا الحقائق الثيوصوفية كلَّها، مهما كان قصورُ بعضنا في التعبير عنها وبعضنا الآخر في فهمها. إنهم رجال – ندعوهم بالمُسارَرين – ذوو علم كبير، وذوو قداسة حياة أكبر. وهم ليسوا نسَّاكًا بالمعنى العادي للكلمة، مع أنهم قطعًا يبقون في معزل عن جَيَشان عالمكم الغربي ونزاعاته.

السائل: أوليس من الأثرة أن يعزلوا أنفسهم على هذا النحو؟

الثيوصوفي: أين الأثرة في ذلك؟ ألا يبرهن مصيرُ الجمعية الثيوصوفية برهانًا وافيًا على أن العالم ليس بعدُ مستعدًّا للاعتراف بهم ولا للانتفاع من علمهم؟ أي نفع يُرتَجى من تعليم البروفيسور كليرك مكسويل[231] جدولَ الضرب لصفٍّ من الصبية الصغار؟ ثم إنهم لا يعزلون أنفسهم إلا عن الغرب. أما في بلادهم فهم يهتمون لشؤونهم علنًا، مثلهم كمثل غيرهم من الناس.

السائل: أفلا تعزون إليهم قدراتٍ خارقة للطبيعة؟

الثيوصوفي: نحن، كما أسلفت، لا نؤمن بأيِّ شيء خارق للطبيعة. فلو عاش إديسون[232] واخترع فونوغرافه قبل مائتي عام، أغلب الظن أنه كان سيُحرَق معه، ولنُسِبَ الأمر برمَّته إلى إبليس. إن القدرات التي يستعملونها ما هي إلا تنمية لطاقات ترقد كامنة في كلِّ رجل وامرأة، طاقات بدأ العلم الرسمي حتى يقر بوجودها.

السائل: أصحيح أن هؤلاء الرجال *يلهمون* بعض كتَّابكم، وأن العديد من مؤلَّفاتكم الثيوصوفية، إن لم نقلْ كلها، كُتِبَتْ بإملاء منهم؟

الثيوصوفي: هذا يصح على بعض هذه المؤلَّفات. هناك مقاطع من إملائهم كلمة كلمة؛ لكنهم، في أغلب الحالات، يكتفون بإلهام الأفكار ويتركون الشكل الأدبي للكتَّاب.

---

231 - جيمس ك. مكسويل (1831-1979): عالم الفيزياء المعروف؛ كان أول مَن وحَّد نظريتي الكهرباء والمغناطيسية بتوصله في العام 1873 إلى القوانين العامة للحقل الكهرطيسي، ناهيك عن إنجازاته الأخرى في مجالي الضوء والترموديناميكا. (م)

232 - جدير بالذكر أن ت.أ. إديسون (1847-1931)، مخترع الفونوغراف الشهير وغيره من الآلات، كان عضوًا في الجمعية الثيوصوفية؛ وقد حاول ابتكار جهاز لمخاطبة نفوس الموتى! (م)

السائل: لكن هذا، في حدِّ ذاته، إعجاز! إنه، في الواقع، *معجزة*، فكيف يمكن لهم القيام به؟

الثيوصوفي: سيدي الكريم، أنت واقع في غلط فاحش؛ والعلم نفسه هو الذي سيدحض حججَك في يوم ليس ببعيد. لِمَ يكون الأمرُ "معجزة"، كما تسمِّيه؟ يُفترَض في المعجزة أن تعني عملية ما خارقة للطبيعة، بينما لا يوجد في الواقع شيء فوق **الطبيعة** أو قوانينها أو ما يتعالى عنها. بين الأشكال العديدة للـ"معجزات" التي حظيتْ مؤخرًا باعتراف العلم الحديث هناك التنويم، وواحد من أوجُه قدرته يُعرَف بـ"الإيحاء" – وهو شكل من أشكال توارُد الأفكار، استُعمِل استعمالاً ناجحًا في مكافحة أدواء بدنية معينة، إلخ. ولن يطول الأمر بعالَم العلم كثيرًا حتى يُجبَر على الاعتراف بوجود تفاعُل بين ذهن وآخر، مهما كانت المسافة بينهما، بمقدار ما يوجد من التفاعل بين جسمين بينهما أوثق الصلة. فحين يتصل ذهنان اتصالاً متعاطفًا، وتُوالَف الأجهزةُ التي يشتغلان من خلالها بحيث يتجاوب واحدُهما مع الآخر مغناطيسيًّا وكهربائيًّا، لِمَ يقوم ما يحول دون بثِّ الخواطر – إراديًّا – من أحدهما إلى الآخر؟ فبما أن الذهن ليس من طبيعة ملموسة بحيث تستطيع المسافة أن تفصله عن موضوع مشاهدته، ينجم عن ذلك أن الفرق الوحيد الممكن بين ذهنين هو فرق في **الحالة**. فإذا تمَّ التغلب على هذا العائق، أين "المعجزة" في *التخاطر*، مهما تكن المسافة؟

السائل: لكنك لا بدَّ أن تقر بأن التنويم لا يقوم بشيء يوازي مثل هذا الإعجاز أو العَجَب؟

الثيوصوفي: على العكس. فمن الوقائع المُثبَتة أن في وسع المنوِّم أن يؤثِّر في دماغ المنوَّم إلى حدِّ أن يُحدِثَ، عبر بنية هذا الأخير، تعبيرًا عن أفكاره هو، وحتى عن كلماته؛ ومع أن الظواهر الملحقة بهذه الطريقة من التخاطر الفعلي مازالت إلى الآن قليلة العدد، فلا أحد، فيما أظن، سيضطلع بتحديد الشوط الذي سيقطعه مفعولُها في المستقبل، إذ تُقَرُّ القوانين التي تحكم إحداثها تقريرًا أكثر علمية. وبالتالي، إذا كان من الممكن إحداثُ مثل هذه النتائج بمعرفة أوَّليات التنويم وحسب، ماذا يحول دون الناطس في القدرات النفسانية والروحانية والإتيان بنتائج تَنْحَوْن، من جراء معرفتكم الحالية المحدودة بقوانينها، إلى تسميتها "خوارق"؟

السائل: فلِمَ لا يختبر أطباؤنا[233] لكي يحاولوا معرفة إن كان الإتيان بمثلها في إمكانهم؟

233 - من هؤلاء، على سبيل المثال: البروفسور برنهايم والدكتور لويد تَكي، من إنكلترا؛ البروفسوران بونيس وليبجوا، من نانسي؛ دِلبوف، من لييج؛ بورو وبورُّو، من روشْفور؛ فونتَن وسيغار، من بوردو؛ فوريل، من تسورِش؛ والدكاترة: دِسبين، من مرسيليا؛ فان رِنْتِرْغِم وفان إيدِن، من أمستردام؛ فتِّرستراند، من ستوكهولم؛ شِرِنكْ–نوتسِنغ، من لايبزِش، والعديد غيرهم من الأطباء والكتَّاب المرموقين.

الثيوصوفي: لأنهم، قبل كلِّ شيء، ليسوا نطساء ذوي فهم تامٍّ لأسرار العالَمين النفساني والروحاني، بل ماديون، يخشون أن يخطوا خطوة واحدة خارج خندق المادة الضيق؛ ولأنهم، ثانيًا، *يجب أن يخفقوا* في الوقت الحاضر، ويظلوا على إخفاقهم، حتى يضطروا إلى الإقرار بأن بلوغ مثل هذه القدرات أمرٌ ممكن.

السائل: فهل يمكن تعليمهم؟

الثيوصوفي: غير ممكن، ما لم يكونوا قبل كلِّ شيء مستعدين، بكسح الغثاء المادي المتراكم في أدمغتهم كلِّه، حتى آخر ذرة.

السائل: إن هذا ليستأثر بالاهتمام حقًّا. قل لي: هل ألهم النطساءُ ثيوصوفيين عديدين منكم أو أملوا عليهم على هذا النحو؟

الثيوصوفي: لا، فهم، على العكس، ألهموا قلة قليلة وحسب. فمثل هذه العمليات يتطلب شروطًا خاصة. إن ناطسًا من الأخوية السوداء ("إخوان الظل"، والـ*دُغْبا*، كما نسمِّيهم) لا يتورع عن شيء، لكنه ماهر، يعاني في شُغله مشقاتٍ أقل بكثير. إن "مشعوذًا" *دُغْبا* كهذا، إذ لا يتقيد بأية قوانين من طبيعة روحية من شأنها عرقلة أفعاله، يملك أن يسيطر على أيِّ ذهن، لا يراعي في ذلك حرمةً، ويخضعه إخضاعًا تامًّا لقدراته الشريرة. أما سادتنا فلا يفعلون أبدًا شيئًا من هذا القبيل. إذ لا يحق لهم، تحت طائلة الوقوع في السحر الأسود، امتلاكُ السيادة التامة على أنية أحدهم الخالدة، ولا يمكن لهم، بالتالي، أن يتصرفوا إلا في طبيعة الشخص الجسمانية والنفسانية، تاركين بذلك إرادته الحرة لا يقلقها شيء على الإطلاق. من هنا، ما لم يكن الشخص قد ارتبط بالسادة بعلاقة نفسانية، وتلقَّى العون بفضل إيمانه بمعلِّميه وإخلاصه التام لهم، فإنهم، كلما بثوا خواطرهم لمَن لم يكن هذا الشرطان متحقِّقين فيه، يكابدون مشقاتٍ عظيمة في اختراق العماء الكَدِر لنطاق ذلك الشخص. لكن هذا المقام ليس مقام معالجة مسألة من هذه الطبيعة. حسبنا أن نقول إنه إن وُجِدَتْ القدرة، فهناك إذ ذاك عقول (متجسِّمة أو متجردة من أجسامها) توجِّه هذه القدرة، وأدواتٍ حية وواعية تُبَثُّ من خلالها وتلتقطها. حسبنا أن نأخذ حذرنا من السحر *الأسود*.

السائل: ولكن ماذا تقصد حقًّا بـ"السحر الأسود"؟

الثيوصوفي: أعني به في بساطة *إساءة استعمال القدرات النفسانية* أو أيِّ *سرٍّ من الأسرار الطبيعية*؛ واقع استخدام قدرات الغيبيات لمآرب أنانية أثيمة. إن منوِّمًا، مستفيدًا من قدراته "الإيحائية"، يرغم منوَّمًا على السرقة أو القتل، ندعوه نحن *ساحرًا أسود*. إن "منهج تجديد الشباب" الشهير الذي ابتدعه الدكتور براون–سيكار، من باريس، عن طريق *حقنة حيوانية* مقزِّزة في الدم

البشري – وهو اكتشاف تناقشه جميعُ الصحف الطبية الأوروبية الآن – هو، إن صحَّ، *سحر أسود غير واعٍ*.

السائل: لكن هذا اعتقاد من القرون الوسطى بالشعوذة والسحر! حتى القانون نفسه كفَّ عن الاعتقاد بمثل هذه الأمور.

الثيوصوفي: لهفي على القانون، إذ إنه اقتيد، عبر مثل هذا النقص في الحصافة، إلى ارتكاب أكثر من غلطة وجريمة قضائيتين. إن المصطلح هو الذي يرعبكم برنَّته "المتطيِّرة". أما يعاقِب القانونُ على سوء استعمال القدرات التنويمية، كما ذكرت لتوِّي؟ بل إنه قد سَبَقَ أن عاقب عليه في فرنسا وألمانيا؛ ومع ذلك فإنه ينفي في أنفة إنزاله العقاب في جريمة من *السحر* الصريح؟ لا يحق لك أن تعتقد بنجاعة *قدرات الإيحاء* وحقيقة وجودها لدى الأطباء والمِسْمِريين (أو المنوِّمين)، ثم ترفض الاعتقاد بالقدرات عينها حين تُستخدَم لمآرب شريرة. إما إذا صدَّقتَها، فإنك حينئذٍ تصدِّق *السحر* لا محالة. لا يحق لك أن تؤمن بالخير وتكفر بالشر، أن تقبل بوجود المال الصحيح ثم ترفض التصديق بشيء من نحو العملة المزيفة. لا شيء يوجد من دون نقيضه: فما كان للنهار، ولا للنور، ولا للخير أن يكون لها أيُّ تمثيل بما هي كذلك في وعيك لو لم يكن هناك ليل أو ظلمة أو شر لموازنتها ومعارضتها.

السائل: لقد عرفت، بالفعل، أناسًا كانوا، على اعتقادهم التام بما تدعونه القدرات النفسانية أو السحرية العظيمة، يسخرون من مجرد ذكر الشعوذة والسحر.

الثيوصوفي: فعلامَ يبرهن ذلك؟ على أن المنطق ببساطة يعوزهم. لهفي عليهم أيضًا! أما نحن، إذ نعرف ما نعرف عن وجود نطساء أخيار وقديسين، فنؤمن، بالمقدار نفسه، بوجود نطساء أشرار وفُجَّار، أو *دُغْبا*.

السائل: فإنْ وُجِدَ السادةُ فلِمَ لا يظهرون على الملأ ويدحضون بتَّة واحدة كلَّ التهم العديدة الموجَّهة ضد السيدة بلافاتسكي والجمعية؟

الثيوصوفي: أية تُهَم؟

السائل: تُهَم أنْ لا وجود *لهم*، وأنهم من ابتداع مخيِّلتها. أنهم رجال من قش، "مهاتماوات من الشاش وأكياس الهواء". ألا يسيء هذا كلُّه إلى سمعتها؟

الثيوصوفي: وكيف لمثل هذا الاتهام أن يسيء إليها في الواقع؟ هل كسبتْ مالاً من جرَّاء وجودهم المزعوم، أم جَنَتْ من ذلك فائدةً أو شهرة؟ أجيبك بأنها لم تَفُزْ إلا بالشتائم والمسبَّة والافتراءات، وبأن هذه ربما كانت ثقيلة الوطء عليها لو لم تكن قد تعلَّمتْ منذ أمد بعيد كيف لا تكترث مطلقًا لمثل هذه التهم الباطلة. فما حصيلتها في النهاية؟ حصيلتها – ويا للعجب! – *ثناء مبطَّن*، لو أن الحمقى – متهمِّيها – لم يذعنوا لحقدهم الأعمى، لفكَّروا مرتين قبل أن يتفوَّهوا به. فالقول بأن السادة من ابتداعها يكافئ القول بأنها ابتدعتْ بنفسها لا محالة

كلَّ جزء من أجزاء الفلسفة التي كُشِفَ عنها في الأدبيات الثيوصوفية؛ وبأنها صاحبة الرسائل التي وُضِعَ كتابُ *البوذية الباطنية* على أساسها؛ وبأنها بمفردها قد ابتدعتْ مجمل العقائد الواردة في *العقيدة السرية*، التي، لو كان العالم منصفًا، لأقرَّ بأنها تشتمل على العديد من حلقات العلم المفقودة، كما سيكتشف العلم بعد مئة عام من الآن. وهم، إذ يقولون ما يقولون، فإنهم أيضًا يقرون لها بأنها أذكى من مئات الرجال (وبينهم الكثيرون من *شديدي* الذكاء وغير قليل من رجال العلم) يصدِّقون ما تقول – بما أنها خدعتْهم جميعًا لا محالة! وإذا كان ما يقولون صحيحًا فلا بدَّ أنها جملة من عدة مهاتماوات متداخلين بعضهم في بعض على غرار جملة من العُلَب الصينية! – بما أن بين ما يُسمَّى "رسائل المهاتماوات" رسائل عديدة مكتوبة بأساليب مختلفة ومميزة، يعلن متَّهموها بأنها هي التي أقدمت على كتابتها جميعًا.

السائل: ذلك بالتمام ما يقولون. ولكن، ألا يؤلمها كثيرًا أن يندَّد بها علنًا باعتبارها "أحذق محتالي هذا العصر، يستحق اسمُها أن تتناقله الأجيال القادمة"، كما وَرَدَ في تقرير "جمعية البحوث النفسانية"[234]؟

الثيوصوفي: كان ذلك ليؤلمها لو أنه صحيح، أو لو كان مصدرَه أناسٌ أقل سُعرًا في تعصبهم لماديتهم وتحامُلهم. إن المسألة برمَّتها، بما هي عليه، لا تقابلها شخصيًّا إلا بالازدراء، بينما المهاتماوات يكتفون بالسخرية منها. أقول مجددًا إن هذه الأقاويل، في الحقيقة، أعظم ثناء يُرفَع إليها!

السائل: لكن أعداءها يدَّعون أنهم أقاموا الدليل على قضيَّتهم.

الثيوصوفي: أجل، فمن السهولة بمكان أن تدَّعي مثل هذا الادِّعاء حين تنصب نفسك، في آنٍ معًا، قاضيًا وهيئة محلَّفين ومستشار ادِّعاء، كما فعلوا. ولكن مَن يصدِّقها؟ – باستثناء أتباعهم المقرَّبين وأعدائنا.

السائل: أفلم يبعثوا إلى الهند بمندوبهم للتحقيق في الأمر؟

الثيوصوفي: لقد فعلوا، لكن حكمهم النهائي المبرم يستند برمَّته إلى التصريحات غير المدقَّقة والمزاعم المجانية لهذا الشاب. لقد أخبر محامٍ اطَّلع على تقريره أحدَ أصدقائي بأنه إبان خبرته كلِّها لم يقع البتة على "وثيقة *سخيفة*

234 - أقرَّتْ "جمعية البحوث النفسانية" في الثمانينيات، بقلم د. فرنون هاريسون، بأن تقرير العام 1885 المتحيِّز (تأثَّر بافتراءات الإرسالية المسيحية، على سبيل المثال لا الحصر، ناهيك عن خيانة زوجين من الخدم في أديار) لم يثبتْ شيئًا وأن السيدة بلافاتسكي اتُّهِمَتْ ظلمًا. راجع في هذا الخصوص (م):

Vernon Harrison, “J’accuse: An Examination of the Hodgson Report of 1885,” in: *Journal of the Society for Psychical Research*, London, Vol. 53, n° 803, April 1986, p. 286.

تدين صاحبها إلى هذا الحد". لقد وجدها تعج بالافتراضات و"الفرضيات المهلهلة" التي يفنِّد كلٌّ منها الأخريات. فهل هذه تهمة خطيرة؟

السائل: لكنها، مع ذلك، قد أساءت كثيرًا إلى الجمعية. فلماذا، إذن، لم تلجأ السيدة بلافاتسكي إلى القضاء – لتذود عن سمعتها على الأقل؟

الثيوصوفي: أولاً، لأن واجبها كثيوصوفية يحتِّم عليها أن تتغاضى عن الإهانات الشخصية كلِّها. ثانيًا، لأنه لم يكن لدى الجمعية، ولا لدى السيدة بلافاتسكي، أي مال تنفقه على مثل هذه الدعوى القضائية. وأخيرًا، لأن من السخف بنظر كليهما أن يخونا مبادئهما بسبب هجوم شنَّه عليهما قطيع من الكباش الإنكليزية المُسِنَّة التي حَمَلَها على الكرِّ عليهما حَمَلٌ أسترالي[235] ممراح!

السائل: يا له من إطراء! ولكن ألا تعتقد بأنها لو فنَّدتِ الأمر برمَّته بتَّة واحدة تفنيدًا شديدًا لأفادت القضيةُ الثيوصوفية حقًّا من ذلك؟

الثيوصوفي: ربما. ولكن هل تظن أن أيَّ قاضٍ إنكليزي أو هيئة محلَّفين كانوا سيقبلون يومًا بصحة الظواهر النفسانية؟ – حتى وإنْ كانوا غير منحازين في الأصل. ولعلك إذا تذكَّرت بأنهم باتوا متحاملين علينا أصلاً من جراء قصة "الجاسوسة الروسية" [236] المفزعة، وتهمة *الإلحاد والكفر*، وسائر الافتراءات الأخرى التي أُشيعَتْ عنَّا، فإنك لا محالة مدرِكٌ بأن مسعًى كهذا لابتغاء العدل من القضاء كان سيبوء بما هو أسوأ من الفشل! وهذا كلُّه كان البحَّاثة النفسانيون على علم جيد به، وقد اهتبلوا موقفهم في خِسَّة ودناءة فرصةً سانحة ليترقوا على رؤوسنا ولينجوا بأنفسهم على حسابنا.

السائل: إن ج.ب.ن. تنكر الآن وجود المهاتماوات تمام الإنكار. يقولون بأنهم كانوا، من البداية إلى النهاية، محض خرافة حاكتْها مخيلةُ السيدة بلافاتسكي.

الثيوصوفي: ويحهم! كان في مقدورها أن تقوم بأشياء عديدة أقل فطنة من هذا. مهما يكن من أمر، ليس لدينا أدنى اعتراض على هذه النظرية. فهي [بلافاتسكي] تكاد أن تفضل ألا يؤمن الناس بالمعلِّمين، كما باتت الآن تقول دومًا. وهي تعلن جهرًا أنها تؤثر أن يظن الناس جادِّين أن "موطن المهاتماوات" الوحيد هو المادة السنجابية في دماغها، وأنها، في اختصار، قد استخرجتْهم من أعماق وعيها الباطن، على أن تُنْتَهَك حرمةُ أسمائهم ومثالُهم السامي هذا الانتهاك الشنيع الذي يجري الآن. لقد كانت في البداية تحتج ساخطة على أية شكوك بخصوص وجودهم. أما الآن فهي لا تكترث لإثبات ذلك ولا لنفيه. الناس وما يحلو لهم!

235 - إشارة إلى ريتشارد هودجسُن، الشاب الأسترالي الذي عهدتْ إليه جمعيةُ البحوث النفسانية بإجراء التحقيق في صحة "رسائل المهاتماوات" وكتابة التقرير الآنف الذكر الذي نشرتْه. (م)
236 - اتُّهِمَت السيدة بلافاتسكي بأن الحكومة الروسية أرسلتْها إلى الهند للتجسس على الإنكليز! (م)

السائل: ولكن هؤلاء السادة موجودون *فعلاً* ؟

الثيوصوفي: نحن نجزم بأنهم *موجودون*. غير أن هذا لا يقدِّم في الأمر أو يؤخر كثيرًا. فالعديد من الناس – وحتى بعض الثيوصوفيين والثيوصوفيين السابقين – يقولون إنهم لم يحصلوا قط على أيِّ دليل على وجودهم. طيب جدًّا. إذ ذاك فإن السيدة بلافاتسكي تجيب بهذا البديل: إذا كانت قد ابتدعتْهم فقد ابتدعتْ أيضًا فلسفتهم والمعرفة العملية التي حازت عليها ثلة صغيرة؛ فإذا كان الأمر على هذا النحو، فما أهمية وجودهم أو عدمه، مادامت هي بنفسها هنا، ووجودُها هي، على كلِّ حال، أمرٌ يكاد أن يتعذر إنكارُه؟! وإذا كانت المعرفة التي يُظَنُّ بأنهم قد أفْضَوا بها معرفة صالحة في صميمها ويقبلها بما هي كذلك أشخاصٌ عديدون ذوو فطنة تفوق حدَّ الوسط، فما مبرِّر مثل هذا العجيج حول تلك المسألة؟ إن كونها محتالة *لم يبرهَن عليه قط*، وسيبقى دومًا قيد النظر؛ في حين أنه من الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره أن الفلسفة التي ينادي بها "المعلِّمون"، أيًّا كان مبتدعُها، فلسفةٌ من أسمى الفلسفات وأشرفها حين تُفهَم حقَّ فهمها. بهذا يشيد المفترون، إذ تتلاعب بهم أدنى الأحاسيس وأخسُّها، – أحاسيس الكراهية والثأر والكيد والكبرياء الجريح أو الطموح الخائب، – من حيث لا يدرون على الإطلاق، أعظم الإشادة بقدراتها الفكرية. فليكن الأمر كذلك مادام يحلو للحمقى المساكين. فليس للسيدة بلافاتسكي، في الحقيقة، أدنى اعتراض على إظهار أعدائها لها بمظهر ناطس *مثلث*، و"مهاتما" علاوة على ذلك. إن إباؤها وحده أن تتظاهر أمام نفسها بمظهر القاق يتبختر في ريش طاووس هو الذي يحملها حتى اليوم على الإصرار على الحقيقة.

السائل: فإذا كان لديكم رجال بهذه الحكمة وهذا الصَّلاح لتوجيه الجمعية، كيف اتفق لهذا العدد من الأخطاء أن يُرتكَب؟

الثيوصوفي: السادة *لا* يوجِّهون الجمعية، ولا المؤسِّسين حتى؛ وما من أحد زعم أنهم يفعلون: إنهم يتعهَّدونها برعايتهم ويحمونها فقط. والبرهان الساطع على ذلك هو أنه لا الأخطاء تمكنَّتْ حتى الآن من كسر شوكتها، ولا الفضائح من الداخل، ولا أشد الهجمات من الخارج ضراوة استطاعت أن تطيح بها. فالسادة ينظرون إلى المستقبل، لا إلى الحاضر، وكل خطأ إنْ هو، بالمقدار نفسه، إلا حكمة مختزَنة للأيام الآتية. وذلك "السيد" الآخر الذي أرسل أحد عبيده بالخمس وزنات لم يقلْ له كيف يضاعفها، ولا منع العبد الأحمق من دفن وزنته الواحدة في الأرض. [237] على كلٍّ أن يحصِّل الحكمة بتجربته الخاصة وفضائله. أما الكنائس المسيحية التي تدَّعي لنفسها "سيدًا" أرفع بما لا يقاس – الروح القدس نفسه – فقد كانت ولا تزال مذنبة، لا بارتكابها "أخطاء" وحسب، بل بارتكابها سلسلة من الجرائم الدموية عبر العصور. ومع ذلك، فلا أظن مسيحيًّا ينكر، من جراء ذلك، إيمانه بـ*ذاك* "السيد"، على الرغم من أن وجوده أكثر *ظنية* من وجود المهاتماوات، على اعتبار أنه ما من أحد شاهد الروح القدس،

237 - إشارة إلى مثل الوزنات في إنجيل متى 25: 14-30. (م)

وأن تاريخ الكنيسة، فوق ذلك، يكذِّب *توجيهَه* لها تكذيبًا صريحًا. *كل ابن آدم خطَّاء*[238]. فلنعد الآن إلى موضوعنا.

تسفيه الأسماء والكلمات المقدَّسة

السائل: فما سمعته، إذن، من أن العديد من كتَّابكم الثيوصوفيين يزعمون بأن هؤلاء السادة قد ألهموهم، وبأنهم رأوهم وكالموهم، ليس صحيحًا؟

الثيوصوفي: قد يكون صحيحًا وقد لا يكون. من أين لي أن أجزم؟ إن عبء إثبات ذلك يقع على عاتقهم. من البيِّن أن بعضهم، بل عدد قليل – ثلة صغيرة بالفعل – إما *كذبوا* وإما عانوا من الهلوسة حين تبجحوا بحدوث مثل هذا الإلهام؛ غير أن غيرهم ألهمهم حقًّا نطاسيون كبار. من ثمارها تُعرَف الشجرة؛ وكما أن الحكم على جميع الثيوصوفيين يجب أن يكون على أفعالهم، لا على ما يكتبون أو يقولون، كذلك على جميع الكتب الثيوصوفية أن تُقبَل بحسب مزاياها، وليس وفقًا لأيِّ ادِّعاء بالمرجعية تطرحه.

السائل: أفهل تقبل السيدة بلافاتسكي أن ينطبق هذا المقياس على مؤلَّفاتها؟ – على *العقيدة السرية*، على سبيل المثال.

الثيوصوفي: قطعًا. فهي تقول في صريح العبارة في **التوطئة** إنها تطرح العقائد التي لقنَّها إياها السادة، لكنها لا تدَّعي إلهامًا قط تدخَّل فيما كتبتْ مؤخرًا. أما فيما يتعلَّق بخيرة الثيوصوفيين بيننا، فهم أيضًا يفضِّلون في هذه الحالة بكثير لو أن أسماء السادة لم تقترن أبدًا بكُتُبنا بأية صورة من الصور. وعلى الرغم من وجود بضعة استثناءات، فإن غالبية هذه المؤلَّفات المماثلة ليست ناقصة وحسب، بل مغلوطةٌ يقينًا ومضلِّلة. فعظيمة هي الانتهاكات التي لحقتْ بحرمة اسمي اثنين من السادة؛ إذ يكاد ألا يوجد وسيط لم يزعم أنه أبصرهما، وما من جمعية "باطنية" مزيفة، هدفها الاحتيال لأغراض تجارية، إلا وباتت تزعم الآن أنها تمتثل لإرشاد وتوجيه "سادة"، كثيرًا ما يُفترَض فيهم أن يكونوا أعلى مقامًا من سادتنا! عديدة وباهظة هي خطايا أولئك الذين تقدَّموا بمثل هذه المزاعم، دافعُهم إلى ذلك إما الرغبة في السُّحْت، وإما الغرور، وإما الوساطة غير المسؤولة. كم من الأشخاص نهبتْ أموالَهم جمعياتٌ كهذه، تطرح للبيع أسرار النفوذ والمعرفة والحقائق الروحية مقابل ذهب رخيص. وأسوأ ما في الأمر هو أن الأسماء المقدسة للغيبيات وللأوصياء القدوسين عليها قد جُرَّتْ إلى هذا الوحل القذر، ودُنِّسَتْ باقترانها بالدوافع المنحطة والممارسات المُنكَرة، في حين أن آلاف البشر قد حيل بينهم وبين درب الحقيقة والنور بسبب الخزي وسوء السمعة اللذين جَلَبَهما مثل هذا التدليس والغش والاحتيال على الموضوع برمَّته. أقول ثانية إن كلَّ ثيوصوفي جادٍّ آسفٌ اليوم، من صميم قلبه، على أن هذه الأسماء والأمور المقدسة قد ذُكِرَتْ علنًا

238 - باللاتينية في النص: *Errare humanum est*. (م)

أمام الجهور، ويرجو مخلصًا لو أنها أُبْقِيَتْ سرًّا ضمن حلقة صغيرة من الأصدقاء الخُلَّص المركون إليهم.

السائل: قطعًا إن الأسماء مرارًا جدًّا ما تَرِدُ في أيامنا هذه، ولا أذكر أبدًا أنني سمعت بأشخاص كـ"السادة" حتى عهد قريب.

الثيوصوفي: هو كذلك. ولو أننا عملنا بمبدأ الصمت الحكيم بدلاً من الإسراع إلى الجهر بكلِّ ما عَلِمْنا وإلى نشره، لما كان لمثل هذا الانتهاك أن يحدث. لاحظْ أنه منذ أربعة عشر عامًا فقط، قبل أن تتأسَّس الجمعية الثيوصوفية، كان الحديث كلُّه يجري عن "الأرواح": لقد كانوا في كلِّ مكان، ويجري ذكرُهم على ألسنة الجميع؛ ما كان لأحدهم أبدًا أن يحلم حتى بالحديث عن "نطساء" أو "مهاتماوات" أو "سادة" أحياء. وكان المرء يكاد ألا يسمع حتى باسم جمعية وردة الصليب[239]، في حين أن وجود شيء كـ"الغيبيات" لم يكن ليخطر إلا على بال قلة قليلة وحسب. أما الآن فقد تبدَّلت الحال. لقد كنَّا، نحن الثيوصوفيين، لسوء الطالع، أول مَن تكلَّم على هذه الأمور، وعرَّفوا بوجود "نطساء" و"سادة" ومعرفة غيبية في الشرق؛ لكن الاسم صار الآن مشاعًا بين الجميع. وعلينا نحن يقع الآن *كرما* ذلك – عواقب الانتهاك الناجم عما سَبَقَ لحرمة الأسماء والأشياء المقدسة. وكل ما تجده الآن حول مسائل كهذه في المؤلَّفات السارية – وهي ليست بالقليلة – لفي الوسع اقتفاءُ أثره رجوعًا إلى الحافز الذي أعطتْه الجمعية الثيوصوفية ومؤسِّسوها في هذا الاتجاه. إن أعداءنا يستغلون غلطنا حتى الساعة. وهكذا فإن أحدث الكتب الموجَّهة ضد تعاليمنا يُزعَم أن *ناطسًا صاحب عشرين سنة في العراقة* قد كَتَبَه. لكن الأمر هنا لا يعدو كونه *كذبة ملموسة*. فنحن نعرف الناسخ و*ملهميه* (ذلك أنه أجهل من أن يستطيع كتابةً من هذا القبيل). وهؤلاء "الملهِمون" أشخاص أحياء، عاكفون على الثأر، وبمقدار ما يتمتعون به من قدرات فكرية لا يتورعون عن شيء؛ وهؤلاء النطساء *المزيفون* ليسوا واحدًا، بل عدة. وحلقة "النطساء" التي استُخدِمَتْ كمرزبَّة لتكسير الرؤوس الثيوصوفية قد بدأت منذ اثنتي عشرة سنة، مع ظهور "لويس" السيدة إمَّا هاردنغ برتِّن الوارد ذكرُه في *سحر الفن*[240] و*أرض الأشباح*[241] وهي تنتهي الآن مع "ناطس" و"مؤلِّف" *نور مصر*[242]، وهو كتاب وضعه أرواحيون ليحاربوا به الثيوصوفيا وتعاليمها. لكن من غير المجدي النواح على ما تمَّ، وليس لنا إلا أن نتألم، على رجاء أن يكون عدم تكتمنا قد

---

239 - أخوية "وردة الصليب" حركة سرانية، أعلنت عن نفسها في ألمانيا عبر ثلاثة كتب؛ مؤسِّسها الأسطوري المفترَض هو كريستيان روزنْكرويتْس (القرن الخامس عشر) الذي تلقى مُسارَرته العليا في الشرق، في دمشق حصرًا؛ استلهمتْ تعاليمَها عدةُ جمعيات، ما يزال بعضها موجودًا إلى اليوم – وإن كنَّا نشك أن تكون ذات صلة روحية بالمؤسِّسين الذين انتقلوا جميعًا إلى الشرق، على حدِّ ما يرى رونيه غينون. في نهاية القرن التاسع عشر، حاول السار بِلادان في فرنسا أن يعيد إحياء جمعية بهذا الاسم، مخلصة للأرثوذكسية الكاثوليكية، كان يأمل أن يكون بها إحياء الفن والفلسفة. (م)

240 - E.H. Britten, *Art Magic: or Mundane, Sub-Mundane and Super-Mundane Spiritism*, New York, 1876.

241 - E.H. Britten, *Ghost-Land: or Researches Into the Mysteries of Occultism*, Boston, 1976.

242 - T.H. Burgoyne, *The Light of Egypt: or the Science of the Souls and the Stars*, Religio-Philosophical Publ. House, Chicago, 1889.

هوَّن قليلاً على الآخرين شقَّ طريقهم إلى هؤلاء السادة الذين يُجأَر الآن بأسمائهم عبثًا في كلِّ مكان، ويُقترَف تحت جناحهم الكثيرُ الكثير من البغي.

السائل: أتأبون على "لويس" أن يكون ناطسًا؟

الثيوصوفي: نحن لا نشهِّر بأحد، تاركين الاضطلاع بهذه المهمة النبيلة لأعدائنا. قد تكون مؤلِّفة *سحر الفن* الأرواحية، إلخ، تعرَّفتْ إلى ناطس كهذا وقد لا تكون – وبقولي هذا أقول أقل بكثير مما قالتْه تلك السيدة وكتبتْه عنَّا وعن الثيوصوفيا إبان السنين الأخيرة – فهذا شأنها وحدها. غير أنه حين يبصر "ناطس"، في غريندج، إنكلترا، على حدِّ زعمه، في مشهد رؤيا صوفية مهيب، "أرواحًا" عبر تلسكوب اللورد روس الذي نُصِبَ في بارسونزتاون، إيرلندا، ولم يتحرك من هناك أبدًا .[243] فليُسمَح لي بالتعجب من جهل ذلك "الناطس" في أمور العلم! فهذا يفوق جميع الأغلاط والهفوات التي ارتكبها أحيانًا مريدو معلِّمينا! وهذا "الناطس" هو الذي يُستخدَم الآن لتحطيم تعاليم سادتنا!

السائل: أفهم تمامًا شعوركم حيال هذه المسألة، ولا أظنه إلا طبيعيًّا. أما الآن، وبالنظر إلى ما قلت لي وشرحت، فهناك موضوع أخير يطيب لي أن أسالك حوله بضعة أسئلة.

الثيوصوفي: إذا كان في وسعي أن أجيب عنها فسأفعل. فما هو؟

***

"خاتمة"

243 - راجع: *أرض الأشباح*، الجزء الأول، ص 133 وما بعدها.

مستقبل الجمعية الثيوصوفية

السائل: قُلْ لي: ما هي توقعاتك للثيوصوفيا في المستقبل؟

الثيوصوفي: إذا كنت تتكلَّم على **الثيوصوفيا**، أجبْك بأنها، كما وُجِدَتْ منذ الأزل، عبر أدوار غير منتهية تلو أدوار في الماضي، كذلك سوف توجد أبدًا عبر آباد المستقبل – ذلك لأن الثيوصوفيا مرادفة في المعنى لل**حقيقة الأبدية**.

السائل: عفوك! فقد قصدت أن أسألك بالحري عن طوالع الجمعية الثيوصوفية.

الثيوصوفي: مستقبلها سوف يتوقف بالكلِّية تقريبًا على درجة الإيثار والجد والإخلاص، وأخيرًا وليس آخرًا، على مقدار المعرفة والحكمة التي سيتحلَّى بها أولئك الأعضاءُ الذين سوف تقع على عاتقهم مواصلةُ العمل وتوجيه الجمعية بعد موت المؤسِّسين.

السائل: أفهم تمامًا أهمية كونهم غير أنانيين ومخلصين، غير أني لا أستوعب تمامًا كيف يمكن لـ*معرفتهم* أن تكون عاملاً في المسألة يماثل في حيويته حيوية الخصلتين الأخريين. جزمًا إن الأدبيات المتوفرة حاليًّا، والتي يضاف إليها المزيدُ في استمرار، باتت كافية!

الثيوصوفي: لست أشير إلى المعرفة *الفنية* بالعقيدة الباطنية، على أهميتها البالغة؛ تكلَّمت بالأحرى على الحاجة التي سيكون خلفاؤنا في توجيه الجمعية في أمسِّها إلى المحاكمة الواضحة والمجرَّدة من الهوى. لقد باءت جميعُ المحاولات المماثلة للجمعية الثيوصوفية حتى بالإخفاق لأنها، عاجلاً أم آجلاً، تدنَّتْ حتى صارت نُحْلاتٍ، اتخذت معتقدات خاصة بها لا تحيد عنها، ففقدت بذلك شيئًا فشيئًا تلك الحيوية التي وحدها الحقيقة الحية تستطيع أن تمنحها. عليك أن تتذكر أن جميع أعضائنا نشأوا وترعرعوا في كنف مذهب أو دين ما، وأنهم جميعًا، إلى حدٍّ ما، أبناءُ جيلهم، إنْ من حيث البدن أو من حيث الذهنية، ومحاكمتهم، بالتالي، شديدة الميل إلى التحامُل، من حيث لا تدري، من جراء بعض هذا المؤثرات أو كلِّها. فإذا لم يتمكَّنوا، إذن، من التحرر من مثل هذا التحيز الذي طُبِعوا عليه، أو يتعلَّموا على الأقل تمييزه آنيًّا، وبالتالي، تجنُّب الانقياد له، فإن النتيجة ستكون، لا محالة، جنوح الجمعية على مَضْحَل ما من الفكر، تلبث فيه جثةً هامدة مقضيًّا عليها أن تتهافت وتموت.

السائل: فكيف إذا دُفِعَ هذا الخطر؟

الثيوصوفي: إذ ذاك فإن الجمعية ستبقى حية حتى القرن العشرين وتجتازه. وكالخميرة، سوف تتخلَّل شيئًا فشيئًا الجمهورَ العريض من الناس المفكِّرين والعقلاء بأفكارها السَّمْحة النبيلة عن الدين والواجب والبرِّ بالإنسان. ولسوف تحطِّم في بطء – لكنْ حتمًا – أصفاد المذاهب والعقائد المتحجِّرة، وأمراس التعصب الاجتماعي والفئوي؛ ولسوف تقوِّض كلَّ ألوان الصدود والحواجز

العِرقية والقومية، وتمهِّد السبيل للتحقيق العملي لأخوَّة البشر قاطبة. وبفضل تعاليمها، وبفضل الفلسفة التي جعلتْها في متناوَل فهم العقل الحديث وإدراكه، سيتعلَّم الغرب فهم الشرق وتقديره حقَّ قدره. وعلاوة على ذلك، فإن تنامي القدرات والملَكات النفسانية، التي باتت إرهاصاتُها ظاهرةً للعيان في أمريكا، سيجري جريانًا صحيًّا وطبيعيًّا. وستنجو البشرية من الأخطار المروِّعة، الذهنية منها والبدنية، التي يحتِّمها حدوثُ ذلك التفتح، كما ينذر الآن، في كنف الأثرة والأهواء الشريرة كافة. وسيمضي النمو الذهني والنفساني للإنسان متناغمًا مع نموِّه الخُلُقي، بينما يعكس محيطُه المادي السلامَ وصدق النوايا الأخوي اللذين سيسودان في ذهنه، بدلاً من الشقاق والنزاع اللذين نراهما في كلِّ مكان من حولنا اليوم.

السائل: أبهِج بها من لوحة! ولكن قُلْ لي: أتتوقع حقًّا أن يُنجَزَ هذا كله في قرن قصير واحد؟

الثيوصوفي: هيهات! لكن يجدر بي أن أخبرك أنه في الربع الأخير من كلِّ مئة عام، يقوم هؤلاء "السادة" الذين تكلَّمتُ عليهم بمحاولة لمساعدة البشرية في تقدمها الروحي، على نحو محدَّد وصريح. فقبيل اختتام كلِّ قرن ستجد، على منوال واحد، أن فيضًا أو انتفاضة في الروحانية – أو سمِّها صوفية إذا شئت – قد حدثتْ. ففي تلك الآونة، يظهر شخص واحد أو أكثر في العالم بوصفهم مندوبين عن السادة، ويُكشَف عن قدرٍ يزيد أو ينقص من المعرفة والتعليم الغيبيين. فإذا اهتممتَ لأن تقوم بالرجوع، قرنًا تلو قرن، إلى أبعد ما تصل إليه سجلاتُنا التاريخية المفصَّلة، لأمكن لك اقتفاءُ أثر هذه الحركات فيها.

السائل: ولكن بأية صلة يمتُّ هذا إلى مستقبل الجمعية الثيوصوفية؟

الثيوصوفي: إذا أصابت المحاولةُ الحالية، ممثَّلةً بالجمعية الثيوصوفية، من النجاح أكثر من سابقاتها، فإنها ستستمر كجسم، منظَّم وحيٍّ ومعافى، حتى يحين أوانُ محاولة القرن العشرين. وستكون الحالة العامة لأذهان البشر وقلوبهم قد تحسَّنتْ وتطهَّرتْ بفضل انتشار تعاليمها، وكما أسلفتْ، سيكون تعصبُهم وأوهامُهم العقائدية قد أُزيلَتْ، إلى حدٍّ ما على الأقل. لا بل وبالإضافة إلى أدبيات وفيرة مفهومة وفي متناوَل أيدي البشر، ستجد النبضةُ المقبلة جماعة عديدة ومتحدة من الناس مستعدة لاستقبال حامل مشعل الحقيقة الجديد. وسيجد عقولَ البشر مهيأةً لرسالته، ولغةً متاحة له تصلح وعاءً للحقائق الجديدة التي سيأتي بها، ومنظمةً تنتظر مجيئه، وتزيل من دربه العوائق والصعوبات ذات الطبيعة الآلية والمادية المحضة. تصوَّرْ ما يمكن لشخص يُعطى مثل هذه الفرصة أن ينجزه. قِسْ على ذلك بالمقارنة مع ما حققتْه الجمعية الثيوصوفية *فعلاً* في السنوات الأربعة عشر الأخيرة، من غير أيٍّ من هذه المزايا ووسط حشود من العراقيل التي لن تعيق القائد الجديد. ضَعْ هذا كلَّه في الاعتبار، ثم قُلْ لي إن كنتُ مغاليًا في التفاؤل حين أقول إن الجمعية الثيوصوفية، إذا بقيت على قيد الحياة وظلَّتْ مخلصةً لأداء رسالتها

ولنبضاتها الأصلية خلال السنوات المئة القادمة – قُلْ لي، بربِّك، إن كنت أشتط في جزمي أن الأرض ستكون فردوسًا في القرن الواحد والعشرين بالمقارنة مع ما هي عليه الآن!

انتهى

***

ملحق أول [244]

الجمعية الثيوصوفية

معلومات للسائلين

تشكَّلتْ الجمعية الثيوصوفية في نيويورك في السابع عشر من تشرين الثاني من العام 1875. ولقد كان مؤسِّسوها على يقين من أن المصلحة الفُضلى لكلٍّ من الدين والعلم سوف تترقَّى بإحياء النصوص السنسكريتية والبالِّية والزِّندية وغيرها من النصوص القديمة التي أودع فيها الحكماءُ والمُسارَرون في متناول الإنسانية حقائق ذات قيمة سامية تتعلق بالإنسان وبالطبيعة. لقد بدا لهم أن جمعية ذات طابع لامذهبي بإطلاق، يواصل عملَها عن ودٍّ المثقفون من العروق جميعًا، في روح من الإخلاص المتفاني بحثًا عن الحقيقة، بغية نشرها من غير تحيز، من شأنها أن تنهض بالكثير لزعزعة المادية وتعزيز الروح الدينية المتداعية. إن أبسط تعبير عن أهداف الجمعية يتمثَّل فيما يلي [245]:

أولاً: تشكيل نواة للأخوة الإنسانية العالمية، من دون تمييز بين عرق، أو مذهب، أو جنس، أو طائفة، أو لون.

---

244 - هذا الملحق والذي يليه منشوران في طبعة لندن الأصلية، 1889. (م)
245 - تم تعديل هذه الأهداف تعديلاً طفيفًا في العام 1896، حتى أصبحت على ما هي اليوم. (م)

ثانيًا: تشجيع دراسة الآداب الشرقية (من آرية وغيرها) والأديان والعلوم.

ثالثًا: الهدف الثالث – لا يسعى إليه إلا قسم من أعضاء الجمعية وحسب – هو استقصاء القوانين الطبيعية غير المفسَّرة والقدرات النفسانية للإنسان.

لا يُسأل شخصٌ لدى انضمامه عن آرائه الدينية، كما لا يُسمَح بالتدخل فيها، لكنَّ كل امرئ مطالَب، قبل قبوله عضوًا، بأن يَعِدَ بإظهار التسامح عينه الذي يطالب به لنفسه في هذا الصدد حيال رفاقه الأعضاء.

مقر رئاسة الجمعية والمكاتب والطاقم الإداري في أديار، من ضواحي مَدْراس [تشيناي حاليًّا]، حيث تملك الجمعية عقارًا مساحته سبعة وعشرون فدانًا [246] وأبنية واسعة، يضم أحدُها المكتبة الشرقية، بالإضافة إلى قاعة واسعة تنعقد فيها الهيئةُ العامة سنويًّا في السابع والعشرين من كانون الأول.

ليست الجمعية وقفًا بعدُ، إلا أن هناك نواة لصندوق، سيحوَّل استثمارُ دخلِه الوارد إلى تسديد نفقاتها الجارية؛ أما هذه فقد تمَّتْ تغطيتُها حتى الآن من ريع رسوم الانتساب والهبات ورسم الاشتراك السنوي الضئيل عن كلِّ عضو. إلا أن الأنظمة المعدَّلة في العام 1989 تجعل الجمعية تقوم على أساس من المساهمات الطوعية، وبذلك تصير متَّكلة في إعالتها كلَّ الاتكال على سخاء أعضائها وغيرهم، نظرًا لإلغاء رسوم الانتساب والمستحقات السنوية. لا تُدفَع أجورٌ لأيٍّ كان، والعمل كلُّه ينهض على سواعد متطوعين، يحصلون على البسيط من الطعام والضروري من الكساء، حين تتطلب ظروفُهم الخاصة مخصَّصات كهذه.

القوَّام الرسمي على أملاك الجمعية بأسرها هو رئيسها الحالي؛ فعلى التركات والمواريث الموصى بها أن تكون *باسمه حصرًا*، بحسب الصياغة القانونية المعمول بها في الدولة التي ينفِّذ فيها الموصي وصيَّته. فإذا تُرِكَتْ الوصيةُ للجمعية اسميًّا، فإنها تُعَدُّ لاغية في نظر القانون. العنوان الكامل للرئيس هو: هنري ستيل أولكوت، أديار، مَدْراس، الهند.

الجمعية، بما هي تنظيم، تجتنب السياسة وسائر الموضوعات الواقعة خارج نطاق عملها المعلَن. وتحرِّم أنظمتُها على الأعضاء تحريمًا شديدًا كلَّ تهاون في حيادها المتشدد في هذه المسائل.

لقد تشكَّلتْ شُعَبٌ عديدة للجمعية في مناطق مختلفة من العالم، وهناك دومًا شُعَبٌ جديدة في طريقها إلى الانتظام. وتقوم كل شعبة بوضع أنظمتها الفرعية وتدير شؤونها المحلِّية من دون تدخل من الرئاسة العامة، على ألا تنتهك الأنظمةَ الأساسية للجمعية. والشُّعَب الواقعة ضمن حدود إقليمية معينة (مثل أمريكا والجزر البريطانية وسيلان إلخ، على سبيل المثال) جُمِعَتْ لأغراض إدارية في فروع إقليمية. للاطلاع على التفاصيل، راجع الأنظمة المعدَّلة للعام 1889، لتجد أيضًا جميع المعلومات الضرورية فيما يخص الانضمام إلى الجمعية، إلخ.

لقد تأسَّستْ حتى تاريخه (1889) 173 شعبة للجمعية. وللاطلاع على التفاصيل، راجع أنظمة الجمعية الثيوصوفية، إلخ، التي تُطلَب من أمين سجلات الجمعية الثيوصوفية، أديار، مَدْراس، أو من الأمينين العامين لفرعَي إنكلترا: الدكتور أ. كتلي، 7 شارع ديوك، أدلفي، لندن؛ وأمريكا: وليم ك. دجَدْج، ص.ب. 2659، نيويورك.

***

246 - أي ما يساوي 11 هكتارًا. (م)

ملحق ثانٍ

الوضع القانوني للجمعية الثيوصوفية

التقرير الرسمي الآتي، الذي صَدَرَ بموجبه مرسومٌ بتأسيس جمعية سانت لويس الثيوصوفية، [247] يُعتبَر وثيقة هامة بما هو شهادة مدوَّنة لرأي محكمة أمريكية في الجمعية الثيوصوفية بعد استجوابٍ دقيق لشهود تحت اليمين القانونية.

أولاً: الجهة الملتمسة ليست تنظيمًا دينيًّا. وإني لأبلِّغ عن هذه الملاحظة السلبية بسبب من أن كلمة "ثيوصوفية" في اسم الجهة الملتمسة قد توحي بملابسة دينية ما. إذ إن العبارة التشريعية "جمعية مشكَّلة لأهداف دينية" لا تنطبق، في ظنِّي، إلا على منظمة تتشكل جزئيًّا للعبادة – باعتبار هذه فعلاً فرديًّا يتضمن التعبد، وربما القدرة العاطفية، وكلاهما بالضرورة فعل فردي؛ – وإلا فعلى منظمة مشكَّلة لنشر لإيمان ديني. أما مجرد تدريس دين ما كما يدرِّس المرءُ الجبرَ، فليس، برأيي، نشاطًا دينيًّا بالمعنى الذي تظهر فيه كلمةُ "ديني" في التشريعات والدستور. في وسع رجل أن يشغل كرسيًّا جامعيًّا كأستاذ للأديان ويدرِّس بصفته هذه عقائد أديان عديدة. وبما أن هذه الأديان المختلفة على خلاف واحدها مع الأخرى ومتناوئة، فإن الأستاذ لا يستطيع قطعًا أن يمارس العبادة وفقًا لها جميعًا؛ لا بل إنه قد يكون غير متدين. من هنا فإن مجرد تدريس الأديان ليس نشاطًا دينيًّا بالمعنى التشريعي. جدير بالذكر أنه في المادة الثانية من دستور الجمعية تظهر كلمة "دين" بصيغة الجمع. إن تدريس الأديان عمل تعليمي وليس دينيًّا. "تشجيع دراسة الأديان" هو جزئيًّا تشجيع دراسة تاريخ الإنسان. وأضيف إلى ما ذُكِرَ ملاحظةً ملحقة به أنه ليس للجمعية مذهب ديني ولا تمارس أية عبادة. **ثانيًا:** تقترح الجهةُ الملتمسة تشجيع دراسة الآداب والعلوم. وهذان الهدفان منصوص عليهما صراحة في التشريعات. **ثالثًا:** هناك هدف ملازم للسابق يتمثل في "استقصاء القوانين الطبيعية غير المفسَّرة والطاقات النفسانية للإنسان". إن هاتين العبارتين، مأخوذتين في معناهما الظاهر، لا اعتراض عليهما. لكن ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأنهما تتبطَّنان عن معنى غير المعنى الظاهر. وأود لَفْتَ انتباه المحكمة إلى المعنى المتعارَف عليه لكلمة "ثيوصوفيا". فعلى الرغم من أنني جاهل بالثيوصوفيا أعتقد أنه يفترَض فيها أن تشتمل، من بين أمور أخرى، على تجلِّيات وظواهر، جسمانية ونفسانية، خارقة للقوانين التي بات يعرفها الآن الفيزيائيون والميتافيزيائيون، وربما غير مفسَّرة أو لا يدَّعي تفسيرَها أو فهمَها حتى الثيوصوفيون أنفسهم. وضمن هذه المجموعة من الممكن ذكرُ الأرواحية، المِسْمِرية، جلاء الرؤية [248] الشفاء الذهني، قراءة الأفكار، وما شابه. ولقد استمعت إلى شهادات حول هذه المسألة، ووجدت أنه في حين أن الاعتقاد بأيِّ ضرب من ضروب التجلِّيات والظواهر هذه ليس مطلوبًا، وفي حين أن لكلِّ عضو من أعضاء الجمعية

---

247 - المقصود شعبة سانت لويس، ميسوري. (م)

248 - القدرة على كشف المغيَّب. (م)

كلَّ الحرية في الاحتفاظ برأيه الخاص، فإن مثل هذه المسائل تشكِّل مع ذلك مباحث للتقصِّي والمناقشة؛ وأغلب الظن أن جمهور الأعضاء يؤمنون فرديًّا بالظواهر الشاذة وبالقدرات فوق البشرية بقدر ما هو في حدود معرفة العلم. إن مما لا ريب فيه أن من حقِّ أيِّ مواطن أن يأخذ بما يحلو له من آراء حول هذه الموضوعات، ويسعى كما يشاء لاستقصاء ما هو غير مفسَّر والكشف عما هو كامن. لكن المسألة هنا هي الآتية: هل ستمنح المحكمةُ رخصةً لتيسير مسعًى كهذا؟ الفودووية [249] كلمة تنطبق على ممارسات أناسٍ ماكرين، بين الجهلة والمتطيِّرين، يُنزِلون تدليسهم بأناس سُذَّج بين الجهلة والمتطيِّرين. ما من محكمة تمنح رخصة للترويج لممارسات كهذه. على المحكمة أيضًا أن تتريث لتحقُّق في شأن ممارسات المؤسَّسة التي تلتمس تأييد القضاء، وربما في حسن سمعتها. ولست هاهنا في صدد إجراء مقارنة بين الفودووية وبين هذه الفئة من الظواهر التي سأدعوها، لموافقة الغرض، بالغيبيات (مع أني لا أدري إن كنت مصيبًا في ذلك). إنما اتخذت الفودووية باعتبارها حالة متطرفة لأبيِّن أن على المحكمة أن تحقِّق. فإذا حقَّقنا الآن في الغيبيات سنجد أنها استُعمِلَتْ في بعض المناسبات، كما تبلَّغنا، لأغراض الاحتيال. لكن هذا لا ينال من سِمَتِها الجوهرية. فدائمًا، وفي كلِّ مكان، سيسيء أناسٌ سيئون استعمالَ أيِّ شيء لأغراض أنانية. إن هدف هذه الجمعية، سواء يمكن بلوغه أو لا يمكن، لَهَدفٌ حميد، ما في ذلك ريب، على افتراض أنه توجد ظواهر جسمانية ونفسانية غير مفسَّرة، وأن الثيوصوفيا ترمي إلى تفسيرها. وعلى افتراض أنه توجد قدرات بشرية لا تزال كامنة فإنها تلتمس اكتشافها. قد يكون أن سخافات وتدليسات قد تسربتْ في الواقع إلى الطور الأول لنشأتها. أما فيما يتعلق بفهمِ كفهم الغيبيات التي تجزم بوجود قدرات يُعتقَد عمومًا بأنها فوق بشرية، وظواهر يُعتقَد عمومًا بأنها فوق طبيعية، فقد لاح لي أن على المحكمة – مع أنها لن تضطلع بتحديد قضائي لمسألة صحَّتها، قبل أن تمنح الغيبية رخصةً – أن تحقِّق في أمر كونها على الأقل قد فازت بمنزلة طيبة في حُسْنِ سمعتها أو في كون المنتسبين إليها مجرد أناس ذوي ذكاء محدود، وفكر ضحل، وتصديق ساذج لكلِّ شيء. وطبقًا لذلك، استمعت إلى شهادات حول هذه النقطة، وتوصَّلت إلى أن عددًا من السادة الأشراف، ذوي المنزلة الرفيعة في العلم، في أقطار أوروبية مختلفة، وفي هذه البلاد أيضًا، هم من المؤمنين بالغيبيات. فالسير إدوارد بَلْور ليتون – وهو كاتب ذو علم واسع ومتنوِّع، وصاحب فكر راجح – كان، على حدِّ ما يؤكِّد، عالمًا بالغيبيات؛ وهو تأكيد يؤيده اثنان من كتبه على الأقل. أما المرحوم الرئيس وِيْلاند، من جامعة براون، فقد كتب عن العمليات الذهنية الشاذة، كما تتبدى في جلاء الرؤية، قائلاً: "يبدو الموضوع لي حقيقًا كلَّ الأحقية بالفحص الأشد تمحيصًا وإنصافًا. إنه ليس حَرِيًّا من أيِّ وجه من الوجه بالهزء، بل يتطلب انتباه أشد البحوث فلسفيةً." أما السير وليم هاملتون ولعله أذكى – وقطعًا أعلم – الميتافيزيائيين الإنكليز قاطبة، فقد قال منذ ثلاثين سنة على الأقل: "مهما كان الأمر يدعو إلى العجب، فقد ثبت الآن، بما لا يدع مجالاً لأيِّ شكٍّ عقلاني، أن الإدراكات في حالات معينة شاذة من حالات المنظومة العصبية ممكنة عبر قنوات غير القنوات العادية للحواس." حَسْبُ الثيوصوفيا هذه الشهادات لكي تتبوأ على الأقل منزلةً محترمة. أما إذا كان في مستطاعها، عبر المزيد من العمل، أن تجعل الحقائق الجزئية حقائق تامة، وفي مقدورها أن تزيل الغلوَّ وتطهِّر نفسَها من الشوائب، إنْ وُجِدَتْ، فأغلب الظن أن هذه مسائل لن تشعر المحكمة بنفسها مدعوةً للبتِّ فيها. لست أرى جانبًا آخر في دستور الجهة الملتمسة مستهجَنة في نظر القانون؛ وعلى ذلك، فلي الشرف أن أبلِّغ بأنني لا أرى سببًا يوجِب عدم تلبية طلب الملتمسين.

أوغست و. ألكزاندر

خبير محلَّف منتدَب من المحاكم

249 - voodooism: معتقدات وممارسات سحرية، تستخدمها بعض الشعوب بصفة دينية، ولاسيما في هاييتي. (م)